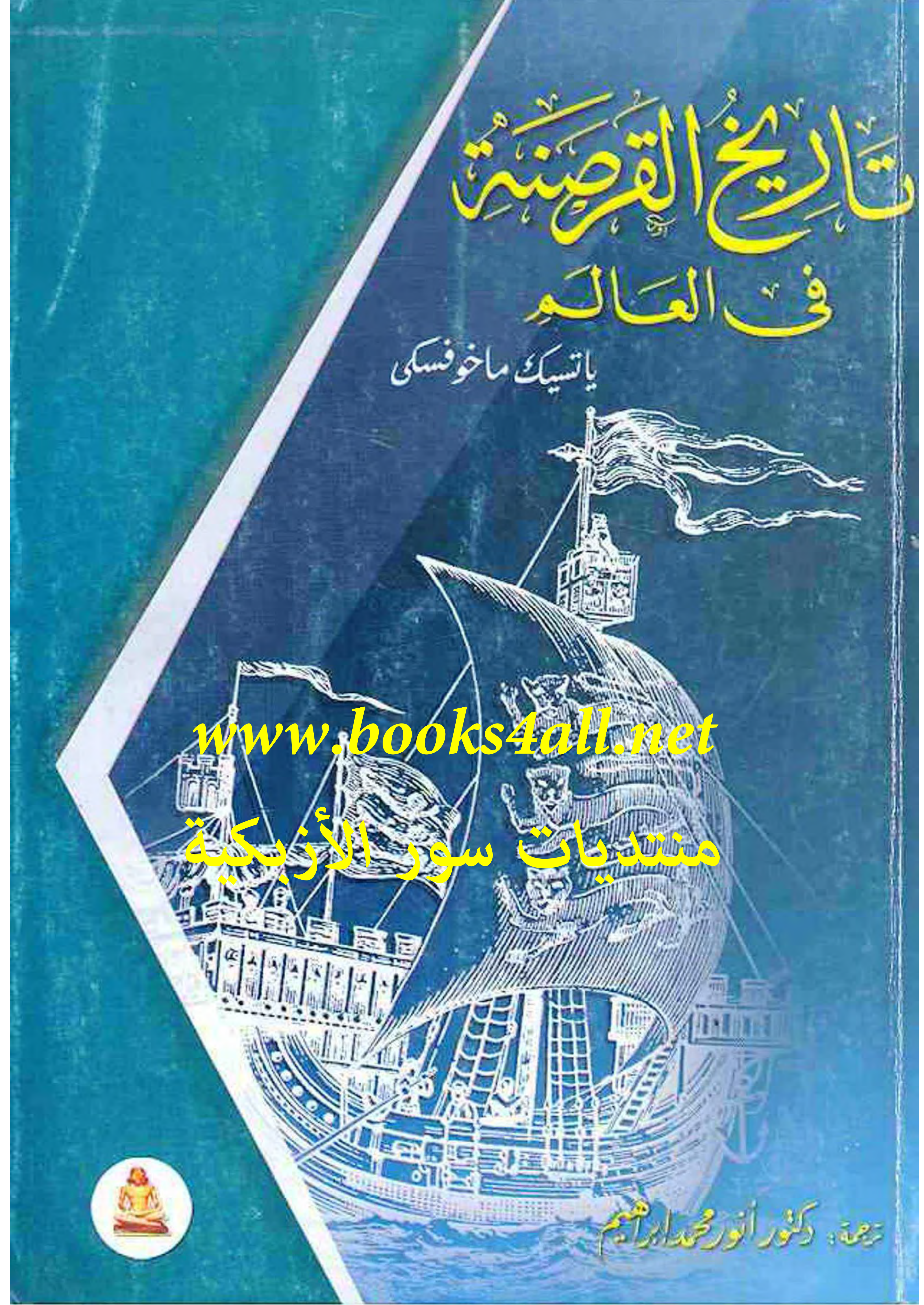

تاريخ القرصنة
في العالم
ياتسيك ماخوفسكي
ترجمة: دكتور أنور محمد ابراهيم

# تاريخ القرصنة
# في العالم

ماخوسكر ، باتيسك
تاريخ القـــرصنة فى العـــالم / باتيـــسك ماخوسكر .ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨.
٣٤٨ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٣٠١ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القرصنة
٢ ـ القراصنة
( أ ) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥٨٧/ ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 301 - 5
ديوى ٣٦٤,١٦٤






ياتسيك ماخوفسكى

ترجمة: دكتور أنور محمد ابراهيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

الإخــراج الــفــنــى

مادليـن أيـوب فـرج

# مقدمة الطبعة الروسية

أليس أمرًا غريبًا ألا تصدر باللغة الروسية منذ أمد بعيد أية مؤلفات حول تاريخ القرصنة البحرية؟! صحيح أن تاريخ القرصنة البحرية ـ هذا ما قد يبدو لنا من الوهلة الأولى ـ معروف لنا جميعًا من خلال عدد كبير من الكتب واسعة الانتشار، ذائعة الصيت، على أن كل هذه الكتب تقريبًا ليست سوى روايات وقصص وأشعار بايرون، وفولتير، وسكوت، وفينيمور كوبر، وماين ريد، وستيفنسون، والكابتن مارييت، أما المؤلفات العلمية المتخصصة أو العلمية المبسطة فلم يكن لدينا منها شيء؛ لا من تأليفنا، ولا من ترجمتنا، على الرغم من أن تاريخ القرصنة ـ بلا أدنى شك ـ أمر مشوق، لا فى حد ذاته فحسب، بل لأنه يساعدنا، فضلاً عن هذا، فى فهم نشأة العديد من الدول التى ترك النهب البحرى بصمات واضحة على ماضيها ـ فهمًا أفضل.

ربما لم تكن القرصنة فوق هذا مجرد تاريخ أغلقت صفحاته. بل هى كما يبدو واقع حى تمامًا على الرغم مما ورد ذكره فى موسوعة «بروكهاوس وإفرون» الصادرة فى القرن الماضى فى المقال المعنون ««النهب البحرى أو القرصنة» والذى ترد فى سطوره الأولى الكلمات التالية: «وهى ليست موجودة تقريبًا فى الوقت الحالى». إن تكرار حوادث خطف الطائرات والسفن بصورة حادة فى أيامنا هذه، يعد من جانب كثير من الناس بمثابة بعث للقرصنة مما دفع بالحكومات والمنظمات الدولية للنظر من جديد فى مسألة مكافحة القرصنة، واتخاذ الإجراءات بشأنها.

فى هذا الكتاب يحاول ياتسيك ماخوفسكى الكاتب الصحفى البولندى الشهير أن يطرح تصورًا لكل المراحل الرئيسية للقرصنة. هنا يمتد زمن الأحداث من العالم القديم وحتى عصرنا الحديث، أما مسرح هذه الأحداث فهو كوكبنا بأسره، كل البحار حيث كان أسطول القراصنة، على حد قول كيبلنج: «هنا وهناك يرسل بالتحية إلى السفن التى يلتقى بها».

إن الإحاطة الكاملة بأحداث هذا الموضوع أمر يبدو مستحيلاً. لقد كانت للقرصنة بطبيعة الحال سماتها المميزة فى شتى العصور وفى شتى البلاد. وهيهات أن يتسنى لنا فهم هذه الظاهرة ذاتها فهمًا تامًا ما لم نقم بدراسة مفصلة لهذه العصور وهذه البلاد؛ ناهيك عن أن المرء ما أن يقرر أن يأخذ على عاتقه أمر دراسة تاريخ القرصنة حتى يصطدم على الفور بمشكلة النقص الحاد فى الوثائق، وعلى رأسها التى يستند فيها إلى القراصنة أنفسهم. فكتابة السير الذاتية والمذكرات لم تكن من أشكال النشاط المحببة لديهم، كما أن رسم مظهر هؤلاء الناس وتخيل حياة مجتمع القراصنة أمر كثيرًا ما تكتنفه الصعوبات. ولهذا فإن البحوث الجادة ـ وحتى بخصوص فترات محددة فى القرصنة فى إطار علم تاريخ العالم ـ شحيحة، أما كتابة التاريخ العلمى الحقيقى للقرصنة عبر كل العصور فهو عمل معقد للغاية ويصعب على فرد واحد القيام به مهما كان مسلحًا بمعارف موسوعية.

على أية حال فمن البديهى أن ماخوفسكى لم يضع نصب عينيه هذه المهمة. لقد قام على نحو مفعم بالحيوية بحكاية أوضح حكايات هذا التاريخ بل ووضع بعض صفحاته فى قالب روائى.

ستمر أمام القارئ أسماء: هنرى مورجان، ملك قراصنة وست إنديا. وهو النموذج الأصلى للكابتن بلاد فى رواية رفاييل ساباتينى الشهيرة، وجون إفرى الذى كرس له دانيال ديفو ـ مؤلف رواية «روبنسون كروزو» ـ اثنين من كتبه، الأول فى الأدب الاجتماعى واتخذ له عنوانًا «ملك القراصنة أو تقرير عن المآثر المجيدة للكابتن إفرى، الذى ادعى لنفسه لقب امبراطور مدغشقر فى خطابيه اللذين

كتبهما بنفسه» والثانى روايته «حياة الكابتن سينجلتون العظيم ومغامراته»؛ إلى جانب الشخصيات الرائعة الأخرى لعالم القرصنة الذى جرى تأسيسه فى جزيرة مدغشقر وعلى رأسه جيمس بلانتين «ملك» رانتر - باى (هكذا كانوا يسمونه على اسم الخليج الذى كان يفرض عليه سلطانه؛ وعرُّوج وخير الدين وقد اشتهرا باسم باربا روسا الأول وباربا روسا الثانى حكام ما كان يسمى بدولة القراصنة البربر التى قامت فى الجزائر على مدى عدة قرون وحتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر أى حتى سقوط سيطرة الباب العالى العثمانى.

حوى عالم القرصنة أناسًا من شتى الأجناس: أوروبيين، عرب، صينيين، ومن الملايو، وإندونيسيا. هؤلاء الناس وتلك الأحداث، التى ستتعرف عليها أيها القارئ بفضل كتاب ماخوفسكى، ستساعدك فى رؤية جوانب مختلفة تمامًا للقرصنة؛ وكذلك فى اكتشاف جذورها الاجتماعية والنفسية إلى حد ما. وهو للأسف أقل الجوانب دراسة، وإن كان من أكثرها أهمية. إن معاصرى الأحداث ومن تلاهم من مؤرخين لم يولوا دور القرصنة كشكل من أشكال الاحتجاج الاجتماعى سوى أقل القليل من اهتمامهم.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن إطلاقًا تبرير مهنة القرصنة أو تصورها فى قالب مثالى ككل؛ إلا أنه لا يمكن فى الوقت ذاته أن ننكر أنها كانت فى بعض الأحيان شكلاً من أشكال الاحتجاج: خروجًا من مجتمع قائم على الظلم، مجتمع تنظمه علاقات تعسفية، وتتحكم فيه بشكل صارم مؤسسات جائرة.

وقد كانت القرصنة فى أحيان أخرى مرتبطة أيضًا لا بمجرد كونها احتجاجًا اجتماعيًا؛ وإنما بالسعى لتحقيق نظام اجتماعى جديد، وفقًا لأفضل مُثُل ذلك الزمن.

لعل أوضح مثال على هذا هى جمهورية ليبرتاريا، دولة الحرية التى أقامها القراصنة فى نهاية القرن السابع عشر فى شمال مدغشقر، هناك حيث تقع الآن مدينة دييجو سواريز. أسس هذه الدولة النبيل البروفنسالى ميسون والدومينيكانى الإيطالى كاراتشيولى وقد التقيا وتوطدت بينهما أواصر الصداقة

فى وطن تومازو كامبانيلا الذى كان هو الآخر من مواطنى الدومينيكان واشتهر بأفكاره الاشتراكية فضلاً عن إسهامه فى حركة التحرير الشعبية فى جنوب إيطاليا. رأى كارتشيولى - شأنه فى هذا شأن ديكارت وعدد آخر من فلاسفة المذهب العقلانى آنذاك - أن الله، سبحانه وتعالى، بعد أن خلق البشر توقف عن التدخل فى شئونهم اليومية؛ وعلى هذا فإن القوانين التى وضعوها هى التى تسود المجتمع البشرى؛ وليست قوانين الله العلى القدير. أى أن من الممكن، بل ومن الواجب، التمرد على هذه القوانين. وهكذا أعلن ميسون وكاراتشيولى الحرب على الأوضاع التى هى من صنع البشر مثل: النظام الملكى، وعدم المساواة بين الناس، وغيرها من الأمور الأكثر خصوصية مثل قوانين الإعدام على سبيل المثال. على أن أوروبا لم تكن بها آنذاك قوة تستطيع الوقوف ضد أعمدة نظام الدولة. عندئذ لم يكن أمام الفلاسفة الشبان الذين قرروا تغيير النظم القائمة سوى التوجه لتلقى العون من القراصنة.

ترى ما الذى دفع هؤلاء الناس إلى الاستعانة بالقراصنة بالذات؟ لقد كانت هناك أسباب عديدة وهامة للغاية بمقياس هذا الزمان.

لقد تسنى للقراصنة أن يرفضوا مبادئ العصر وتقاليده التى بدت آنذاك راكدة بعيدة عن كل تغيير، كما تسنى لهم أن يسقطوا تلك الغمامة التى أصبح أفق الناس بسببها ضيقًا محدودًا، استطاع القراصنة المطاريد النازحون من مختلف شرائح طبقات المجتمع أن يروا الحواجز التى فرضتها الأعراف الاجتماعية؛ فقد كان من بينهم أناس متعلمون وآخرون من حثالة المجتمع، ضباط ملكيون وبحارة وموظفون عملوا فيما مضى فى إدارة الأسطول البحرى، ولصوص نكرة تواءموا جميعًا على ظهر سفينة واحدة. بذلك تحقق الالتحام الوثيق وسط هؤلاء الفرسان الذين انحصرت مهمتهم فى أخذ كل سفينة غصبًا، ولعله لم توجد فى تلك العصور جماعة تقاربت فيما بينها بمثل هذه القوة مثل طاقم سفينة القراصنة. إن النجاح المشترك هنا، بل والحياة ذاتها، كانا وفقًا على شجاعة وانضباط كل فرد من أفراد هذه الجماعة. ولهذا فقد كان على كل من يدخل فى

عداد أى عصابة كبيرة مثل هذه أن يوقع على ميثاقها ولو بمجرد رسم صليب، وفى الوقت نفسه يقوم بتقبيل الكتاب المقدس. أما المساواة وحرية التعبير عن الآراء فكانت تمثل المبادئ الأساسية لهذا التنظيم؛ فالقبطان لا يملك اختيار الطريق الذى ستسلكه السفينة أو يحدد هدف الإغارة إلا بالموافقة الجماعية. أما الأسلاب والغنائم فقد كان يتم تقسيمها وفقًا لنظام صارم تم إقراره.

ليس من قبيل الصدفة إذن أن نال القراصنة إعجاب العديد من أفضل أبناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. كتب ڤولتير أكبر فلاسفة القرن الثامن عشر مقالاً للموسوعة الفرنسية فى مادة «القراصنة» جاء فيه «لم يكد الجيل السابق يقص علينا العجائب التى تمت على أيدى هؤلاء القراصنة حتى أخذنا فى الحديث عنهم دون انقطاع، لقد مسُّوا لدينا وترًا حساسًا... ولو أنهم استطاعوا أن تكون لديهم سياسة تقف على قدم المساواة وجسارتهم الجبارة، إذن لأقاموا امبراطورية عظمى فى أمريكا... لا الرومان، لا غيرهم من الشعوب التى قامت بأعمال النهب، استطاعوا أن يحققوا مثل هذه الفتوحات المدهشة»[1].

يحدثنا ماخوفسكى بالتفصيل عن أفكار ميسون وكاراتشيولى وعن جمهورية ليبرتاليا التى أسسوها معًا ويورد نص الخطاب الرائع بالنسبة لتلك العصور والذى توجه فيه لرجاله عندما استولوا على سفينة تحمل عبيدًا عند الشواطئ الإفريقية بقوله «هاكم مثال عن القوانين والأعراف المخزية التى نحاربها. إن هؤلاء اللصوص الذين يتعيشون على تجارة الرقيق لا يملكون روحًا ولا قلبًا. إنهم يستحقون العذاب المقيم فى نار جهنم! إننا ننادى بالعدالة للبشر دون استثناء: ولهذا فإننى أعلن وفقًا لأفكارنا أن هؤلاء الأفارقة أحرار، وأدعوكم جميعًا يا إخوتى أن تعلموهم لغتنا وديننا وعاداتنا وفنوننا البحرية حتى يستطيعوا أن يكسبوا قوتهم من عمل شريف ويدافعوا عن حقوقهم الإنسانية» (ص ١٦٩).

شاعت الأخبار عن ليبرتاريا بفضل مذكرات ميسون الذى شارك فى إقامتها والتى أفصحت، بلغة معاصرة، عن رئيسها؛ فقد تم نشر مخطوطة ميسون بعد ربع قرن من وفاته، وتم طبعها فى واحد من أوائل الكتب التى تناولت تاريخ

القرصنة تحت اسم «التاريخ العام للنهب والقتل الذى قام به أشهر القراصنة وكذلك طباعهم ونظامهم وقيادتهم منذ بداية القرصنة وظهورهم فى جزيرة العناية الإلهية وحتى الآن». ظهر هذا الكتاب بهذا العنوان فى لندن فى العشرينيات من القرن الثامن عشر ووقع عليه مؤلفه باسم تشارلز جونسون. تحوى المخطوطة الصغيرة التى تركها ميسون الكثير من الأمور الغامضة وحتى اسم مؤلفها ليس سوى اسم من وحى الخيال، فقد أخفى صاحب المخطوطة اسمه الحقيقى. على أن مضمون اليوميات ذو أهمية كبيرة إلى حد أن الاهتمام بها لم ينقطع حتى فى عصرنا الحالى. لقد اهتم أهالى مدغشقر بدولة الحرية التى قامت يومًا ما على أرضهم. ففى مايو ١٩٧٠ نشرت «لو كوريه دى مدغشقر» أكبر صحف مدغشقر موادًا تحت عنوان «ليبرتاريا... عندما تأسست فى دييجو سواريز جمهورية اشتراكية وشيوعية»[٢]. كما كتب أندريه شيك العالم المجرى الكبير والشخصية الاجتماعية المعروفة والحاصل على جائزة لينين العالمية، كتب كثيرًا عن ليبرتاريا فى كتابة «تاريخ إفريقيا السوداء». كما لاقت دولة الحرية هذه أكبر اهتمام فى كتب العالم الفرنسى الشهير أوبير دوشان «قراصنة مدغشقر» و «القراصنة واللصوص». كتب دوشان يقول: «لقد نجح القرصان المنبوذ من العالم أن يقيم لبعض الوقت على هذا الشاطئ المفقود لتلك البلدة المتوحشة جمهورية أممية، هذه العشيرة التى تجمع بين مختلف الأجناس والشعوب، هذا الخليط من مختلف القوميات، هذه الإرهاصة لمجتمع المستقبل...» إن المناقشات التى دارت فى ليبرتاريا يعتبرها دوشان جديرة «بعمالقة عام ١٧٩٣»[٣].

خرجت مذاكرت ميسون إلى النور للمرة الأولى على صفحات كتاب تشارلز جونسون وترجمت بعد ظهورها بمائتين وخمسين عامًا إلى البولندية[٤]. وقد اطلع ماخوفسكى على مذكرات ميسون واعتمد عليها فى مقالاته (وإن كان قد تحدث لسبب ما فى بعضها بلهجة لا تخلو من سخرية عن أفكار الدومينيكانى كاراتشيولى دونما مبرر يذكر).

لا يمكن بالطبع اعتبار مجتمع مثل الذى فى ليبرتاريا نموذجًا لتاريخ القرصنة. على أن ميسون وأتباعه لم يكونوا الوحيدين آنذاك الذين اعتنقوا أفكارًا تعد تقدمية تمامًا بالنسبة لعصرهم. انظر كيف عبَّر القرصان الشهير الكابتن بيلامى عن أفكار رفاقه بقوله: «إننا لا نخضع للقوانين... لقد وضعت للأغنياء لكى يسرقوا تحت حمايتها الفقراء... إننا نسرق الأغنياء تحمينا شجاعتنا فقط»(٥).

لقد تقرر إقامة أول حكومة على الأرض فى دولة الحرية حيث لم تكن هناك أية فوارق طبقية أو عرقية فضلاً عن عدم وجود أية فوارق بسبب القومية. لقد أعلن ميسون لرفاقه بعد أن استولى على سفينة تجارة الرقيق الهولندية وتحرير الزنوج الأسرى على ظهرها أن «هؤلاء الناس يختلفون بالطبع عن الأوروبيين بلون بشرتهم وعاداتهم وطقوسهم الدينية ولكنهم لا يقلون عنا أهمية كمخلوقات قادرة لأنهم وهُبوا العقل مثلما وُهبْناه»(٦). من الصعب أن نجزم ما إذا كانت وجهة النظر هذه قد قيلت على هذا النحو من الدقة، والوضوح؛ وهل تم التعبير عنها فى مجتمعات قرصنة أخرى. لكن الزمن احتفظ لنا بشهادات دامغة تقطع بوجود علاقات طيبة نشأت بين قراصنة حوض الكاريبى والهنود الأمريكيين فى القرن السابع عشر. كان هؤلاء الهنود يعتبرون أن القراصنة هم مُخلِّصون من ظلم المحتلين الإسبان. يذكر شاهد عيان: «أن القراصنة كانت تربطهم بهنود ذلك الزمان علاقات صداقة حميمة إلى حد أنه كان بإمكانهم الحياة بينهم دون أدنى اكتراث. وكثيرًا ما كان الهنود يذهبون مع القراصنة فى رحلات بحرية ويبقون معهم من عام إلى ثلاثة أعوام بل وأربعة أعوام دون أن يتحدثوا الفرنسية والإنجليزية، وكذلك كان الحال بين عدد من البحارة الذين كانوا يتحدثون لغة الهنود بطلاقة»(٧).

لقد ألهمت أفضل صفات القراصنة على وجه التحديد العديد من الأدباء فيما بعد، وتم وضع هذه الصفات فى قوالب شعرية، كانت رومانسية صعاليك بحار الدنيا قد نفذت من زمن بعيد إلى بلادنا بالرغم من أن روسيا لم تكن لها

إطلاقًا أية جزر تحدها الصخور؛ كما لم يكن لها أوكار للقراصنة فى الخلجان الاستوائية السرية، وقد تمت فى القرن الماضى ترجمة «اللصوص» التى كتبها بايرون إلى الروسية، وكتب الشاعر تيموفييف، صاحب أغنية «لم يجر تعميدنا فى الكنيسة»، فى عام ١٨٣٥ قصيدته «القراصنة». وظهر فى الشعر الروسى أيضًا «القراصنة الذين أخفوا الذهب فى ميناء سرى». ثم ذاعت بعد ذلك أغنية «روجر المرح» وتبعتها أغنيات تتحدث عن سفن القراصنة ذات الصوارى متعددة الأشرعة فى البحار البعيدة كأعمال أدبية خالصة تجسد حب الحرية والشجاعة والطرق المجهولة والبلاد النائية والخروج من ملل الحياة اليومية حتى أصبحت هذه الأغنيات قاسمًا مشتركًا مع الأغانى التى اعتاد الرحالة أن ينشدوها حول النار. إن الكتب ذات الطابع الرومانسى المقروءة فى الطفولة، والتى تبدو كما لو كانت غير مرتبطة بحياتنا، اتضح أنها من الأمور الحيوية لدى الشباب. ولا نضيف جديدًا بالطبع إذا قلنا بأن هذا شىء لا اعتراض عليه؛ بالرغم من أن أصحاب الوجوه الصارمة والذين يفتقدون روح الدعابة يسعون إلى اجتثاث أعمال مثل «قراصنة البحر الأزرق البعيد». يذكر الموسيقار نيكيتا بوجوسلوفسكى والشاعر ميخائيل لفوفسكى صديق الشاعر باڤل كوجان مؤلف أغنية «الكرة الأرضية تدور وتدور» أنهما تعرضا للتعنيف الشديد بسبب حكاية «القبطان ذو الوجه الخشن كالصخور». طبعًا، لقد اعتبرت أعمالهما ابتعادًا عن الواقع المألوف إلى الطرائف المشكوك فيها، إلى عوالم ستيڤنسون، وجوميلوف وجرينوفشن، إلى الرائحة الكريهة لـ «جون الأسمر» وأغانى إيزا كرامر(٨).

لم يسئ ماخوفسكى استخدام التداعيات مع الأدب الروائى والأفلام السينمائية والمسرحيات معتبرًا، وهو على حق فى هذا، أن القرصنة موضوع قائم بذاته. إنه يحدثنا هنا عن وقائع تاريخ القرصنة ذاتها.

إنه لأمر طبيعى أن نجد ما نلوم عليه مؤلف الكتاب إذ لم يتوخَّ الدقة دائمًا فى عرض الحقائق، والأمر الذى لا مراء فيه أن تجنب الخطأ فى مجال مثل هذا لا حدود له تاريخيًا وجغرافيًا أمر مستحيل تمامًا، خاصة وأن كتابة مقالات عن

القرصنة فى آسيا وإفريقيا كان أمرًا شاقًا بالنسبة للمؤلف، وليس من قبيل الصدفة أن «التاريخ العام للقرصنة» منذ كتاب تشارلز جونسون لم يكن يُعْنى إلا بالقراصنة الأوربيين.

إن المعلومات المتوافرة عن قراصنة الشرق وإفريقيا معلومات شحيحة بصفة خاصة. أما تلك الأعمال القليلة التى ظهرت على أية حال حتى فى عصرنا الحالى، والتى كان من الممكن لماخوفسكى أن يستقى منها، فقد كانت تكتب بشكل أساسى فى أوروبا، وهى أعمال تحوى أسماء أشخاص وأماكن وهمية وكذلك اصطلاحات خاصة باللغات الأفروآسيوية.

إن الاستفادة من منجزات المؤرخين المختصين فى كل العصور والأماكن المذكورة فى الكتاب هو أمر فوق طاقةشخص واحد بالطبع. ها هو ماخوفسكى ينسب ظهور النورمانديين فى إنجلترا إلى عام ٧٨٩ بالرغم من أن المؤرخين الآن يحددون ظهورهم بعام ٧٩٣ كما يحدد عام ١٣٣٢ كنهاية لأسرة يوان الصينية (بدلاً من عام ١٣٦٨). من الصعب أيضًا الموافقة على تفسيره لمعنى كلمة «ڤايكنج»[٩] وكذلك مع توصيفه للفروق والسمات المشتركة بين قراصنة القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين استغلوا إنجلترا وفرنسا فى حربهما ضد إسبانيا على المستعمرات (Flibustiers) وبين قراصنة القرن السابع عشر فى جزر وست إنديا الذين كانوا يهاجمون المستعمرات الإسبانية فى أمريكا، وكذلك السفن التجارية الإسبانية وغيرها (Boucaniers) إلى جانب بعض تقديراته الأخرى، كذلك التعميم فى بعض الحوادث الفردية التى يمكن مقابلتها على صفحات الكتاب.

إن انتقاء المادة التى قام عليها هذا الكتاب يمكن أيضًا أن تكون موضع جدل، فمن جانب هناك أحداث ووقائع وأناس من المستبعد أنْ تكون لهم علاقة بالقراصنة. هل من الممكن مثلاً اعتبار أخيل وغيره من أبطال طروادة قراصنة؟ لقد كانت أعمالهم بالأحرى شكلاً من أشكال الحروب الداخلية، بل إن التجارة البحرية فى عمومها كانت آنذاك مرتبطة أشد الارتباط بالسلب والنهب الأمر الذى يجعل أمر فصل القرصنة عن القراصنة، على نحو ما، من الأمور الصعبة.

من جانب آخر فإن الكتاب لم يتعرض لكثير من الأمور التى كان طرحها أمرًا بديهيًا فلم تنل أعمال أشهر القراصنة فرانسيس دريك[١٠] وجورج كليفورد والأخير حصل على «وسام الرباط» وهو أعلى مكافأة ملكية فى بلاده، لم يحدثنا ماخوفسكى أيضًا عن أسلاف هؤلاء القراصنة المسمون «سادة كورنول»[١١]. يمكن تفسير ذلك بداهة بحجم الكتاب المحدد بالرغم من أن المؤلف لم يأل جهدًا فى إفساح صفحات كثيرة لأمور ذات طابع تفصيلى.

لم يعتمد المؤلف - فيما اعتمد - على المعلومات التسجيلية التى وردت فى الكتاب الهام عن قراصنة حوض الكاريبى الذى تُرجم، حسب اعتقادى، إلى كل اللغات الأوروبية وأعيد طبعه مرارًا وتكرارًا عبر ثلاثمائة عام منذ صدوره للمرة الأولى تحت هذا العنوان المميز لتلك الأزمنة: «قراصنة أمريكا، القصص التفصيلية الصحيحة لكل عمليات النهب والشراسة الوحشية التى ارتكبها اللصوص الإنجليز والفرنسيون ضد سكان أمريكا من الإسبان - فى ثلاثة فصول: يحكى الفصل الأول قصة وصول الفرنسيين إلى جزيرة إسبانيولا[١٢] وعن طبيعة هذه الجزيرة وسكانها ونمط معيشتهم، ويحكى الفصل الثانى عن ظهور القراصنة وعن نظمهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض وعن مختلف الحملات التى قادوها ضد الإسبان، ويحكى الفصل الثالث قصة إحراق مدينة بنما على يد القراصنة الإنجليز والفرنسيين وكذلك عن الحملات التى لم يشترك فيها المؤلف. وللكتاب ملحق عبارة عن وصف موجز للممتلكات الأمريكية للملك الإسبانى كارل الثانى وما تدره من عوائد وكذلك نظم إدارتها. بالإضافة إلى ذلك يقدم الكتاب وصفًا موجزًا لأهم الأماكن التى كانت تحت سلطة المسيحيين. كل هذا كتبه أ. اكسكفيميلن الذى شاءت الأقدار أن يشترك فى كل حملات القرصنة هذه. الكتاب مزود بالرسوم التوضيحية الرائعة والخرائط وصور الأشخاص. صدر فى أمستردام. طبع بمطبعة يان تين هورن عام ١٦٧٨».

على أن الاعتماد على هذا المرجع الفريد قد سقط من كتاب ماخوفسكى إذ أن ما حواه قد ورد فى العديد من البحوث التاريخية. أضف إلى هذا أن قرّاءنا

يعرفونه، ففى عام ١٩٦٨ تم نشره باللغة الروسية (ونجد بعض فقراته واردة فى هذه الطبعة التى بين أيدينا). كما تمت ترجمة الرواية التى اعتمدت أيضًا عليه وهى «قراصنة خليج المكسيك» لمؤلفها ڤينسنتى ريفا بلاسيو المشهور باسم «والتر سكوت المكسيكى»(١٢).

إن الموضوع الذى وقع عليه اختيار ياتسيك ماخوفسكى موضوع مترامى الأطراف إلى الحد الذى يجعل من تسقط أى عيب به أمرًا ميسورًا. فى الأمور الأساسية (لم يلق عرض الجذور الاجتماعية التاريخية للقرصنة الاهتمام الكافى) وفى التفاصيل (فى استخدامه لبعض الاصطلاحات وفى دقة التواريخ). على أنه من الممكن أن نغفر له الكثير بفضل هذا الموضوع الشيق والجهد الفائق الذى بذله ولأنه سعى لأن يقدم تاريخ القرصنة بأكمله مضمنًا هذا التاريخ صفحات من الماضى تكاد تكون مجهولة إلى جانب استكماله بأحداث من واقع حياتنا المعاصرة.

أ.ب. داڤيدسون

## هوامش المقدمة

(١) "Collection complete des oeuvres de Voltaire" , t - 23 (111) Geneve, 1775, Question sur I'encycoloedie par des amateurs, p. 248 - 249.

(٢) "Le Courrier de Madagascar (Tananarive), 20. v. 1970.

(٣) H. Deschamps, Les pirates a Madgascar, p. 80.

(٤) C. John son, Kapitan, Historia najslnniejszych Pirateow, ich Zbrod - niczė Wyc-zyny i rabunki, ira bunki, Warszawa, 1968.

(٥) H. Deschamps, Pirates et flibustiers, p. 21.

(٦) H. Deschamps, Les Pirates a Madagascar, p. 80.

(٧) أ اسيكفيميلن: قراصنة أمريكا، موسكو، ١٩٨٦، ص ٢٠٧ . ٢٠٨ (بالروسية).

(٨) ن. بوجوسلوفسكى، م. لفوفسكى: كلمة عن الأغنية (صحيفة «كومسومولسكايا برافدا» ١٩٦٢/١٠/٢

(٩) أنظر: أ. جوريفيتش؛ حملات الفايكنج، موسكو، ١٩٦٦. (بالروسية).

(١٠) فرانسيس دريك (١٥٤٠ - ١٥٩٦): بحار انجليزى، قائد حملات القرصنة إلى وست إنديا، قام فى الأعوام من ١٥٧٧ إلى ١٥٨٠ برحلة بحرية حول العالم تعد الثانية بعد رحلة ماجلان. فى عام ١٥٨٨ كان تقريبًا هو القائد الفعلى للأسطول الإنجليزى الذى ألحق بالأسطول الإسبانى الشهير «أرمادا الذى لا يقهر» هزيمة ساحقة (المترجم).

(١١) Comall كورنول: شبه جزيرة تقع فى جنوب غرب إنجلترا. (المترجم).

(١٢) إسبانيولا Espnola أحد أسماء جزيرة هايتى إبان الاحتلال (١٤٩٢ ـ ١٨٠٤) الاسم الآخر سانتو دومينجو. (المترجم).

(١٣) ف. ريفا بالاسيو: قراصنة الخليج المكسيكى (مترجم من الإسبانية إلى الروسية) موسكو، ١٩٦٥.

# الفصل الأول

# قراصنة العالم القديم

أشرقت شمس القراصنة من قديم الأزل؛ ويمكن أن نقول بكل شجاعة أنها ظهرت مع ظهور الملاحة البحرية. فى العالم القديم اشتغل بها الفينيقيون أقدم وأفضل من ركب البحر. ثم جاء بعدهم الإغريق، دخلت القرصنة حياة بعض القبائل الإغريقية الصغيرة، بل إنهم عدوها حرفة زفيعة المنزلة. وبمرور الزمن وصلت القرصنة فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القدر الذى أخذت فيه تشكل تهديدًا على أعظم دولة فى العالم القديم آنذاك وهى الامبراطورية الرومانية.

لقد قدم التاريخ والأدب القديمان وصفًا شيقًا وأخاذًا للصراع الذى دار ضد القراصنة الذين كثيرًا ما كانوا سببًا فى تكدير صفو سكان العالم القديم.

## من أوديسيى[1] إلى بومبى

لم يكن أخيل بطل حرب طروادة الذى خلده هومير طروادة الذى خلده هومير سوى قرصانًا؛ على أنهم كانوا ينظرون إلى القرصنة فى ذلك العصر نظرة تختلف تمامًا عن تلك التى ننظر بها إليها الآن. يعترف أخيل فى الإلياذة بأنه احترف القرصنة دونما إحساس بالخجل بل يمكن القول أن اعترافه يشوبه الشىء الكثير من الإحساس بالفخر. وينشد بطل آخر من أبطال هومير وهو أوديسيى فى الفخر بمآثره فى القرصنة أمام الكينوى[2] بقوله:

«حملتنا الريح من مدينة إيلون[3] إلى إيسمار[4] حيث يعيش الكيكونيون[5] فأما المدينة فقد دمرناها وأما السكان فقد

أبدناهم، ولكننا سبينا الزوجات وبعدها شرعنا فى توزيع الكنوز الكثيرة التى نهبناها على مختلف أشكالها بالقسطاس لكى يتسنى لكل أن يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص. لقد كنت مصممًا على الإسراع بالفرار ولقد سمع الجميع الأمر: ولكن المجانين لم يستمعوا إلى نصيحتى المخلصة، فإذا بهم - وهم الذين كانوا يترنحون من السكر - يقيمون على الشاطئ الرملى الولائم؛ فيذبحون أغنامًا كثيرة وثيرانًا ذات قرون معقوفة. وما هى إلا برهة قصيرة حتى ذهب الكيكونيون، الذين أفلتوا من المدينة، إلى حيث تجمعوا هم وجيرانهم من الكيكونيين فى جيش جرار خبير بفنون القتال على ظهور الخيل ولا يقل رجاله شجاعة عن رجالنا فإذا ما دعا الداعى ترجلوا عنها متأهبين للقتال. لقد بدت جحافلهم فجأة فى غزارة أوراق الشجر أو مثل زهور الربيع الأولى، عندئذ بات من الجلى أن كرونيون[٦] قد أعد لنا مصيرًا بائسًا وأهوالاً ومصائب كثيرة. لقد بدأنا المعركة قريبين من بعضنا البعض، وقد ناءت علينا سفنهم السريعة بكلكلها ورحنا نتراشق الرماح ذات الأسنة النحاسية الحادة. كنا متماسكين نصد هجومهم ما بقى الصباح ممتدًا وما استمر النهار صاعدًا، على الرغم من أنهم كانوا يفوقوننا عددًا، ولكن عندما أذن هليوس[٧] بالأفول وحانت ساعة فك عدة الثيران عن كواهلها، اضطر الكيكونيون الآخيون[٨] للفرار بعد أن ألحقوا بهم الهزيمة، هنا فقدت من كل سفينة ستة من المدرعين[٩] الشجعان. أما الباقون فقد كتبت لهم النجاة من الموت ومن القدر. بعد ذلك أبحرنا وقد جللنا حزن عظيم على أحبائنا الذين قضوا نحبهم. وإن كنا فى قرارة أنفسنا فرحين بنجاتنا من الموت، على أننى لم أبتعد بسفنى السريعة عن الشاطئ

إلا بعد أن ناديت على رفاقنا التعساء الذين لقوا حتفهم فى المعركة ثلاث مرات كلاً باسمه، أولئك الذين ظلوا هناك فى باطن الأرض[١٠]».

**وهاكم وصف آخر «لمآثر» وردت فى الأوديسا:**

«شهر بتمامه قضيته مع أطفالى وزوجتى فى منزل الأسرة أنعم بهم وسط ثروتى الكبيرة، ولكن فى نهاية الأمر صارت بى رغبة للنهاب إلى مصر، فبعد أن اخترت الرفاق الشجعان أعددت السفن وكن تسعًا جديدة قد سلحناها جيدًا. وعندما اجتمع الرفاق فى السفينة وهم يفيضون حيوية وخفة، ظللنا نولم الولائم جميعنا لمدة ستة أيام قبيل الرحيل، وقد ذبحت كثيرًا من الثيران والخراف قدمتها قربانًا للآلهة، كما أقمت وليمة فاخرة تكريمًا لرجالى. ولكن لما كان اليوم السابع خرجنا إلى البحر الواسع تاركين كريت[١١] وحملتنا بورييه[١٢] باردة بليلة فى سرعة ورفق، وها نحن نبحر فى خفة ويسر كما لو كنا نسير مع التيار ولم تصب أى من سفننا بعطب. حملتنا السفن عبر البحر موفورى الصحة والنشاط مفعمين بالسرور وكانت الريح والدفة توجهاننا. بعد خمسة أيام وصلنا إلى تيار مصر[١٣] الرائق الرشيق. وصلنا: وفى أحضان هذا التيار رست زوارقنا خفيفة الحركة على الشاطئ. وبعد أن قمت بتثبيتها إليه أمرت خيرة رجالى أن يبقوا هناك عند شاطئ البحر لحراسة السفن، وفى الوقت نفسه أعطيت للآخرين أوامرى بمراقبة المنطقة كلها من ارتفاعات قريبة. وفجأة إذ بالرغبة الجامحة تشتعل بداخلهم فيفقدون عقولهم ويشرعون فى نهب حقول المصريين المسالمين الخصبة ثم يندفعون ليبدأوا

فى خطف الزوجات والأطفال الصغار وقتل الأزواج بصورة وحشية. سرعان ما وصل الإنذار إلى سكان المدينة ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى كان قد وصل إلى المنطقة جيش قوى بعرباته ومشاته وأسلحته النحاسية البراقة، وإذ بالأرض كلها وقد لفها لهيب القتال، أما زيوس[١٤]، الذى كان يلهو مسرورًا بالرعد، فقد دفع رجالى إلى هروب مزر ولم يتمكن أحد منهم من الثبات أمام قوة العدو. وها قد أحاط بنا الموت من كل جانب، لقد قتلت الأسلحة النحاسية الكثير من رفاقى ووقع كثير آخرون فى الأسر، سبقوا غصبًا إلى المدينة ليعملوا هناك عبيدًا بائسين»[١٥].

على أن الذى فاق كل قراصنة العالم القديم ربما كان بوليقراط طاغية جزيرة ساموس (٥٣٧ ـ ٥٢٢ قبل الميلاد). استطاع بوليقراط أن يبنى أسطولاً ضخمًا بمقاييس عصره سيطر به دون منازع على بحر إيجه.

كان بوليقراط طموحًا إلى أبعد الحدود، ماكرًا لا يعرف الرحمة، ذاع صيته من ناحية كراعٍ للفنون والعلوم: جمَّل المدينة بمبان رائعة وجذب إلى بلاطه أبرز الشعراء والمعماريين والفنانين والأطباء، لكنه من ناحية أخرى اكتسب سوء السمعة باعتباره وحشًا ولصًا: فبعد أن استولى على ساموس بمساعدة إخوته؛ شرع على الفور فى قتل أخيه بانتّاجنوت، بينما قام بنفى الآخر سيلوزدن حتى يجمع السلطة كلها فى يديه ولكى يضاعف ثرواته احترف النهب البحرى وفرض إتاوات ضخمة على قباطنة السفن.

جدير بالذكر، وإحقاقًا للحق، إن مثل هذا العمل لم يكن استثناء فى عصر بوليقراط وإنما دخل فى ترسانة الوسائل المطبقة فى كل مكان لإدارة السياسة والتجارة التى كانت القرصنة أحد عناصرها. على أن طاغية ساموس تميز بالطبع عن أقرانه، ومارس القرصنة على مستويات ضخمة إلى الحد الذى دفع ببعض المؤرخين للقول، اعترافًا بأفضاله، بأن بوليقراط هو أعظم قراصنة العالم القديم.

فى عام ٥٢٢ قبل الميلاد لجأ طاغية آخر من فارس يدفعه الخوف من جبروت جزيرة ساموس الآخذ فى التعاظم إلى خيانة بوليقراط غدرًا فى ماجنيسيا[١٦] ثم قام بصلبه. أدى مصرع طاغية ساموس إلى اشتداد أعمال النهب البحرى فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط. كان بوليقراط قويًا إلى حد أن الكثيرين من أتباعه ظلوا لمدة طويلة يمارسون نشاطهم بعيدًا عن مناطق نفوذه. على أنه بعد موته ظهر فى بحر إيجه العديد من اللصوص.

وقد قام أحد حكام جزيرة كريت بإرسال أسطوله بأكمله للقضاء على القرصنة البحرية. كان هذا الحاكم قد مارس هو نفسه القرصنة قدرًا من الزمان على غرار بوليقراط؛ ومن ثم فقد كان يشكل خطرًا على أعدائه: إذ أنه كان على دراية تامة بعادات وحيل القراصنة، ناهيك عن إعداده لأسطول هائل من أجل هذه المهمة. تميز حاكم كريت بالعناد الشديد والشراسة فى القتال.

بعد سنوات طويلة من المعارك الدامية أصبح حاكم كريت الشجاع سيدًا للموقف حتى أن النصر الذى عُقد لواؤه له كان من الاكتمال بحيث تسنى له أن يفرض إرادته على الإغريق وأن يمنع وجود أكثر من خمسة من القادة على ظهر كل سفينة. وقد نجح هذا الاتفاق فى الحيلولة دون تعاظم عمليات القرصنة فى المياه الإغريقية. على أنه ما أن توفى الحاكم المنتصر وأصاب الضعف القدرة العسكرية لجزيرة كريت حتى بُعث النهب البحرى من جديد.

على الرغم من تلك الثقافة الروحية الرفيعة التى كانت لدى الإغريق القدماء؛ فإنهم كانوا نسبيًا فقراء ولم يستطيعوا أن يجمعوا الثروات الضخمة فى بلادهم وذلك على العكس تمامًا من جيرانهم فى البحر وهم الفينيقيون. عمل الفينيقيون بتسويق البضائع على مستويات ضخمة حتى تمكنوا من تحقيق مركزٍ احتكارى فى تجارة الأحجار الكريمة. حملت مراكب تجّارهم الكهرمان من بحر البلطيق والقصدير من إنجلترا وقام هؤلاء التجار بعمليات التبادل التجارى بين شمال إفريقيا وإسبانيا وفرنسا.

كان الفينيقيون من الثراء بحيث لم يكن من المستطاع إلا أن يثيروا مشاعر الغيرة لدى جيرانهم الأقل حظًا؛ الأمر الذى دفع أبناء (إللاذا)[١٧] الذين تميزوا بعلو الهمة وقوة العزيمة إلى الاشتغال بالقرصنة. وهكذا فكلما سار تطور التجارة إلى الأفضل بالنسبة للفينيقيين وازدادت الثروات المنقولة على مراكبهم، اشتدت عملية السطو فى بحر إيجه. وبفضل السخاء الذى كان الفينيقيون يدفعون به الأموال للصوص البحر فى هيئة فدية وتعويضات، ازدهرت القرصنة على نحو غير مباشر فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط: لقد أصبح القراصنة فى واقع الأمر شركاء للفينيقيين فى تجارتهم؛ إذ يحصلون منهم على نسبة محددة مما يحققونه من أرباح. لم يسع الفينيقيون بسبب تركيبتهم العقلية كتجار إلى القضاء على النهب البحرى؛ وإنما ضاعفوا اهتمامهم بزيادة ثرواتهم.

فى عصر برقل أصبح القراصنة من القوة بحيث أنشأوا دويلات لهم كانت الدول الأخرى تعقد معها الاتفاقيات.

لقد أسهم نمو القرصنة فى المياه الإغريقية فى تحسين الظروف الجغرافية (متاهة الجزر والخط المنكسر للشاطئ) فضلاً عن إسهامها فى ارتفاع مستوى فن الملاحة البحرية آنذاك. كان الناس قديمًا يبحرون بالأشرعة نهارًا فقط وبمحاذاة الشواطئ حريصين على ألا تغيب عن أعينهم. وما أن يرخى الليل سدوله حتى يحتموا بواحد من الخلجان العديدة.

فى ذلك الزمان دأب القراصنة على التربص بضحاياهم وسط الجزر الصخرية لبحر إيجه وكذلك فى خلجان شبه جزيرة بيلوبونيسوس جنوب اليونان ليقوموا بالهجوم المباغت عليهم ليلاً. كان القراصنة يعملون النهب والسلب فى المدن الواقعة على السواحل مثلما كان الشايكنج[١٨] يفعلون فى العصور الوسطى. هناك كان باستطاعتهم أن يسرقوا الماشية والأدوات المنزلية ولوازم المعابد والمصنوعات والحلى الثمينة والمشغولات الفضية والذهبية ثم يحملون فى نهاية المطاف النساء والأطفال حيث يباعون بأسعار باهظة فى أسواق الرقيق المنتشرة فى بلدان البحر الأبيض المتوسط. كان تجار الرقيق يفضلون الفتيات ويدفعون

بالفتيات لممارسة أعمال البحر الشاقة. كثيرًا ما كان نجاح الإغارة على السفينة التجارية يتوقف على المصادفة. حيث كان من المحتمل أن تكون شحنتها من أحجار البناء مثلاً أو لب الأخشاب أو الفخار الرخيص وهى بضائع لا تمثل بالنسبة للقرصان قيمة كبرى. بل إن السفينة أحيانًا ما تكون خالية من البضائع بالمرة.

فى الزمن الغابر كان قراصنة البحر الأبيض المتوسط يقومون بغاراتهم وفق خطة محكمة؛ فكانت زوارقهم تقوم خفية تحت جنح الليل بالمرور على الميناء وقد لُفِّت حول مجاديفها أربطة ثم تقوم على مدى بضع ساعات بأعمال تجسس دقيقةيتم بعدها الهجوم المفاجئ على الضحية ثم تعود إلى المراكب. بضع ساعات من السطو المشوب بالتوتر ويعود كل لص شارك فى العملية ليصبح من أصحاب الثراء.

يمكن للمرء اليوم بعد انقضاء آلاف السنين أن يلتقى على أرض اليونان بأطلال المبانى الفريدة ومن بينها تلك القلاع الدفاعية السامقة التى شيدت فوق التلال العالية فى أعماق اليابسة، هاهنا كان سكان الجزر يبحثون عن الهاربين من هجوم القراصنة ومن أعلى هذه الأبراج كانت تتصاعد الإشارات الدخانية تطلب العون من الجيران.

بمرور الزمن كسب الإغريق حلفاء لهم ذوى شأن عظيم. فبعد انقضاء الحرب البونية الثالثة لم تتعرض قرطاجنة الجبارة لأية هزيمة، لقد تحالف الإغريق مع منافسى الأمس من البحارة الفينيقيين المهرة. عندئذ انتشرت حمى القرصنة لتشمل حوض البحر الأبيض المتوسط بأسره بدءًا من هيلسبونت[١٩] وإنتهاء بأعمدة هرقل[٢٠]. كان القراصنة يحاصرون المدن ويدمرون الجزر ويجبرون السكان على دفع الإتاوات. أما الذين كانوا يقعون فى الأسر فهؤلاء لم يكن سراحهم ليطبق من دون فدية باهظة أو يباعون كعبيد. وقد وصلت الجرأة بالقراصنة إلى حد أنهم أقدموا على الهجوم على أوستيا ذاتها[٢١]. مارس القراصنة إبان رسو مراكبهم على الشواطئ قطع الطرق. وقد حدث ذات مرة

أنهم تمكنوا إبان وجودهم بالقرب من أبواب روما نفسها أن يقبضوا على قاضيين من قضاة روما ومعهما مساعديهما[٢٢]. أصبح السفر بحرًا أمرًا محفوفًا بالمخاطر كما أصبحت العمليات التجارية التى يقوم بها الرومان تدر ربحًا أقل. ارتفعت الأسعار فى إيطاليا وبدأ الناس يحاصرون مجلس الشيوخ متهمين إياه بالعجز فى محاربة القرصنة. اضطر مجلس الشيوخ إلى توجيه بعض الحملات ضد القراصنة غير أنها لم تكلل بالنجاح. وصل الأمر إلى حد أن القراصنة استطاعوا فى القرن الأول قبل الميلاد إلى تعويض روما لحصار بحرى، حصار بكل معنى الكلمة.

ياله من وضع شاذ ذلك الذى نتج عن كون الرومان لم يبلغوا حتى ذلك الحين ما بلغه أعداؤهم الإغريق والفينيقيون من مستوى رفيع فى فنون الملاحة البحرية. لقد ترك الرومان مقاليد التجارة البحرية فى أيدى الغرباء الذين استأجروهم من بين أبناء الشعوب التى تم لهم اخضاعها إذ لم تكن لدى الإيطاليين أية تقاليد بحرية. كما أن روما لم يكن بمقدورها بناء أسطول قوى فى زمن قصير، أضف إلى هذا تلك الخلافات الداخلية العميقة التى كانت تتنازعها فى تلك الفترة. لقد أهدرت روما قواها فى الحرب الأهلية التى دارت رحاها بين أنصار مارى من ناحية وأنصار سولا من الناحية الأخرى[٢٣]. وقد عمد لصوص البحر إلى استغلال هذا الضعف لدى الجمهورية الإيطالية حتى بلغ الحصار أشده حين أصبح الثلث فقط من إجمالى كمية الحبوب المستوردة من مصر يصل إلى روما بينما يقع الباقى فى يد القراصنة. وهكذا أصبح شبح المجاعة يحوم فوق سكان العاصمة المتكبرة.

كانت مواقع القرصنة الرئيسية تتمركز آنذاك فى كل من كيليكيا وبامفيلفيا وإيساوريا[٢٤]، كانت كيليكيا الواقعة تحت وصاية القيصر البونتى ميتريدات تمثل أشد أعداء دولة روما لدادة[٢٥]. وقد أخذت حالات السطو المتفرقة تتحول بالتدريج إلى حرب منظمة؛ إذ أن ميتريدات قدم ملجأ للصوص البحر فى موانيه بل وقدم لهم سفنًا ليتمكنوا بها من تحقيق نجاح أكبر فى حربهم ضد روما. هكذا

وجدت روما نفسها وجهًا لوجه أمام خطر الموت، عندئذ أوقفت فى النهاية كل أعمال التنكيل بالداخل ثم شرعت فى النضال الحامى ضد القرصنة.

وفقًا لاقتراح الخطيب الشعبى آفل جابينى جرى تكليف بومبى[٢٦] فى العام السابع والستين قبل الميلاد بمهمة إنزال هزيمة ساحقة بالقراصنة. حمل بومبى مسئولية قيادة القوات فى كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى سواحل يبلغ طولها خمسين ميلاً كما حصل على حق التصرف دون عوائق فى موارد الدولة. كان من الضرورى ألا تخضع الخطط الاستراتيجية التى وضعها القائد الأعلى لأية شكليات قانونية. أصبح لبومبى أسطول مكون من ٥٠٠ سفينة وجيش قوامه ١٢٠ ألف رجل، على أنه وضع فى اعتباره أن مواطنيه لم يتسن لهم بعد امتلاك ناصية فنون الملاحة البحرية إلا أنه فى الوقت نفسه كان واثقًا من المزايا الرفيعة التى تمتلكها قوات روما البرية ولهذا قرر بومبى استعارة فنون الملاحة من البحارة أصحاب الخبرة من أبناء الشعوب الخاضعة لروما؛ وهؤلاء كان عددهم آنذاك غير قليل. لقد بدا أن الاختيار القائم أمام بومبى كبير وهاهو يلجأ إلى تزويد قيادات سفنه ببحارة من الأجانب دون أن يترك لهم فى الوقت نفسه أى سلاح فى أيديهم. وقد ألزم بومبى هؤلاء الأجانب بتعليم المقاتلين الرومان الذين كان من الضرورى أن يحملوا على كاهلهم عبء المعركة.

لقد جاءت حسابات بومبى فى مكانها. لقد أدى اختلاط البحارة من ذوى الخبرة مع أفضل جنود ذلك الزمان إلى خلق قوة جبارة خفيفة الحركة فوق مياه البحر الأبيض المتوسط.

لقد تكللت خطط بومبى الاستراتيجية بالنجاح أيضًا. أدرك بومبى - استراتيجى المستقبل الماهر - أن القضاء على أوكار القرصنة المنتشرة فى كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط أمر يتطلب عشرات السنين فى الوقت الذى طلب منه إنجاز هذه المهمة الضخمة فى مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات. قرر بومبى مهاجمة أكبر مراكز القراصنة جميعًا فى وقت واحد. ولتحقيق هذا الغرض قسَّم بومبى الجزء الغربى للبحر الأبيض المتوسط إلى ثلاثين منطقة وأفرد لكل منها قائدًا

بعد أن وضع تحت إمرته عددًا من السفن. على هذا النحو وجه بومبى عددًا من الضربات إلى سواحل إسبانيا وفرنسا وإفريقيا وصقلية وسردينيا. على أنه أرجأ تصفية الحساب مع أقوى أوكار القراصنة الموجودة فى بحر إيجه وعلى سواحل آسيا الصغرى إلى وقت متأخر. قاد بومبى العمليات بنفسه عند الساحل الإفريقى بعد أن وضع ثقته فى مرءوسيه لقيادة الوحدات الأخرى(٢٧).

فور طرد القراصنة من الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط أعاد بومبى إطلاق أسطوله إلى الجزء الشرقى من البحر حتى لا يعطى لعدوه أية فرصة لالتقاط الأنفاس. انسحب القراصنة وقد أخذ بهم الرعب من جراء هذا البحر الفسيح المكشوف لاجئين للاختباء فى متاهات الجزر والخلجان الطويلة الضيقة وعند مخارجها حيث بنوا استحكاماتهم. هاهى الطرق البحرية وقد أصبحت أخيرًا حرة أمام السفن التى راحت تحمل الحبوب من جديد، وهاهم سكان روما الذين ذاقوا مرارة الجوع وقد باتوا ضامنين وفرة المواد الغذائية. إبان ذلك ترامت إلى أسماع بومبى إشاعات مفادها أن القراصنة قد أصابهم الذعر وبدأت الانقسامات تشق صفوفهم؛ فقرر انتهاز هذه الفرصة ليوجه إليهم ضربته القاضية، فى نفس الوقت لم يفقد بومبى بصيرته النافذة فوعد مقدمًا بالعفو عن كل من يعلن استسلامه دون قتال.

سرعان ما آتت هذه الخطوة ثمارها؛ فلم تجد الفيالق الرومانية مقاومة اللهم سوى فى كيليكيا. وقف ميترّيدات، عدو روما اللدود، وقد أخذت بمجامعة الدهشة والخوف يرقب كيف يتلقى رعاياه الهزيمة تلو الأخرى؛ وكيف تتساقط مراكب القراصنة فى أيدى أعدائه.

ثلاثة أشهر فقط بدلاً من ثلاث سنوات استطاع فيها بومبى أن يتغلب على قراصنة البحر الأبيض المتوسط. كان وقع ثمار هذا الانتصار على الرومان مذهلاً. لقد تم أسر عشرين ألف قرصان عدا عشرة آلاف آخرين لقوا حتفهم فى المعارك. إن هذه الأرقام لتدل دلالة واضحة فى حد ذاتها على مدى ما كان عليه القراصنة من قوة. لقد تم تدمير سفنهم وقواربهم وتم الاستيلاء على موانئ

تجمعهم، كما وقع ٤٠٠ من أفضل السفن فى أيدى الرومان المنتصرين وهو عدد يعادل ضعف عدد السفن التى أغرقت أو أحرقت.

اتخذ بومبى من كيبيليا قاعدة له بعد الانتصار الذى أحرزه وقام بتجربة فائقة الغرابة سعيًا وراء توطيد سلطته: لقد أطلق سراح العديد من القراصنة وأسكنهم أوروبا بعيدًا عن سواحل البحر وعلى وجه الخصوص فى كيليكيا وأخايا[٢٨] اللتين تم تدميرهما، مُقَدمًا لهم بذلك إمكانية العودة إلى الحياة الشريفة. وعلى الرغم من عودة القراصنة بعد حوالى من عشرة إلى خمسة عشر عامًا إلى نشاطهم فى أماكن متفرقة إلا أنهم لم يعودوا أبدًا إلى ما كانوا عليه من قوة ومنعة.

## مغامرة يوليوس قيصر العجيبة

انقضى العام الواحد والثمانون قبل الميلاد. كانت روما فى تلك الفترة تحت حكم الديكتاتور سولا الذى صعد إلى السلطة بعد معركة حامية الوطيس. عاش سولا فى رعب دائم بسبب رغبته فى الحفاظ على تلك السلطة الأمر الذى دفع به إلى ملاحقة أعدائه الحقيقيين منهم والمزعومين بلا رحمة وعلى رأس هؤلاء كان مارى الذى نفاه سولا بعد أن دانت له الأمور خارج روما هو وأنصاره خاصة من تميز من بينهم بالكفاءة والثروة والنفوذ. كان من بين من طردوا شاب له هيئة النبلاء، ينتسب إلى واحدة من عائلات روما الأرستقراطية صاحبة النفوذ الواسع، رأى فيه سولا خطرًا عليه على نحو خاص نظرًا لما كان يتمتع به هذا الشاب من علم وموهبة فائقة، وحب للعمل، وثقافة، ومقدرة غير عادية على جذب الأصدقاء، ناهيك عما لديه من طموح لخلق مستقبل سياسى.

هل يستوجب الأمر إذن الدهشة، كون سولا وضع هذا النبيل الرومانى بالذات على رأس قائمة من قرر نفيهم؟ لم يستسلم هذا الشاب - الذى كان يدعى يوليوس قيصر - لليأس بعدما عرف بقرار الديكتاتور وسرعان ما تأقلم على وضعه الجديد، وكان يرى أن من الواجب ألا يفقد المرء وقته عبثًا فى المنفى ولهذا قرر أن يقوم بدراسة فن الخطابة؛ فالتحق بإحدى أفضل مدارس البلاغة التى

كان يديرها فى جزيرة رودوس آنذاك المحاضر أبولونى المعروق باسم مولون. وهكذا أبحر قيصر تحيطه حاشية تليق بنبيل رومانى متجهًا صوب جزيرة رودوس.

تميز الفتى بين المسافرين وجذب إليه الانتباه بهيئته الأرستقراطية فضلاً عن سلوكه الذى اتسم بالكبرياء؛ فلم يكن يشارك فيما كان يدور حوله من مناقشات. كان صموتًا، منغمسًا فى أفكاره، دائم القراءة. استمرت الرحلة بمحاذاة ساحل شبه جزيرة پيلوپونيسوس دون مغامرات تذكر. على أنه ما أن تجاوزت السفينة جزيرة فارماكوزا الواقعة بالقرب من الشواطئ الصخرية لمنطقة كاريا حتى شوهد من فوق سطحها عدد من القوارب تسير متتبعة السفينة ذات الأشرعة. عندما تيقن قبطان السفينة الرومانية من النظرة الأولى أن أصحاب هذه القوارب من القراصنة؛ أصدر أمره برفع الشراع الاحتياطى، ولكن هذا العمل لم يعد بالفائدة المرجوة. كانت الريح ضعيفة، بينما اندفعت القوارب الخفيفة بسرعة أكبر بكثير من السفينة الرومانية الثقيلة الخرقاء، وكانت المسافة بينهما تزداد ضيقًا مع كل ثانية. أما عن قيصر ـ الذى كان على يقين هو الآخر أن الوقت فيه متسع إلى أن تلحق بهم الزوارق ـ فقد اتخذ مجلسه المعتاد فى سكينة، وانهمك فى القراءة.

عندما أدرك القبطان وضعه البائس؛ أمر بطى الشراع الصغير، ووقف على ظهر سفينته فى انتظار ما سيسفر عنه تطور الأحداث. سرعان ما صعد القراصنة على ظهر السفينة، وعلى الرغم من الاستقبال المسالم الذى قوبلوا به إلا أنهم تصرفوا بكل صلف وغطرسة. تقدم رئيسهم ـ وهكذا كان من الممكن الحكم على منزلته من نبرة صوته الآمرة ـ تقدم من قيصر، الذى لم يقطع قراءته للحظة واحدة، وأخذ فى الدوران حوله. كان من اليسير من مجرد المظهر الخارجى لهذا النبيل تحديد ضخامة الفدية المنتظرة، وأخيرًا اتجه بسؤاله إليه:

ـ من تكون؟

لم ينبس الشاب ببنت شفة، وبعد أن رمق القرصان بنظرة ملؤها الاحتقار، عاد ليواصل قراءته، ولما وجد أحد الركاب أن الموقف يزداد توترًا؛ اقترب من الرئيس قائلاً:

ـ هذا النبيل يدعى يوليوس قيصر، وهو سليل واحدة من أعرق الأسر، وقد نفاه سولا من روما، وهو الآن يتجه إلى رودوس. قاطع القرصان الراكب بحدة قائلاً:

ـ سأستولى على كل ما يمتلكه. إننى لم أقتله فورًا لأن حياته الخاصة لا تهمنى بقدر ما تهمنى الفدية. توجه الرئيس مرة أخرى إلى قيصر وسأله بغضب:

ـ كم ستدفع مقابل حريتك وحرية الآخرين من رفاقك؟ غير أنه لم يتلق ردًا على سؤاله فاستشاط غضبًا وصاح:

ـ ماذا بك؟ هل قطعوا لك لسانك؟ إذا لم يكن الأمر كذلك فأقسم ـ صاح متوعدًا ـ لأقطعه لك بيدى هاته، وعندئذ سترجع عن خصالك الأرستقراطية.

كان القرصان من الطمع بحيث أنه لم يكن يود أن يفقد مبلغ الفدية بسبب غرور ما؛ فأمسك عن هجومه على الرومانى، وأخذ فى التشاور مع رفاقه بشأن التوصل إلى اتفاق حول ثمن إطلاق سراح الأسرى. قال أحدهم: لو كنت مكانك لطلبت عشر طالنتات[٢٩].

فقال الرئيس مقاطعًا: هذا قليل للغاية، لعلى مضاعف الصفقة.

فى هذه اللحظة أصابت الجميع الدهشة عندما خرج قيصر عن صمته وانضم إلى المساومين موجهًا حديثه إلى القرصان ساخرًا:

ـ عشرون طالنت؟ إنك تمارس مهنتك على نحو سيئ، فلو كانت لديك بعض من الخبرة أكثر؛ لأدركت ببعض الحساب المتواضع أننى أساوى ما لا يقل عن خمسين طالنت. عقدت الدهشة لسان القراصنة المجتمعين، والذين لم يكونوا مستجدين فى مهنتهم؛ بل لقد سمعوا وشاهدوا الكثير إبان ممارستهم لها، غير

أنها المرة الأولى التى يقابلون فيها أسيرًا يضاعف فديته على الرغم من أن المبلغ المطلوب كان ضخمًا بمقاييس ذلك الزمان.

- يجب أن أعترف أن طريقتك فى تسوية الأمر قد أعجبتنى. ولكننى أحذرك؛ فإننى إذا لم أتسلم هذه الخمسين طالنت؛ فسوف أطيح برأسك. بهذا أنهى القرصان المساومة.

غادر الركاب سفينتهم إلى الشاطئ. كان عليهم أن ينتظروا تحت الحراسة مبلغ الفدية، فى الوقت الذى بعث فيه القراصنة رسلهم إلى أهالى الأسرى. كان المخبأ الذى يعيش فيه القراصنة يتكون من مجموعة من الأكواخ والأخصاص المختفية بين الصخور، بحيث لا يمكن رؤيتها من ناحية الخليج.

لم يجد الخوف طريقًا إلى نفس قيصر، وهو الذى اعتاد حياة الراحة والدعة، من جراء تغيير ظروف الحياة، وهو أمر يتفق وتركيبة شخصيته؛ فقد حاول دائمًا أن يتأقلم مع مثل هذه الظروف. سعى النبيل الشاب للاحتفاظ بقوته وهدوئه النفسى فى فترة وجودة فى الأسر معرضًا نفسه لنظام قاس، دأب قيصر على الاستحمام كل صباح فى مياه الخليج، والقيام بتدريبات رياضية، والقراءة المستمرة فى أوقات الفراغ. إلى جانب تدبيجه للخُطبَ ونظمه للشعر، يحكى أن هذه الأمور لم تكن تجد أى اهتمام من جانب القراصنة.

أكسبت السمات الشخصية الخارقة، والسلوك النادر لأسير، اكسبت قيصر احترام ودهشة أعدائه؛ بينما راح هو يسعى قدر جهده للتعرف عليهم من خلال مراقبته لعاداتهم، ودراسة شخصياتهم. كان يوليوس قيصر ينصت باهتمام إلى قصص مغامرات القراصنة؛ وكان بدوره يقوم بإلقاء الشعر والخطب البليغة عليهم. كان رد الفعل على هذه الأشعار وتلك الخطب هو الضحك والسخرية، بينما أصيب بعض من الجمهور بالسأم الذى دفعهم للتثاؤب.

استقبل قيصر كل هذا بهدوء حقيقى ورباطة جأش، وكان فى بعض الأحيان يرد على تعليقات الجمهور الجارحة بأنهم ليسوا فى حالة تؤهلهم لتقدير كل ما فى فنه الخطابى من روعة. وذات يوم ألقى ببعض كلمات دخلت التاريخ. قال القيصر:

ـ سيأتى يوم يوم تقعون فيه جميعًا فى قبضة يدى. كونوا على ثقة بأنى سأقوم بصلبكم سواء جزاء ما اقترفتموه من جرائم، أو لغبائكم؛ تذكروا ما قلته لكم، واعلموا أنى امرؤ أوفى بالعهد.

كان هذا تهديدًا كفيلاً ـ بالطبع ـ لأن يثير حنق القراصنة، إلا أنهم كانوا واثقين من أنفسهم إلى الحد الذى جعلهم يعتبرونه مجرد ذريعة ليضعهم قيصر موضع سخريات جديدة.

بعد مرور ثمانية وعشرين يومًا فى مخبأ القراصنة عاد المبعوثون بنبأ مفاده أن الفدية وقدرها خمسون طالنت قد وصلت، وهى فى حيازة حاكم مدينة ميليت[٣٠]. على الفور قام القراصنة بنقل الاسرى إلى ميليت، حيث استبدلوا بهم الفدية الموعودة. وما أن حصل قيصر على حريته حتى قرر أن يحقق نبوءته فتوجه إلى حاكم المدينة يطلب منه أن يقدم له أربعة زوارق بحرية وخمسمائة جندى.

بعد أن تسلم قيصر السفن، اتجه بها نحو فارماكوزا، وكما هو متوقع؛ فقد باغت القراصنة فى وكرهم أثناء إقامتهم لحفل ماجن أقاموه بمناسبة اقتسامهم للغنائم. لم يكن القراصنة السكارى فى حال تسمح لهم بالمقاومة؛ فاستسلم منهم ثلاثمائة وخمسون لصًا طلبوا العفو من المنتصر، عدد قليل من الذين لم تدر الخمر رؤوسهم استطاعوا الفرار. أطلق قيصر سراح الأسرى الذين كانوا موجودين بسجن الجزيرة واستعاد مبلغ الفدية مرة أخرى، بعدها توجه إلى بيرجام[٣١] حيث يوجد القاضى الرومانى لآسيا الصغرى.

عرف قيصر بمجرد وصوله إلى بيرجام أن القاضى يقوم بجولة يتفقد فيها المناطق الواقعة تحت إمرته؛ الأمر الذى اغتم له قيصر كثيرًا؛ إذ أن هذا القاضى كان هو الموظف الرومانى الوحيد فى الإقليم الذى كانت له صلاحيات إصدار أحكام الإعدام؛ ومن ثم أمر قيصر بحبس القراصنة وتكبيلهم بالأصفاد وإيداعهم حصن المدينة، أما هو فاتخذ طريقه بحثًا عن القاضى حتى يتمكن من الوفاء بوعده الذى قطعه على نفسه أمام القراصنة.

فى نهاية المطاف وجد قيصر القاضى، لكن الإحباط كان حليفه؛ إذ أن هذا الموظف لم يكن لديه أى ميل لأن ينزل بلصوص البحر عقابًا قاسيًا، عندئد لم يكن لديه أى ميل لأن ينزل بلصوص البحر عقابًا قاسيًا، عندئذ لم يكن أمام قيصر سوى اللجوء للحيلة فى محاولة لإقناعه بأن يوكل مساعده ليقوم بإدانة القراصنة، غير أن القاضى لم يتزحزح عن رأيه قيد أنملة.

ـ ولِمَ هذه العجلة؟ ما أن أعود إلى بيرجام حتى أبحث أمر عقد محاكمة لهم، ولست أرى فى مثل هذه الحالة ضرورة لاتخاذ إجراءات قاسية للعقوبة. سوف يدفع تجار إقليمى الفدية للقراصنة، وفى المقابل لن يقوم القراصنة بالإغارة على سفنهم.

ـ ولكن الأمر على هذا النحو يكون بمثابة صفقة مع اللصوص؟ هكذا صاح قيصر باستياء بينما أجاب القاضى بهدوء:

ـ نعم، إنها كذلك، لكن الحرب معهم تكلف أكثر. قال قيصر بإصرار:

ـ وكيف سيكون الأمر مع هيبة الدولة؟ عندها أعلن القاضى قائلاً:

ـ تستطيع الدولة من أجل حفظ السلام والرخاء أن تسوى بعض المنازعات بالطرق الدبلوماسية دون أن ينتقص هذا شيئًا من هيبتها.

لم يجد التفسير الذى طرحه القاضى ترحيبًا من قيصر الذى بدأ يشك فى أن القراصنة قد اشتروا هذا القاضى، وأن هذا الأمر أصبح سمة مميزة لأصحاب المقامات الرفيعة من الرومان. ودع يوليوس قيصر القاضى بعد أن تأكد من فشل مساعيه وأسرع عائدًا إلى المدينة. لقد قرر أن يضع الموظف الرومانى أمام الأمر الواقع. أعلن قيصر أنه تلقى تفويضًا خاصًا من الديكتاتور نفسه بتنفيذ حكم الإعدام. كانت خطوة غير عادية محفوفة بالمخاطر، وكان من الممكن أن تكلفه حياته.

بناء على أمر النبيل الرومانى تم إعدام جميع القراصنة الثلاثمائة والخمسين، أما الثلاثون رئيسًا فقد جرى صلبهم. وقد ظهر قيصر بنفسه فى المكان الذى

جرت فيه مراسم الإعدام ليلقى مرة أخرى وأخيرة خطابًا أمام جمهوره من القراصنة بدأه بقوله:

ـ لقد قررت أن أكون متسامحًا معكم للمعاملة الطيبة التى أبديتموها نحوى إبان أسرى. لقد راودنى إحساس كريه بأنكم سوف تعتبروننى ـ وأنتم تفارقون الحياة ـ إنسانًا قاسيًا، ولهذا قررت إعدامكم قبل صلبكم.

انتهى الإعدام، وواصل قيصر رحلته إلى جزيرة رودوس. وكأن شيئًا لم يكن، ونجح فى الالتحاق فى الوقت المناسب بمدرسة البلاغة العظيمة التى أنشأها أبولونى.

بفضل ما صنعه بومبى وقيصر؛ تخلصت شعوب البحر الأبيض المتوسط بعض الوقت من شرور القراصنة. غير أنه ـ وبعد الموت المأساوى لقيصر فى الخامس عشر من مارس عام ٤٤ قبل الميلاد ـ عاد القراصنة يطلون برءوسهم من جديد، كانوا يزدادون جرأة وقوة كلما تراخت قبضة الإمبراطور الجالس على عرش روما. وقد استمر هذا الوضع حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى.

* * *

## هوامش الفصل الأول

(١) أوديسيى (أوديسيوس الإغريقى)، أوليس باللاتينية: فى الأسطورة الإغريقية ملك إيتاكا، اشترك فى حصار طروادة، البطل الأول لملحمة الأوديسا اشتهر بالحكمة والدهاء والشجاعة. (المترجم).

(٢) الكينوى: قيصر دولة النياكتسيين الأسطورية.

(٣) إيلون: أحد أسماء مدينة طروادة فى شمال غرب آسيا الصغرى وقد سميت كذلك نسبة إلى أحد القياصرة الذين حكموها ويدعى إيلا.

(٤) إيسمار: عاصمة الكيكونيين فى فراكيا؛ اشتهرت بجودة نبيذها.

(٥) الكيكونيون: قبيلة فراكية.

(٦) ابن كرونوس أو زيوس.

(٧) إله الشمس.

(٨) الآخيون: أحد أربعة فروع رئيسية للشعب الإغريقى. جميعهم بالنسبة لهرمير إغريق على وجه العموم.

(٩) المدرعون: تعنى هنا المقتلين الذين يرتدون الدروع.

(١٠) «الأوديسا»، «الأنشودة التاسعة».

(١١) كريت: جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط تُعَد قلب الحضارة الإغريقية القديمة.

(١٢) بورييه: الريح الشمالية.

(١٣) تيار مصر: نهر النيل.

(١٤) زيوس: رب الأرباب والناس وإله السماء والرعد والبرق.

(١٥) «الأوديسا»، «الأنشودة الرابعة عشر».

(١٦) ماجنيسيا: منطقة تقع فى الجزء الشرقى من فيساليا فى اليونان القديم.

(١٧) إللاذا: اسم اليونان باللغة اليونانية. (المترجم).

(١٨) الفايكنج: قراصنة البحر فى اسكندنافيا القديمة.

(١٩) هيلسبونت: الاسم الإغريقى القديم لمضيق الدردنيل.

(٢٠) أعمدة هرقل: اسم يطلق على صخرتين على شاطئى كل من أوروبا وإفريقيا عند مضيق جبل طارق يبدوان وكأن هرقل قد حركهما وهى وفقًا للتصورات الإغريقية القديمة نهاية العالم.

(٢١) أوستيا: أكبر موانى روما القديمة على البحر الأدرياتيكى.

(٢٢) بريتور: أكبر موظف قضائى فى روما القديمة، ليكتور: موظف فى روما القديمة وكان من المعتاد أن يرافق الشخصيات الهامة.

(٢٣) هاى مارى (١٥٦ - ٨٦ قبل الميلاد) قائد عسكرى رومانى وشخصية سياسية؛ لوتس كورنيلى سولا (١٣٨ - ٧٨ قبل الميلاد) قائد عسكرى ورجل دولة فى روما القديمة: قائد أكثر قطاعات كبار الملاك رجعية (الأوبتيمات).

(٢٤) كيليكيا، بامفيلفيا، إيساوريا: مناطق قديمة فى آسيا الصغرى.

(٢٥) المملكة البونتية: دولة تتبع نظام الرق تقع فى الجزء الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى ظهرت فى القرن الرابع قبل الميلاد. كانت هذه المملكة بأكملها تدخل ضمن أراضى الإمبراطورية الرومانية.

(٢٦) جنيى بومبى (١٠٦ - ٤٨ قبل الميلاد): قائد عسكرى رومانى وشخصية سياسية.

(٢٧) لقد فاقت نجاحات الحملة البحرية بقيادة برمبى أشجع التوقعات، ففى أقل من أربعين يومًا تم القضاء على القرصنة فى كل المنطقة الممتدة من المضيق الميسينى وحتى أعمدة هرقل نفسها.

(٢٨) أخايا: اسم أطلق فى العالم القديم على منطقة شمال بلوبونيس.

(٢٩) طالنت: أكبر وحدة نقدية فى اليونان والإمبراطورية الرومانية.

(٣٠) مدينة اغريقية قديمة تقع على الساحل الغربى لآسيا الصغرى.

(٣١) بيرجام: مدينة، عاصمة المملكة البيرجامية التى قامت فى شمال غرب آسيا الصغرى فى الفترة (٢٨٣ - ١٣٣) قبل الميلاد.

# الفصل الثانى

# قراصنة بحار الشمال

بسقوط الإمبراطورية الرومانية انهارت التجارة البحرية؛ الأمر الذى أدى إلى اختفاء القرصنة، على أنها عاودت الظهور لفترة أخرى قصيرة وذلك عندما أخذت التجارة فى العصور الوسطى فى الانتعاش، وبعودة التجارة؛ عاد النهب البحرى سيرته الأولى. هكذا أصبح من الواضح أن تطور الملاحة البحرية والعمليات التجارية فى البحر كانا يمثلان المقدمة الحتمية لوجود القرصنة. لقد تطور النهب البحرى بشكل مميز فى العصور الوسطى وخاصة فى أحواض بحار الشمال: البلطيق، وبحر الشمال ، ومضيق المانش، حيث كانت تمر بها أهم الطرق التجارية.

إن الصلة المذكورة بين تجارة العصور الوسطى والنهب البحرى ـ أى بين التجارة البحرية والقرصنة ـ يتطلب مزيدًا من إلقاء الضوء عليه.

بادىء ذى بدء، تجدر الإشارة إلى أن التجارة فى العصور الوسطى. وخصوصًا فى مطلع هذه العصور. كانت ذات طابع يختلف تمامًا عما هو معروف لدينا اليوم. كان النهب يشكل العنصر الرئيسى فيها ـ فتجار العصور الوسطى كانوا يلجأون إلى السطو والسرقة سواء كان ذلك فى البر أم فى البحر. فى ظروف مثل هذه كان جلب البضائع وتوصيلها إلى المكان المطلوب يتطلب الحراسة الكافية.

كان قرصان العصور الوسطى يتعامل مع النهب بالطريقة نفسها التى أصبح التاجر فيما بعد يتعامل بها ليتمكن من الحصول على مختلف البضائع مقابل

مبلغ معين يدفعه. من الطبيعى أن هؤلاء التجار الذين كانوا يتعرضون للهجوم، كانوا يبدون المقاومة. كان التجار يدافعون عن أنفسهم ضد اللصوص على أنهم كانوا يقومون هم أنفسهم - عندما تتاح لهم الفرصة - لسرقة رفاق مهنتهم دن وخز من ضمير، بل كثيرًا ما كان سكان الحضر يتعرضون للسطو على ممتلكاتهم، وهكذا فقد كان كل تاجر فى العصور الوسطى لصًا بدرجة أو بأخرى، يمارس حرفته - سواء فى البحر أو على البر - تبعًا للطرق التى تسير فيها التجارة، وفى الوقت نفسه - وعلى النقيض من ذلك - كان كل قرصان يمارس التجارة بدرجة أو بأخرى.

وبمرور الوقت لجأ بعض التجار - سعيًا منهم لحماية مصالحهم التجارية - من أجل منافسة ناجحة إلى الاتحاد معًا فى منظمات تجارية تنامت حتى أصبحت أحلافًا ضخمة كان لها دور سياسى ضخم بعيد جدًا عن حدود نشاطها التجارى نفسه. فى عام ١٢٤١ تأسست شركة هانزا الألمانية لتكون أكبر هذه المنظمات واستهدفت بصفة خاصة محاربة النهب البحرى، على أنه سرعان ما أصبحت الشركة نفسها مركزًا للقرصنة وفقًا لتقاليد العصور الوسطى الراسخة.

## الڤايكنج

شق الڤايكنج عباب البحر بزوارقهم الطويلة الضخمة، كان الواحد منها يبلغ من الطول حوالى عشرين مترًا وعرضه خمسة أمتار، وذلك فى الفترة ما بين القرنين الثامن والحادى عشر، ويرتفع فى وسطه - حسب بحوث علماء الاثار - صار يبلغ طوله ثلاثة عشر مترًا أو يزيد مجهز بشراع وحيد كبير، ويعمل على جانبى الزورق اثنان وثلاثون مجدافًا. كانت الدفة مثبتة فى الجانب الأيمن من المؤخرة، كما كان مقدم الزورق مقوسًا أما الجسم فقد كان مغطى بألواح من خشب البلوط. كانت الزوارق من هذا النوع تقوم بنقل الناس والبضائع، ومجهزة لخدمة الأغراض التجارية وكذلك لأعمال السطو والسرقة. وقد استخدمها أيضًا ولكن بدرجة أقل البحارة الصقالبة(١) والكورنثيون(٢) والاستونيون.

وقد تعرض تصميم هذه المراكب فى الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر إلى تعديلات جوهرية؛ ولهذا كان عليها أن تقوم بنقل البضائع والناس وأن تقوم بمهام السفن القتالية التى يمتلكها التجار القراصنة ـ أصاب التغيير أيضًا الخطوط الخارجية لهذه السفن التى أصبح لمقدمها ومؤخرتها المرتفعين عن الماء شكل مميز فقد جرى إقامة مقصورة أعلى مؤخرتها كانت تستخدم لإقامة الركاب. وهذه الوظيفة كان يقوم بها سطح مقدم السفينة أيضًا، ومن ثم فإن مقدم السفينة المرتفع بدوره كان يعمل على تسهيل الملاحة خلال الأمواج العالية، أما أرضية الدور الموجود أسفل السطح فقد كانت تستخدم كمخزن للبضائع. كانت السفن التجارية التى ظهرت فيما بعد تسير ببطء وهدوء يختلف نسبيًا عن زوارق الڤايكنج الأسرع والأكثر قدرة على المناورة.

لا شك أن الإسكندنافيين يتذكرون بفخر أسلافهم النورمانديين الڤايكنج على الرغم من أنهم كانوا يمارسون مهنة تعد فى زماننا مشينة ألا وهى القرصنة. على أن الناس فى مطلع العصور الوسطى عندما بدأ النورمانديون نشاطهم فى السرقة، كانوا ينظرون إلى هذه المهنة بشكل يختلف عما ننظر نحن بها إليها الآن.

لقد دفعت ظروف الحياة الصعبة فى شبة جزيرة إسكندناڤيا السكان إلى السطو على أراضى الغير. لم تكن شبه الجزيرة بجبالها الكثيرة وغاباتها ومناخها القاسى لتوفر سبل الحياة الضرورية للسكان الذين كانوا يزدادون بسرعة والذين أخذوا لهذا السبب فى الهجرة فى اتجاهات مختلفة بحثًا عن ظروف أفضل. فعلى سبيل المثال: أخذ السويديون الذى كانت الشعوب الشرقية تسميهم بالورنْكيين (نسبة إلى قبائل الورنك الإسكدناڤية القديمة) فى الهجرة باتجاه الشرق نحو مناطق خلجان فنلندا وريجا. كما اتجهوا أيضًا إلى السواحل الجنوبية لبحر البلطيق. أما النرويجيون (كانوا يسمون فى العصور الوسطى بالنورمانديين) الذين كانوا يسكنون الجزء الغربى من شبه الجزيرة. فقد اتجهوا غربيًا باتجاه جزر بحر الشمال: فايرون، شتلاند، أوركنى، هيبردس، وأيضًا فى اتجاه سكوتلاندا وأيرلندا.

أبحر النورمانديون مستخدمين سفنًا صغيرة ليست فى الحقيقة سوى زوارق كبيرة غير ذات أسطح. كانت هذه السفن تعتمد على شراع وحيد وعندما تندر الريح يتم استخدام المجاذيف. كان الملاحون النورمانديون مقاتلين محنكين. كانوا يثبتون على جانبى الزوارق دروعًا مستديرة تزينها الشعارات مهمتها حماية المجاديف الموجودة على امتداد جوانب السفينة. كذلك كان مقدم السفينة ومؤخرها المقوسان يبدوان كما لو كانا يندفعان إلى أعلى تزينهما تماثيل مخيفة تصور رءوس التنين، وكانت تتعد بمثابة علامات مميزة إلى جانب أنها استهدفت بث الرعب فى قلوب الأعداء عند مهاجمتهم. كانت زوارق النورمانديين تتسع تبعًا لأحجامها من أربعين إلى ستين شخصًا بما فى ذلك المؤن الضرورية للإبحار لمدة طويلة، وكان النورمانديون يقومون بالإبحار على ظهر هذه السفن البدائية نسبيًا فى غالب الأحوال بمحاذاة الساحل إذ لم يكونوا يخرجون إلى البحر إلا عند الضرورة القصوى.

لم تكن هذه الزوارق لتستخدم إلا كوسائل انتقال، أما المعارك فلم يكونوا يخوضون غمارها إلا على اليابسة بشكل أساسى. وفى المرات التى تسنى للأعداء فيها مهاجمة النورمانديين بأسطول حربى صغير جيد الإعداد (مرة فى بريطانيا وأخرى فى إسبانيا السراتسينية[٢]) حاقت بهم الهزيمة. كان البحارة النورمانديون ـ خلافًا للمحكوم عليهم بالأعمال الشاقة ععلى ظهر سفن قراصنة البحر الأبيض المتوسط ـ يتمتعون بالحرية ويقومون بمهام التجديف وأحيانًا يقاتلون.

على رأس الحملات النورماندية، ظل القادة يُختارون من الڤايكنج. كان هناك بضع عشرات من العاملين تحت رئاسة الڤايكنج، وكثيرًا ما كانوا يصلون إلى بضع مئات إبان الحملات المكثفة. بمرور الوقت أصبحت جماعات قطاع الطرق البحرية من النورمانديين الذين هاجموا البلاد الأوروبية الواقعة على ساحل البحر وشواطىء الأنهار فى الفترة ما بين القرنين الثامن والحادى عشر يعرفون باسم الڤايكنج، وأصبحت هذه الفترة من تاريخ اسكندناڤيا تسمى بعصر الڤايكنج.

فى البداية اتخذت حملات النورمانديين طابع السطو فكان الفايكنج يظهرون فجأةً على ظهر زوارقهم السريعة ثم يغادرونها إلى الشاطئ وإلى أن تأخذ السلطات المحلية فى التأهب لرد الهجوم يكون هؤلاء قد دمروا البلدة. كان الفايكنج يعودون بنفس السرعة التى ظهروا بها محملين زوارقهم بالغنائم التى نهبوها. على أن القرصنة لم تكن حرفتهم الوحيدة، فوفقًا للعادات التى سادت فى العصور الوسطى كان الفايكنج يعملون فى الوقت نفسه تجارًا، وكان لهم فى هطا الشأن باع طويل. قام الفايكنج أيضًا بغزوات سطو على البلاد السلافية من خلايا المناطق التى كانت تقطعها الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق وخاصة إلى بيزنطة وبغداد، وقد قاموا أيضًا بنهب التجار القادمين من الشرق حاملين بضائعهم الثمينة فى طريقهم بها إلى غرب أوروبا عبر الأراضى السلافية.

وقد ورد ذكر غارات النورمانديين فى المصادر الإفرنجية التى تعود إلى نهاية القرن الثامن. على أنه حتى فى هذا الزمن لم يكن النورمانديون قد بلغوا من الأهمية هذا القدر الذى بلغوه فى القرن التاسع وما تلاه عندما أصبحوا أكثر عدوانية، ويرجع ذلك بصفة أساسية إلى تضخم عدد سكان شبه جزيرة إسكندنافيا التى بدا أنه ليس فى مقدورها أن توفر الطعام لسكانها.

لقد أعد كارل العظيم (٧٤٢ ـ ٨١٤)[٤] العدة لحماية سواحل دولته من غزو النورمانديين على نحو فعال وذلك بأن أقام نظامًا دفاعيًا ساحليًا مؤثرًا جيد الإعداد على نحو دائم لم ينجح النورمانديون فى اختراقه، مما دفعهم إلى التوجه ناحية الجزر الصغيرة فى بحر الشمال؛ فاستولواعليها بسرعة؛ ثم واصلوا سيرهم باتجاه الجزر البريطانية. كانت المرة الأولى التى ظهر فيها النورمانديون فى إنجلترا عام ٧٨٩ عندما نزلوا بثلاثة من سفنهم فى دورسيتشاير. ومنذ هذا التاريخ بدأ الفايكنج غاراتهم على إنجلترا بشكل مستمر. بمرور الوقت صادفت الجزر البريطانية هوى القراصنة الإسكندنافيين. لقد حلا لهم العيش ها هنا، فأخذوا فى استيطان سواحل هذه الجزر وما عادوا براغبين فى الإبحار عبر بحر الشمال اللهم إلا مرة واحدة كل عام. وعندما اهتزت هيبة وقوة مملكة كاولينج بعض الشىء فى ثلاثينيات القرن التاسع ، جدد النورمانديون غاراتهم فبدأوا

بالساحل الفرنكى ثم تبعوه فى الأعوام من ٨٣٦ إلى ٨٣٩ بفريزيا[٥]. وكان من نتيجة هذه الحملات المتكررة أن تم القضاء على المركز التجارى الرئيسى للملكة الفرنكية.

بعد أن دان للڤايكنج مصب نهر الراين أخذوا فى التحرك بزوارقهم نحو المنبع ناشرين الرعب والفزع فى قلب كل من ڤابلوه ، وفى مايو عام ٨٤١ ظهروا عند مصب نهر سينا استولوا على ميناء روان. فى الوقت نفسه قامت وحدات أخرى بأعمال النهب على الساحل الجنوبى الشرقى لانجلترا. وفى العام التالى دمر النورمانديون كڤنتوڤيك أكبر الموانى على مصب نهر كانش.

لم يستطيع أبناء لودفيج التقى[٦] أن يقفوا فى مواجهة الغارات القادمة من الشمال، فقد تغلغل النورمانديون باتجاه غرب وجنوب دولة الفرنكيين وأصبحوا أكثر وقاحة فى ذهابهم ومجيئهم مارين بمنبع النهر مكثفين من غاراتهم. وفى يونيو ٨٤٣ إبان الاحتفال بعيد القديس يوجنا ظهروا فجأة عند مصب نهر اللوار، وبعد أن باغتوا سكان نانت[٧] الذين لم يتوقعوا هذه الغارة؛ أعملوا القتل فيهم واستولوا على غنائم قيمة ثم رحلوا إلى المصب حيث عادوا لينظموا عدة غارات أخرى للنهب فى عمق البلاد خلال فصل الصيف.

ظل النورمانديون زمنًا طويلاً يرحلون من بلادهم فى الشمال كل عام متجهين جنوبًا صيفًا وربيعًا فقط ليعودا فى وقت العواصف الخريفية والرياح الباردة إلى إسكندڤيا. كان هذا هو تكتيكهم، على أن مصب اللوار الذى اختاره النورمانديون ليكون بمثابة هدف لقرصنتهم قد بدأ بعيدًا جدًا عن يوتلانديا وإسكندناڤيا ، الأمر الذى جعل من القيام سنويًا بمثل هذه الرحلة البحرية الطويلة والمحفوفة بالمخاطر أمرًا لا معنى له. ولما كان النورمانديون مقتنعين بأن الفرنكيين لا يشكلون عقبة بالنسبة لهم أنشأوا قاعدة فوق جزيرة نوارموت الصغيرة القائمة عند مصب اللوار، ومن هناك كانوا يقومون بغاراتهم فى اتجاه أعالى النهر. حول النورمانديون معسكرهم الحصين فى هذه الجزيرة بمرور الوقت إلى قلعة حقيقية بحيث لا يتمكن الفرنكيون الذين لا يملكون أسطولاً من التغلب عليه.

بحلول صيف ٨٤٤، اندفع النورمانديون من جديد بعد أن قضوا شتاءهم فى نوارموت إلى الجنوب فوصلوا مصب نهر جارون، ثم واصلوا إبحارهم فى اتجاه المنبع وكانوا يحرقون وينهبون كل البلدان والكنائس التى تقابلهم عدا بوردو التى استطاعت أن تصد الغزاة. فى العام نفسه ظهرالنورمانديون عند شواطئ إسبانيا. ثم توغلوا حتى وصلوا إلى نهر جوادلكفيقر، وعبر هذا النهر ساروا حتى وصلوا إلى مدخل ميناء سيفيليا.، فى العام التالى ازداد نشاط وحدات النورمانديين الشمالية، فنهبوا وأحرقوا هامبورج، ثم هاجموا منابع إلبا، ولما لم يجدوا أية مقاومة تذكر، قاموا بالإغارة على فريزيا، فى الوقت الذى وصلت فيه مجموعة أخرى من القراصنة على زوارقها حتى منابع نهر السين، وقامت فى التاسع والعشرين من مارس عام ٨٤٥ بإحراق باريس.

غادر النورمانديون مملكة كارل الأقرع[٨] بعد أن أخذوا فدية كبيرة على مدى الثلاث سنوات التالية. احتل القراصنة النورمانديون (الذين وصلوا إلى هنا من الشمال بجحافل جبارة) كل الشواطىء الممتدة من إلبا إلى جيروندا، ومنذ هذه اللحظة تغير طابع الغارات التى كان النورمانديون يشنونها. فإذا كان الهدف من هذه الغارات قد انحصر قبل ذلك فى الاستيلاء على الغنائم التى كان الفايكنج يعودون بها إلى الوطن أو إلى قواعدهم، فإنه منذ النصف الثانى من القرن التاسع، أخذوا فى الاستقرار واستبطان هذه الأراضى.

وقد شارك فى احتلال هذه الأراضى الخاضعة أناس ينحدرون من أصول دنمركية. وكانوا يسمون أيضًا بالنورمانديين. وهؤلاء كانوا قد تركوا الدنمرك بعد انتهاء الحرب الأهلية واستوطنوا فى حوالى عام ٨٥٠ المناطق المحيطة بأنهار اللوار، والسين، والتايمز، وأسسوا فى الجزر المبعثرة عند مصباتها معسكرات قوية جلبوا إليها عائلاتهم من يوتلانديا. لم يكن الاستعمار يعنى بالنسبة للفايكنج التوقف عن ممارسة السلب، فقد كانوا يتركون أماكن سكناهم الجديدة موغلين فى عمق بلاد الفرنكيين ميممين صوب الجنوب. إذا كان النورمانديون حتى ذلك الحين يتحركون بشكل ثابت تقريبًا بمحاذاة شواطئ البحار والأنهار، فإنهم الآن أخذوا أكثر فأكثر يستبدلون الخيل بالزوارق.

أصبح النضال ضد النورمانديين أمرًا بالغ الصعوبة، لما تميزوا به من قدرة على المناورة، وسرعة الحركة، والتفوق على صفحة البحر. فقد أخذ السكان ـ الذين تملكهم الرعب ـ فى الهرب باحثين عن ملجأ لهم فى الغابات والجبال لتعصمهم تاركين وراءهم المسكن والأرض. أما الحكام المستضعفون الذين لم تكن لديهم القدرة على التغلب على النورمانديين فغالبًا ما كانوا يدفعون للغازى الفديةالتى كانت تشكل عبئًا ثقيلاً على الرعايا مما دفع بالسكان إلى اللجوء أكثر فأكثر إلى الدفاع عن أنفسهم ذاتيًا.

كان الڤايكنج أحيانًا ما يتركون بعض المناطق فى هدوء نسبى. ففى عام ٨٥٩ مثلاً غادروا وكرًا للقراصنة يقع عند مصب نهر اللوار، إذ أن ما قاموا به من أعمال النهب والقتل فى هذه المناطق لم يدع لهم شيئًا يستولون عليه فاتجهوا جنوبًا. وفى طريقهم عاشوا فسادًا على شواطئ إسبانيا وإفريقيا وتعرضت جزر باليار فى البحر الأبيض المتوسط لعدوانهم إلى أن توقفوا على ساحل فرنسا الجنوبى حيث دلتا نهر الرون لقضاء الشتاء به. مرة أخرى عود الڤايكنج فى ربيع عام ٨٦٠ لمواصلة التحرك، بعد أن قاموا بنهب إقليم البروڤانس (جنوب شرقى فرنسا)، واكتسحوا شواطئ شبه جزيرة أبنين. وقد تمكنوا بالخداع من الاستيلاء على مدينة بيزا (فى وسط إيطاليا) والتى أصبحت منذ ذلك الحين نقطة انطلاق جديدة لحملاتهم إلى توسكانا. وفى عام ٨٦١ يعُود الڤايكنج إلى ملجئهم عند مصب اللوار.

لقد أتاح التفتت السياسى لبريطانيا آفاقًا جديدة أمام النورمانديين الذين كان اهتمامهم بأوروبا قد فتر لبعض الوقت؛ إذا بدأوا فى الهجوم على إنجلترا من جهة الشمال. وفى عام ٨٦٦، نزل القراصنة فى خليج هامبر، وسرعان ما أثمرت تحركاتهم عن احتلال جزء كبير من الجزيرة.

على مدى عشرات السنين، لم تكن هناك فى أوروبا أية قوة مؤهلة للتصدى للڤايكنج. كان العالم المسيحى بأسره يرتعد أمام كارثة العصور الوسطى البشعة هذه، والتى تقف لتتساوى مع الطاعون وغارات الكفار. وقد ظلت الكلمات التى يتألف منها الدعاء القائل a furora nomaorum libera nos, domines «اللهم

نجنا من غضب النورمانديين» لزمن طويل يذكر شعوب أوروبا بالسنوات الرهيبة المليئة بالرعب الدموى الذى فرضه قراصنة الشمال.

كان ألفريد الأكبر[٩] هو الوحيد الذى نجح فى صد هجوم النورمانديين على إنجلترا وكانت المعارك بينه وبين الغزاة سجالاً وأسفرت عن استعادة الفريد لولاية ويسكس التى كان قد فقدها قبل ذلك. وفى عام ٨٧٨، وقع ألفريد معاهدة تقضى بتقسيم إنجلترا، ظل الجزء الغربى من البلاد بناء عليها تحت حكم ألفريد، بينما آل الجزء الشرقى للغزاة. بعد عام ٨٧٨، عاد أولئك النورمانديون الذين لم يستوطنوا إنجلترا إلى أوروبا ليستأنفوا هنالك أعمال النهب، وفى عام ٨٨٥ حاصروا باريس، وقد دفع لهم كارل السمين[١٠] (كارل الثالث) فدية ضخمة مقابل فك الحصار عن المدينة الذى استمر ما يزيد عن عام. وفى عام ٩١١، قام سلالة النورمانديين بإخضاع الإقليم الذى أصبح معروفًا منذ ذلك الحين باسم غزاة الشمال النورمانديين. ومن هذا المكان تحديدًا خرج النورمانديون فى عام ١٠٦٦، بقيادة ڤيلهلم الفاتح[١١] لغزو إنجلترا مرة أخرى.

أدى توسع النورمانديين فى القرن التاسع إلى قيامه بغزو واستيطان أجزاء من الجزر البريطانية: أيسلندا، وجرينلاند، على أنهم لم يقيموا دولة تضم كل الأراضى الخاضعة لهم، فقد كان لغياب تماسكهم أثره فى تقويض سيادتهم على البلاد الخاضعة لهم. وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر ظهرت دولة بحرية جبارة بقيادة كنور الأكبر[١٢] استطاعت أن تحتل الدنمرك، والنرويج، وإنجلترا، وقد اعترفت كل من سكوتلندا وأيرلندا بسلطانها. لقد وضع التطور الاجتماعى الاقتصادى لدولة كنور الأكبر حدًا لعصر غارات الڤايكنج. عندئذ أخذ النورمانديون فى البحث عن نقاط ارتكاز لهم فى مجال التجارة التى كان طابعها قد أخذ فى التغير تدريجيًا. لقد ازدهرت التجارة البحرية بين إنجلترا والدنمرك بعد اتحاد البلدين،، وبمرور الوقت توقف النورمانديون بصفة عامة عن تهديد أوروبا.

إن الجزء الأكبر من الشواهد التاريخية الخاصة بالڤايكنج تواترت إلينا من خلال الشعوب التى وقعت ضحية لهم. وليس من المستغرب أن تشغل العنف

والتعسف والقسوة، التى ارتكبها بلا شك الغزاة والقراصنة المكان البارز فيها. على أن الشواهد الخاصة بالتنظيم الداخلى للفايكنج ظلت قابعة فى زوايا النسيان. لقد كشفت أحدث الأبحاث التى جرت بموضوعية أن الفايكنج لم يكونوا مجرد قوة مدمرة عمياء كما صورهم مؤرخو عصر الإقطاع المتحيزين.

حقيقة كان الفايكنج قساة طغاة، غير أنهم فى الوقت نفسه استطاعوا إقامة مجتمع متميز للقراصنة، مجتمع له ثقافته الأصيلة. كان الفايكنج يقومون بعقاب من يسرق أو يلجأ للعنف داخل مجتمعهم الخاص، وكان الخداع إبان اقتسام الغنائم يعد جريمة كبرى، كما كان الموت عقوبة الخيانة والفرار من الخدمة، وهى عقوبة لم يكن المذنب فيها يستطيع أن يأمل فى رحمة أو عفو.

لقد ترك الفايكنج ذكريات دموية عنهم فى تاريخ العديد من الشعوب الأوروبية فى نفس الوقت الذى كانوا متحمسين فيه لإقامة العدل فيما بينهم.

## قراصنة بحر البلطيق

فى مستهل العصور الوسطى أبحرت العديد من السفن من مختلف البلاد عبر بحر البلطيق، ولم يكن البحر ينقصه القراصنة.

ما هى إلا بضع سنين أصبحت السيادة فى بحر البلطيق للتجار المحاربين الذين جاءوا فى القرن الثامن من فريزيا، وكانوا ينقلوا جوخها الشهير، وكذلك الزجاج، والخزف ، والسلاح، والملح ، عبر الطرق البرية الممتددة جنوب شبه جزيرة يوتلاندا، وكانوا الفراء على رأس قائمة مشترياتهم الاحتكارية من الدنمركيين، والقوطيين، والسويديين، والسلافيين. كانت مدينة بيركا القريبة من ستوكهولم وهايتهابو فى منطقة شيلزفيج يمثلان القاعدة الرئيسية لتجارتهم. كانت المراكز التجارية القوية القائمة على شواطئ فريزيا بؤرة لعمليات التبادل التجارى الحيوى بين السكان المحليين والتجار الذين كانوا يقومون بنقل البضائع التى حصلوا عليها عبر الطرق البرية والبحرية.

على أن الغلبة فى مياه البلطيق لم تكن من نصيب الفريزيين، فهؤلاء سرعان ما أزيحوا بواسطة الفايكنج الذين سبق الحديث عنهم، وكذلك من جانب القراصنة المحليين من السلافيين، والكورنثيين، والآستونيين.

لم يكن من قبيل الصدفة أن تصاعدت أعمال القرصنة فى بحر البلطيق فى الفترة ما بين القرنين التاسع والحادى عشر، إذ إن هذه الفترة بالذات شهدت نهضة وانتعاشًا اقتصاديين فى بلدان بحر البلطيق، كما شهدت نموًا فى حركة التجارة، وبالتالى فى العلاقات بين هذه البلدان وباقى المناطق الأوروبية الأخرى. فى هذه البقاع كان هناك ما يمكن التجارة فيه وأيضًا ما يغرى بالسرقة.

لقد ظهرت حول سواحل البلطيق فى مطلع العصور الوسطى أول دول إسكندنافية وسلافية، تلك الدول التى ما لبث التنافس أن دب بينها من أجل فرض السيادة على البحر. وإذا كان الصراع فيما مضى يدور بين جماعات من التجار . القراصنة فإنه سرعان ما تحول إلى منافسة صريحة بين ملوك كل من الدول الاسكندنافية والسلافية من أجل الهدف ذاته، وازداد لجوء ملوك هذه الدول لاستغلال القراصنة لأغراضهم السياسية الخاصة.

فى القرن الحادى عشر، وبعد ما أذنت شمس الفايكنج للمغيب، بدأ القراصنة الروجيون[١٣]والبوموريون[١٤] وغيرهم من القراصنة السلافيين يتبوؤن مكانهم فوق مياه بحر البلطيق. وهؤلاء أخذوا فى الإبحار عبر البلطيق فى مختلف الاتجاهات على متن سفن.كان عدد طاقم الواحدة منها يربو على أربعين شخصًا حتى أنهم تمكنوا من الوصول فى بعض الأحيان إلى مناطق من بحر الشمال.

لقد خاضت الدولة الدنمركية نضالاً لا هوادة فيه ضد قراصنة البلطيق وعلى الرغم من أن ملوك الدنمرك قد تمكنوا بمرور الوقت من فرض تفوقهم ـ إلا أن موانيهم ظلت ـ حتى فى القرن الثانى عشر . تتعرض لمتاعب من قبل القراصنة.

إن الصراع الذى دارت رحاه بين القراصنة الدنمركيين وبين السلافيين قد جرى وصفه بشكل رائع فى الساجا[١٥] التى كتبها الأيسلندى سنورى ستورلوسون تحت اسم الهايمسكرينجلا[١٦] (الدائرة الأرضية) فى القرن الثالث عشر، يحكى

فيها على وجه الخصوص عن هجوم السلافيين على مدينة كونونجهال الواقعة جنوبى النرويج. وحسب روايته . فالنرويجيون استخفوا بالأخبار التى وردتهم عن حملة حربية يدبرها السلافيون. وعندما ظهر الأسطول المعادى فى العاشر من أغسطس عام ١١٣٦ على حين غرة عند الشواطئ لنرويجية ساد الذعر المدينة، حتى أن أحدًا لم يحاول إنقاذ تسع سفن كانت راسية آنذاك فى الميناء. كان الأسطول السلافى الذى أغار على كونونجهال ضخمًا بالفعل، فقد كان مكونًا ـ إذا ما صدقنا صاحب القصيدة الذى بالغ بالأحرى فى قوة السلافيين ـ من سبعمائة وثمانين زورقًا على ظهر كل منها أربعة وأربعون مقاتلاً وحصانان. كان الأسطول بقيادة الأمير راتيبور والقائد العسكرى أونيبور.

لم يكتف السلافيون بالاستيلاء على الأسطول الرابض فى الميناء وإنما فرضوا سيطرتهم أيضًا على الشاطئ، ثم ما لبثت هذه السيطرة أن امتدت لتشمل المدينة بأسرها. والحقيقة فإن سكان كونونجهال استطاعوا إبان انسحابهم نحو الجزء الحصين من المدينة، أن ينزلوا بالمغيرين ضربات موثرة بعد أن قتلوا لهم حوالى مائتين وأربعين رجلاً. أما المغيرون فقد أعملوا النهب فى السفن وفى المدينة، ثم أضرموا النار فى كل شىء يمكن أن يشتعل. وجه راتيبور إنذارًا ـ إلى المدافعين عن كونونجهال طالبهم فيه بالاستسلام ومغادرة القلعة سالمين، ولما رفضوا الانصياع للإنذار؛ بدأ الحصار الطويل المضنى.

قام المدافعون بصد الهجمات الضاربة، وتزايدت خسائر السلافيين، وأخذ محاربوهم شيئًا فشيئًا يقعون فريسة لليأس، وعندما أصبح السلافيون مستعدين لوقف هجومهم والتخلى عن المدينة، استطاع القائد العسكرى أونيبور أن يقنع جنوده بأن يهاجموا القلعة مرة أخرى.. أظهر الانقضاض الجديد أن المحاصرين باتوا ضعافًا بشكل واضح. وأن ذخيرتهم قاربت على النفاد، لقد أصبحوا الآن يردون على المهاجمين بالأحجار والعصى فقط، وهذه لم تكن تتبب أذى يذكر بعد ما كانوا يردون على الهجمات الأولى بوابل من السهام والرماح. واصل السلافيون حصارهم، ولما رأى سكان كونونجهال ما هم فيه من وضع يائس قرروا أخيرًا تسليم القلعة والاعتماد على عفو المنتصرين.

لقد أخطأ من فى القلعة الحساب. لقد دمرت قلعتهم تمامًا ثم أحرقت. بل إن المعتدين قاموا بإحراق بعض المبانى مرات أربع، كانوا حريصين على التأكد من أن هذا الصرح قد تم إحراقه لآخر حجر فيه. سيق السكان الذين لم تكن إليهم حاجة ليقتلوا، وجرى تقسيم الباقين بين الجنود، وحملوا إلى الجنوب بوصفهم أرقاء.

لقد أضحى القراصنة السلافيون الذين قاموا بأعمال السلب والنهب بعض البلطيق وطوله مصيبة حقيقية على السفن، فضلاً عن الموانى التى كانت قد أخذت فى النمو، بل وعلى كل المدن المطلة على ساحل هذا البحر. لقد دمر الكورنثيون مدينة سيجتونا [١٧] وأدت أعمال النهب التى قام بها القراصنة السلافيون إلى انهيار هايتهابا، بل والمدن السلافية نفسها التى فقدت إمكانات ممارسة التجارة بحرية. جدير بالاهتمام هنا أيضًا الخسائر التى لحقت بالقراصنة أنفسهم (خذ مثلاً ما حدث لمدينة ڤولين[١٨] نتيجة الهجمات المضادة التى شنها الإسكندنافيون. فى الوقت نفسه ساهم انهار المدن السلافية الواقعة على بحر البلطيق فى تغلغل الجرمانيين وقيامهم باحتلال هذه المنطقة، الأمر الذى ساعد بدرجة كبيرة على دعم مكانة جمعيات الفرسان الإقطاعية الجبارة وظهور حلف الهانزا.

* * *

# حلـف الهـانــزا
# وجماعة الإخوة الڤيتاليين

دفع اشتداد أعمال القرصنة فى البحر، وقطع الطرق فى البر، تجار شمال غرب أوروبا للاتحاد من أجل الدفاع عن مصالحهم المشتركة وتأمين التجارة. ولتحقيق هذا الهدف جرى فى قاعة مبنى بلدية لوبيك، وبحضور جميع أعضاء مجلس المدينة، وتجارها ، وكذلك ممثلى مدينة هامبورج، توقيع اتفاق إنشاء حلف بين المدينتين. جاء فى هذه الوثيقة ، التى أصبحت بمثابة نقطة انطلاق لإقامة اتحاد تجارى ضخم كان يسمى باللغة الألمانية القديمة الهانزا ما يلى:

«ليكن معلوماً للجيل الحالى، وليذكر أحفادنا، أننا وأصدقاؤنا الأعزاء مواطنو مدينة هامبورج، قد قمنا بعقد الاتفاق التالى، والذى ينص على أنه فى حال قيام القراصنة أو غيرهم من الأشرار بمهاجمة مواطنينا أو مواطنيهم، بدءًا من المكان الذى يصب فيه نهر ترافى مياهه فى البحر، وحتى مدينة هامبورج ذاتها، ومن عندنا وبامتداد نهر لابا وحتى البحر نفسه، أو اعتدوا على مواطنينا أو مواطنيهم ؛ فإن كل التكاليف والنفقات المتعلقة بضرب وتدمير هؤلاء اللصوص، يتم تقسيمها بيننا وبينهم مناصفة»[١٩].

كانت طرق أوروبا البرية فى القرن الثالث عشر مليئة بقطاع الطرق، بينما ازدحم البحر بالقراصنة، ولهذا فإن نقاط الاتفاق التى تعرضت للأعمال المشتركة بين المدينتين ضد الأعداء المشتركين.، ولتأمين الملاحة، كانت ذات أهمية عملية جوهرية.

قدم النضال المشترك للحلفاء فائدة كبرى إذ سهل عليهم سبل التجارةالبرية والبحرية غيرهم من الدول. على أن هولاء الحلفاء أنفسهم كانوا فى ذات الوقت يتنافسون فيما بينهم تنافسًا تجاريًا شديدًا، مصارعين بعضهم البعض بكل الوسائل التى كان الأخذ بها مقبولا آنذاك. بما فيها السطو، على الرغم من مثل هذه الخلافات الداخلية؛ فقد اعترفت بعض المدن بأن قيامها ـ إذا لزم الأمر ـ بأعمال موحدة يظهرون فيها على المناطق الساحلية لأوروبا الشمالية، سوف يجلب عليهم، كحلفاء، مكاسب محددة، على هذا لم يكن غريبًا أن نتوقع لوبيك فى نفس عام ١٢٤١ معاهدة صداقة وتعاون مشترك مع مدينة زيست، ومعاهدة شبيهة فى عام ١٢٥٩ مع أقرب موانى البلطيق إليها: روستوك، وفيسمار، وقبل ذلك بقليل، فى عام ١٢٥٣، قامت بعض المدن التى ممارست التجارة مع جزيرة جونلاند بعمل حلف يجمعهما البعض مثل: براونشفايج وشتادى، كولن وبريمن، بريمن وهامبورج، مونسة ودوتموند، زيست وليبى، بهدف النضال من أجل سلامة التجارة. وهكذا فإن كل مدينة من المدن المذكورة كانت مرتبطة بالمدن الأخرى، إما مباشرة وإما من خلال حليف لها.

بحلول نهاية القرن الثالث عشر، بدأ حلفاء آخرون ومدن متفرقة تقع جميعها فى أحواض بحرى الشمال والبلطيق، فى الانضمام إلى حلف الهانزا الذى ترأسته مدينة لوبيك. وفى عام ١٢٩٣، قررت أربع وعشرون مدينة من مدن شمال أوروبا العمل بشكل جماعى لمعالجة قضايا السياسة التجارية، وكانوا يلجأون إلى عقد جمعية عامة فى حالة نشوب خلافات بينهم. ومن وقت لآخر ـ وفقًا للاعتبارات السياسية والتجارية ـ كانت بعض مدن الدول الأعضاء فى حلف الهانزا تنظم مؤتمرات لحل الخصومات ووضع سياسة الحلف فى المستقبل. أخذ عدد أعضاء الهانزا فى التزايد المستمر. وقد بلغ عدد الموقعين على الوثيقة التى أعلنت بموجبها الحرب على ڤولدمار، ملك الدنمرك فى عام ١٣٦٧، سبع وسبعون موقعًا يمثلون مختلف المدن.

كانت الحقبة الفاصلة بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر هى فترة ازدهار حلف الهانزا، الذى استطاع أن يوجد بين بضع مئات من المدن. وفى

النصف الثانى من القرن الخامس عشر، تشكلت الهانزا من أربعة أجزاء عرفت بحلف الأربعة، وهم بالتحديد: الفندى وغلى رأسه مدينة لوبيك، وتدخل فى نطاقه المدن الساحلية من بريمن وحتى جريفيا[٢٠] البروسى الليفليباندى، وعلى رأسه مدينة رانتسيج ، السكسونى، وعلى رأسه مدينة بروانشفايج، وأخيرًا المدن المطلة على نهر الراين، وعلى رأسها كولن. ونتيجة لتطور كل منها، أخذ كل جزء من أجزاء حلف الهانزا فى اتباع سياسة خاصة به، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى انهيار الهانزا كحلف.

لقد كان لإنشاء الهانزا أثره فى فتح صفحة حافلة بالأحداث فى تاريخ النضال بين المدن المتحالفة وقراصنة بحر الشمال. فى أول الأمر حققت الهانزا نجاحات هامة، على أنه - وبمرور الوقت - أصبحت هى نفسها عاملاً بعث القرصنة، فكثيرًا ما كان بحارة السفن المنتمية للهانزا والمنوطين بمهمة محاربة القراصنة؛ ما يقعون تحت إغراء الثروة التى يتمتع بها لصوص البحر، فيهرعون للانضمام إليهم بدلا من مقاومتهم.

حلت منظمات جديدة للصوص البحر محل قراصنة البلطيق والفايكنجج، لتواصل تقاليد من سبقوها من منظمات دون أن تقل عنها قوة وجبروتًا. كانت منظمة الفيتاليين[٢١] واحدة من أكثر تلك المنظمات قوة وقد أطلق الفيتاليون على جماعاتهم من اللصوص اسمًا ذا جرس ثقيل وهو «أصدقاء الله - أعداء العالم». ما تزال أصول جماعة الفيتاليين مطوية فى غياهب القرون على أنه ليس من العسير أن تخمن أسباب ظهورها، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا العلاقات التى سادت هذا الجزء من العالم على تخوم القرنين الثالث عشر والرابع عشر. بالإضافة إلى البحارة الهانزيين الذين ورد ذكرهم سابقًا، فإن هذه الجماعة التى اختارت جزيرة جوتلند مكانًا لإقامتها قد ضمت بين صفوفها الهاربين من القانون، وبعض الأشخاص الذين كانوا يرون أن ظلمًا شديدًا قد حاق بهم، وآخرين يبحثون عن العدالة أو الكسب السهل، أو إمكنات الانتقام من أعدائهم، أو من أولئك المندفعين ببساطة وراء المغامرات، إذ قد عاش لكونهم فى تلك الفترة العديد من الناس الذين اضطروا لمغادرة أوطانهم لكونهم هدفًا لمطاردة

الإقطاعيين ومجالس أشراف المدن. كان من الممكن أيضًا أن نجد من بين القراصنة الڤيتاليين من فروا من حلف الهانزا من الفندين أساسًا، من كل مدن ألمانيا[٢٢]، وهولندا، وفريزيا[٢٣] وكذلك من الدنمركيين، والسويديين، والليفلانديين[٢٤] والكاثوبيين[٢٥]، والبوموريين، والفرنسيين ولعل بعضهم كان من البولنديين أيضًا.

سنجد - إذا ماتتبعنا التقاليد البعيدة لقراصنة البلطيق والڤايكنج - أن جماعة الڤيتاليين قد التزموا داخل منظماتهم بنظام حديدى، ولم يكن بينهم من نساء سوى الأسيرات. كان الربابنة القراصنة يطلبون من بحارتهم الخضوع المطلق، ولم يكن سوى الموت شنقًا عقابًا على مخالفة أوامراهم وفى جزيرة جوتلاند - التى كنت واقعة تحت سيطرة «الإخوان الڤيتاليين» - كان مركز أركان القراصنة. هنا كان يتم الاحتفاظ بالغنائم، وهنا أيضًا كان يجرى تقسيمها بين القراصنة الذين تميزوا إبان الحملات. وهذه الجزيرة كانت تمثل قاعدة لجميع أساطيل القرصنة، وكان سكانها يجبرون أحيانًا على دفع الفدية، وإن كان مقدارها معتدلاً نسبيًا، إذ أن جميع الأشياء ذات الضرورة الأولى وثروات الڤيتاليين قد تم الحصول عليها بالاستيلاء على السفن فى البحر، وبالغارات على المدن الساحلية، وعلى هذا فالڤيتاليون - مثلهم فى هذا مثل جميع قراصنة ذلك الزمان. كانوا يعملون بالتجارة إلى جانب حرفتهم الأصلية، فكانوا يتاجرون بالممتلكات التى سرقوها، وكانوا أحيانًا ما يبيعونها حتى فى تلك الأماكن التى كان ملاكها الشرعيون بصدد بيعها فيها.

وصل نشاط الڤيتاليين أقصى مدى له فى تلك السنوات التى كان على رأس جماعة القراصنة فيها الزعيم الموهوب كلاوس شتيورتيبيكر. استطاع كلاوس هو ومساعدة جوديكى ميخيلس الانضمام إلى لصين بحريين آخرين هما مولتكى ومانتيفيل. كان كلاوس من أسرة بسيطة فى روستوك، وكان قد بدأ مستقبله التجارى والبحرى فى شبابه، فعمل فى مخازن تجار الأسماك المملحة فى سكانيا[٢٦]، وعلى ظهر السفن التى كانت تعمل بين مدينتى ريڤيل وبروجى، ثم عمل أخيرًا لدى أكبر التجار فى مسقط رأسه روستوك. كان كلاوس قد تعرض

للإهانة من قبل رئيسه، ولما لم يكن بمقدوره أن يتحمل المعاملة اللاإنسانية، فقد لجأ ـ مثل الكثيرين غيره فى تلك العصور ـ إلى تنظيم حركة تمرد فى نهاية القرن الرابع عشر على ظهر السفينة التى كان يعمل عليها، وألقى بربانها من فوقها، وخرج بها إلى البحر بعد أن تولى مقاليد قيادتها فى يده، تحدوه الرغبة فى الانتقام لما لحق به من إهانة. ونتيجة لتنظيمه تمردًا وخطفه سفينة، اعتبر كلاوس شتيورتيبيكر خارجًا على القانون. وقد أنيط أمر مطاردة هذا القرصان حديث العهد للمواطن الشهيد ڤولفلام من مدينة شترالانزوند، والذى فوضه حلف الهانزا قبل ذلك فى عام ١٣٨٥ فى مهمة مكافحة القرصنة البحرية.

لم يقف الأمر عند حد فشل سفن الهانزا فى القبض على شتيورتيبيكر الذى تميز بمواهب بحرية وعسكرية فذة، بل وصل الأمر إلى أنه أصبح يسبب المضايقات بصورة متقنة للسفن التجارية. كان رجلا قاسيًا لا تأخذه شفقة وخاصة تجاه من يقعون فى قبضته من ممثلى النبيل حاكم المدن الفندية لما بينه وبينهم من ثأر قديم.

على أن كلاوس شتيورتيبيكر قد دخل التاريخ، لا بسبب ما ارتكبه من أعمال الاغتصاب والقرصنة، ولكن بفضل نشاطه السياسى. وقد أتيحت له الفرصة لذلك فى عام ١٣٨٩ عندما اشتد الصراع فى السويد على العرش. فقد سقط هناك الملك آلبريخت (الذى لمْ يكن يتمتع بأى قدر من الشعبية وسط الإقطاعيين فى ألمانيا) فى أسر الملكة مرجريتا ملكة الدنمرك والنرويج. لم يبق على ولائه للملك فى تلك الحرب سوى حامية ستوكهولم التى أبدت مقاومة شديدة ضد الدنمركيين. كان الألمان آنذاك يشكلون الغالبية بين سكان ستوكهولم وعلى عكس الملكة مرجريتا فقد عضد الملك آبريخت التجار الألمان فى السويد ، ولو كان الدنمركيون قد استطاعوا الاستيلاء على ستوكهولم لزالت مميزات التجار الألمان، الأمر الذى كان سيؤدى بدوره إلى خلخلة توازن القوى فى البلطيق، ولأنزل هذا بالهانزا ضربة قاصمة. لقد أرسل المدافعون عن ستوكهولم ـ الذين أوقفوا بصعوبة بالغة من تفوق عدوهم، عددًا وعدة ـ إلى الهانزا رسائل يائسة يطلبون

فيها منها المساعدة. وفى هذا الموقف ولت لوبيك وجهها، وياللعجب، نحو القراصنة الهولنديين.

وافق شتيورتيبيكر على تقديم العون لألمان ستوكهولهم وللهانزا، ومن ثم شرع فى اتخاذ العمليات الحربية ضد الدنمركيين معتمدًا فى ذلك على أسطوله. لم يكن باستطاعة شتيورتيبيكر أن يقف فى وجه السفن الحربية الدنمركية جيدة التسليح فى معركة مفتوحة، فى الوقت الذى كان كل ما يملكه لا يزيد عن عدد من السفن الصغيرة الخفيفة، فقرر أن يبحث عن وسيلة أخرى يساعد بها المحاصرين. لم تفلح عملية اقتحام المدينة، وتحول الدنمركيون إلى فرض الحصار فى محاولة لتجويع المدافعين لإجبارهم على الاستسلام؛ وها هم قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفهم بعد أن قطعوا طرق توصيل المؤن من ناحيتى البر والبحر. لقد أصبح واضحًا للعيان أن عاصم للمحاصرين مما هم فيه سوى أعمال تتسم بالسرعة والحسم.

ذات مرة - وعلى حين غرة - ظهرت عند مشارف ستوكهولم فجرًا مجموعتان من سفن القراصنة وفى الوقت الذى قامت فيه المجموعة الأولى بشن هجوم شجاع على كردون السفن الدنمركية، انتهزت المجموعة الثانية فرصة الذهول والاضطراب الذى أحدثه هذا الهجوم المفاجىء، فانسلت من جانب الدنمركيين تمامًا لتدخل إلى ميناء ستوكهولم. لقد كرر القراصنة هذه المناورة عدة مرات تكللت جميعها تقريبًا بالنجاح، وفى كل مرة كانت السفن تحمل المؤن والأغذية إلى المدافعين عن المدينة، من هنا حمل القراصنة الهولنديون اسم «الإخوة الفيتاليون» Vitalienbrüder المشتق من الكلمتين الألمانيتين Büder ومعناها إخوة و Vitalien ومعناها الغذاء أو الطعام.

كان للمآثر البطولية التى اقترحها الفيتاليون، وكذلك كونهم من الدهماء الذين رفعوا شعار العدالة الاجتماعية وقاتلوا تحت رايته، أثره فى أن حصلت جماعتهم على التعاطف والشعبية بين البسطاء من أبناء مدن حلف الهانزا، أفضل دليل على ذلك ما أسفر عنه هجوم القراصنة على فيسمار. لقد عقد شتيورتيبيكر ورفيقه جوديكى ميخلس العزم على اتخاذ خطوة بدت متهورة، وهى

الهجوم على ميناء فيسمار فى محاولة منهما لفك أسر عدد من أنصارهم، وتوفير المؤن للشتاء. صحيح أن مجلس المدينة ـ الذى بوغت بالهجوم المفاجىء ـ قد تمكن من الاستنجاد بمدن الهانزا الأخرى، ولكن ذلك جاء بعد ما نجح جيش الفيتاليين المنتصر فى مهمته وأوغل مبتعدًا فى البحر. لم يكن الفيتاليون ليتمكنوا من تنفيذ هذه الخطة المتهورة لولا أن مواطنى فيسمار البسطاء، الذين كانوا يكنون العداء لنبلاء مدينتهم، قدموا المعونة فى هذه العملية لأبطال ستوكهولم الأسطوريين.

نفس الدور لعبته مؤازارة عامة الشعب عند فتح الفيتاليين عام ١٣٩٢ لمدينة برجن مركز النرويج التجارى آنذاك. فقد استولى القراصنة على الإدارة المحلية للهانزا وأضرموا فيها النيران، وقاموا إبان عمليتهم هذه بأسر العديد من وجهاء برجن ثم طالبوا بفدية ضخمة مقابل إطلاق سراحهم.

أصبح الوضع السياسى للفيتاليين فى أواخر القرن الرابع عشر ومستهل القرن الخامس عشر وضعًا يتسم بالازدواجية إلى حد كبير. فمن ناحية قام الفيتاليون بالوقوف ضد النظام الاجتماعى السائد بمحاربتهم للدوائر الحاكمة فى المدن أعضاء حلف الهانزا النبيل ومجالس المدن، ومن ناحية أخرى قاموا مرات عديدة، كما حدث فى ستوكهولم، بالعمل فى خدمة هذه المدينة أو تلك ضد أعدائها، ومن ثم فكثيرًا ما كانوا يدخلون فى حرب ضد مدينة أخرى من مدن الهانزا، كانت منافسة فى الوقت نفسه لأعدائهم. وهكذا كان الفيتاليون يتصرفون فى أوقات عديدة بوصفهم مرتزقة مأجورين يعملون فى خدمة نفس هذا النبيل الذين كانوا يعدونه عدوهم الرئيسى.

إن هذا الوضع ـ المتناقض للوهلة الأولى ـ انعكس بصفة خاصة فى نصوص عدد محاضر وقرارات الهانزا. وقد حدث مرارًا أن اتخذ مؤتمر حلف الهانزا قرارات بالقيام بعمليات عسكرية كان من الضرورى أن تُستخدم فيها القراصنة إلى جانب الهانزا علنًا بشكل أو بآخر،، فى الوقت الذى يتخذ فيه نفس المؤتمر قرارًا آخر باستئصال شأفة القراصنة فى بحر البلطيق، ومن بينهم خاصة الفيتاليين، وذلك لأن تجار الهانزا الذين كانوا لا يستنكفون أحيانًا عن القيام

بالسرقة كانوا يميلون فى سياستهم إلى ممارسة تجارة دولية ضخمة، ولهذا سعوا لإزالة كل العوائق ـ بقدر الإمكان ـ من أمام هذه التجارة.

على الرغم من القرار الذى اتخذه حلف الهانزا بالقضاء على الڤيتاليين دون هوادة ولا رحمة، فقد اتسع نشاط القراصنة، وبمرور الوقت بلغ هذا النشاط إلى حد أنه لم تكن هناك سفينة يمكنها المرور عبر المضيق الدنمركى والخروج من البلطيق رلى بحر الشمال أو العكس، إلا بعد أن تدفع الإتاوة للڤيتاليين. بعد إحراق مدينة برجن، أخذ القراصنة فى نهب كل من يعترضهم، حتى أولئك الصيادين الذين كانوا يصطادون الأسماك من بحر الشمال لتمليحها. نتيجة لكل ذلك، توقفت الملاحة التجارية فضلاً عن صيد السمك.

أصبح هذا الوضع يمثل تهديدًا لوجود الدول المطلة على أحواض بحرى البلطيق والشمال. عندئذ قررت تلك الدول أن توحد قواها حتى تضع من أجل مصالحها المشتركة نهاية للنهب البحرى. على أن أول حملة وجهت القراصنة تحت قيادة الملكة مارجريتا والملك ريتشارد الثانى ملك إنجلترا منيت بالفشل، اشتد ضيق الهانزا أيضًا من القراصنة، فالخسائر التجارية التى ألحقها النهب البحرى بمدنه لم تعوضها الخدمات التى أداها له القراصنة. تلت الحملة الأولى حملة أخرى فى عام ١٣٩٤ أعدتها فى هذه المرة مدن الهانزا واشتركت فيها خمس وثلاثون سفينة حربية، وثلاثة آلاف نبيل، إلا أنها لم تأت هى الأخرى بالنتائج المرجوة.

بمرور الوقت أخذ تناسب القوى فى منطقة بحر البلطيق والدول المطلة عليه يتغير لغير صالح الڤيتاليين؛ ولما كانت الملكة مرجريتا لا تملك إمكانية تسوية أمورها مع القرصنة، فقد توجهت بطلب العون من كونراد فون بونجينجين بطل جماعة الصليبيين، كانت هذه الجماعة آنذاك فى قمة قوتها، وكآن قد تم بناء جيش محكم وأسطول ذى بأس شديد.

وعندما أبحر الصليبيون فى عام ١٣٩٨ باتجاه جوتلند، لم يكن بمقدور الڤيتاليين التصدى لهم، ولم يكن أمامهم من بد سوى التكدس على بواخرهم،

ومغادرة البلطيق إلى الأبد، وليلوذوا بعد فرارهم من وكر القرصنة ببحر الشمال، حيث استولوا هناك على جزيرة هيلجولاند وقاموا بتحصينها. على أنه بوجودهم عند منصب نهر إلبا، اتضح أنهم قد وقعوا وجها لوجه مع عدوهم الرئيسى الهانزا. لكن الهانزا هذه المرة لم تعد مجرد الريع الفندى(٢٧)، وإنما صارت مينائين قويين هما هامبورج وبويمن اللذان لم يعودا فضلا عن ذلك يعتزمان اللجوء لخدمات القراصنة. ولم يشأ هذان المركزان التجاريان التصالح مع وجود القراصنة قاب قوسين أو أدنى من أبوابهما.

فى عام ١٤٠١ غادرت مصب نهر إلبا سفينة تجارية ضخمة، كان من الجلى أنها محملة عن آخرها بالنفيس من البضائع . يممت السفينة شطر بحر الشمال متجهة مباشرة إلى هيلجولاند . هنا انقض القراصنة الذين كانوا كامنين على هذه الغنيمة السهلة التى بدت لهم دون حماية تذكر، لكن حسابهم كان عسيرًا فلم تكن إلا سفينة حربية، سفينة - فخ ، اتخذت هيئة السفن التجارية ، وما هى إلا دقائق حتى دخل طاقمها كثير العدد والعتاد فى معركة مع القراصنة، التهمت الفيتاليين الذين لم يتمكنوا حتى أن يلحظوا فى وطيسها كيف اقترب منهم أسطول مدينة هامبورج.

لم يكتب ولو لزورق واحد من الزوارق التى اشترك بها القراصنة فى المعركة النجاة ثم أسر خمسون رجلا. وجرى الاستيلاء على وكر الفيتاليين وتدميره فى جزيرة هيلجولاند. أما شتيورتيبيكر وميخلس، اللذان وقعا فى الأسر أيضا، فقد أطيح برأسيهما علنًا فى واحد من ميادين هامبورج، وسيق باقى الأسرى، وفقًا لتقاليد العصور الوسطى، مقيدين فى الأصفاد الحديدية، وغيبوا فى السجون، أو أرسلوا إلى الأعمال الشاقة.

يقال أن سوارى سفينة شتيورتيبيكر كانت مجوفة، وقد صب فى مكان التجويف سبيكة من الذهب الخالص. كانت الثروات التى تم الاستيلاء عليها فوق سفن القراصنة وفى قاعدتهم فى هيلجولاند، تكفى لتغطية نفقات الحملة بالكامل، وتعويض تجار الهانزا عن الجزء الأكبر من الخسائر التى تكبدوها، فضلاً عن تجميل برج كنيسة القديس نيقولا فى هامبورج بتاج من الذهب.

تفرقت فلول الفيتاليين الذين فروا من هيلجولاند فى سائر أنحاء ألمانيا، وظل الإقطاعيون والسلطات المدنية يقتفون أثرهم بكل إصرار.

لم تنته القصة المثيرة للقرصنة فى بحر البلطيق على الإطلاق بالهزيمة التى لحقت بالفيتاليين. إن العلاقات الاجتماعية الاقتصادية التى تكونت هنا قد خلقت ظروفًا مناسبة، ولأمد طويل، لنمو النهب البحرى. لقد كان للحكم الجائر الذى مارسه الإقطاعيون، فضلاً عن الأنانية والنفعية التى تميز بها نبلاء اتحاد الهانزا أثره فى انتشار التذمر والاستياء فى صفوف الفلاحين والمدنيين، بدءًا من دانتسيج، وحتى هامبورج، حيث غرق صغار أواسط النبلاء فى الديون للبرجوازية الغنية. من هنا تحول الكثير من الذين أثقلتهم الديون والذين نجوا من السجون إلى قراصنة.

## قراصنة ألبيون[٢٨]

أصبحت الجزر البريطانية موطنًا للقرصنة فى بحار الشمال، وذلك بعد اندحار الفيتاليين، لقد أسهم ازدهار الملاحة التجارية الإنجليزية مع أساليب هذا الزمن التى لعب من بينها السلب، وفقًا لتقاليد العصور الوسطى، دورًا لا يستهان به، فى نمو النهب البحرى فى هذه البقعة من العالم. كان القراصنة الإنجليز يمارسون نشاطهم بصورة رئيسية فى مضيق المانش وما حوله من مياه، مغيرين على السفن التى تعمل بالتجارة ما بين الجزر البريطانية وأوروبا. وكان للنشاط الفعال من جانب القراصنة أثره الفعال على ارتفاع أسعار السلع ومن ثم على ارتباط الاقتصاد فى كل من إنجلترا وفرنسا ودول أخرى.

جاء بنا الأسطول البحرى الحربى إبان حكم هنرى الثالث وأسلافه إدوارد الأول وأدوارد الثانى[٢٩] ليكون له بعض الأثر فى إعاقة نمو القرصنة، على أنه إثر وفاة إدوارد الثانى (عام ١٣٢٧)، الذى حمل لقب «ملك البحار»، وصل الأسطول الإنجليزى إلى حالة الانهيار، وما لبث القراصنة أن أطلوا برءوسهم من جديد. أخيرًا أنشأ التجار وسائل دفاعية خاصة تحميهم من اللصوص، وذلك على غرار

اتحد الهانزا البائد. أسست جمعية الموانى الخمسة بداية من كل من مدن جاستينجس، رومنى، هايت، دوفر، وسلندويتش، ثم انضمت إليهم بعد ذلك وينشلى، وراى. كان دعم الأسطول البوليسى المشترك يأتى من أموال الإتاوة الخاصة التى كان يدفعها أعضاء الجمعية. كان على هذا الأسطول أن يقوم بتوفير الأمن فى الطرق البحرية التى كانت تربط الجزر البريطانية بأوروبا، وكتعويض مقابل الخدمات التى تقدمها الجمعية، وافق التاج البريطانى على أن يقدم لها بعض الصلاحيات: فقد أعطيت لسفن الجمعية الحق فى تفتيش كل السفن التى كانت تمر عبر القناة. على أن هذه المزايا التى كان الهدف منها حماية ملكية ومصالح مجموعة محددة من التجار، انقلبت لتهدد مصالح مجموعات أخرى.

لقد أدت المزايا المذكورة التى قدمت للجمعية الى نتائج مدمرة، فبعد فترة قصيرة من قيامها، تحولت الشخصيات المسئولة عنها كمنظمة إلى مجرد قراصنة عاديين قاموا بنهب سفن منافسيهم تحت حماية المرسوم الملكى.

انهالت الشكاوى من كل مكان على الملك بسبب ما يرتكبه أعضاء الجمعية من فساد، حتى أن بعض التجار أصبح يبدى مقاومة إيجابية تجاههم، فى نفس الوقت بدأت الموانى الإنجليزية التى لم تدخل فى عضوية هذه الجمعية فى إظهار المزيد من الاستياء على نحو سافر. هكذا أصبح الوضع فى البحار التى كانت تحد الجزر البريطانية ملائمًا للمزيد من نحو نمو حركة القرصنة، أخيرًا وعندما قرر التاج التدخل لوضع نهاية للخروج على القوانين، اتضح أن كثيرًا من الموانىء تؤيد علاقات الصداقة مع القراصنة، موفرين لهم الملجأ مقابل عدم تعرضهم لسفنهم بأذى. هزت هذه الأنباء أكثر أقطاعات البلاد بشدة، فجرى على الفور إصدار قوانين صارمة ضد من يقدم العون للقراصنة. لقد استطاعت القرصنة أن تتغلغل بعمق فى عدد من دوائر المجتمع الإنجليزى إلى الحد الذى أصبح استئصال شأفتها منها جميعًا، ويعمل واحد فى نفس الوقت، أمرًا مستحيلاً.

ومما فاقم من سوء الأوضاع إلى جانب ذلك كله، اندلاع حرب المائة عام (٣٠)، حتى أن الأساطير أخذت تُنسَج حول بعض عصابات قطاع الطرق البحرية. سواء

من الإنجليز أو الفرنسيين. وهى أساطير كان لها أبطال إيجابيون وآخرون سلبيون.

كان جون هولى واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين نظموا فى عام ١٣٩٩ حملة تأديبية ضد القراصنة الفرنسيين الذين قاموا بنهب ميناء دارتموت. هاجم هولى شواطئ كل من نورماندى وبريتانى وذلك بعد أن تمكن من الاستيلاء على أربع وثلاثين سفينة فرنسية، وكان يعد مثلاً نموذجيًا لطبقة التجار التى زاوجت بين حرفة القرصنة وبين المصالح التجارية. لم يمض زمن طويل إلا وقد حقق جون هولى ثروة طائلة ونال لقب أدميرال لقاء خدماته لبلاده، على أنه لم يترك أعماله الخاصة إبان تأديته لوظيفته الشرفية، وها هو فى عام ١٤٠٣ يتجه على رأس أسطول من السفن تنتمى إلى موانى كل من دارتموت، وبلايموث، وبريستول، فى حملة عاد منها وقد أضاف إلى ثروته سبع سفن استولى عليها من جنوه وإسبانيا.

البطل الآخر هو جارى باى من ميناء بوول، وهو معاصر لجون هولى، وقد وجه اهتمامه إلى سواحل جاليسيا الواقعة شمالى إسبانيا على المحيط الأطلنطى. أما أحد أشهر أعماله فهو سرقته الصلبان من كنيسة تقع فى منطقة رأس فينيستر. أثار هذا العمل، الذى اعتبر تدنيسًا للمقدسات الإسبانية إلى حد أنهم قاموا فجأة بالهجوم على ميناء بوول موطن باى وأحرقوه عن آخره. كان باى، خلافًا لجون هولى، فى مشاكل مستمرة مع السلطات فى بلاده، وكان يتمكن دائمًا من الخروج سالمًا دون خسائر من كل المصائب التى تلم به وذلك بفضل مواهبه الفذة فى الملاحة. فى الوقت نفسه كان حكام إنجلترا يتمتعون بكل رضا بخدماته فى كل مرة تدعوهم الحاجة إليها. وفى عام ١٤٠٦ قام باى على رأس خمس عشرة سفينة بالاستيلاء على مائة وعشرين سفينة فرنسية، ولم يكن من العجيب إذن أن يتلقى التحية فى ميناء بوول باعتباره بطلاً قوميًا، أمام اليوم الذى أحضرت فيه الغنائم التى تم الاستيلاء عليها من الفرنسيين، فقد أصبح عيدًا شعبيًا فى المدينة تقام فيه الولائم الماجنة، ويخرج الناس فيه للنزهة والتجول، وقد سجل هذا العام رسميًا فى الوثائق التاريخية للمدينة.

على أن باى لم يكن حافظًا إطلاقًا لجميل موطن رأسه عليه كما قد يتصور أحد ذلك، إذ أن بوول لم تعد، بعد إحراقها على يد الإسبانيين، لمجدها القديم أبدًا.

يصعب على المرء الآن أن يصدق، إذا ما زار مدينة فاواى الإنجليزية الهادئة، أنها كانت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزًا مزدهرًا للملاحة والتجارة مثلها فى ذلك مثل تلك الموانى الضخمة: دارتموث، بوول، أو بلايموث. إن ميناء فاواى مدين بثرواته ورخائه أولاً وقبل كل شىء لأعمال القرصنة التى امتهنها سكانه. لم يحظ أى ميناء من موانى شبه جزيرة كورنول بسمعة سيئة مثلما حظى ميناء فاواى الذى قام بحارته إبان حكم إدوارد الثالث[٣١] بالهجوم على شواطئ نورماندى واغتصابها دون أدنى رحمة. لقد استخدم الملك الإنجليزى خلال حرب المائة عام كل الوسائل لتشجيع المبادرة الخاصة التى أظهرها رعاياه بشأن الدخول فى معركة ضد الفرنسيين، على أن أبطال فاواى، كما كانو ا ـ بكل استخفاف ـ يسمون أنفسهم فى أوقات السلم، قد سببوا للملك كثيرًا من المتاعب، كما دخلوا فى قتال مع جمعية الموانى الخمسة التى كان الملك نفسه يعضدها، رافضين أن يسمحوا لها بحق تفتيش سفنهم.

على أنه فى تلك الأزمنة، كان كل ميناء فى غرب إنجلترا يتمتع بحماية قرصانه المحلى الذى كان يعمل يدًا بيد مع الإقطاعيين فبينما كان باستطاعة ميناء أكسيموت مثلاً أن يتباهى بالكابتن وليم كايد، كان كلاى ستيفان فى بورتسماوث يتصرف كما لو كان صاحب البيت، وهلم جرا. كانت العلاقات بين القراصنة والصفوة قوية إلى الحد الذى نفت فيه هذه العلاقات، من الناحية العملية، أية إمكانية لدفع هذه المصيبة. لقد كان الشك يحوم، ليس فقط حول اشتغال أو قيام علاقات بين قباطنة السفن وبين القراصنة، بل بين القراصنة وبين أصحاب السفن وموظفى الدولة الذين كان من واجبهم مكافحة القرصنة ذاتها.

على الجانب المواجه لبحر المانش فى بريتانى كان الكثير من السكان يمارسون النهب البحرى أيضًا: والحادثة التالية هى واحدة من العديد من الحوادث التى كان يعج بها ذلك العصر والمميزة للوضع الذى كان سائدًا آنذاك.

فى عام ١٣٤٣ علم سكان نانت (الميناء الفرنسى الواقع عند مصب نهر اللوار) نبأ القبض على النبيل أوليفييه دى كليسون الثرى الأرستقراطى العريق بتهمة الخيانة. وسواء كان هذا الاتهام صحيحًا أم كان باطلاً، فقد أدين أوليفييه بدعوى تقديمه العون لإنجلترا، الأمر الذى سبب خسائر فادحة لمصالح فرنسا. لقد بذل أصدقاء هذا الإقطاعى قصارى جهدهم للإفراج عنه، غير أن علاقتهم بذوى النفوذ وما بذلوا هنا وهناك من رشوة لم يحقق أى نتائج إيجابية.

كانت جانًا دى بلفيل المدلهة فى حب زوجها الأرستقراطى المتهم، والتى كانت تعد آنذاك واحدة من أجمل نساء فرنسا، تتمتع بنفوذ قوى لدى البلاط الملكى. على أن كل جهودها هى الأخرى ذهبت سدى على الرغم من أنها أبدت استعدادها بأن تهب كل ما تملك فى سبيل حرية زوجها. وعلى الرغم من غياب الأدلة وتأكيد أوليفييه دى كليسون على براءته، فقد جرت الإطاحة برأسه علنًا فى باريس، ثم أرسلت الرأس إلى نانت حيث علقت فوق حائط المدينة ليشاهدها الجميع.

أقسمت جانًا دى بلفيل أن تكرس ما تبقى من عمرها للانتقام من وطنها، فارتأت أن أفضل ما تفعله هو أن تشتغل بالقرصنة البحرية، وهكذا دخلت جانًا عالم القرصنة تحت اسم ليدى كليسون، وسرعان ما قامت بتجهيز ثلاث سفن من حصيلة الأموال التى آلت إليها من بيع ممتلكاتها من حصون، وأراض ومجوهرات، ثم استأجرت قراصنة يتميزون بالشجاعة والقسوة.

قام ولدا جانًا اليافعان بمساعدتها، بينما تصدت هى بنفسها لرئاسة الأسطول، وبالنار والسيف، شنت ليدى كليسون حملاتها على المناطق الواقعة على سواحل فرنسا. وكانت تدمر السكان بلا استثناء. كما أغرقت كل ما صادفها من سفن دون أن تأخذها أدنى شفقة بأطقمها. ظل مصير ليدى كليسون مجهولاً؛ وإن كان من الواضح أنه كان رهيبًا تمامًا مثل المصير الذى آل إليه زوجها.

أحيانًا ما كانت هذه الحكومة أو تلك تسعى لاتخاذ إجراءات ضد القرصنة، وخاصة عندما يصل أمر الأخيرة إلى ذروته. وأحيانًا أخرى كانت بعض الدول

التى تتعرض للتهديد تلجأ لتوحيد جهودها فى الصراع مع الشر، الذى كان قد ملأ الطرق البحرية، على أن إصدار مراسيم من شأنها مضاعفة العقوبات على أعمال القرصنة لم تكن كافية، إذ أن القائمين على حماية القانون وتوفير الأمن كثيرًا ما كانوا يتقاضون الرشوة من القراصنة، الذين لم يكونوا يبخلون ببعض أموالهم فى سبيل مصالحهم.

كان هناك تأثير آخر أكثر تدهورًا تمثل فى ممارسات عدد من الملوك الذين كانوا يتمتعون هم أنفسهم، إذا ما دعت الحاجة وخاصة فى وقت الحرب، لخدمات القراصنة، إذ كانوا يجندونهم للقيام بأعمال القرصنة لصالحهم. وهناك أمثلة عديدة تبين لنا كيف أن أعتى القراصنة الذين قاموا بالنهب والاغتصاب تحت راية الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين قد ارتقوا فجأة وبفضل مواهبهم الفذة فى الملاحة ليحوذوا مراتب الأبطال القوميين ومنقذى الوطن. كثير من هذه الحالات يمكن ملاحظتها فى تاريخ إنجلترا بصفة خاصة.

عندما قرر الملك الإنجليزى هنرى الخامس وضع حد لهذه الحروب المدمرة، عقد اتفاقًا مع كل من فرنسا وإسبانيا تلتزم بموجبه كل الاطراف بعدم اللجوء لخدمات القراصنة، كما ينص على القيام بأعمال مشتركة ضدهم. كان على كل مالك سفينة مسلحة أن يدفع ـ بناء على هذا الاتفاق ـ كفالة مالية ضخمة يتم بفضلها ضمان السلوك الملائم للقبطان وطاقمه فى البحر وبدونها لم يكن بإمكانهم مغادرة الميناء. ومن أجل أن يدعم الملك هنرى الالتزامات الواردة بالاتفاق؛ قام بإصدار القوانين التى راعت العقوبات الصارمة على النهب البحرى، وكان يمنح ما عرف باسم الشهادات الحديدية للسفن التى كانت تعمل بموجب هذه القوانين. تحسن الوضع، ولكن على نحو ضئيل للغاية، لأمد قصير جدًا أيضًا، أما فى فترة حكم هنرى السادس[٣٢] فقد بلغت القرصنة مستويات لم تبلغهامن قبل، حتى أن التجارة البحرية لم تعد تدر أرباحًا تذكر، وأصبحت المخاطرة بفقد البضائع عظيمة حتى بدا أن إرسال هذه البضائع من لندن إلى فينيسيا بالطريق البرى المضنى، ثم شمالا عبر نهر الراين، ثم بعد ذلك عبر جبال الألب. أكثر ربحًا من استخدام أقل الطرق البحرية تكلفة.

وفي فترة حكم هنرى السابع[٢٢]، تم التوصل إلى طريقة جديدة لمكافحة القرصنة بدت لمبتكريها مؤثرة بحيث يمكن باستخدامها توجيه ضربة ماحقة لقدرة لصوص البحر. فقد طُرح اقتراح بإعطاء شهادات تبيح الاستيلاء على شحنات السفن الأخرى الغريبة لهؤلاء القباطنة الذين اضطروا للدخول فى معركة مع القراصنة وذلك على مسئوليتهم. على أن هذه الطريقة لم تزد الأمر فى النهاية إلا سوءًا. فقد أصبحت هذه الشهادات تستخدم بأشكال مختلفة ومفاجئة. فعلى سبيل المثال لو أن تاجرًا إنجليزيًا تعرض لهجوم من جانب القراصنة الفرنسيين وانتهى الأمر بسرقته على أيديهم، وبلغت خسارته ما قيمته خمسون جنيهًا استرلينيًا، فإن الحكومة الإنجليزية تمنحه شهادة تعطيه الحق فى الاستيلاء على بضائع من أية سفينة فرنسية تساوى هذا المبلغ.

دليل واضح على النتائج المدمرة لمثل هذه القوانين تمثله الحادثة التالية التى وقعت للتاجر الاسكوتلندى أندريه بارتون:

حصل بارتون من الملك ياكوف الرابع ملك سكوتلندا على شهادة تعطيه الحق فى الانتقام بعدما أبلغ عن وقوع أبيه منذ عدة سنوات خلت ضحية النهب البحرى من جانب البرتغاليين. ظهر بارتون عند شاطئ فلاندريا على رأس سفينتين مسلحتين على نحو جيد هما «لياون» و «جينيت بيرفين». قام بارتون بنهب كل السفن التى صادفته فى طريقه أيًا كان العلم الذى ترفعه، وخصوصًا السفن الإنجليزية التى كانت تعمل بالتجارة مع الموانى الفلمندية. وفى النهاية أحدث نشاط بارتون ضجة هائلة؛ الأمر الذى دفع الملك هنرى الثامن لإرسال عدد من سفنه لمقاومته. لقد لقى بارتون مصرعه إبان المعركة البحرية الشديدة التى جرت عند جودوينساندس، أما سفنه فقد قَطَرَها المنتصرون إلى بلاكويل حيث ضمت إلى الأسطول البحرى العسكرى الإنجليزى. وقد صارت هذه المعركة موضوعًا لعدد من الأساطير الشعرية فيما بعد.

فى بداية التنافس بين إنجلترا وإسبانيا فى حوالى النصف الثانى من القرن السادس عشر من أجل فرض السيطرة على بحار الدنيا، لعبت القرصنة دورًا هامًا، وكان لواء النصر يعقد تارة لصالح هؤلاء، وتارة لصالح أولئك، كما أصبح

العداء الدينى بين إسبانيا الكاثوليكية وانجلترا البروتوستانتية حجة إضافية. وسرعان ما انتقلت ساحة الحرب بينهما من المياه التى تحيطها الشواطئ الأوروبية إلى المحيط الأطلنطى، ومنه إلى مياه العالم الجديد.

وإذا ما قمنا بدراسة المراسلات الدبلوماسية فى فترة حكم كل من هنرى الثامن وإليزابث الأولى(٣٤) لأمكننا أن نلاحظ دون صعوبة تذكر أن الاحتجاجات التى تقدمت بها مختلف الدول ضد النشاط الواسع للقراصنة الإنجليز تشغل فيهاحيزًا كبيرًا، كما أن الجزء الأكبر منها مكرس لنشاط توماس ويندهام من نورفولك الذى خدم ضمن الأسطول البحرى العسكرى الإنجليزى حتى وصل إلى رتبة نائب أدميرال بالرغم من أنه اشتغل أيضًا بالقرصنة، وكان إعادة الاستيلاء على السفن المارة فى قناة المانش والمحملة بالسكر ثم شحنه إلى وترفورد حيث يباع لتجار لندن واحدة من المهام الرئيسية التى كان منوطًا بها. وقد طلب السفير الإسبانى من الملكة إليزابث الأولى. بعد اعتلائها العرش بعامين، المثول أمامها حتى يعلن لها باسم مَلكه إحتجاجه الشديد ضد أعمال الاغتصاب والقرصنة التى يمارسها البحارة الإنجليز. وفى نفس الوقت ازدهرت فى ميناء دوفر الواقع جنوبى انجلترا سوق للتجارة بالنبلاء الإسبان، وكان الوسطاء يدفعون مقابل كل إسبانى حسن الهيئة ويبشر بفدية ضخمة مبلغًا يصل إلى جنيه استرلينى.

كان أكثر ما يوغر صدر الأسقف كواندر ـ الذى كان يمثل الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا لدى بلاط إليزابث الأولى ويزيد من حنقه ـ هو قضية القرصانين بول وتشامبنى. دأب هذان الرجلان على مهاجمة السفن الإسبانية فى طريق عودتها من جزر الأنتيل متربصين لها فى المسافة الواقعة ما بين جزر الأزور والكناريا. وفى عام ١٥٦٠ نزل القرصان إلى إحدى جزر كناريا، وهناك تمكن الإسبان من القبض عليهما وأودعوهما إحدى القلاع حيث بقيا هناك حتى أعياد الميلاد. وعندئذ انتهز اللصان فرصة ذهاب جميع السكان إلى القداس المقام فى الكنيسة ليفرا من السجن، ويتسللا إلى المرسى، حيث تمكنا من الاستيلاء على سفينة راسية نجحا فى الوصول بها سالمين إلى إنجلترا.

كان لهذا العمل نتائج خطيرة، فإليزابث والمقربون لها كانا قد عزما منذ زمن بعيد على الانتقام من إسبانيا المنافس الرئيسى لهم فى البحار، على أن إنجلترا لم تكن مستعدة آنذاك للدخول فى معركة معها، ولذلك عمدت إلى تجنب الدخول فى نزاع مباشر ولو لبرهة. فى الوقت نفسه لم يكن بنيّة حكومة الملكة اليزابث وضع العراقيل أمام نشاط القرصنة الذى يمارسه البحارة الإنجليز ممن راحوا بصورة جادة يقوضون من سطوة عدو المستقبل.

إبان الحرب مع إسبانيا خدم أشجع قراصنة ألبيون بلادهم كجنود، وأصبحت أسماء جنود جلالة الملكة من الذين تحولوا إلى قراصنة من أمثال: هوكنز، ودرايك، وجرينفيل، وفروبشاير، وكامبرلاند، تنزل منازل الشرف فى تاريخ إنجلترا، وكذلك حاز الكثير منهم على ألقاب النبالة وعلى المناصب العليا فى الدولة مقابل ما أدوه لها من خدمات جليلة فى حربهم مع العدو واشتراكهم فى تدمير الأسطول الإسبانى أرمادا الذى لا يقهر فى يوليو من عام ١٥٨٨.

## قرصان من جامعة أكسفورد

ما أن حصل هنرى ماينوارنج على شهادة التخرج من الجامعة حتى غادر أكسفورد واضعًا نصب عينيه هدفًا وحيدًا هو أن يصبح محاميًا يشار إليه بالبنان، على أن صاحب العمل - حيث بدأ هنرى فترة تدريبية - لم يوفر له راتبًا يفى بحاجاته الضرورية، عندئذ وصل خادم فيميدا[٣٥] الناشئ إلى استنتاج مفاده أن مستقبله ليس فى هذه المهنة، ولم يطل به التفكير؛ فترك مكتب المحاماة واتجه، وهو الإنجليزى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، بكل أفكاره نحو البحر. كانت تقاليد الأعمال البطولية التى أنجزها فرانسيس درايك الذى تسلم من يد الملكة إليزابث الأولى لقب النبالة ما تزال حية، فاشتغل الشاب الحالم بمستقبل يماثل ما وصل له فرانسيس درايك فبدأ عاملاً على إحدى السفن، وسرعان ما ارتقى منذ رحلته البحرية الأولى إلى رتب الضباط، غير أن درجات المستقبل البحرى بدت لخريج اكسفورد الطموح غاية فى الطول. كان هنرى ماينورانج ينتقل من ميناء إلى آخر وتعى أذناه الكثير عن الإمكانات التى تفتحها حرفة

القرصنة أمام من يتميزون بالشجاعة والحزم، فكان دائم الاستفسار من قدامى البحارة الذين يلتقى بهم فى الحانات، حيث يجرى الحديث هناك دون مواربة حول كل تفاصيل مهنة النهب البحرى. وذات مساء التقى صدفة، فى أحد المطاعم المنتشرة فى الموانئ بمجموعة من البحارة الساخطين على ظروف العمل المحيطة بهم، وعن الأسطول الذى قرروا الفرار من الخدمة فيه ثم احتراف القرصنة، غير أنهم عبَّروا عن حاجتهم إلى القائد المناسب. وبعد الصمت الطويل الذى قضاه ماينْوارنج منصتًا إلى حديث البحارة دخل فى النقاش ثم أعلن قائلاً:

ـ سوف أكون قبطانكم. الموافق يتقدم.

سرعان ما أحاطت به طغمة البحارة الذين راحوا يرشقونه بالأسئلة، وما أن انتهى الحوار، حتى جلسوا على ركبهم أمام الرجل الذى رفع نفسه قبطانًا عليهم، ثم أقسموا ـ وهم يرفعون كئوس الروم ـ أن يخلصوا له، وألا يخرجهم عن طاعته إلا الموت.

عزم ماينورانج على الاستيلاء على سفينة ذات شراعين صغيرين يملكها تاجر من أنتفيريين، وقد كانت السفينة بالمناسبة راسية فى ميناء بلايموث. كانت السفينة ما تزال مجردة من السلاح، وقد صنعت خصيصًا لقراصنة البربر فى الجزائر. كان طاقمها مكونًا من خمسة عشر رجلاً يفترض أنهم قادرون على صد أى هجوم عليها. قرر ماينورانج بعد أن علم أن البحارة قد نزلوا فى هذا المساء إلى الشاطئ بغية الاستمتاع بوقتهم، أن ينتهز الفرصة.

لقد تم تنفيذ الخطة بكل التفاصيل الدقيقة التى رسمها للقراصنة قائدهم الجديد. انقض ماينوارنج على رأس عصبته التى لا يتجاوز عددها خمسة وعشرين رجلاً على السفينة، ولم يكن عليها حينئذ سوى ستة أفراد، راحوا يغطون جميعهم فى نوم عميق، اتخذ هنرى ماينوارنج كل الوسائل حتى يتجنب أدنى جلبة حتى لا يثير انتباه البحارة على السفن المجاورة الراسية فى الميناء. كان من الضرورى التظاهر بأن سفينة التاجر الفلمندى تغادر ميناء بلايموث بكل اطمئنان وسكينة. إذ كان من المحتمل أن يتسبب أى عمل غير حذر مهما صغر فى

انهيار الخطة الماهرة بأكملها. عندما نفض الهولنديون عن مآقيهم آخر آثار النعاس شاهدوا شفرات السكاكين مسلطة على رقابهم فلم يبدوا أية مقاومة، وما هى إلا ربع ساعة حتى كانت السفينة فى طريقها خارج الميناء.

من هنا بدأ هنرى ماينوارنج حياته فى عالم القرصنة. كان عليه أن يحمل سيفه، وأن يتبع خطى درايك، وأن يبلغ المنزلة الرفيعة التى بلغها ذلك القرصان المشهور، فقرر أن يهاجم كل سفينة إسبانية تلقيها الأقدار فى طريقه دون أن تأخذه بها شفقة أو رحمة، على أن الأمر لم يكن ليتم على هذا النحو دون توفر قاعدة برية مأمونة.

بعد أن تجاوز ماينوارنج جبل طارق، اتجه صوب بحر مرمرة حيث وكر القرصنة الواقع على الشاطئ الشمالى للقارة الإفريقية. هناك جرى استقباله بكل حفاوة وترحاب تبعًا لقواعد التضامن الدولى للقراصنة، أما رجاله الذين أدار رءوسهم النجاح الأول فقد خضعوا لرئيسهم خضوعًا مطلقًا. ما أن وصل ما ينوارنج إلى مرمرة حتى أعلن قائلاً:

- من الآن فصاعدًا سوف نعتبر كل سفينة إسبانية بمثابة غنيمة ممكنة. ولكن عليكم أن تتذكروا أن السفن الإنجليزية محرمة علينا.

وعلى أساس هذا الاتفاق انطلق ليبدأ رحلة القنص رافعًا فوق صارى سفينته راية سوداء صورت عليها جمجمة أسفلها عظمتان متقاطعتان وهو أمر كان متبعًا بين القراصنة فى ذلك الزمان.

تمكن ماينوارنج على مدى الأشهر الستة الأولى من نشاطه، من الاستيلاء على عدد لا بأس به من السفن الإسبانية، أراد أن يكوّن منها أسطولاً ضخمًا للقرصنة. وخلال فترة قصيرة بلغ من الجبروت والمنعة ما شجعه على فرض الحظر على قراصنة البربر من الهجوم على السفن الانجليزية. أما الأمر المدهش حقًا هو أن البربر حافظوا بكل حرص على هذا الحظر، وسرعان ما ذاع فى إنجلترا نبأ أن سفنهم تتمتع بحماية القراصنة الإنجليز بطول الساحل الشمالى لإفريقيا. أضف إلى هذا أن الإنجليز قد علموا أن قراصنة بلادهم قد أعلنوها

حربًا لا هوادة فيها ضد الإسبان، أعظم أعداء البيون فى هذا العصر. كانت النتيجة أن أصبح اسم ماينوارنج اسمًا ذائعًا بين جماهير المجتمع الإنجليزى العريضة.

بناء على كل ما تقدم كان لدى الملك فيليب الثالث ملك إسبانيا المبرر لأن يضمر كراهية عميقة للقراصنة، على أنه أدرك أن لن يتمكن من الصمود أمام اللصوص فى معركة مكشوفة، ولهذا - وباعتباره سياسيًا بعيد النظر - أرسل إلى ماينوارنج رسولاً للتفاوض مقترحًا عليه مبالغ طائلة ومنصبًا رفيعًا حال انتقاله للعمل فى خدمة البلاط الإسبانى. الواقع أن مثل هذه الاقتراحات لم تكن تشكل صدمة لأحد فى ذلك الزمن. المسألة أن خريج اكسفورد الشاب كان قد حقق من الثروة قدرًا هائلاً، كما أنه كان قد رفض لتوه عرضًا مماثلاً جاءه من باى[٣٦] تونس.

بحلول عام ١٦١٤ الذى أتم ماينوارنج ستة وعشرين عامًا من عمره كان قد شعر بالملل من كثرة القتال مع الإسبان فى البحر الأبيض المتوسط، فأقل رفاقه فوق ثمان من أفضل سفنه واتجه بهم إلى نيوفاوندلاند[٣٧]. فى نيوفاوندلاند كان ماينْوارنج يتصرف كما لو كان حاكمًا إقطاعيًا، فقد أجبر كل الموانى المحلية والمدن على أن يقدموا له ما يلزمه من غذاء وملابس وأسلحة وذخائر مشيعًا الرعب فى نفوس السكان.

لم يكتف ما ينْوارنج بذلك، بل إنه راح يفرض سلطانه على صيادى الأسماك أيضًا، مصادرًا ما يصل إلى أربعة أخماس ما يحصلون عليه من صيد، وفى محاولة لتجنب هذا العبء الثقيل، سعى كثير من الصيادين من أهالى نيوفاوندلاند للعمل فى عصابة القرصنة تحت إمرة ماينوارنج، على أن الرجل لم تكن به رغبة فى فقد مصدر دخله؛ فكان يقبل واحدًا فقط من كل ستة منهم، وبشرط أن يكونوا من أفضل العناصر.

كان ماينورانج يقوم باستغلال الصيادين المعدمين، فضلاً عن استمراره فى ممارسة نشاطه بكل قوة فى البحر، أما السفن الإسبانية والبرتغالية التى كانت

تذهب إلى أمريكا محملة بالخمور، فكانت بمثابة لقمة سائغة بالنسبة له. وفى المقابل لم يظهر ماينوارنج إطلاقًا أى سلوك يتسم بالعنف تجاه القراصنة المعاصرين له وسعى بكل الوسائل لتجنب إراقة للدماء لا طائل من ورائها، وكان وهو الذى يطلب من رجاله السخرية من الأسرى. يعاقب من تثبت عليه من البحارة تهمة الإساءة والتصرف على نحو غير إنسانى بتعليقه على صارٍ من الصوارى.

عندما حل الشتاء، قفل ماينوارنج عائدًا إلى مرمرة، وقد تبعه أربعمائة من الذين هجروا مهنتهم، على أن مفاجأة غير سارة كانت بانتظاره فى أفريقيا. لقد انتهز الإسبانيون فرصة غيابه فاستولوا على جزيرة مرمرة بعد أن قاموا بارتكاب مذبحة هناك. عندئذ توجه ماينورانج إلى وكر آخر للقرصنة فى فيلا فرنسا بإقليم سافوى، وهناك جرى لقاء بينه وبين مواطنه ويلسونهام الذى كان يعتزم الدخول إلى عالم النهب البحرى، لاسيما وأنه كان يمتلك سفينة رائعة. كان ويلسونهام ينتمى إلى إحدى العائلات الأرستقراطية العريقة فى انجلترا، وعرض على ماينوارنج أن يصبح شريكه.

منذ ذلك الحين تحولت فيلا فرنسا إلى نقطة ارتكاز القراصنة الإنجليز، وقد حقق القراصنة الجدد نجاحًا منقطع النظير. وعلى مدى الستة أشهر الاولى استطاعوا أن يكونوا ثروة بلغ حجمها نصف مليون كرونة، وهى ثروة هائلة بمقاييس ذلك الزمن.

ذات مرة علم ماينوارنج أن أحد الأدميرالات الإنجليز ويدعى السير وليم مونسون - وهو رجل مولع باصطياد القراصنة - قد انتحل اسم ماينوارنج حتى يتمكن من الإيقاع بعصابة صغيرة من لصوص البحر الأيرلنديين.

لم تكن هذه الحكاية الغريبة إلا واحدة من حكايات كثيرة تميز أحداث هذا العصر. لقد قرر السير وليم مونسون إبان عودته من حملة ضد قراصنة منطقة جزر أوركناى[٣٨]، القيام بزيارة ميناء برودهايفن الواقع غربى أيرلندا، حيث قام قطاع الطرق البحرية ببناء استحكامات فيه، وعلى الرغم من أن الأدميرال كان

مجهزًا بسفينتين مسلحتين تسليحًا جيدًا، إلا أنه كان يرى أن هذا الموقع يمثل خطورة كبيرة، ولهذا فقد انتحل اسم ماينوارنج عند دخوله الميناء وفى ظنه أن هذا الاسم يمكن أن يكون ضمانًا كافيًا لسلامته، وقد أصاب ظنه تمامًا. لقد جاء أشهر نبلاء هذا المكان ويدعى ماك - كورماك، الذى كان يبسط حمايته على القراصنة المحليين، ليصعد بنفسه على ظهر سفينة الأدميرال عارضًا عليه خدماته، وبعد أن وعد بإمداد سفينتى الأدميرال بكل ما يلزمهما، دعا إلى قلعته ماينوارنج المزعوم على مأدبة أقامها تكريمًا له. برَّ ماك - كورماك بوعده، فعندما أرسل الأدميرال برجاله إلى الشاطئ عادوا وقد حُمِّلت زوارقهم عن آخرها بالمؤن الغذائية.

على الرغم من المخاوف التى انتابت السير وليم من حدوث خيانة ما، فقد قرر مع هذا الذهاب إلى القلعة والاشتراك فى المأدبة، وعندما رسا قاربه قرب الشاطئ هرع إلى الماء ثلاثة رجال يرتدون ملابس أنيقة لكى يحملوا على أكتافهم ضيف الشرف حتى البر. «كل شىء على ما يرام»، هكذا حدث الأدميرال نفسه «إن الجميع يستقبلوننى على أننى ماينوارنج، فليس ثمة خطر يتهددنى إذن».

أنزل السادة الثلاثة ضيفهم على الأرض بكل حرص ثم أخذوا يقدمون له أنفسهم بعد أن انحنوا لتحيته. لقد اتضح أن أكبرهم سنًا هو أحد أصحاب السفن من مدينة لندن وتربطه علاقات عمل بماك - كورماك، أما الثانى فكان ناظر المدرسة المحلية، بينما كان الثالث ويدعى هالوفاى يعمل بالتجارة وقد كون ثروة من تعامله مع القراصنة!

استُقبل وليم مونسون بكل أبهة وفخامة وكذلك بترحيب حار، وجرى الحوار بين الجميع خاليًا من كل تكلفَ، وصل إلى السير وليم من خلاله معلومات تكفى لتكون مسوغًا لوضع رأس مضيفه ماك - كورماك ورءوس شركائه فى حبل المشنقة.

- أغلب الظن أنه تصرف تمامًا على هذا النحو - هكذا سأل ماينوارنج بعد أن استمع إلى هذه الحكاية، لكن محدثه أجابه بقوله:

- كلا، لقد أطلق السير وليم سراحهم فى اللحظة الأخيرة، ولكنه حتى يشيع الذعر فى القلوب قام بشنق قبطان سفينة القرصنة الذى وصل محملاً بالغنائم المخصصة للتجار من ذوى المنزلة الرفيعة الذين كانوا يعملون بشراء السلع المسروقة بصورة احتكارية.

عندئذ علق ماينوارنج بقوله:

- إن الأدميرال مونسون يفتقد الإحساس بالعدالة، ولو كنت مكانه لما أصدرت أحكامًا بمثل هذه السطحية. إن القرصان الوحيد الذى يستحق أن يشنق هو هذا الرجل الذى لا يخاطر بنفسه وإنما يعيش على استغلال الآخرين.

على أن ماينْوارنج ما لبث أن انشغل بأمور أكثر جدية من مجرد القلق بشأن افتقاد هذا الإنجليزى الإحساس بالعدالة، إذ جاءه تحذير بقيام سفن إسبانية من كاديس[٣٩] بالهجوم على سفنه، وبعد أن عرف أن ملك إسبانيا قد أرسل ثلاث سفن فقط لمهاجمة تسع من سفنه خرج بنفسه لمقابلتها.

لما لم يفلح فيليب الثالث[٤٠] فى التغلب على هذا القرصان العتيد، قرر فى النهاية أتخاذ خطوة غير عادية، فأرسل وفدًا إلى ياكوف الأول ملك إنجلترا يهدده بإعلان الحرب إذا لم يمارس سلطانه على مواطن من رعيته. وقد أتت هذه الخطوة الجريئة بنتائج جريئة أيضًا. فقد أرسل ياكوف الأول إلى ڤيلا فرنسا مبعوثًا يَعِد ماينوارنج ورجاله بالعفو التام إذا ما توقفوا عن أعمال القرصنة، من جهة أخرى قرر العاهل الإنجليزى إعداد أسطول قوى ليحطم به القراصنة.

على الرغم من أن ماينورانج لم يكن آنذاك قد تجاوز من العمر ثمانية وعشرين عامًا، إلا أنه كان قد تمكن من جمع ثروة طائلة، وإذا به يقرر- مستغلاً هذا الظرف المتاح - أن يعود إلى إنجلترا، وأن يتزوج، حتى يبدأ حياة هادئة يعيشها فى يسر ودعة. ودع ماينوارنج شريكه ويلسونهام ثم قام ببيع غالبية سفنه لقراصنة آخرين، ثم يمم بصحبة رفاقه من الذين عبَّروا مثله عن رغبتهم فى الاستفادة من العفو الملكى الشامل نحو ميناء دوڤر، حيث استقبلهم مواطنو إنجلترا استقبال الأبطال. وقد أشار مرسوم العفو الرسمى الذى سلم إلى

ماينوارنج فى التاسع من يوليو عام ١٦١٦ إلى أنه «برىء من كل التهم الخطيرة» كما أنه «لا يجوز إقامة أى دعوة قضائية ضده».

ولكى يعبر ماينوارنج عن عظيم امتنانه للملك على ما أبداه نحوه من عطف وتأكيده لإخلاصه نحوه، تطوع بتخليص قناة المانش من القراصنة البربر. يقول المثل: «ليس أسوأ فى العداوة من صديق قديم». وهكذا قام ماينوارنج بإبادة القراصنة المسلمين، واكتسب بذلك أمجادًا أخرى فى المجتمع الإنجليزى الذى وضع على رأسه المزيد من أكاليل الغار.

اعترافًا بخدماته فى النضال ضد القرصنة، منحه الملك ياكوف الأول أرفع الألقاب الملكية، وبفضل ما تلقاه من تعليم جامعى ومعرفته بآداب السلوك الراقى، استطاع القرصان السابق أن يتكيف على نحو جيد مع وضعه الجديد، بل إن الملك نفسه كان يطلب منه النصيحة عن طيب خاطر، وفى نهاية الأمر استبدل ماينورانج القلم بالسيف، فكتب مذكرات وبحثًا علميًا عن القرصنة[٤١] أهداه للملك.

ها هو مقطع من المحاورة التى جرت بين الملك الإنجليزى والقرصان السابق والتى أمكن استعادتها استنادًا إلى تلك المذكرات:

الملك: هل أنت على يقين أن عدد القراصنة فى الوقت الحاضر هو نفسه إبان حكم الملكة اليزابث؟

ماينورانج: إن عددهم الآن يا مولاى أضعاف عددهم آنذاك، إن عدد سفن القراصنة التى تجوب البحار تزيد عن الألف. وبإمكانى أن أسمى بضع مئات منهم من الذاكرة وأكثرهم موجود فى أيرلندا التى أصبحت معقلا للنهب البحرى، إذ أن أى قرصان، بغض النظر عن جنسيته، يستطيع دائمًا أن يجد فى موانيها ملجأ له، علاوة على شىء آخر أهم وهو كرم الضيافة أضف إلى هذا أن القراصنة يستطيعون الاقتراض من أصحاب البنوك المحليين الذين تربطهم بهم علاقات عمل وطيدة.

الملك: وهل تعتقد نهم يجنون مكاسب كبيرة من وراء مهنتهم هذه؟

ماينورانج: إن مستوى الدخول يتوقف ـ يا جلالة الملك ـ على مكان العمليات اتى يقومون بها وزمانها.

الملك: ليس هناك ـ على حسب معلوماتى ـ اتفاق تاتتم بين القراصنة، وكثيرًا ما يدب الصراع والتنافس فيما بينهم.

ماينوارنج: إن الجشع والغرور والطموح ما هى إلا خصال إنسانية مشتركة، ولعل جلالتكم تعرفون هذا أفضل منى: إذ ليس هناكم مكان يمكن للمرء منه مراقبة الضعف البشررى أفضل من كرسى العرش. ولكن على الرغم من أن القراصنة أشبه ـ بحكم مهنتهم ـ بالشياطين منهم لى الملائكة، فإ قلوبهم ليست بالقسوة التى يظنها الناس. صحيح أن منهم قساة جبارين، ولكنهم مستعدون إلى أقصى حد لما يد العون لرفاقهم، وكثير منهم يتميزون بخصال لا يخجل من التباهى بها أى سيد من السادة، إن القراصنة الذين يدفعون الأوال عدًا ونقدًا بإمكانهم أن يحصلوا على كل ما ريدون وفى المكان والزمان اللذين يختاروهما، أنظر تجدهم يقابلون بكل الترحاب والحفاوة فى موانى تونس، والجزائر، وجزر الماريا والأزور، وفى الرأس الأخضر، حيث يشعرون هناك بالأمان كما لو كانوا على ظهور سفنهم.

الملك: هل توجد مثل هذه الموانى فى شمال أفريقيا؟

ماينورانج: نعم، توجد يا جلالة الملك. إن باى تونس ـ وهو رجل حذر ورقيق للغاية ـ هو مع ذلك طماع، وماكر وقد تسنى لى أن أكون صديقه المقرب، ولسوف أذكره دائمًا بكل رض، لن تجد يا مولاى ميناء، واحدًا من موانى البربر يمتنع عن تقديم الملجأ لسفينة قراصنة مسيحية، وإذا ما احتاجت إحداها لبارود فإنها ستأخذ كفايتها منه من تطوان، أما عن السكان فإنم يحصلون عليه بدورهم من التجار الانجليز والفلمنديين.

الملك: كيف يقدم التجار الانجليز على بيع البارود لأعدائهم وأعداء البشرية كلها، للقراصنة؟

ماينورانج: عندما يتعلق الأمر بالتجارة فلا مجال هنا ـ يا جلالة الملك ـ

ا

للمشاعر الوطنية، لقد كنت دائما أعتبر أن أسوأ القراصنة هم أولئك التجار الذين يربحون من احتكار مسروقات القراصنة بحجة أنها تجارة شريفة.

الملك: أظن أنه يجب شنقهم جميعاً وكذلك شنق كل من يسعى لأن يكون شريفاً على شاكلتهم.

ماينورانج: إننى شخصيًا لم أكن لأتصرف لم أكن بهذا العنف مع الجميع سواء بسواء. إن ماضى الذى أندم عليه الآن يعطينى الحق فى أن أؤكد هذا، إن الأمر هنا ليس أمر شفقة، وخاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار الظروف التى يمر بها بعض رفاقى السابقين سيئ الحظ، فالكثير منهم يستحق الإدانة، على أن حرفة القرصنة يعمل بها أفضل بحارينا، ولو كان الأمر بيدى لكنت رحيمًا مع هؤلاء، ولأرسلت اللصوص منهم إلى الأعمال الشاقة ليكفروا عن جرائمهم، حتى يمكن فيما بعد استغلال مواهبهم وخبرتهم لمصلحة الوطن، ولأرسلت عتاة المجرمين فقط إلى الجلاد.»

كان الملك جيمس الأول(٤٢) يحب ماينورانج لإخلاصه ورجولته عندما يكون الأر متعلقًا برأيه فى المشكلات الحساسة، كان من الممكن للصداقة التى جمعت بين عاهل انجلترا والقرصان الأسبق أن تستمر لزمن أطول لو أن الملل من نمط الحياة فى البلاط الملكى لم يتسرب إلى نفس ماينورانج.

لقد نصبه الملك حاكمًا على حصن دوفر، وهو منصب كان يتيح لمارينورانج بسط سلطانه على خمسة موانى هّى: جاستبنجسون. رومنى، هاى، ساندوتش، ودوفر وكانت حمياة هذه الموانى من القراصنة هى إحدى المهام المنوط بها ماينورانج.

عندما تسلم هنرى ماينورانج منصبه الجديد كانت الاستحكامات فى الموانى المذكورة متداعية تمامًا، ولم يستطيع الحاكم الجديد أن يعرف فيم أنفق أسلافه، فى هذا المنصب الأوال المخصصة للدفاع وعندما قام بتفقد أكبر مخازن البارود بها، أخذته الدهشة، إذ اكتشف أن البراميل المخصصة لحفظه مليئة بالرماد، عندئذ صاح من شدة الغيظ:

- حتى قراصنتى كانوا أكثر شرفًا، ولن أسمح بتكرار ما حدث إطلاقًا.

وقد بر بوعده بناء الاستحكامات ووفر لها جميعٌ مخازن للأسلحة والبارود وأرسل بالضباط الذين وجهت إليهم تهمة، التبديد إلى الأشغال الشاقة، بعد مرور أربعة أعوام على وجود ماينورانج هنا، تزوج من إحدى الأسر النبيلة الثرية التى تتمتع بحظوة لدى الملك، فيما بعد أصبح القرصان السابق عضوًا فى البرلمان الانجليزى أيضًا.

لقد كان للطفرات الاجتماعية والاقتصادية التى جرت فى نهاية القرون الوسطى أثرها فى الاختفاء التدريجى للقرصنة فى أوربا، كما تغير الطابع البدائى للتجارة وأصبح العنف، الذى كان أحد وسائل ممارستها، من مخلفات الماضى، وبمرور الزمن اختفت صورة التاجر اللص الجوال من أسواق أوروبا، لقد أدى ظهور الأساطيل الجبارة التى كانت مهمتها استئصال شأفة النهب البحرى دون رحمة، إلى القضاء التام فى النهاية على القرصنة قضاء مبرمًا فى البحار المتاخمة لسواحل القارة الأوربية.

من الحقائق الثابتة أنه حتى فى القرن السادس عشر لحظت هنا وهناك بعض حوادث السطو على السفن التى كانت تبحر بمحاذاة الساحل الانجليزى، حيث كان السكان الذين أوصلهم الإقطاعيون إلى حالة من الفقر المدقع يقومون أحيانًا بممارسة النهب البحرى ضد السفن التجارية غير المسلحة. عهلى أن القرصنة قد تحولت بصورة أساسية، فى مستهل عصر الرأسمالية، إلى المياه المتاخمة للقارات الأخرى، كما كان لاكتشاف العالم الجديد فى غضون القرنين الخامس عشر والسادس عشر أثره فى الإسراع بهذه العملية.

وهكذا أصبحت البؤر الرئيسية للقرصنة تتمثل فى الخلجان الهادئة المعزولة، والجزر القريبة من الطرق البحرية التى تمر عبرها السفن التجارية المحملة بالسلع الثمينة، والبضائع المنقولة من مستعمرات ما وراء البحار إلى الدول الأوربية المستعمرة.

* * *

# هوامش الفصل الثانى

(١) الصقالبة: التسمية العربية القديمة للسلاتفيين وسوف نستخدم التسكمية الحديثة لكونها أكثر تداولا . (المترجم). الكونثيون: قبيلة لاتفية كانت تعيش فى غرب لاتفيا . فى القرنين السابع والثامن قاموا بمحاربة الاسكندنافيين.

(٢) الذين كانوا قد احتلوا المناطق الساحلية لبلادهم. بعد تحريرهم لأراضيهم أصبحوا يشنون غارات على السويد والدنمرك.

(٣) كاارل الأكبر: ملك فرنسا من عام ٧٦٨، أمبراطور من عام ٨٠٠، أعظم ممثلى أسرة كارل.

(٤) فريزيا (فريسلاندیا): منطقة تاريخية تقع عند شواطئ بحر الشمال فى المكان الذى توجد فيه الآن هولندا

(٥) لودفيج الأول التقى: (٧٧٨ : ٨٤٠): أمرباطور. افرنجى من عام ٨١٤ ابن كارل الأكبر.

(٦) نانت: ميناء فرنسى يقع عند مصب نهر اللوار. (المتررجم)

(٧) مكارل الثانى الأقرع (٨٢٣ ـ ٨٩٧٧): ملك افرنجى من عام ٨٤٣.

(٨) ألفريد الأكبرر (٨٤٩ ـ ٨٧٩٩): ملك ويسكس من عام ٨٧١.، أحد أقوى الممالك الانجلوسكسونية.

(٩) كارل الثالث السمين (٨٣٩ ـ ٨٨٨): آخر ملوك أسرة كارل، ملك من عام ٨٨٠

(١٠) فيلهلم الأول الفاتح (١٠٢٧ ـ ١٠٨٧): ملك انجليزى من عام١٠١٨ وانجلترا من عام ١٠١٦ والنرويج من عام ١٠٢٨.

(١٢) الروجيون السلاق، قبيلة قديمة كانت تعيش فى جزيرة روجين فى بحر البلطيق وهى تتبع الآ جمهورية ألانيا.

(١٣) البوموريون السلاف: إحدى جماعاتتت قبائل السلافين الغابيين.

(١٤) الساجا: درب من القصص النثرى الأيسلندى القديم لا يعرف صاحبها، تصف واقع الحياة والتاريخ الأيسلندى.

(١٥) وهناك الساجا التى تتحدث عن حياة النرويج (أهايمسكربنجلا). و،ناك الساجا التى تصف حياة القساوسة والزعماء فى إيسلندا (المترجم)

\

أنظر هنريك سمسونوفيتش: الهانزا ـ وارسوا، ١٩٥٨، ص ٢١ وما بعدها (ملحوظة للمؤلف)

(١٦) تعد الساجا التى كتبها مؤرخ أيسلندا العظيم سنورى ستورلوسون (١١٨٧ ـ ١٢١٤) فى بداية القرن الثالث عشر وتسمى «هايمسكرنجلا» (الدائإة الأرضية) من أبرز المؤلفات الأدبية الأوروبية فى العصور الوسطى وهى تغطى تاريخ دولة النرويج من أقدم العصور وحتى عام ١١٧٧.

سيجتونا: مدينة تقع فى الجزء الشرقى من السويد، أصبحت فى القرنين الحادى عشرو والثانى عشر كركزاً سياسيًا وتاريًا ضخمًا للسويد.

(١٧) ڤولين: مدينة فى بولندا (تقع الآ فى إقليم شيتسين)؛ أكبر مركز تجارى حرفى فى غرب بوموريا (الجزء الشمالى من بولندا لى بحر البلطيق) فى القرن العاشر، تتراجعت فى القرن الثانى عشر لتحتل المكانة الأولى بدلا منها

(١٨) مدينة شيتسين.

انظر هنريك سمسونوفيتتش (ملحوظة المؤلف).

(١٩) جريفيا: مدينة قديمة على ن هر ريجافيس المكان الذى يشغله الآ اقليم سيتيسن فى بولندا.

(٢٠) الڤيتاليون: من الكلمة الألمانية Vitalienbrüder «الأخوة العائلين».

(٢١) المدن الفندية: من الكلمة الألمكانية Vend وهو الاسم الألمانى للسلاڤيين الغربيين ـ مدن السلاڤيين الغربيين.

(٢٢) الفريزيون: سكان فيريا (فريسلانديا).

(٢٣) الليفلانديون: سكان ليفلاندى، هكذا كان يسمى فيما سبق الجزء الواقع جنوب البلطيق حيث كانت تعيش

(٢٥) فيى الزمن الغابر قبائل الليفيين وكانت تربطهم علاقات وطيدة بالسلاڤيين.

(٢٦) وكريستيانستاد.

أحد أربعة أجزاء مكونة لحلف الهانزا: الفندى والبروسى، والسكونى، ومدن الراين.

(٢٧) البيون: الجزر البريطانية بلغة الشعر.

(٢٨) خنرى الثالث (١٢٠٧ ـ ١٢٧٢): ملك انجلترا من عام ١٢١٦ وهو من أسرة البلانتاجيينيون التى حكمت انجلترا

(٢٩) من عام ١١٥٤ ـ ١٤٨٥؛ ادوارد الثانى (١٢٨٤ ـ ١٣٢٧): ملك انجلترا من عام ١٣٠٧.

حرب المائة غام (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣): حرب دارت رحاها بين انجلترا وفرنسا واستمرت ماءة عام تخللتها فترات انقطاع، كان سببها الأساسى هو تضارب مصالح كل من انجلترا وفرنسا فى القارة الأوربية.

(٣٠) إداورد الـثـالث (١٣١٢ . ١٣٧١): مـلك انـلـحـتـرا من عـام ١٣٢٧ وهـو من أسـررة البلانتاجينيون.

(٣١) هنرى السادس (١٤٢١ . ١٤٧١): ملك انجلتترا من عام ١٤٢٢ وحجتى عام ١٤٦١ وهو من أسرة لانكسترر

(٣٢) هنرى السابع (١٤٩١ . ١٥٧١): ملك انجلترا من عام ١٥٠٩ وهو من أسرة تيودور.

(٣٣) اليزابيث تيودور الأولى (١٥٣٣ . ١٦٠٣): ملكة انجلترا من عام ١٥٥٨.

(٣٤) فيميدا: إلهة العدالة فى الأسطورة الغريقية وتصور وقد حملت ميزانًا وقد عُصبت عيونها رمزًا للحياد.

(٣٥) باى: كلمة ركية تعنى أو سيد أو أمير. فى الامبراطورية العثمانية تعنى حامك إقليم )(المترجم)

(٣٦) نيوفاوندلاند: جزيرة تقع عند الشواطئ الشرقية لأمريكا الشمالية، الآن جزء من إقليم نيوفاوندلاند الكندى. (المترجم)

(٣٧) أوركناى: أرخبيل يقع عند الأطراف الشكالية لسكوتلندا (المترجم)

(٣٨) كاديس (Câdiz): مدينة وميناء جنوبى إسبانيا على خليج كاديس على المحيط الأطلنطى بناه الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد. (المترجم).

(٣٩) فيليب الثالث (١٥٧٨ . ١٦٢١): ملك إسبانيا من عام ١٥٩٨ من أسرة هايسبورجر.

(٤٠) مخطوطة ماينورانج: «حول مصادر وعادات وزوال القرصنة» محفوظ فى الوقت الحاضر فى المتحف البريطانى فى لندن. (ملحوظ للمؤلف)

(٤٢) جيمس الأول (١٥٦٦ . ١٦٢٥): ملك انلترا من أسرة تيوارت حكم من عام ١٦٠٣ وحتى عام ١٩٢٥.

# الفصل الثالث

# القراصنة البربر

كانت شمس العصور الوسطى تؤذن بالمغيب عن حوض البحر الأبيض المتوسط - الذى كان بمثابة البؤرة التقليدية للنهب البحرى - حين ظهر على شواطئه مركز قوى للقرصنة اقترن اسمه فى التاريخ بالبربر؛ تولى على مدى ثلاثة قرون تمزيق خطوط الملاحة والتجارة فى هذا البحر.

بدءًا من عام ١٤٤٠ ميلادية، أخذت دولة الحفصيين[1] الإقطاعية الضخمة فى التفكك ليحل مكانها عدد من الدويلات الصغيرة استولت على معظم الموانىء الكبيرة فى شمال إفريقيا مثل طرابلس وتونس والجزائر وبوجى وجوليت، وسرعان ما استولى المغامرون الذين كانوا يمارسون النهب البحرى هنا منذ زمن بعيد على تلك الموانى التى كانت تتمتع فى هذا الزمن الغابر بالثراء الهائل.

وحتى فى القرن الخامس عشر فقد لجأ أحد آخر حكام الدولة الحفصية التى كانت آخذة فى الانهيار بإبرام معاهدة مع اثنين من القراصنة القادمين من جزيرة مبتيلين[2] الاوهما الأخوين بارباروسا أعطاهما - بناء عليها - جزيرة جربة الصغيرة الواقعة فى خليج سرت مقابل مبلغ كبير من المال؛ بالإضافة إلى جزء دائم من الغنائم. وقد جرّت هذه المعاهدة وراءها عددًا من النتائج الوخيمة، على كل من تونس وشمال إفريقيا، فضلا عما جرّته من نتائج على دول البحر الأبيض المتوسط بأسرها.

لقد تكفل القراصنة البربر الذين حلوا بجزيرة جربة بتحويلها إلى قلعة حصينة ومن ثم إلى قاعدة انطلاق لحملات النهب التى ما فتئوا يمارسونها. وقد

استطاعوا خلال فترة نشاطهم التى امتدت إلى ثلاثمائة عام أن يؤدوا ـ أكثر من مرة ـ دورًا سياسيًا بارزًا مستغلين ـ بمهارة شديدة ـ العلاقات السياسية التى كانت قائمة آنذاك فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحول البحر الأبيض المتوسط إلى حلبة للصراع المستعر بين دول أوربا المسيحية وتركيا المسلمة وقد تسنى للقراصنة البربر المشاركة فى هذا الصراع بدور لايمكن إغفاله وخاصة هناك حيث كان الصراع تدور رحاه على صفحة البحر. إذ قام القراصنة البربر القادمون من جزيرة جربة، يحدوهم الإحساس بارتباطهم الدينى والاقتصادى بالأتراك، بالوقوف ضد أعدائهم مغيرين على السواحل الجنوبية لكل من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا حيث كانوا يُعْملون النهب فى الموانى المحلية الغنية ويأسرون الآلاف من السكان؛ كان الأغنياء منهم يدفعون فدية ضخمة بينما كان الفقراء يبقون ليرزحوا فى أغلال العبودية. على هذا النحو تعاظمت القدرة الاقتصادية والسياسية للقراصنة البربر وما هى إلا سنوات معدودة حتى استولوا تقريبًا على الساحل الشمالى لإفريقيا المطل على البحر الأبيض المتوسط.

تزامنت الفترة التى بلغت فيها أعمال القرصنة التى مارسها البربر ذروتها مع نمو القدرة البحرية لتركيا فى القرن السادس عشر. آنذاك كان أسطول الأخوين بارباروسا القوى المهيأ للقتال حليفًا نفيسًا للأتراك.

قام الإسبانيون ـ لما أصابهم الزعر من جراء النهب البحرى الذى استشرى فى البحر الأبييض المتوسط ـ بتنظيم حملة مسلحة شقت طريقها نحو شمال إفريقيا واستهدفت القضاء على أوكار القرصنة فيه. على أن التوفيق لم يحالفها فى تدمير جربة فيممت إلى الجزائر. دفع هذا التهديد من جانب الأسطول الإسبانى السلطة فى الجزائر. لطلب العون من الأخوين بارباروسا اللذين اشتهرا فى ذلك الوقت باسم البحارة الذين لايقهرون. نزل أولهما وهو عروج (١٤٤٧ ـ ١٥١٦) إلى المدينة تلبية للدعوة؛ ثم احتلها ونصب من نفسه سلطانا عليها باسم بارباروسا الأول.

هكذا تم ظهور أول دولة للقرصنة فى شمال إفريقيا. وبعد وفاة باربار وسا الأول - الذى لقى حتفه فى عام ١٥١٨ فى معركة ضد الإسبان - نصب أخوه خير الدين (١٤٦٥ - ١٥٤٦) نفسه سلطانًا باسم باربار وسا الثانى وسعى على الفور لتأمين دولته بأن طلب المساعدة من الأتراك بعد أن اعترف رسميًا بسيادة سلطانها ووضع بذلك اللبنة الأولى لتبعية دولة القراصنة للأتراك، وها هو السلطان التركى يخلع على خير الدين لقب باى.

بنجاح خير الدين فى عام ١٥٣٤ فى الاستيلاء على تونس التى كانت تابعة لإسبانيا حتى ذلك الحين، ازدادت مكانة تركيا قوة فى شمال إفريقيا؛ نتيجة لذلك أصبح أهم مينائين هناك يقعان مباشرة على البحر الأبيض المتوسط وهما الجزائر وتونس فى قبضة الأتراك وتبعًا لذلك أخذ أسطولا القراصنة والأتراك يهددان - على نحو غير مباشر - ممتلكات الإمبراطور كارل الخامس (٣) فى شبه جزيرتى برينيا (٤) وأبينين (٥) وفى جزر البحر الأبيض المتوسط وفى الساحل الشمالى لتونس، وقد كان لهذا التهديد رد فعل مساوٍ له من جانب كارل الخامس الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه لسلسلة من الحروب دارت رحاها فى القرن السادس عشر على جبهات متعددة من أوروبا وإفريقيا بين الدول المسيحية وعلى رأسها الإمبراطور وبين تركيا وحلفائها من المسلمين والدول التابعة. وقد أسهمت دولة القراصنة البربر فى شمال إفريقيا بدور كبير فى الصراع العسكرى والسياسى الهائل الذى كان البحر الأبيض المتوسط مسرحًا لأحداثه.

لقد كانت هذه الدولة تقوم أساسًا على ما تحصل عليه من دخل نتيجة للنهب البحرى. كان الأغنياء ورجال المال والتجارة فيها يقومون بتمويل حملات قطاع الطرق البحرية فى شمال إفراقيا وكانوا يستأجرون القراصنة المحترفين - الذين كانوا يعرفون باسم الرؤساء - لتحقيق أهدافهم. وقد كان هؤلاء القراصنة يشكلون ما يشبه فئة مميزة بين السكان، أما مبادئ توزيع الغنائم والأرباح فقد تم التراضى بشأنها بين الأطراف بحيث يذهب عشرة بالمائة للحاكم كنوع من الإتاوة. وعلاوة على الغنائم التى كانت تأتى نتيجة للنهب فقد كانت الأرباح المتحصلة من الفدية مقابل إطلاق سراح الأسرى وبيع العبيد مصدرًا هامًا من مصادر دخل القراصنة.

# عروج من جزيرة جربة

## أو السلطان باربا روسا الأول

فى ربيع عام ١٥٠٤ كانت هناك سفينتان للبابا يوليوس الثانى بابا روما، تمخران عباب بحر تبرين قادمتين من جنوة متجهتين صوب تشيفيتا ـ فيكيا تحملان على ظهريهما حمولة ثمينة. وما أن عبرتا جزيرة إلبا حتى لاحظ ربان السفينة الأولى ـ المدعو باول فيكتور ـ أن ثمة سفينة ليست كبيرة حجمًا تسير موازية لسفينة البابا تكاد تلازمها لمدة طويلة.

كان البحر هادئًا والجو خلو من الرياح والسماء صحو مع شىء من الحرارة بتأثير شمس منتصف النهار. حل وقت القيلولة وتفرق البحارة جالسين فى جماعات صغيرة على سطح السفينة. بعضهم لاحظ أن تلك السفينة تقترب من سفينتهم رويدًا رويدًا. وعندما راحوا يرقبونها واقفين؛ أدهشتهم الثقة التى كانت هذه السفينة تجرى بها مناورتها إلى حد أنه لو كان هؤلاء حقًا من القراصنة البربر لما خاطروا بالهجوم على سفينة حربية على هذا النحو ناهيك عن أنها، فوق هذا وذاك، من سفن البابا.

كل هذا وما تزال السفينة المجهولة تواصل اقترابها حتى لم يعد هناك أدنى شك فى أنهم البربر بعد أن لاحت واضحة الآن عمائمهم المميزة. بعد مرور نصف ساعة أصبحت سفينة البربر على مسافة ثلاثين مترًا تقريبًا من سفينة البابا الأولى؛ ثم إذ بوابل من السهام الحادة ينهمر على سطحها، بعدها ألقى القراصنة بحبال ذات خطاطيف ليقفزوا بواسطتها إلى سطح سفينة البابا مثيرين الذعر والفوضى. لم يمض وقت طويل إلا وقد أصبحت بعده السفينة غنيمة للغاصبين. بانتهاء المعركة أمر قائد القراصنة بخلع الملابس عن الأسرى وحبسهم فى السجن. وإلى أن يفرغ القراصنة من تنفيذ الأمر؛ اقترب من عروج مساعده وسأله:

ـ ماذا تنوى أن تفعل بعد هذا يا أخى؟

- الاستيلاء على السفينة الأخرى. لابد أنها تسير بالطبع هنا أو هناك على مقربة وراءنا، إن لدى خطة مضمونة.

- كن على حذر يا عروج؛ لقد حالفنا الحظ هذه المرة، لكن المخاطرة فى المرة القادمة قد تكلفنا ثمنًا باهظًا. إنهما على أية حال سفن حربية!

- إنك لاتفهم شيئًا بالمرة. إن الحظ لايحالف إلا الشجعان. مع ذلك سترى على الفورما الذى أنوى عمله.

بهذا أجاب القائد ثم صاح أتباعه الذين كانوا يسوقون أسراهم عرايا إلى العنبر الموجود أسفل سطح السفينة مصدرًا أوامره بقوله:

- أسرعوا باستبدال ملابسكم بملابس هؤلاء المسيحيين الكلاب واقطروا سفينتنا بهذه ! اخفضوا الأشرعة وانتظروا الأوامر التالية.

قبل أن يحل الظلام كانت سفينة البابا الثانية قد تراءت فى الأفق. عندئذ صدرت أوامر عروج لرجاله المتأهبين بملابسهم الأوروبية على النحو التالى:

- ليقف الجميع فى هدوء وينتظروا حتى يسيروا بمحاذاتنا.

عندما لاحظ ربان السفينة الثانية - التى كانت تسير بسرعة أقل - سفينة البربر مقطورة إلى سفينتهم الأولى قرر أنها غنيمة فلم يطلق أى إنذار بل إنه ازداد اطمئنانًا عندما رأى بحارة البابا وجنوده يتخذون مواقعهم فى هدوء تام. وما أن تجاورت السفينتان حتى أصدر المغربى ذو الشعر الأحمر أمره بالهجوم الذى جاء مباغتًا تمامًا لسفينة البابا والتى أصيب كل من فيها بالذعر حتى أن الجنود لم يتمكنوا إطلاقًا من مقاومة الهجوم بعد أن قفز إلى سطحها القراصنة الذين جاء استيلاؤهم عليها أسرع كثيرًا من السفينة الأولى.

لقد كان زمنًا بلغ فيه القراصنة البربر مكانة لم يدانيهم فيها أحد. فالمغاربة الذين كانت أعدادهم تتزايد فى شمال أفريقيا بعد فرارهم من إسبانيا التى جلس على عرشها العاهلان المسيحيان فرديناند وإيزابلا [٦] بعد سقوط غارناطة وانتهاء الحرب الإسبانيية من أجل تحرير شبه جزيرة أيبيريا من المحتلين

المسلمين فى عام ١٤٩٢، كانت مواردهم قليلة، الأمر الذى دفعهم لاحتراف القرصنة بعد أن أقسموا أن ينتقموا من الكفاو.

على الرغم من أن الفارق الزمنى بين سقوط غرناطة وحادثة اغتصاب سفينتى البابا لم يزد عن اثنى عشر عاما؛ فإن سفن القراصنة أصبحت تشكل تهديدًا أكثر لشواطئ إيطاليا. وعندما يصل الأمر إلى هذا الحد - أى عندما يصبح البابا نفسه واحدًا من ضحايا القراصنة - فلابد أن يتردد صداه إلى أوسع حد ممكن. ولقد أصبح معروفًا على الفور من الذى دبر هذا الهجوم الجسور.

كان قائد القراصنة يونانيًا من جزيرة ميتيلين؛ وعندما استولى القراصنة على تلك الجزيرة دخل الإسلام مقتفيًا أثر والده وحمل اسم عروج وانضم منذ باكورة صباه إلى القراصنة الأتراك حتى إذ بلغ عشرين سنة من عمره تميز بالجرأة والقسوة فى المعارك التى خاض غمارها فى بحر إيجه. وفى أحد الاشتباكات البحرية وقع عروج فى أسر المسيحيين وأرسل إلى جز يرة رودوس حيث تمكن هناك من الفرار. وبعد اختفائه القصير عاد ليواصل نشاطه باعتباره قرصانًا تركيًا، غير أنه سرعان ما ضاق ذرعًا بالخدمة لدى السلطان فأعلن تمرده على السفينة وشرع فى احتراف القرصنة على مسئوليته وبمخاطرة شخصية منه. على أن عروج الحصيف كان يدرك أنه لن يستطيع مواصلة نشاطه من دون عقاب إذا لم يجد لنفسه نقطة ارتكاز على اليابسة. ومن ثم فقد توجه إلى أمير تونس برجاء أن يقدم له الأخير قاعدة مناسبة فوق أراضى شمال إفريقيا مقابل عشرين بالمائة من الغنائم. وافق الأمير على هذا الطلب بكل ترحاب مقدمًا للقراصنة جزيرة جربة الصغيرة.

بفضل العون الذى قدمه أمير تونس وكذلك دعم أخيه خير الدين له قام عروج باستكمال بناء أسطوله. ومنذ ذلك الحين لم يقف عروج عند حد الإغارة على السفن فى عرض البحر وإنما تعداه مستعينًا بالجنود المغاربة الذين كانوا يدافعون فيما مضى عن غرناطة - بمهاجمة الموانى الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وخاصة الموانى الإسبانية.

قام الملك الأراجونى فرديناند ـ باعتباره مدافعًا عن مصالح الدين المسيحى بأسره ـ بعدد من الحملات الناجحة ضد القراصنة البربر واستطاع أن يستولى على نقاط ارتكازهم فى وهران، وبوجى، والجزائر. ثم قام بإحراق هذه المدن عن آخرها وفرض على أهليها إتاوة كبيرة حتى يثبط عزائمهم فى مد يد العون للصوص البحر. فى الوقت نفسه قام فرديناند ببناء قلعة حصينة فوق جزيرة بنيون للدفاع عن مشارق مدينة الجزائر. فى الوقت نفسه كان عروج فى تونس يتربص فى هدوء تام اللحظة المناسبة ليرد الضربة بعد أن وعد الأمير فى احتفال كبير بطرد الإسبان من أراضى شمال إفريقيا.

كان معروفًا آنذاك للمسيحيين باسم بارباروسا أو ذو اللحية الحمراء للون لحيته المميز. على أن سمعته كقرصان لايقهر كانت قد تمرغت فى الوحل بسبب الانتصارات التى أحرزها الإسبان وسقوط مدينة الجزائر. كان لانهيار هذه الهيبة أثرها فى إخراج عروج عن توازنه. وحتى يصحح من وضعه لجأ إلى اتخاذ عدد من الخطوات من غير دراسة جيدة مثل قيامه بهجوم جرىء من البر والبحر ضد بوجى والإغارة على الأسطول الإسبانى، لكن كل هذه العمليات باءت بالفشل المخزى.

مرة أخرى تدفع الهزائم المتكررة بعروج لأن يغير من خططه، فبعد أن غادر تونس ـ التى لم يكن يستشعر فيها الأمان ـ استقر فى جزيرة جيجيلى التى كان قد استولى عليها فى فترة ما من أهالى جنوه. ثم قرر ـ مؤقتًا ـ تجاهل وجود الإسبان فى شمال إفريقيا وتكثيف نشاطه فى نهب السفن فى عرض البحر. وقد جلب عليه ذلك غنائم خرافية حتى أن النتائج المشجعة التى أحرزها قد زادت من عدد القراصنة العاملين تحت إمرته.

استغل أهالى الجزائر الفتن الدائرة فى إسبانيا بسبب وفاة الملك فرديناند فى عام ١٥١٦ فقاموا بالتمرد برئاسة سالم التومى وهو عربى من سكان مدينة بليدا كما أنه هو بالتحديد الذى طلب العون من بارباروسا وقراصنته. قرر عروج أن ساعة الانتقام قد حانت؛ فتحالف مع سالم وقام معه بالهجوم على الجزائر برًا وبحرًا. احتل القراصنة المدينة، أما الإسبان فقد تراجعوا إلى القلعة الموجودة فى

جزيرة بنيون حيث استمروا يدافعون عنها دفاعًا بطوليًا دام ثلاثة عشر عامًا بعد ذلك!

على إثر النصر الذى حققه عروج ، ازدادت رغبته اشتعالا لأعمال أخرى. فتوجه إلى القصر الذى ينزل به الأمير الجديد للجزائر - سالم التومى - فوجده فى موعد استحمامه، لكن الأبواب جميعًا كانت مفتوحة أمام القرصان قاهر الإسبان، فإذا به يشق طريقه قدمًا إلى حمام القصر حيث كان الأمير يستحم فى مسبح غير كبير. وهناك دار الحديث بينهما على النحو التالى:

- سالم! يجب أن أتحدث إليك فورًا على انفراد. سالم القادم إليه محملقًا فى دهشة بقوله:

- بارك الله فيك. ولكن ما هذا الخطب الجلل الذى أتى بك هكذا بغتة؟

- يجب أن أراك يا سالم.

ما أن أنهى عروج هذه الكلمات حتى جذب المستحم من شعره مخرجًا إياه من الماء. صاح سالم محتجًا، لارعبًا وإنما دهشة:

- ما معنى هذا يا عروج. أتركنى. هل اختل عقلك؟

لكن القرصان لم تكن لديه أدنى رغبة فى إطلاق سراح ضحيته. لقد خنقه وصار منذ ذلك اليوم نفسه حاكمًا للجزائر وأعطى لنفسه اسم بارباروسا.

مثل هذا التطور للأحداث كان كفيلا بأن يثير القلق والاضطراب فى نفس عاهل إسبانيا الجديد - الإمبراطور كارل الخامس - الذى نظم عددًا من الحملات تأرجحت نتائجها بين النجاح والفشل ضد دولة القراصنة البربر، على أنه لم ينجح تمامًا فى أن يكسر شوكتها.

إبان واحدة من هذه الحملات نجح الماركيز دى كوماريس فى الاستيلاء على مدينة الجزائر مستغلا الانتفاضة التى هبت فيها ضد مغتصب الحكم الجديد. وقبل مغادرته للمدينة قال بارباروسا لأخيه

ـ الآن يتعين عليك أن تعمل بمفردك! حاول أن تصل بالسفن إلى أى مكان آمن. أما أنا فسأجد لنفسى مخرجًا. فإذا ما نجحت فى الوقت المناسب فى الحصول على مساعدة؛ فسآتى لإنقاذك. كان باربا روسا يضع فى اعتباره فى هذه اللحظة سلطان المغرب، وإن كان فى الوقت نفسه لايثق ثقة مطلقة.

أدرك باربا روسا فى تلمسان ـ إلى حيث انسحب ـ أن قواته البالغ عددها ألف وخمسمائة من القراصنة المخلصين، ليست كافية لمواجهة جبروت السلاح الذى يملكه الإمبراطور. كانت هزائمه السابقة وخبرته القتالية فى حروبه ضد الإسبان قد لقنتاه درسًا كبيرًا فى أن الجرأة والوقاحة اللتين ساعدتاه فى إحراز النصر كثيرًا فى البحر، لايمكنهما أن يكونا سببًا للوصول لنفس هذه النتيجة على البر. ولهذا قرر العدول عن المقاومة إلى الانسحاب.

على أن الدوريات التى أرسلها قد أخبرته بسرعة اقتراب العدو. لقد جاء الجنود الإسبانيون، الذين فتنتهم الأحلام بغنائم طائلة من جراء الإشاعات التى انتشرت بينهم عن الكنوز الخرافية التى حملها معهم القراصنة من الجزائر، ليقتفوا أثر باربا روسا حتى نهر سالادو نفسه. نجح عروج فى اجتياز النهر إلى الجانب الآخر ومن هناك أخذ فى مراقبة المعركة اليائسة التى كانت مؤخرة جيشه تخوضها بهدف تغطية انسحابه. على أن تأثره البالغ بالبطولة والإخلاص اللذين أبداهما رفاقه دفعاه للإسراع عائدًا من جديد ومعه معيته ليعبرا النهر. انضم باربا روسا إلى المدافعين عن رأس الجسر وكان يدرك جيدًا أن الوضع بأكمله ميئوس منه. وبعد بضع ساعات إذ بالمنتصرين الإسبان يكتشفون فوق أرض المعركة جثة باربا روسا وقد تشوهت تمامًا.

## خير الدين
## أو باربا روسا الثانى

ورث خير الدين عن أخيه أسطولاً ضخمًا يبلغ قوام طاقمه بضع آلاف من القراصنة، علاوة على اسم باربا روسا والطموح إلى فرض سلطانه على الجزائر.

لم يكن باربروسا الشاب أقل طموحًا من أخيه، إذ على ذلك أنه كان أكثر ذكاء وأكثر حنكة فى المسائل التنظيمية والسياسية.

لقد أدرك خير الدين أن الإرث الذى آل إليه بعد أخيه - الذى لم يقدر قوة الإسبان تقديرًا صحيحًا - قد وصل إلى حالة من الانهيار التام. على أن قرر - وقد امتلأ ثقة فى قوته وقدراته الشخصية - أن يدخل فى معركة غير متكافئة. كان أمام خير الدين طريقان: إما أن يعلن نفسه وريثًا للأمير ويواصل أعمال القرصنة، وإما أن يسعى لبناء ما ورثه عن أخيه معتمدًا على حليف قوى ما يستطيع بمساعدته أن يواجه عدوه. اختار خير الدين الطريق الثانية وأصبح منذ عام ١٥١٨ تابعًا للباب العالى [٧] بعد أن تنازل عن كل طموحاته فى الجزائر للسطان التركى. لقد قرر إذن أن يعمل على نحو مخالف تمامًا لأخيه عروج الذى قطع علاقاته مع الأتراك منذ ما يزيد عن عشر سنوات خلت عندما فر من خدمة السلطان.

كان خير الدين رجلاً غاية فى الحذر فتجنب كل الأمور العاطفية وبغضاءه القديمة التى كان يكنها تجاه السلطان مدركًا أن الأخير لو غدر به فإنه يستطيع دائمًا أن يعود إلى مهنته المعتادة ألا وهى النهب البحرى. لقد صحت حسابات خير الدين. كانت تركيا فى هذا الزمان هى الدولة الوحيدة بالفعل التى تستطيع أن تقف - وعلى نحو مؤثر - ضد الإسبان والامبراطور.

قوبل مبعوثو خير الدين بكل ترحاب فى القسطنطينية. فالأتراك - الذين عضدوا موقعهم فى منطقة البلقان - كانوا يسعون لنشر سلطانهم فى شمال إفريقيا أيضًا. ومن ثم قام السلطان بمنح خير الدين لقب باشا - باعتباره تابعًا له - كما أنه عزز من برر له أطماعه فى الجزائر. فى الوقت نفسه عزز السلطان من موقف تابعه الجديد بدعم ملموس تمثل فى إمداده بألفين من أفضل جنود الانكشارية [٨] ووعده بدعم آخر فى حالة الضرورة.

لقد هيأ هذا الدعم من جانب السلطان الإمكانات أمام باربروسا الثانى. للدخول فى صراع مع الإسبان. مرة أخرى يُعْمل خير الدين فكره على نحو

صائب فيرى أنه كلما حقق انتصارات أكبر على عدوه، حاز على مشايعَين أكبر له، ومن ثم تزداد قوته وبالتالى استقلاليته عن السلطان. كان المغاربة هم الخلفاء الطبيعيين الأقوياء والمضمونين الذين لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع مسألة طردهم من إسبانيا.

أشاع أسطول باربروسا الثانى الذى أخذ فى ممارسة القرصنة فى كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط الإرهاب بين سفن التجار المسيحيين وسكان صقلية وسردينيا وجزر الباليار، فَخَرّبا دون رحمة المدن والقرى الساحلية. كان لصوص البحر بقيادة التركى دراجوت من جزيرة ردوس واليهودى سنان من سميرنا [٩] أو أيدين الملقب بعاصفة جهنم لا يتركون وراءهم سوى الرماد والأطلال. غير أن «أميرالات» باربروسا الثانى كانوا ما ينفكون يشعرون بالحسرة والغم إبان نشاطهم هذا لافتقادهم قاعدة قوية ودائمة على البر. وكذلك كانت عودتهم إلى ميناء الجزائر حتى ذلك الحين أمرًا مستحيلاً من جراء احتفاظ الإسبان بقلعتهم الحصينة فى جزيرة بنيون. لقد ظلت بها حفنة من المدافعين الأبطال بقيادة دون مارتين دى فارجاس كانت تنجح دائمًا فى صد أى هجوم من جانب باربروسا. بل إن العزيمة التى ألحقها باربروسا فى عام ١٥١٩ بأسطول الامبراطور المكون من خمسين سفينة بقيادة أوجو دى مونكاد والذى كان متوجهًا لمساعدة القلعة لم تفلح فى إسقاطها. لقد صد المدافعون عنها على مدى العشر سنوات التالية ما يزيد عن مائة هجوم للقراصنة. وأخيرًا نجح الباشا الجزائرى فى حشد عدد هائل من المدافع والذخير لتصب بنيرانها على هذه القلعة وعلى حراسها المدهشين. فى عام ١٥٢٩، وبعد قصف دام ستة عشر يومًا وليلة بلا انقطاع، نجح البربر فى نهاية الأمر فى كسر مقاومة الإسبان والدخول إلى القلعة حيث لم يجدوا بها إلا قتلى أو جرحى فقط.

لم يكن أمام باربروسا إلا أن يصب جام حقده على الإسبان فوق رءوس من تبقى من أفراد هذه الحامية المنكوبة التى تكفلت بحماية القلعة. بناء على أمر من القرصان، سيق الدون مارتين دى فارجاس إلى ميدان السوق

بميناء الجزائر. وسط هدير الجماهير الغاضبة وفى حضور الباشا تم نزع ملابس حارس جزيرة بنيون البطل حتى وسطه. على الرغم من سنه الطاعنة والجروح التى ملأت جسده ـ ثم تم تثبيته على أحد الأعمدة. لم يكن باستطاعته أن يتمالك نفسه من شدة الضعف، وكان وهو مشدود على هذا العمود يبدو كجثة لا حراك فيها عنه كإنسان تتردد فيه الأنفاس. وبأمر من الباشا أخذ اثنان من المغاربة الأشداء فى ضربه بالعصى حتى الموت.

لم يتوقف الحقد الأعمى للباشا على مجرد ملاحقة المدافعين عن بنيون وإنما قرر أن يقتص من القلعة نفسها بتدميرها. فى اليوم التالى لإعدام فارجاس أرسل الباشا بالآلاف من الأسرى المسيحيين الذين قاموا على مدى عامين من العمل المضنى ببناء حاجز حجرى ضخم أصبح يربط منذ هذا التاريخ القارة الأفريقية بجزيرة بنيون التى تحولت وفقًا لهوى القراصنة إلى شبه جزيرة. منذ ذلك الحين أصبح ميناء الجزائر المرفأ الر ئيسى لأساطيل القراصنة.

خمسة عشر عامًا مضت على استيلاء بارباروسا الثانى على مقاليد السلطة فى الجزائر. وذات يوم؛ إذ به وقد جاوز مرحلة الشباب يظهر على رأس ستين من سفنه عند ميناء ريدجيو [١٠] فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة كالابريا. كان ظهور خير الدين مفاجأة تامة لسكان هذه المدينة الذين كانوا على يقين مطلق من استحالة أن يخاطر القراصنة بالهجوم عليها من هذه الناحية من البحر لخطورة العبور فى مضيق ميسينا. استغل القرصان الجسور ما أحدثه من ذعر فهاجم قلعة سانتالوتشيا واستولى على المدينة ثم دفع قراصنته بالآلاف من السكان للركوب فى السفن التجارية الراسية فى الميناء وأبحروا بهم جميعًا.

أصبح الاستيلاء على ريدجيو «القمة» الحقيقية لفن القرصنة. على الهدف النهائى أمام باربارosa كان مدينة فوند حيث تعيش فيها سيدة ما اشتهرت بجمالها الفائق فى كل أنحاء إيطاليا. لم يكن باربباروسا قد رأى هذه الحسناء

إطلاقًا، غير أنه سمع عنها من الأسرى الذين استولى عليهم من شبه جزيرة كالابريا.

كان للوصف الأخاذ المبالغ فيه لجمال الأرستقراطية الإيطالية، أثره الشديد فى إلهاب خيال بارباروسا - الذى كان يخطو نحو الشيخوخة - إلى حد أن أى شىء فى هذا العالم لم يكن ليستطيع أن يوقف رغبته الجامحة فى امتلاك هذه المرأة الحسناء سرعان ما عرف القرصان باسمها: جوليا جونزاجا، أميرة ترادجيتو. فى الوقت نفسه لم يكن لدى جوليا الحسناء، أرملة أمير تراجيتو أدنى تصور عن الخطر المحدق بها. كان من المستحيل أن يدور بخلدها أن يأتى إلى مدينة فوند أسطول مكون من ستين سفينة قراصنة على رأسها بارباروسا نفسه فقط من أجل جمالها.

وحتى يضمن بارباروسا مفاجأة الهجوم على المدينة والحيلولة دون إمكانية هروب الأميرة قام بهجومه فى منتصف الليل. غير أن الإنذار قد سار إلى المدينة وعندما تمكنت جوليا جونزاجا من القفز من مخدعها وليس على جسدها سوى ثوب نوم فاضح لتفر من المدينة بأسرها على ظهر أحد الخيول وبرفقتها أحد الخدم.

من يدرى إلى أى مدى كان من الممكن أن يستمر هذا الركض الجنونى لو لم تخر قوى حصان الأمير بعدما امتلأ - وجهه بالزبد. لجأت الأميرة جوليا إلى جوار إحدى أشجار البلوط الضخمة وقد أنهكها التعب لتنال قسطًا من الراحة.. على أن القدر لم يمكنها من تجاوز كل المخاطر...

لم يخبرنا التاريخ عما حدث فى تلك الليلة فى دغل أشجار البلوط، يكفينا أن نعرف أنه ما أن زال خطر العدوان حتى جرت الإطاحة برأس الخادم الشاب بناء على أمر من الأميرة.

لم لم يجد بارباروسا أثرًا للأميرة؛ اجتاحه غضب عظيم وإذ بالمدينة تتحول - على مدى ساعات أربع - إلى مسرح لحفل دموى فاجر، أقامه القراصنة البربر. فقتلوا العجائز والأطفال - الذين لم تكن بهم حاجة إلى

أسرهم - دون رحمة، واغتصبوا النساء، وأضرموا النار فى البيوت ومن بقى حيًا بعد ذلك اقتادوه إلى سفنهم وحملوه معهم. عندما عادت الأميرة ترادجينو إلى مدينة فوند، لم تجد هناك سوى أطلال ورماد.

أصبح الهدف التالى أمام باربروسا هو تونس، التى كان يحكمها السلطان مولاى حسن والذى كان يتمتع بحماية إسبانيا. وفى هذه المرة تكلل هجوم القرصان عليها بالنجاح؛ لقد استولى خير الدين على مدينة تونس فى عام ١٥٣٤؛ وعندئذ قرر كارل الخامس أن ينكل بالبربر بشكل حاسم.

أرسل كارسل الخامس أسطولاً قويًا بقيادة أندريا ، أحد أبرز القادة البحريين فى هذا الزمان. استمر أندريا يحارب خير الدين فى البحر الأبيض المتوسط عدة سنوات غير أنه لم يستطع القضاء عليه.

فى عام ١٥٣٥ بدا أن كفة النصر قد أخذت تميل إلى جانب المسيحيين. فإذا بأندريا دوريا يسترد مدينة تونس فى السادس عشر من يونيو من نفس العام ليعيدها مرة أخرى إلى تبعية إسبانيا بعد أن كان باربروسا قد استولى عليها. على أنه - وبعد مرور عدة أيام لا أكثر - قام باشا الجزائر باجتياح مينوركا وتدميرها، واستولى منها على ستة آلاف أسير أهداهم إلى السلطان سليمان. وفى الخامس عشر من أكتوبر عام ١٥٣٥ قام السلطان - وقد انتشى بالانتصارات التى أحرزها تابعه - بخلع لقب الأدميرال العظيم على باربروسا. وبعد أن وضعته علىّ رأس الأسطول التركى بأسره عينه بايلربايا (١١) على إفريقيا.

فى الوقت نفسه، أدى الصراع الدائر بين آل هابسبورج وتركيا، إلى حدوث تقارب بين السلطان وفرنسا التى كانت تسعى إلى الاستيلاء على إيطاليا؛ الأمر الذى أعاق من توسع الإمبراطور فى البحر الأبيض المتوسط. لجأ الملك الفرنسى فرانسوا الأول - بعد الهزيمة التى حاقت به عند مدينة بافيا شمالى إيطاليا - إلى السلطان التركى يطلب المساعدة ضد كارل الخامس. وعلى الرغم من أن سليمان الأكبر أعرب عن استعداده للوقوف إلى جانب

فرنسا، فإن التحالف الفرنسى التركى لم يكن قد قام على نحو رسمى آنذاك، وإنما جرى عقده فى فبراير عام ١٥٣٦ بعد استيلاء كارل الخامس على تونس.

فى طريقها إلى فرنسا، تعرضت سفن بارباروسا ـ أثناء عبورها مضيق ميسين ـ إلى قصف من بطاريات المدافع الرابضة على ساحل ميناء ريدجو.

سارع باربروسا دون تردد ـ وقد تملكته الدهشة والغضب من جراء هذا الاستفزاز السخيف ـ بإصدار الأمر بضرب المدينة من مدافع السفن. ثم أنزل بعد ذلك قوة من الجنود الانكشاريين قوامها اثنا عشر عشر ألفًا منهم نكلوا بالسكان الأبرياء.

على أن هذا الحادث العرضى أصبح نقطة تحول فى حياة باربروسا الثانى الشخصية، والذى كان قد جاوز السبعين من عمره. فقد اتضح أن من بين الأسرى الذين أخذوا من ريدجو، فتاة رائعة الحسن ، أتمت من عمرها ثمانية عشر ربيعًا، وهى فى الوقت نفسه ابنة لحاكم المدينة. كان خير الدين من ذلك الطراز من الرجال الذين لايكترثون بجمال النساء. فقد كان يعيش حياة القرصان العنيفة دون أن يكون لديه الوقت ـ مع كل هذا ـ لحب حقيقى. أما الآن فقد أشعلت هذه الأسيرة الفاتنة المشاعر المتأججة فى قلب العجوز.

حمل باربروسا ـ وقد سلبه الجمال لبه ـ الفتاة إلى سفينته، ثم أدخلها إلى قمرته المؤثثة بفاخر الرياش الشرقى. كانت مجموعة من أنواع مختلفة من الأسلحة المهيبة تزين الحوائط المغطاة بالحرير، بينما فرشت الأرض بسجادة سميكة رائعة فارسية الصنع. كشف باربروسا عن الأدراج والصناديق الموضوعة على امتداد الحائط ـ وقد امتلأت على آخرها بالنفائس والمجوهرات ـ حتى يتمكن بصورة نهائية من إبهار الفتاة التى كانت مندهشة لما تراه. على أن كل الثروة التى ألقاها القرصان عند أقدامها لم تأخذ بمجامعها؛ وإذ بالأسيرة تنفجر بالبكاء الحار وتعلن له أن أثمن كنز للإنسان هو حريته:

- إذا أصبحت زوجًا لى فإننى أهب لوالديك الحرية. هكذا تكلم القرصان خير الدين ثم اقترح وقلبه يرتعد خوفًا من الرفض مواصلاً إغراء الفتاة:

- لسوف تكونين أغنى امرأة فى العالم. مم تخافين؟ إننى أقوى رجل فى العالم بعد سليمان الأكبر وأتمنى لو أصبح لك خادمًا وعبدًا؛

استسلمت الفتاة فى نهاية الأمر، وتمت الصفقة. سمح القراصنة لوالدى العروس بالعودة إلى وطنهم ومعهم علية القوم فى ريدجو الذين أعيدت إليهم أيضًا ثرواتهم المنهوبة. لقد انبعثت فى بارباروسا - الذى كان يخطو نحو الشيخوخة - روح جديدة كما لو روح شاب ولم يعد أصدقاؤه وأتباعه يرون فيه زعيمهم الشرس الذى لايرحم.

- والآن إلى مرسيليا. هكذا تحدث القرصان إلى عروسه وقد تملكه القلق والاضطراب ثم أضاف قائلاً:

- لنَرَ على أى نحو سيكون استقبال الفرنسيين لى. أنا على يقين أنك سوف تفتخرين بزوجك.

وبالفعل كان النجاح حليفه. وها هو ذا ابن صانع الفخار الفقير من جزيرة ميتلين ينال أعلى مراتب التكريم. وها هى فرنسا تستقبل ظالم الأمس كما لو كان بطلاً قوميًا. إبان هذه المراسم المخزية، كان لواء القراصنة الكريه يرفرف على الصارى تتوسطه علامة الهلال فى مكان علم الأسطول البحرى الفرنسى.

قام بارباروسا - ردًا على الحفاوة التى استقبل بها فى مرسيليا - بالهجوم على نيس حيث كان المدعو باولو سيميونى أحد فرسان [١٢] جزيرة مالطة يبدى هو وحاميته مقاوة عنيفة ضده فى انتظار وصول الدعم. لقد كان من الواضح أن كل هجمات بارباروسا على قلعة نيس قد باءت بالفشل؛ مما اضطره فى نهاية الأمر إلى الانسحاب.

اعتزل بارباروسا فى قصره باحثا فى هدوء عن السكينة فى أحضان زوجه الشابة. عندئذ قام أتباعه - معتمدين على أنفسهم - بممارسة النهب فى مدن

وقرى جنوب فرنسا، منتهزين فرصة خمول زعيمهم. أصبح الفرنسيون يضيقون ذرعًا بمثل هذا النوع من الحلفاء. وكان أكثر ما يثير حفيظتهم هو رفض تحرير أسراهم.

ـ هؤلاء رعايا فرنسيون ومَلكُنا حليف للسلطان!

بهذا حاول الفرنسيون شرح الأمر لبارباروسا. غير أن مفاهيم الدبلوماسية الفرنسية كانت غريبة تمامًا على فكر باربروسا، الذى كانت تزعجه ـ علاوة على ذلك ـ أصوات القَرْعِ الجنائزى للأجراس. وقد كانت الأجراس فى الواقع تقرع بشكل متصل تقريبًا؛ فأعداد الموتى من الأسرى الذين كانوا يعيشون فى ظروف بائسة كان فى تزايد مستمر.

كان البخل الشديد واحدًا من الصفات المميزة لباربروسا. لم يكفه أن رجاله قد نهبوا جنوب فرنسا؛ وإنما طالب ـ فور وصوله إلى هناك ـ ملك فرنسا أن يتحمل عنه نفقات أسطوله. بلغت مفاوضات باربروسا مع ممثل الملك فرانسوا الأول حدًا من الغرابة لايختلف عن غرابة التحالف السابق ذكره بين القراصنة والسلطان والملك الفرنسى:

ـ يجب أن نسوى حساباتنا قبل عودتى إلى القسطنطينية. فأنتم مدينون لى بمبلغ كبير.

ـ هذا مستحيل! لقد دفعنا ضعف المبلغ المطلوب منا.

ـ إننى لم أطلب منكم حتى الآن سوى تغطية نفقات وصولنا إلى فرنسا ويبقى عليكم بعد ذلك دفع نفقات عودتنا.

ـ إننا لانسمح بالاستغلال السئ لكرمنا. لقد دفع الملك لكم أكثر بكثير مما لكم.

ـ وأنا مطالب بالدفاع عن مصالح السلطان حليفكم هنا؛ فإذا لم تعوضونى عن الخسائر التى يمكن أن يتعرض لها أسطولى فى طريق عودته إلى البوسفور فإننى سأظل هنا ما لم أتسلم الأموال المستحقة لى. وأريد أن أقدم

خالص أسفى على الإزعاج الذى سببه بحارتى لموانيكم. صاح المفوض الفرنسى باستياء:

- أنت تسمى ما فعلوه إزعاجًا؟! لقد تصرف رجالك كالوحوش ! إن ما فعلوه هو كارثة حقيقية لموانينا. على أن ملكنا - واضعًا فى اعتباره روابط التحالف القائمة بيننا - لم يقدم شكوى رسمية بهذا الصدد، وإنما يتمنى أن يغادر أسطولكم البلاد ولايعود إليها مطلقًا.

- إننى أقدر قلقه تمامًا. وأنا نفسى أشعر بالقلق من جراء سلوك رجالى. ولهذا أميل لتركِكم حالما يصبح هذا الأمر ممكنًا.

- إن عليك أن ترحل فورًا من هنا!

- سأرحل عندما أتسلم مستحقاتى.

وفى النهاية وصل الفرنسيون إلى استنتاج مفاده أن الأجدى لهم أن يفتدوا أنفسهم من هذا الحليف بثمن باهظ، بدلا من تعريض أراضيهم لتهديدات النهب المستمر ومن ثم فقد دفعوا لبارباروسا المبلغ المطلوب. وطبقًا للاتفاق؛ فقد غادر بارباروسا فرنسا. ولكنه أغار فى طريقه على جزر إلبا، وإيسيكيا، ويروتشيدا، وكذلك جزر ليبارى. بوصول سفن القراصنة إلى مكانها المحدد كانت قد امتلأت عن آخرها بالغنائم، علاوة على سبعة آلاف أسير، ناهيك عن أن بارباروسا كان قد أطلق سراح أربعمائة أسير مسلم فى فرنسا لم يُدفَع عنهم فدية.

كانت من نتائج التحالف الذى عقد فى الحملة التالية (١٥٣٦ - ١٥٣٧) أن وقفت تركيا إلى جانب فرنسا ضد الإمبراطور؛ فاستولى الأسطول التركى تحت رئاسة خير الدين على بيزرت فى تونس، وأصبح يشكل تهديدًا لنابولى، وكان قد دمر عددًا من الجزر فى البحرين الأيونى وإيجه حيث كانت السيادة فيهما لڤينيسيا حليفة الإمبراطور.

فى عام ١٥٣٧ التقى من جديد الندان اللدودان أندريا دوريا وخير الدين وجهًا لوجه بالقرب من ميناء ميسينا الإيطالى وإذا بالأول يتمكن من

الاستيلاء على اثنتى عشرة سفينة من سفن أعدائه الأتراك وانتقامًا من هزيمتهم قام القراصنة بنهب سواحل إقليم أبوليا (بوجليا) الواقع جنوبى إيطاليا. ثم واصلوا هجومهم على جزر كورفو الخاضعة آنذاك لفينيسيا.

بعد انقضاء عام على تلك المعركة، علم بارباروسا أن أندريا دوريا يجمع أسطولاً جبارًا فى خليج ليون جنوبى فرنسا، عاقدًا عزمه على توجيه ضربة قاضية للقراصنة. فى هذه المرة كان على القرصان بارباروسا أن يدخل فى معركة ضد قوى العالم المسيحى مجتمعة.

بلغ جملة ما أعده أندريا دوريا - ابن مدينة جنوه - من قوات مسلحة مائتى سفينة، من بينها ثمانون سفينة من فينيسيا، ست وثلاثون أرسلهم البابا، ثلاثون سفينة إسبانية، علاوة على ستين ألف رجل، وألفين وخمسمائة مدفع. إلا أن قوات القراصنة كانت ضعف هذه القوة التى نقلت قاعدتها بأمر من بارباروسا الثانى إلى منطقة البحر الأيونى. فى الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٥٣٨، كان أقوى أسطولين فى ذلك الزمان يقفان فى مواجهة كل منهما الآخر فى خليج بريفيز. فى اليوم التالى كانت الرياح تؤازر الأسطول التركى. وها هى المعركة تبدأ لتنتهى بهزيمة ساحقة لقوات الدول المسيحية.

ثلاث سنوات كاملة مرت بعدها حتى تمكنت الدول المسيحية من أن تبرأ من آثار الهزيمة الثقيلة وتقرر الأخذ بالثأر. مرة أخرى تولى القيادة العليا للأساطيل المتحالفة ثقتها لدوريا فى تولى قيادة السفن التى كانت تمثل كل الدول المسيحية تقريبًا آنذاك، وكان من بين المشاركين فى الأسطول الإسبانى كورتيس الذى غزا فيما بعد بيرو.

اتخذ هذا الاسطول الذى بلغ قوامه ما يزيد عن خمسمائة سفينة مواقعه فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٥٤١ على مشارف ميناء الجزائر. كان الإمبراطور كارل الخامس يقف بنفسه على ظهر سفينة القيادة بينما كان دوق إلبا يتولى عدة آلاف من المشاة. على أن النصر فى هذه المرة أيضًا كان حليفًا للقراصنة. لقد مُنِيت الأرمادا المسيحية الجبارة بهزيمة جديدة لم تستطع

الدول المسيحية أن تجمع شتات قوتها من بعدها على مدى نصف قرن تقريبًا.

على الفور استعاد القراصنة البربر وكرهم القديم فى جربة حيث شيدوا من عظام القتلى المسيحيين الذين دافعوا عن الجزيرة، هرمًا هائلاً أسموه «برج الجماجم»، ظل قائمًا لمدة ثلاثمائة عام حتى أمر بإزالته فى عام ١٨٤٨ فقط القنصل الفرنسى.

فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٥٤٣ استولت القوات الفرنسية على نيس بفضل المساعدة التى قدمها لهم الاسطول التركى بقيادة خير الدين باربروسا التى أعطاه الفرنسيون فى مقابلها ميناء طولون. وفى التاسع عشر من يونيو عام ١٥٤٧ عقد السلطان سليمان - سعيًا منه فى مزيد من حرية الحركة فى فارس - اتفاقية هدنة لمدة خمس سنوات مع أسرة هابسبورج، كان من نتيجتها أن حل السلام النسبى بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

بعد أن حقق خير الدين مجدًا كبيرًا، وثروة لاتعد ولاتحصى قرر - وقد بلغ من العمر أرذلة - أن يركن إلى حياة هادئة. على أنه أدرك أن ميناء الجزائر - معقل القراصنة البربر الأساسية وقاعدتهم - ليست هى المكان الأمثل لهدفه هذا؛ ومن ثم فقد توجه إلى القسطنطينية، حيث قضى ما تبقى له من العمر بصفته باشا الجزائر وأقرب المقربين من سليمان الأكبر. وقد وافته المنية فى الرابع من يوليو ١٥٤٧ بقصره المطل على مضيق البوسفور. لم يستمتع باربروسا الثانى المتكبر بالمجد، سوى إبان حياته، وكان يتمنى لو أن أحفاده احتفظوا بذكراه إلى الأبد. شَيَّد خير الدين مسجدًا رائعًا وضريحًا تذكريًا دفُن فيه بناء على رغبته.

ظلت كل سفينة تركية على مدى سنوات طوال تؤدى تحية الشرف أمام ضريحه وذلك لدى مغادرتها لخليج القرن الذهبى، كما كان طاقم السفينة يصلى لقرصان البحر الأبيض المتوسط القوى؛ البحار التركى العظيم . ظلت ذكرى باربروسا الثانى حية بين المسلمين كما وجدت تعبيرًا لها فى الأسطورة البطولية التى صورت حياته.

## خلفاء الإخوة باربا روسا

## حلفاؤهم، أعداؤهم، ضحاياهم

جاء خلفاء الإخوة باربا روسا من بين أكثر أنصارهم موهبة. ولقد سعوا جميعهم للاحتفاظ بالمواقع التى احتلتها دولة القراصنة فى البحر الأبيض المتوسط. لكن أحداً منهم لايمكن أن يوضع موضع المقارنة مع ما كان يملكه أصحاب دولة البربر الأول من طاقة أو موهبة.

بعد وفاة باربا روسا الثانى يمكن أن تقسم تاريخ مملكة شمال إفريقيا ـ كما كان يسمى هذا الإقليم التركى ـ إلى الفترات الثلاث التالية: حكم البايلربايات (١٥٤٦ ـ ١٥٨٧)، حكم الباشوات (١٥٨٨ ـ ١٦٥٩)، ثم حكم الدايات (١٣) (١٦٧١ ـ ١٨٣٠).

فى العشرين من يونيو عام ١٥٤٤ وصل إلى مدينة الجزائر حسن، ابن خير الدين. فبعد وفاة باربا روسا الثانى؛ منحه السلطان سليمان لقب بايلرباى إفريقيا، لكن اتضح أن حسن كان عدواً متطرفاً لفرنسا؛ ففى فترة حكمه قام القراصنة بنهب أقاليمها الساحلية دون أدنى شفقة. لم يكن هذا التصرف يدخل ضمن حسابات تركيا على الإطلاق؛ حيث أن سياستها آنذاك كانت تميل إلى جانب فرنسا. وفى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٥٥١– وبناء على إلحاح السفير الفرنسى فى القسطنطينية – قام السلطان برفع لقب بايلرباى عن حسن. وافق اتخاذ هذه الخطوة من جانب السلطان خرقه لاتفاقية الهدنة المعقودة بينه وبين آل هابسبورج، وتجددت العمليات ضد الإمبراطور فى المجر وفى شمال إفريقيا.

وكذلك بدأت فرنسا أعمالها العسكرية فى إيطاليا ضد الإمبراطور، لكنها لم تحقق نجاحًا كبيراً فيها. لقد أدى تكتيك فرنسا فى إيطاليا – بصورة رئيسية – إلى دعم أعداء الإمبراطور الذين كانوا يحاربون حلفاءه المحليين. تلى ذلك التكتيك لجوء فرنسا – إلى حين وبمساعدة أسطول القراصنة البربر – إلى دعم الانتفاضة التى هبت فى كورسيكا ضد جنوده.

فى شهر إبريل من عام ١٥٥٢ قام السلطان بتعيين الريس صلاح - أحد أتباع بارباروسا المقربين - بايلربايًا لإفريقيا. وعلى الفور أقدم الريس صلاح - مسترشدًا بتعاليم أساتذة السياسة - على غزو الأراضى الواقعة فى مؤخرة دولة القراصنة وهما كابيليا، والمغرب. فى عام ١٥٥٥ استولى من الإسبان على بوجى، لكن موته المفاجئ لم يمكنه من استعادة وهران منهم. بعد موته؛ ادَّعى السلطة لنفسه غصبًا زعيم الانكشارية ومساعد صلاح المدعو حسن كورسو الذى قام بمحاصرة وهران من البر والبحر. على أن السلطان الذى أخذ فى التعرض للتهديد من جانب قوات دوريا كان فى مسيس الحاجة لمساعدة أسطول القراصنة، ولهذا فقد أصدر أمرًا إلى حسن بالانسحاب من وهران والتوجه إلى ميناء الجزائر، حيث أصبح محمد كرد أوغلى بايلربايًا عليها. كان لهذا التعيين أثره فى قيام صراع مؤقت على السلطة بين منافسين عليها وهما حسن كورسو ويؤيده جنود الانكشارية، وكرد أوغلى الذى يتمتع بثقة الأسطول. بعد أن قبض القراصنة على كورسو أنزلوه إلى صخرة فى عرض البحر غير مأهولة حيث ما لبث أن فارق الحياة بعد أيام قليلة.

لم يستمر حكم كرد أوغلى طويلًا؛ إذ أنه فى إبريل عام ١٥٥٧ قُتل على يد القائد(١٤) يوسف. صحيح أن الانكشارية استعادوا من جديد تأثيرهم المفقود فى الأسطول ولكن هذا التأثير لم يستمر هو أيضًا طويلاً، إذ ما لبث القائد يوسف أن هلك بعد عدة أسابيع بسبب الطاعون.

أعاد السلطان مرة أخرى تعيين حسن بن خير الدين بايلربايًا لإفريقيا حتى يضع نهاية للصراع على السلطة وللحرب الدائرة بين الأخوة. وقد نجح حسن - إبان مدة حكمه التى استمرت عشر سنوات - أن يحقق انتصارين كبيرين على الإسبان. فى اليوم الأول من شهر سبتمبر عام ١٥٥٨ قتل الأمير الكانديتى بالقرب من ميناء المستغنم الواقع شمالي غرب الجزائر، وتم سحق جيشه، كما دُمِّر الأسطول المسيحى فى جزر جيليف عن آخره.

أبرزت المعارك مع الإسبان اسم دراجوت، أحد أتباع بارباروسا المقربين.

دراجوت هو أحد أكثر الشخصيات طرافة على ظهر سفن القراصنة البحارة. يعود أصله إلى منطقة الأناضول فى آسيا الصغرى، وكان قائدًا فى الأسطول التركى. وكان خير الدين قد أرسل إليه ـ لما سمع عن مآثره فى البحر ـ يدعوه إلى الجزائر وائتمنه على قيادة أسطول له مكون من اثنتى عشرة سفينة. وفى إحدى المعارك البحرية وقع دراجوت فى يد دروبا وظل فى الأسر أربع سنوات، كان خير الدين افتداه بمبلغ ثلاثة آلاف كرون بعد وساطة زعيم فرسان مالطه وخاصة الحاكم خوان باريو دى لافاليتا. ما أن حصل دراجوت على حريته حتى قام على الفور «بَرد الجميل» إلى منقذيه، فاستولى على سفينة مالطية كانت تحمل إلى طرابلس سبعة آلاف دوكات [١٥] وافقت عودة دراجوت من الأسر رحيل خير الدين إلى القسطنطينية. وعلى الفور أصبح دراجوت قائدًا لأسطول باربا روسا الثانى كله، وما لبث أن جدد نشاط القرصنة.

لم يكن دراجوت يستشعر الأمان على نحو كاف فى الجزائر لتعرضها المستمر للتهديد من قِبل الإسبان، ومن ثم فقد نقل مقر إقامته إلى جزيرة جربة حيث حولها إلى قلعة حصينة ومن هناك حقق دراجوت واحدة من أشهر أعماله على صفحة البحر. كان أندريا دروبا قد قام ـ تدعمه السفن الإسبانية ـ باحتلال آخر ميناء للقراصنة فى القارة الإفريقية بعد أن أوقع فى الأسر الريس خيار ابن أخت دراجوت.

كان من أهم وأثمن الأشياء ـ من وجهة نظر القراصنة ـ تلك البحيرة الموجودة فى جزيرة جربة، والتى قاموا بتوصيلها بالبحر عبر قناة ضيقة تحرسها عشرات المدافع.

قام دراجوت ـ بعد أن فقد كل الموانى فى القارة ـ بجمع أسطوله واختبأ معه فى جزيرة جربة. آنذاك كمن أندريا دوربا ـ وكان يعرف سر البحيرة ـ عند مدخل القناة. لكن الأيام والأسابيع مرت دون أن يظهر أى أثر لسفن القراصنة. عندئذ قرر دوربا ـ بعد أن نفذ صبره ـ المخاطرة؛ فأرسل بعضًا من السفن فى عمق القناة. وكانت دهشتهم عظيمة إذ لم تتعرض أى منها

لقصف المدفعية، وعلى ذلك فقد واصلت سيرها بهدوء تام حتى وصلت إلى البحيرة، فإذا بها خالية تمامًا من أى أثر لأسطول العدو. وسرعان ما نكتشف سر اختفاء سفن القراصنة. لقد أجبر دراجوت ـ بعد أن تبين له مدى صعوبة اختراق حصار المسيحيين الذى ضُرب خوله ـ أسراه إلى جانب أطقم سفنه بحفر قناة جديدة يمكن بواسطتها وصل البحيرة بالساحل المقابل للجزيرة. وعندما أصبحت القناة؛ مُعَدَّة أخرج أسطوله عبرها إلى البحر.

فى عام ١٥٦٥ لجأ فرسان مالطه ـ الذين طردوا من رودس على يد الأتراك ومن بعدها من طرابلس على يد أحد أتباع بارباروسا الثانى ـ لجأوا للاختباء بمالطه مدافعين بشراسة عنها ضد هجمات الأتراك المتتالية.

تسعة عشر عامًا كانت قد مرت منذ وفاة خير الدين، وستة عشر عامًا منذ أن بعث دراجوت الروح فى أعمال القرصنة من جديد، وها هى الأوامر تصدر من القسطنطينية بدعم حملة تركية جديدة ضد قلعة مالطه. ومثله مثل رئيسه حسن يتسلم دراجوت رسميًا العمل فى خدمة السلطان التركى.

بلغ قوام الجيش الذى أرسله الباب العالى لضرب مالطه ثلاثين ألف رجل قادهم بيالى باشا. بينما قدم دراجوت من جانبه سفنًا ورجالاً يبلغ عددهم عدة آلاف من القراصنة الجزائريين. كان مجموع هذه القوات يزيد عن ما لدى فرسان مالطه بكثير، ولذا فقد بدا أن مالطة وعلى رأس مدافعيها بارسيو دى لافاليتا ـ وكان قد جاوز السبعين من عمره ـ لن تستطيع المقاومة.

بعد معارك دامية ومضنية لكلا الجانبين استمرت ستة أشهر؛ قام دراجوت بهجوم كاسح، أما المدافعون عن القلعة فعبثًا كانوا ينتظرون وصول النجدة إليهم حتى أصبحوا على وشك الإنهاك التام. وحتى يضمن دراجوت النجاح التام لهجومه إذ به يقف بنفسه على رأس قواته المهاجمة. ولكن حتى أشجع مقاتليه خذلوه إبان المعركة وتركوه يلقى حتفه فيها.

كان لموت دراجوت وقع شديد على بيالى باشا دفعه إلى الخوف من تكبد مزيد من الخسائر؛ فسارع بإصدار الأمر بالانسحاب، وخاصة أن رسله

القادمين من الجزيرة نقلوا إليه أنباء مفادها أن أسطول أرمادا الإسبانى الجبار قد هب لمساعدة مالطة. لقد مرّت على هذه الأحداث الآن أربعة قرون وما تزال عاصمة مالطة تحمل حتى اليوم اسم الرجل الذى دافع عنها: لافاليتا.

فى عام ١٥٦٧ قام السلطان بتعيين حسن قائدًا للأسطول العثمانى، تمامًا كما حدث ذلك فى يوم من الأيام مع أبيه خير الدين. وها هو مرة أخرى يغادر الجزائر؛ ولكن هذه المرة إلى الأبد. وبعد عام واحد تم تعيين محمد بن الريس صلاح بايلربايًا مكانه.

فى النهاية شغل أولج على أرفع منصب فى الجزائر ليكون بذلك آخر بايلرباى عليها. كان الرجل بلا شك أبرز خلفاء بارباروسا الذين حكموا دولة القراصنة البربر من مارس عام ١٥٦٨ وحتى وفاته فى السابع والعشرين من يونيو عام ١٥٨٧.

الاسم الحقيقى لأولج على هو أوتشالى من شبه جزيرة كالابريا الإيطالية. تلقى تعليمه الأول فى فترة الصبا فى أحد الأديرة، وكان فى نيته أن يصبح راهبًا فى المستقبل؛ لكنه وقع فى أسر القراصنة البربر عندما هاجم هؤلاء السواحل الجنوبية لإيطاليا. وظل لسنوات طويلة يعمل بالتجديف فى سفينة الريس على أحمد ثم قائدًا للدفة فى سفينة دراجوت.

دخل أولج على فى الإسلام على أمل أن يجد الفرصة يومًا ما للانتقام، مضمرًا الحقد والكراهية لكل من هو تركى. ومنذ ذلك الحين تغيرت أحواله تمامًا. فدأب - منذ أعتقه على أحمد - على ملازمة القراصنة، وبدأ يشق طريقًا له فى هذا المجال بسرعة فائقة ليصبح فى عام ١٥٥٧ واليًا على تلمسان، أما فى عام ١٥٦٠ فقد تم منحه لقب خليفة. فيما بعد يرث أولج على ثروة طائلة عن دراجوت ويصبح باشا على طرابلس، ليصل فى النهاية إلى منصب بايلرباى الجزائر.

لقد جرى تعيينه فى هذا المنصب الرفيع فور احتلاله لتونس، واستيلائه -

بعد معركة شرسة ـ على سفن حربية من سفن الفرسان المالطيين. كانت الغنيمة التالية أمام على هى قبرص، التابعة آنذاك لڤينيسيا.

كان البابا بى الخامس قد ناشد ـ بعد أن عرف بوقوع هذه الجزيرة فى يد الأتراك ـ العالم المسيحى بأسره أن يقوم بحملة صليبية ضد الكفار. على أن أحداً لم يسارع لنجدة ڤينيسيا سوى الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا، الذى وضع أسطوله بكامله ليكون تحت تصرفها. أما العديد من الملوك فلم يستجيبوا لدعوة البابا وإن كان عدد من الفرسان من مختلف الدول الأوروبية قد انضموا إلى صفوف فرسان مالطه.

قامت الحرب ضد قوات الهلال تحت القيادة الروحية للبابا. على أن أهم شخصية فى المعسكر المسيحى ظلت هى شخصية الملك الإسبانى، الذى يبلغ من العمر آنذاك أربعة وعشرين ربيعًا. تركز الأسطول المسيحى المؤلف من ثلاثمائة سفينة فى ميناء ميسينا بجزيرة صقلية، وفى السادس عشر من سبتمبر عام ١٥٧١ كانت جميع الاستعدادات قد تمت وغادرت السفن الميناء لتلتقى فى السابع من نوفمبر عند ليبانتو[١٦] مع القوات التركية. انتهت المعركة بهزيمة الأتراك، الذين فقدوا حوالى خمسة وعشرين ألف رجل، علاوة على ذلك استطاع الأسطول المسيحى أن يطلق حوالى خمسة عشر ألفًا من الأسرى كانوا على السفن التركية، على حين بلغت خسائر المسيحيين حوالى ثمانية آلاف قتيل وأكثر من ضعف هذا العدد من الجرحى. وقد استطاع أولج على فى هذه المعركة التى دارت بالقرب من ليبانتو أن يحقق مزيداً من المجد والشهرة؛ فقد قاتلت سفنه التى شغلت الجناح الأيسر من الأسطول التركى ونجحت وحدها فى صد الهجوم العنيف الذى شنته سفن خوان النمسوى. وفى الوقت الذى تمزق فيه الجناح الأيمن والصفوف المقاتلة التركية فى القلب شر ممزق؛ فإن أولج الذى لا يقهر قام بعزيمة المستميت بمهاجمة سفن فرسان مالطه واستولى على سفينة القيادة بأسلوب المصادمة.

استقبل السلطان أولج استقبال الأبطال، وعينه فى منصب الأدميرال الأكبر للأسطول التركى تاركًا إياه يحتفظ فى الوقت نفسه بلقب بايلرباى

أفريقيا. وهكذا استطاع هذا القرصان البربرى الفذ ـ العبد سابقًا ـ أن يرتقى أعلى درجات المجد.

كان أولج على الأخير فى قائمة الحكام البايلربايات فى دولة القراصنة.

كانت تجارة العبيد دائمًا أحد أهم مصادر الدخل الرئيسية للقراصنة البربر. بل لقد ظهرت هناك فى الجزائر وتونس وطرابلس شركات تجارية كانت تمول الحملات من أجل الحصول على البضائع الحية. ويرى الأب دان المؤرخ والذى كان أسيرًا، في الجزائر في عام ١٦٣٤ أن عدد العبيد المسيحيين هناك بلغ آنذاك خمسة وعشرين ألف أسير، ناهيك عن ثمانية آلاف مسيحى اعتنقوا الاسلام.

كان من المتبع بعد تسليم العبيد فى الميناء أن يسجنوا فى سراديب واسعة، ثم يجرى بعد ذلك تسجيلهم واستجوابهم بواسطة مترجمين، ثم تصنيفهم وكتابة الاسم والكنية والجنسية والمهنة إلى آخره من بيانات. وكان الذين لهم أقارب أغنياء قادرون على دفع فدية كبيرة يوضعون بمفردهم، أما الآخرون فيرسلون إلى بيسيستان. وكان يعد آنذاك أكبر سوق للعبيد. حيث يعرضون هناك للبيع.

كان بعض الأسرى المسيحيين يعاملون معاملة قاسية. لكن هذه الحالات كانت نادرة للغاية، إذا استثنينا بالطبع إرسال الأسرى إلى الأعمال الاجتماعية والشاقة. كان السادة من الأتراك والمغاربة يعاملون عبيدهم فى الغالب ببساطة كما يعاملون الماشية، معتبرين أنهم كلما أحسنوا تغذيتهم ومعاملتهم، كان هؤلاء أكثر إنتاجية لهم فى العمل. كان هؤلاء المسلمون يتميزون كثيرًا عن المسيحيين الذين كانوا يعاملون عبيدهم من المسلمين معاملتهم للمرتدين، أما ما كان يعنيه هذا الأمر إبان عصر التفتيش فالأمر لا يحتاج إلى تفسير.

كان المغاربة يقدرون أصحاب الحرف والفنانين والأطباء تقديرًا رفيعًا، وكانوا كثيرًا ما يعيدون العبيد إلى حريتهم. وقد اختلط الكثير من هؤلاء

بالسكان، وتزوجوا منهم، واعتنق بعضهم الإسلام، وارتدوا العمائم، وذهبوا للعمل كقراصنة.

أما فيما يتعلق بالأسيرات المسيحيات فالشابات والجميلات منهن أرسلن إلى الحريم، بينما جرى استخدام كبار السن وغير الجميلات فى الأعمال المنزلية.

بقى بعد ذلك الأسرى الذين أرسلوا للعمل على السفن. وهؤلاء كانوا على موعد مع مصير مأساوى، فقد اختير لهذا الغرض رجال ممن كانوا يتمتعون بقوة جسدية، فكان يتم تقييدهم إلى سطح السفينة عند مكان المجداف، وكان طعامهم يتكون من الخبز الجاف وأحيانًا من العصيدة، ولم يكن يقدم لهم أى مشروب سوى الماء مضافًا إليه قليل من الخل وزيت الزيتون، وعلى امتداد صفوف المجدفين كان هناك نفر من الملاحظين يمشون جيئة وذهابًا يحثونهم على العمل بالكرابيج.

لعل أشهر من وقعوا فى أسر القراصنة فى التاريخ - عدا يوليوس قيصر - هو الكاتب الإسبانى الشهير ميجل سرفانتيس الذى اشترك فى المعركة التى دارت بالقرب من ميناء ليبانتو. ففى العشرين من سبتمبر عام ١٥٧٥ وقع سرڤانتيس هو وأخوه فى أيدى القراصنة البربر أثناء عودتهما من نابولى فى طريقهما إلى إسبانيا. وفى الجزائر جرى بيعه لأحد اليونانيين المرتدين، والذى وجد معه عند تفتيشه خطاب توصية من خوان النمسوى. عندئذ أسرع اليونانى بمطالبة الأخير بفدية كبيرة مقابل إطلاق سراح أسيره.

فى الوقت نفسه كان سرڤانتيس مقيداً فى الأصفاد لا طاقة له بتحمل مشاق الحبس والمعاملة القاسية، ومن ثم فقد بدأ يفكر فى الهرب؛ لكن كل محاولاته باءت بالفشل، بل وفرضت عليه رقابة أشد.

ذات مرة نجح سرڤانتيس في الاتصال بأخيه الذي أدي أبوه الفدية. وعندما حضرت السفينة لأخذه ، تسلل سرڤانيتس سرًا إليها، لكن أمره افتضح. تحمل سرڤانتيس عاقبة فعلته وحده ولم يشأ أن يشى إطلاقًا بمن

يسر له أمر الهرب؛ على الرغم مما تعرض له من صنوف العذاب. لم يستطع حسن نائب الملك والمشهور بقسوته، أن يجبر سرفانتيس على الوشاية بشركائه فى المؤامرة إلى حد أن إصرار هذا الأسير أصبح موضع إعجاب حسن نفسه الذى دفع عنه الفدية لليونانى. سعى سرفانتيس مرة أخرى للهرب لكن أحد الدومينيكانيين خانه. وأخيرًا وبعد مرور ما يزيد عن أربع سنوات وصلت الفدية. أطلق سراحسرفانتيس فى شهر سبتمبر من عام ١٥٨٠ وكان يبلغ من العمر آنذاك ثلاثون عامًا. كتب سرفانتيس إنتاجه الشهير عندما بلغ من العمر ستة وخمسين عامًا. وقد عانى فى هذه السن أيضًا مرارة السجن مرة أخرى.

كان الوقوع فى أسر القراصنة كابوسًا حقيقيًا بالنسبة لسكان السواحل الأوروبية، وقد حاولت الدول بكل الطرق أن تخفف من وقعه. فى عام ١٦٢٤ أعلن مجلس اللوردات الإنجليزى الاكتتاب من أجل جمع فدية الأسرى الإنجليز. بعد ذلك بمائة عام خصص المدعو توماس بيتون جزءًا كبيرًا من ثروته لهذا الغرض.

فى القرن الثانى عشر تأسست أول منظمة فى أوروبا كانت مهمتها افتداء الأسرى وإطلاق سراح المساجين تحت اسم جمعية الثالوث المقدس. كان مؤسسها هو القديس يوحنا من متا. وقد افتدت الجمعية خلال العام الأول من نشاطها ستة وثمانين أسيرًا فى السجون المغربية. وقد قام القساوسة الأتقياء بجلابيبهم البيضاء، تزينها على الصدور صلبان حمراء وزرقاء، بإجراء مفاوضات خطيرة مع القراصنة. إذ أنهم نفسهم ـ ولا عجب ـ كثيرًا ما كانوا يقعون فى الأسر.

بمرور الوقت أصبح الدومنيكان يتولون هذه المهمة، الأمر الذى كان من نتيجته أن أصبح الأسرى الكاثوليك فى وضع أفضل من وضع الأسرى البروتستانت. وهناك حادث شهير فى هذا الصدد. فعندما دفع الآباء المخلِّصون إلى باى الجزائر مبلغ ثلاثة آلاف قرش كفدية لثلاثة من الأسرى

الفرنسيين، نظر الباى إليهم نظرة عطف؛ فأضاف إليهم أسيرًا رابعًا بلا مقابل. إلا أن الآباء رفضوا أن يصطحبوه معهم لأنه كان بروتستانتيًا.

فى النهاية قامت البلاد البروتستانتية بدورها بإنشاء منظمة تُعْنَى بشئون فدية أسراها، وكان على رأسها سيدنى سميث.

استمرت القرصنة البربرية بضع قرون اجتازت فيها مختلف التقلبات. إلا أنها بحلول القرن الثامن عشر، ونتيجة لفقدها نقاط الارتكاز السياسية فى الإمبراطورية العثمانية، التى أخذت شيئًا فشيئًا فى الضعف والتحلل - إلى جانب الأعمال المشتركة بين الدول الأوروبية - أخذت بدورها فى الانهيار تدريجيًا. لكنها كانت ما تزال - حتى فى القرن التاسع عشر - على قدر كبير من القوة؛ حتى أنه فى حوالى عام ١٨٠٠ - على سبيل المثال - كانت ممالك صقلية، وتوسكانا، وسودينيا، والبرتغال، والدنمرك، والسويد، وهانوفر، وبريمن، تدفع إتاوة ثابتة لقراصنة البربر.

فى حوالى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر انتهت تمامًا من الوجود دولة القراصنة البربر.

* * *

## هوامش الفصل الثالث

(١) أسسها فى تونس الشيخ أبو حفص واستمرت من ١٢٢٩ إلى ١٥٧٤، ازدهرت فى منتصف القرن الثالث عشر ونهاية القوتين الرابع عشر والخامس عشر. سقطت فى عام ١٥٧٤ على يد الدولة التركية العثمانية (المترجم).

(٢) جزيرة ميتلين باليونان. (المترجم).

(٣) كارل الخامس (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨): إمبراطور إمبراطورية روما المقدسة فى الفترة من ١٥١٧ ـ ١٥٥٦. من اسرة هابسبورج.

(٤) شبه جزيرة برينيا تقع جنوب غرب أوروبا عند إسبانيا يحدها المحيط الأطلسى ومضيق جبل طارق والبحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

(٥) شبه جزيرة أبينين تقع جنوب أوروبا وتمتد داخل البحر الأبيض المتوسط وتكوّن هى وجزيرة صقلية وسردينيا الصغيرتين إيطاليا. (المترجم).

(٦) فرديناند الثانى الأراجونى (١٤٥٢ ـ ١٦١٦): ملك كاستيليا (بالاشتراك مع الملكة إيزابلا) من عام ١٤٧٤، ملك أراجون من عام ١٤٧٩، ملك نابولى من عام ١٥٠٤، ملك نافارا من عام ١٥١٢. إبان حكمه تم استرداد إمارة غرناطة فى عام ١٤٩٢ وكانت آخر معقل للمغاربة فى شبه جزيرة بيرينيا.

(٧) الباب العالى: اصطلاح كان يستخدم فى المراجع والوثائق الدبلوماسية الأوروبية باعتباره الاسم الرسمى لحكومة الإمبراطورية العثمانية (التركية).

(٨) الانكشارية: جنود المشاة المتميزون فى تركيا السلطانية وكانوا يمثلون نقطة الارتكاز للعرش السلطانى وأهم قوة سياسية. فى القرن السادس عشر تقريبًا، كون الانكشارية طبقة عسكرية مغلقة.

(٩) الاسم الاغريقى القديم لمدينة أزمير. (المترجم).

(١٠) ريدجيو: (Reggio di Calabria) مدينة وميناء فى جنوب إيطاليا تقع على مضيق ميسينا Messina بالقرب من جزيرة صقلية (المترجم).

(١١) بايلرباى: كلمة تركية تعنى «باى البايات» وهو لقب ومركز إقطاعى كان البايلرباى إبان الإمبراطورية العثمانية يحكم إقليما.

(١٢) جمعية فرسان مالطة: جمعية دينية تضم نبلاء من الكاثوليك من أتباع يوحنا أنشأها الصليبيون فى فلسطين فى مستهل القرن الثانى عشر استقرت فى مالطة منذ عام ١٥٣٠ وأصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم جمعية مالطة.

(١٣) داى: كلمة تركية، تطلق على حاكم الجزائر الذى يختاره مجلس ضباط الانكشارية مدى الحياة.

(١٤) قائد: كلمة عربية تطلق على ممثل السلطة المركزية فى شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، المغرب) الذى كان يحكم مدنًا منفصلة أو قطاعًا أو قبيلة أو مجموعة قبائل.

(١٥) الدوكات (من الكلمة الإيطالية ducato) عملة فضية قديمة ثم ذهبية (من ثلاثة إلى أربعة جرامات) ظهرت فى فينيسيا (١١٤٠) ثم سكت فى معظم دول غرب أوروبا بعد ذلك باسم التسيخين أو الفلورين (المترجم)

(١٦) ليبانتو Lepanto الاسم القديم لمدينة نافباكتوس اليونانية (المترجم).

# الفصل الرابع

# القرصنة فى البحر الكاريبى

ساهمت الطفرات الاجتماعية والاقتصادية الجذرية التى حدثت فى الكثير من الدول الأوروبية فى القرن السادس عشر، والتى أدت إلى انهيار العلاقات الاقطاعية السابقة فى القضاء على القرصنة فى البحار المتاخمة لأوروبا. على أن النهب البحرى عاد. بعد أن طرأ عليه بعض التغيير الظاهرى.

فى أمريكا، حيث ظلمت الأشكال الاقتصادية التى انتهت فى أوروبا وما ارتبط بها من أشكال علاقات الإنتاج والتبادل المتخلفة سائدة لبعض الوقت، كان بإمكان قراصنة العالم الجديد، مثلهم فى ذلك مثل أسلافهم الأوروبيين والأفارقة، أن يربطوا فى أحيان كثيرة بين نشاطهم فى السلب واشتغالهم بالتجارة والملاحة.

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر، أصبحت مياه البحر الكاريبى وجزر الأنتيل المنتشرة فيه هى المسرح الرئيسى لتاريخ القرصنة الأمريكية الحافل؛ فقد تحولت هذه الجزر ذات الخلجان العديدة والمنيعة التى اكتنفتها العزلة والهدوء إلى أوكار وملاجئ على مدى عشرات السنين لكل أصناف المغامرين ولصوص البحر.

مارست القرصنة نشاطها فى البحر الكاريبى على وجهين مختلفين فمن ناحية، دخلت القرصنة طرفًا فى الحروب التى دارت رحاها بين الدول الأوروبية الاستعمارية من جل الاستيلاء على أجزاء من العالم الجديد. وفى هذه الفترة توافق نشاط القرصنة البحرية، المقترن بنهب الشواطىء فى بعض الأحيان، مع

ظهور الأساطيل الحربية الجبارة فى هذا البحر واشتراك الأخيرة هى أيضًا فى عمليات نهب المدن على نطاق كبير. إن هذه العلاقة بين القرصنة والنهب كانت وثيقة إلى حد أنه كان من الصعب وضع حد فاصل بين هاتين الظاهرتين وتحديد أى الشخصيات فى الملاحم الكاريبية ينبغى أن يندرج فى خانة القراصنة وأيها في خانة اللصوص.

أصبحت هذه الصعوبة تشكل أحد أهم أسباب الخلط المتكرر فى معرفة جوهر هاتين الظاهرتين المختلفتين: القرصنة البحرية، ونهب المدن على طريق البحر.

من ناحية أخرى فقد مارس قراصنة الكاريبى بالفعل هذا النوع من النهب فى أوقات السلم، حيث ارتبط هذا النوع من النشاط بالتجارة فى أغلب الأحيان هنا كان القراصنة يقومون بدور التجار والمهربين أكثر من كونهم رجال حرب.

كان البلاط الملكى الإسبانى يرى أنه السيد الوحيد لكل الأراضى الممتدة باتجاه الغرب، بدءًا من الحدود التى أقرتها الاتفاقية المعقودة فى السابع من يوليو عام ١٤٩٤ فى مدينة تورد سيلياس[1]، ومن ثم اتبع فى مستعمراته الأمريكية سياسة خاصة تكفل لإسبانيا (المتروبول) عزلة تامة لممتلكاتها البحرية عن عالم بأسره فى الوقت نفسه سعت إسبانيا الكاثوليكية لإضفاء الصبغة الدينية على هذه السياسة، فقد حرَّم المرسوم الملكى دخول من أسمتهم بالمرتدين وخاصة القراصنة البروتستانت Corsari - os Luteranas إلى مستعمراتها.

على أنه سرعان ما ظهرت بالقرب من شواطئ العالم الجديد سفن إنجلترا وفرنسا وهولندا والدنمرك التى لم تعترف بالاحتكار الاستعمارى الإسبانى لقد اشتعل الصراع بين هذه الدول على إعادة تقسيم العالم الجديد، وجرى الجزء الأكبر من وقائع هذا الصراع على المسرح الحربى للبحر الكاريبى حيث لعب القراصنة واللصوص دورًا لايستهان به فى هذا الصراع.

## البوكانيون والفليبوستيون

عادة ما يلجأ باحثو «ملامحم» القرصنة فى البحر الكاريبى إلى تقسيمها إلى عدد من المراحل التاريخية متخذين من فترات سيطرة بعض الدول الأوروبية التى اشتركت فى هذا الصراع أساسًا لهذا التقسيم.

تحمل المرحلة الأولى اسم المرحلة الفرنسية (١٥٣٠ ـ ١٥٥٩) يذكر أن فرانسوا ديكليرك، الذى سبق له أن بث الرعب فى قلوب الإسبان فى إسبانيولا[٢] وبويرتوريكو حيث نهب القرى الساحلية لهما، قام فى عام ١٥٥٤ بالهجوم على قرية سانتياجو دى كوبا واحتلها ونهبها ثم قام فى العام التالى مباشرة بتجهيز حملة مكونة من عشر سفن نجح بفضلها فى احتلال هافانا دون عناء يذكر وقد ظل اللصوص ثمانية عشر يومًا يعيثون فى هذه المدينة فسادًا، ثم غادروها دون أن يتركوا لسكانها شروى نقير، ناهيك عن أنهم أضرموا فيها النيران وهم يغادرونها فى عام ١٥٥٦ يعود الفرنسيون مرة أخرى ليهاجموا جاميكا التى لم تنته سيطرتهم عليها إلا فى عام ١٥٥٩ وذلك عندما عقدت فرنسا اتفاق سلام مع إسبانيا فى شاتو كامبريزى، وهو الاتفاق الذى وضع حدًا ـ إلى حين ـ لحملات النهب التى كانت تخرج لمهاجمة الممتلكات الإسبانية فى أمريكا تحت علَم فرنسا غير أن نشاط القراصنة واللصوص الفرنسيين لم يقف عند هذا الحد إذ أخذ هؤلاء فى مواصلته بعد أن استبدلوا بعلم فرنسا أعلامًا أخرى.

كانت هذه هى الظروف التى بدأت فى ظلها المرحلة الثانية من ملحمة البحر الكاريبى والتى عرفت باسم المرحلة الإنجليزية (١٥٦٠ ـ ١٦٢٠) فعلى الرغم من أن اللصوص الإنجليز الأوائل كانوا قد ظهروا على صفحة الكاريبى فى عام ١٥١٩ ـ أى بعد اكتشاف أمريكا على يد كولمبس بأقل من ربع قرن! إلا أنهم لم يوسعو من نشاطهم إلا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر امتلك كل من اللصوصوالقراصنة سفنًا كانت تعمل باسم الدول التى تمنحهم شهادات لممارسة القرصنة كانت الشهادات تشير إلى اسم العدو واسم الحليف كما تحدد شروط تقسيم الغنائم، أما القرصان فكان يحصل فى الغالب على تسعين بالمائة منها،

بينما تحصل الدول الراعية على العشرة بالمائة الباقية تعبيرًا عن خضوع القراصنة، وكتعويض مقابل الحماية الشرعية التى تتمتع بها سفنهم.

وقد شرعت إنجلترا - التى لم يكن لديها حتى ذلك الحين أسطولا حربيًا قويًا - فى إنشاء قوة مسلحة بحرية معتمدة فى ذلك على هؤلاء القراصنة بالتحديد كان هؤلاء الرجال الشجعان الذين ظلوا يحاربون أعداء ألبيون ببسالة يلقون تقديرًا رفيعًا من ملك إنجلترا وشعبه، وقد نال كثير منهم ألقابًا رفيعة لما أدوه من خدمات.

يصعب حصر القراصنة الإنجليز الذين تركوا أثرًا داميًا فى التاريخ العاصف لجزر الأنتيل، يكفى أن نذكر فقط فى هذا الصدد بعضًا من بين أكثرهم شهرة وشراسة حتى ندرك حجم الدور الذى لعبوه فى التاريخ. من أبرز الأسماء: جون هوكنز، فرنسيس درايك، توماس باسكرويل، والتر رايلى.

يعتبر جون هوكنز تاجرًا أكثر منه قرصانًا، سعى فى الستينيات من القرن السادس عشر للعمل بالتجارة فى سوق حوض البحر الكاريبى الملىء بالاضطرابات، أما فرنسيس درايك الذى شارك هوكنز العمل بالقرصنة بعض الوقت بلغ ذروة نشاطه فى الفترة ما بين عامى ١٥٧٠ و ١٥٩٦ ولم يستطع توماس باسكرويل الذى خلفه فى نشاطه من الوصول إلى مرتبة أستاذه.

اشتهر درايك، الذى قام فى الأعوام من ١٥٧٧ إلى ١٥٨٠ برحلة بحرية حول العالم، بهجومه الناجح على سانتو دومنجو، ففى التاسع من يناير عام ١٥٨٦ ظهر درايك على رأس ثلاث وعشرين سفينة بالقرب من عاصمة إسبانيولا؛ وفى اليوم التالى أنزل درايك بضع مئات من رجاله إلى الشاطئ نجحوا فى التسلل إلى سانتو دومنجو، وعلى الرغم من أن المدينة كانت محاطة بأسوار منيعة ولديها بعض الأسلحة فإن حاميتها بأسرها لم تكن تزيد على ثلاثين رجلاً، بالإضافة إلى ذلك فإن بوابة المدينة تركت مفتوحة، الأمر الذى جعل الإنجليز يدخلون المدينة دونما مقاومة تمكن المحافظ الإسبانى من الفرار بينما طالب درايك السكان بدفع جزية بلغت مائتى ألف دوكاتو؛ إلا أن المواطنين لم يكن بمقدورهم أن يجمعوا مثل

هذا المبلغ الباهظ، وانتهى الأمر بأن سلموا زعيم القراصنة خمسة وعشرين ألف دوكاتو عندئذ أمر درايك بتدمير المدينة.

فى عام ١٥٩٥ احتل رايلى مدينة ترينداد؛ بعدها قام الإنجليز فى عام ١٥٩٨ بنهب سان خوان ثم اتجهوا ببصرهم بعد ذلك باتجاه جاميكا، وكان هجومهم الأول عليها فى مطلع شهر فبراير عام ١٥٩٧ بقيادة أنتونى شبرلى، عندما أنزلوا فصيلة مكونة من مائتين وخمسين رجلاً فى بويرتو دى كاجوايا (تسمى الآن باسدج فورت) ومنها واصلوا حملتهم نحو سانتياجو دى لا فيجا عاصمة جاميكا وقد ولت الحامية الإسبانية الصغيرة الموجودة بها أدبارها على الفور إن بضع عشرات من الرجال فى ظروف البحر الكاريبى آنذاك كانوا يمثلون قوة مؤثرة وخاصة إذا كانوا يتمتعون بشجاعة مثل شجاعة هؤلاء اللصوص الذين يتميز هجومهم بالحنكة والمباغتة لقد نهب اللصوص الإنجليز المدينة ولم يتركوها إلا بعد أن حولوها إلى مجرد أطلال ورماد.

فى عام ١٦٠٠ يعود القراصنة من جديد ليهاجموا جاميكا ولكنهم يهاجمونها هذه المرة من الجانب الآخر من الجزيرة، ثم كانت الغزوة التى تلتها والتى قادها وليم جاكسون فى عام ١٦٤٣ من نصيب سانتياجو دى لافيجا لقد نالت «جزيرة الجنة» إعجاب الإنجليز حتى أن عشرين من القراصنة هربوا إليها بسفنهم وانضموا فيها إلى الإسبان ليستقر بهم المقام فيها أبد الآبدين.

سميت المرحلة التى تلت ذلك بالمرحلة الهولندية (١٦٢٠ ـ ١٦٤٠) فى هذه الآونة قامت هولندا، وهى إحدى الدول المعادية لإسبانيا، بتطوير نشاطها الاستعمارى على نحو مكثف فى آسيا (إندونيسيا) وفى أمريكا (نيو أمستردام وغيانا) وخلال عامى ١٦٢٤ و ١٦٢٥ نجح القراصنة الهولنديون فى الهجوم على بويرتوريكو.

إن «المآثر»!! التى اجترحها اللصوص والقراصنة السابقون لتتضاءل أمام ما حققه البحار الهولندى بيتر بيترسون هاين الذى اشتهر بين مواطنيه باسم بيت هاين كان هاين ابن صياد هولندى يعمل فى أعالى البحار آخذًا عن أبيه منذ نعومة أظافره فنون البحر حتى إذا بلغ أشده تولى فى عام ١٦٢٨ قيادة إسطول

شركة وست إنديا الذى بنته هولندا فى إطار استعداداتها للقيام بحملتها العسكرية على أمريكا لقد بدا أنه أسطول كبير للغاية يضم إحدى وثلاثين سفينة يبلغ عدد البحارة العاملين عليها ثلاثة آلاف رجل، إلا أن هذا الأسطول كان فى واقع الأمر أسطولا هشًا على الرغم من كثرة العدد؛ فالأطقم العاملة عليه تفتقر إلى الخبرة كما تفتقر إلى التسليح الجيد ناهيك عن أن هاين قد تلقى مهمة صعبة وأضحى يحمل على كاهله مسئولية جسيمة إذ تلقى أمرًا بالاستيلاء على قيادة إحدى سفن الاسطول «الفضى» الإسبانى وما عليها من ثروة إبان إبحارها محاطة بالحراسة فى طريقها من أمريكا إلى أوروبا.

نظرًا للمخاطر الدائمة التى كانت تهدد الطريق البحرى الذى يربط بين إسبانيا بممتلكاتها فى أمريكا والممثلة فى لصوص البحر والقراصنة المنتشرين على طول هذا الطريق فقد قررت الغرف التجارية الإسبانية، وكانت قد أسست فى عام ١٥٣٠ محتكرة كل التجارة البحرية، استخدام سفن حربية جبارة لتحمى قوافلها البحرية التجارية إبان نقلها للثروات من أمريكا إلى إسبانيا لكن الأمر لم يكن دائمًا ليسير على هوى سفن الأسطول «الذهبى» أو «الفضى»؛ فعندما كانت إحدى سفن هذه الأساطيل تضطر، بسبب حادث يقع لها أو لسوء الأحوال الجوية، للانفصال عن القافلة؛ كانت تصبح على الفور تحت رحمة اللصوص الإنجليز والفرنسيين والهولنديين بل وكل قراصنة الكاريبى المنتشرين فى البحر لقد كان الجميع يترقبون وقوع مثل هذه الأحداث وهم يتتبعون قوافل السفن الإسبانية تمامًا مثلما تتبع أسماك القرش ضحيتها.

ذات مرة قامت إحدى سفن القراصنة الفرنسية، وكانت مختبئة عند شواطئ كوبا، بالهجوم على سفينة إسبانية بطريقة التصادم؛ وقد عثر القراصنة فى هذا الغليون - إلى جانب ما وجدوه فيه من ذهب - على خرائط بحرية حربية موضح عليها طريق بحرى كان ما يزال آنذاك طريقًا مجهولاً، وهو طريق يستخدمه الإسبان فى نقل الذهب وغيره من كنوز العالم الجديد إلى إسبانيا كانت هذه «اللقطة» سببًا فى وقوع سلسلة من الهجمات على القوافل البحرية الإسبانية سواء «الذهبية» أو «الفضية».

لم يتسن لبيت هاين من قبل أن يحقق نجاحًا كبيرًا؛ أما الآن فقد أصبح لزامًا عليه أن يقود أسطوله للهجوم على أحد الأساطيل «الفضية» الإسبانية المكون من أربعة غليونات حربية ضخمة تقوم على حماية إحدى عشر سفينة تجارية صغيرة كانت قوة نيران الغليون الإسبانى الواحد تفوق نيران الأسطول الهولندى بأكمله.

اختبأ «بيت هاين» بأسطوله بالقرب من ماتاناس الواقعة شرقى هافانا فى كوبا بعد أن نجح فى خداع حرس السواحل اليقظ لقد تنبأ هاين أن أحدًا لن يتوقع أن يلاقى أعداءه عند مدخل كوبا نفسها وهى التى تعد واحدة من أكبر القلاع الإسبانية فى منطقة جزر الأنتيل؛ وقد صدقت نبوءته.

لقد كان هجوم القراصنة الهولنديين غاية فى الدقة والمباغتة حتى أنهم لم يلجأوا لاستخدام مدفعيتهم، وتم لهم الاستيلاء على تسع سفن ضخمة محملة بالمعادن الثمينة والتوابل، وهكذا ضاع مجهود عام بأكمله بذله الرعايا والمستعمرون الإسبان أدراج الرياح، أما فى أوروبا فقد اهتزت الثقة فى رجال المال والأعمال الإسبان ولم يجد سكان كاستيليا حتى ما ينفقونه على الجيش.

أخذ الإسبانيون - بعد الهزيمة التى حاقت بهم من الهولنديين - فى تقوية مواقع حرس السواحل العامل فى ممتلكاتهم فى البحر الكاريبى، وقاموا بتغيير مواعيد الرحلات والطرق التى تسلكها الأساطيل الإسبانية التى تحمل بضائع قيمة، ولكن على الرغم من جميع الإجراءات والاحتياطات التى اتخذت فقد تمكن اللصوص والقراصنة من إنزال ضربات مؤثرة بالإسبان. لقد اتضح الآن أن الأساطيل الإسبانية التى أصابها الوهن لم تعد تصلح إلا لأعمال الدفاع، حتى أن الإسبان أخذوا فى زيادة الاستحكامات فى الحصون والقلاع المنتشرة فى جزر الأنتيل والتى ما تزال حتى اليوم شاهدًا على الصراعات الدموية التى دارت رحاها فى هذه المنطقة. لقد انهارت السيادة الاحتكارية لإسبانيا على البحر الكاريبى كما انهارت حوائط الحصون بعد أن احتلها الإنجليز والفرنسيون والهولنديون وأصبح من الجلى أن الإسبان ليس فى مقدورهم بالفعل الدفاع عن مستعمراتهم. على هذا النحو تمكن الغزاة الجدد فى ثلاثينيات القرن السابع

عشر من اقتحام جزر الأنتيل الصغيرة بعدها جاء الدور على جزر الأنتيل الكبرى، ثم ما لبث الاقتحام أن شمل فى النهاية القارة الأمريكية ذاتها.

لقد دخل الصراع فى حوض البحر الكاريبى مرحلة جديدة. ها هم القادمون من غرب وشمال أوروبا ومعهم القراصنة واللصوص يفضلون الآن العمل بالتجارة والصيد وتربية الماشية، بل لقد اتجه بعضهم أحيانًا إلى امتهان الزراعة، وفى الوقت نفسه فقد ظل هؤلاء يواصلون حربهم ضد إسبانيا وضد السكان المحليين على حد سواء.

وفى هذه الفترة بالتحديد ظهر على ساحة الكاريبى أشخاص جدد ونعنى بهم البوكانيين والفليبوستيين.

والبوكانيون صيادون سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يعدون لحوم الوحوش التى كانوا يصيدونها بطريقة الهنود المعروفة باسم «بوكانا» وذلك بتمليحها وتجفيفها ثم تدخينها فى دخان كثيف كان إعداد اللحوم بهذه الطريقة يسهل من حفظها فى ظروف المناخ الاستوائى كما كانت تلقى رواجًا كبيرًا فى جزر الأنتيل.

ظهر البوكانيون فى الكاريبى بعد أن ترك الإسبان مستعمراتهم فى جزر الأنتيل متجهين إلى القارة الأمريكية بمجرد اكتشاف العالم الجديد، ووقوعهم فى هوى ذهب قبائل الأزتيك والمايا والإينكا. ترك الإسبان فى هذه الجزر الحيوانات المستأنسة التى أحضروها من أوروبا: البقر، الماعز، والأغنام، والخنازير التى خرجت من الأفنية المهجورة إلى الأحراش لتضع بداية لنوع خاص متباين من الحيوانات المستأنسة المتوحشة وهذه الحيوانات المتوحشة بالذات هى التى أصبحت فيما بعد هدفًا للصيد من جانب البوكانيين الذين خرجوا من قبل إما من أوساط البحارة الفرنسيين أو من بين الذين تعرضت سفنهم لسطو اللصوص والقراصنة الذين استوطنوا إسبانيولا.

لقد ترك المستعمرون السواحل لكن أعماق الجزر، حيث الغابات البكر، كانت مأهولة بشتى الأنواع من البشر فخلافًا للهنود الذين لم يكن لهم وجود آنذاك، امتلأت الأحراش بالمجرمين الفارين من السجون، أو من حملات التأديب

الحكومية، كذلك عاش هنا من نكبتهم الحياة بمصائبها ومن لم يستطع التعايش مع الفاتحين[٣] الإسبان إبان وجودهم فى الجزر تزوج هؤلاء من الهنديات واضعين بذلك بداية ظهور جيل من المولدين الذين جاءوا من أصول إسبانية هندية وضعتهم فى أدنى درجات السلم الاجتماعى، وسرعان ما انضم إليهم «رجال الغابات» الهراطقة الهاربون من محاكم التفتيش وأقرانهم من الهاربين من الخدمة على السفن.

عندما عاد الإسبان، الذين فشلوا فى العيش فى القارة الأمريكية، إلى جزر الأنتيل لم يرق ذلك البوكانيين، على أنهم - والحق يقال - عاشوا معهم فى سلام ولم يسببوا لهم أية مضايقات، ولقيت اللحوم التى كانوا يعدونها بطريقتهم استحسانًا ورواجًا كبيرًا لديهم على أن هؤلاء الإسبان عادوا لمعاملة البوكانيين الذين لم يدفعوا الجزية ولم يعترفوا بسلطات ملك إسبانيا وقوضوا الاحتكار الاستعمارى بتجارتهم مع السكان المحليين معاملة سيئة؛ فأخذوا يرسلون بالحملات إلى أعماق الأدغال لتأديب البوكانيين مستخدمين فى ذلك الكلاب المدربة التى كانت قد استخدمت من قبل فى مطاردة هنود الكاريبى لكن اتضح أن البوكانيين أشد بأسًا من الهنود إذ كانت لديهم أسلحة نارية وكانوا يشدون أزر بعضهم البعض عند مواجهة الخطر متحدين فى فصائل كبيرة وقد لجأت إحدى هذه الفصائل إلى جبال سيرا دل اسكامبراى وسيرا مايسترا المنيعة فى كوبا، بينما رحلت فصائل أخرى إلى القارة لتحتمى بالإقليم المعروف باسم شاطئ البعوض Mosquito Coast فى نيكاراجوا، وقد تمكن الإسبان من طرد جزء من البوكانيين من إسبانيولا إلى جزيرة تورتوجا[٤] الصغيرة القائمة شمال شرق إسبانيولا.

فى هذه الفترة أصبح «البوكانيون» يسمون أيضًا «بالفلوبستيين»[٥] كان الفرنسيون يفضلون استخدام هذا الاسم بينما راح الإنجليز يسمونهم «بالبوكانيين» على الرغم مما بين التسميتين من اختلاف فالكلمتان كانتا تعنيان فى أغلب الأحوال القراصنة أو الصيادين ولم يكن الأمر محض صدفة، فحتى القرن السابع عشر لم يكن من المتعارف عليه احتراف القرصنة وحدها أو الصيد

وحده فقد كان الفلوبستيون يشتغلون يومًا بعد الآخر بالأعمال السلمية مثل الزراعة وتربية الماشية والتجارة ودبغ الجلود، أما البوكانيون فقد فضلوا العمل فى دبغ الجلود وبيعها. من الضرورى هنا أن نعيد النظر بشكل حاسم فى الأساطير التى نُسجت حول الفلوبستيين، فهناك من يذكرهم كما لو كانوا فرسانًا طيبين مفعمين بالمشاعر الوطنية والدينية العميقة، بينما يرى آخرون أنهم كانوا لصوصًا متوحشين. الواقع أن الحقيقة تقع بين هذه الروايات وتلك؛ فالفلوبستيون كانوا يتميزون حقًا بالشجاعة والإقدام إلا أنهم كانوا يخرجون إلى البحر على سفنهم الخفيفة ذات القدرة الكبيرة على المناورة لهب الصيادين فى الأغلب لا لمهاجمة السفن الإسبانية.

سُمى الفلويستيون أيضًا «بجماعة الشاطىء» منذ أن أنشأوا على البر وفى البحر مجتمعًا منظمًا على نحو غير عادى، مجتمعًا يقوم على مبادئ الملكية المشتركة وكانت عقوبة أى محاولة للاستئثار بجزء من الغنيمة هى الطرد من عشيرة القراصنة وأحيانًا ما تكون أشد قسوة كانت دخول القراصنة متمايزة بشكل صارم ويتم توزيعها تبعًا للوظيفة التى يقوم القرصان بأدائها، فعلى سبيل المثال كان قبطان السفينة يتقاضى أربعمائة بيسو؛ مساعد الطبيب - مائتان؛ نجار السفينة يتقاضى - مائة وخمس وسبعون؛ البحار - مائة؛ وصبى البحار - خمسون أما المال العام فكان يستخدم فى شراء السلاح والغذاء ومستلزمات السفينة وما إلى ذلك. كان لمجتمع القرصنة نظامه الاجتماعى الخاص الذى يكفل بواسطته دفع التعويض المناسب للذين يصابون فى المعارك من أفراده، فالقرصان الذى يفقد ذراعه اليمنى يتقاضى ستمائة بيسو أو ستة أسرى كمعادل لهذا المبلغ، أما القرصان الذى يفقد ذراعه اليسرى فيتقاضى خمسمائة بيسو أو يعطى خمسة أسرى وعلى هذا النحو يتم تعويض من فقد ساقيه، أما من تُفقأ له عين أو يقطع له إصبع فيدفع له مائة بيسو أو يعطى أسيرًا واحدًا.

كان على جميع القراصنة أن يؤدوا يمين الولاء وأن يلتزموا بالنظام المقرر الذى كان النادر أن يقوم أحد منهم بمخالفته. كانت المساواة التامة واحدة من القواعد الملزمة، فجميع أعضاء طاقم السفينة من الصبى إلى القبطان يتناولون طعامًا

واحدًا، وكان بمقدور كل شخص أن يتناول من الطعام والشراب كما يشاء إلا السكر كان يواجه بأقسى عقوبة أما عند اتخاذ القرارات الهامة مثل تحديد هدف الحملة واتجاهها وما إلى ذلك من قرارات فقد كان على القبطان أن يطرح مقترحاته ليُصدق عليها المجلس الذى يدخل طاقم السفينة بأكمله ضمن أعضائه فإذا كان الطاقم يخضع دون اعتراض للقبطان فإن هذا الأخير فى المقابل كان يُحاسب على ما يقوم به من أفعال أمام مجتمع القراصنة. لم يكن الانضمام للجماعة أمرًا تكتنفه أية صعوبة فمن كانت لديه الرغبة فى الانضمام إلى القراصنة فما عليه سوى أن يلقى بمرساته عند جزيرة تورتوجا ويؤدى لقبطان السفينة يمين الولاء فيُقْبل من فوره.

بعد أن وطَّد قراصنة الكاريبى وضعهم؛ حولوا تورتوجا إلى حصن جبار ومن ثم أخذوا يتطلعون لجعلها تقوم بدور متروبول حقيقى للقراصنة فى منطقة بحر الكاريبى لم يكن لهذه الجزيرة الصخرية المنيعة سوى خليج واحد يصلح لأن يكون ميناء كانت هناك صخرة عظيمة تخفى مدخله بنى القراصنة فوقها قلعة دفاعية أسموها «برج الحمام» («إل بالومار» بالإسبانية).

يومًا بعد الآخر تحولت تورتوجا إلى مستعمرة غنية استحقت أن تعرف باسم لؤلؤة جزر الأنتيل.

كان وصول المهاجرين الفرنسيين والإنجليز القادمين من جزر نيفيس وسانت كيتس إلى جزيرة تورتوجا فى عام ١٦٢٩ بداية لظهور الفلوبستيين متعددى الجنسية وسرعان ما توافد البحارة من مختلف البلاد على الجزيرة: إنجليز، فرنسيون، دنمركيون، هولنديون، برتغاليون، ألمان بل ومن الإسبان أيضًا على الرغم من أن مسألة الأصول العرقية لم تكن ذات أهمية كبيرة فى تورتوجا فإن التفوق العددى كان للإنجليز الذين أصبحت لهم - على نحو رمزى - مقاليد السلطة فى حوالى عام ١٦٣١، وفى العامين ١٦٣٤، ١٦٣٥ سيطر الإسبان على الجزيرة ولكن الأمر لم يستمر طويلاً فسرعان ما اضطروا بعد عدة شهور لإعادة السلطة إلى الإنجليز مرة أخرى.

أخذ الإنجليز ينظرون إلى الجزيرة باعتبارها مستعمرتهم الخاصة وكان أن أدت هذه السياسة إلى وقوع انقسامات بين الفلوبستيين المحليين وخاصة بين الأغلبية الإنجليزية القوية والفرنسيين الأقل عددًا وعدة وفى حوالى عام ١٦٣٩ تم طرد الفرنسيين من الجزيرة نتيجة لهذه المصادمات.

إلا أن القراصنة الفرنسيين لم يستسلموا للهزيمة فبعد معركة لم تدم وقتًا انسحبوا إلى سانتو دومنجو حيث بقوا هناك بانتظار فرصة مواتية للعودة إلى تورتوجا وكانت من المنعة بحيث يصعب الاستيلاء عليها، وفى الوقت نفسه لم يكن الدفاع عنها يتطلب جهدًا كبيرًا وهى الميزات التى كانت ترفع من شأنها فى أعين القراصنة.

وها قد سنحت لهم الفرصة عندما علموا أن السيد فيليب دى لونجوى دى بوانسى محافظ القطاع الفرنسى من جزيرة سانت كيتس قد جهز المدعو ليفاسير لمحاربة الإنجليز بهدف استرجاع تورتوجا منهم كان تحت تصرف ليفاسير تسعة وأربعون رجلاً، وعندما وصل إلى سانتو دومنجو دخل فى مباحثات مع الإنجليز باءت بالفشل، فما كان منه إلا أن انضم إلى الفليبوستيين الفرنسيين الموجودين فى سانتو دومنجو، وفى الواحد والثلاثين من أغسطس عام ١٦٤٠ نزل ليفاسير إلى تورتوجا وبصحبته مائة رجل تحدى بهم حامية الجزيرة المكونة من ثلاثمائة قرصان وعلى الرغم من التفوق العددى للإنجليز بالجزيرة نجح الفرنسيون بعد أن استولوا على الحامية بهجومهم المفاجئ فى إلحاق الهزيمة بهم وطردهم من الجزيرة ظل ليفاسير حاكمًا لجزيرة تورتوجا ما يزيد على عشر سنوات بذل خلالها جل جهده لتحويلها إلى مستعمرة فرنسية مزدهرة.

وقد أوغرت طريقته القاسية فى الحكم صدور القراصنة الذين اعتادوا على الحياة المستقلة وفى عام ١٦٥٢ لقى ليفاسير مصرعه على يدى اثنين من خلصائه كما تنبأ هو بنفسه بذلك.

وعلى مدى السنوات الخمس التى تلت ذلك (١٦٥٢ - ١٦٥٧) سادت الفوضى الشديدة أنحاء تورتوجا وتوالى على حكمها عدد من المحافظين الفرنسيين ومرة

أخرى تعود الجزيرة منذ نهاية عام ١٦٥٤ لتصبح الغلبة فيها للإسبانيين الذين خربوا الجزيرة وأبادوا جزءًا كبيرًا من سكانها الأمر الذى اضطر ما بقى بها من السكان إلى اللجوء إلى سانتو دومنجو بعد عام واحد فقط يعود الانجليز ليحكموا الجزيرة، على أن الفرنسيين عادوا بدورهم ليستردوها ثم يرسخوا هناك سلطة الملك لويس الخامس عشر.

خلال الأعوام من ١٦٦١ إلى ١٦٦٣ حاول الإنجليز أن يستولوا على المستعمرة الفرنسية؛ لكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح وفى الفترة من ١٦٦٥ إلى ١٦٨٥ تنتقل هذه المستعمرة لتصبح تحت رقابة الجهاز الاقتصادى والإدارى السياسى لمستعمرة هايتى الفرنسية.

وفى النصف الثانى من القرن السابع عشر تعود مرة أخرى فترة السيطرة الإنجليزية على الجزيرة (١٦٤٠ ـ ١٦٦٠) كانت هذه فترة الفليبوستين من مختلف الأجناس وقد أدى التوسع الفرنسى فى بحر الكاريبى إلى ظهور المجتمعات القومية للبوكانيين الذين توجه بعضهم للبحث عن نقاط ارتكاز لدى السلطات فى الجزر التى يحتلها الفرنسيون بينما توجه البعض الآخر ليبحثوا لأنفسهم عن أماكن للعيش فى الجزر التى يسكنها الإنجليز.

إلى جانب سفن اللصوص والقراصنة الصغيرة التى تميزت بالسرعة وسهولة المناورة أخذت فى الظهور يومًا بعد الآخر سفن حربية ضخمة ثقيلة مسلحة تسليحًا جيدًا.

لقد بدأ الفليبوستيون فى إنشاء أساطيل كاملة من هذه السفن ما لبث أن أبحرت رافعة الراية السوداء وفى وسطها رسم للجمجمة وهى الراية المعروفة باسم راية «روجر المرح» وماهى إلا برهة حتى اشتهرت أسماء مثل شيفالييه مونبار، جامب دى بوا أو ذو الساق الخشبية، فرانسوا لولونيه (وربما دو لونيه)، لويس سكوت، جون ديفس، لاوربانت دى جراف، فان هورن، مانسفيلد ومورجان.

وقد حاول الأخيران أن يقيما جمهورية للبوكانيين كان من المفترض أن تكون دولة من نوع خاص للقراصنة وتكون عاصمتها أولد بروفيدنس. لكن هذه المحاولة

لم يكتب لها النجاح ومن ثم اتخذ أسطول هنرى مورجان،وقد كان بلاشك أعظم أساطيل قراصنة الكاريبى، اتخذ من جامايكا ـ الإنجليزية آنذاك ـ ومن تورتوجا الفرنسية قاعدتين له.

لقد أدى استيلاء الإنجليز على جاميكا فى عام ١٦٥٥ إلى دعم مكانتهم السياسية والاقتصادية فى منطقة الكاريبى وأصبحت بورت رويال عاصمة الجزيرة، والتى كانت تسمى «بابل القراصنة»، السوق الرئيسية لتصريف الغنائم التى يتم الاستيلاء عليها من الإسبان وكان السكان المحليون والتجار يشترون البضائع من القراصنة وهم فى رضا بالغ لرخص ثمنها.

إلى جانب هاتين الجزيرتين تغلغل القراصنة فى جزر الأنتيل الصغرى والكبرى ففى النصف الثانى من القرن السابع عشر استطاعوا النزول إلى القارة الأمريكية بل وبلغت بهم الجرأة إلى حد أنهم هاجموا مدنًا كبيرة مثل بويرتو بيلو(عام ١٦٦٨) وبنما (عام ١٦٧١). وفى عام ١٦٨٣ قامت سفن القراصنة بالالتفاف حول رأس هورن ليظهروا بعد ذلك فى مياه الجزء الجنوبى للمحيط الهادى. وفى عام ١٦٩٥ وصل أسطول القراصنة إلى برزخ بنما من ناحية المحيط الهادى بعد أن أعمل النهب فى المستعمرات الإسبانية الواقعة على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية وخاصة بيرو.

لقد كانت الفترة التى تلت عام ١٦٦٠ وحتى عام ١٦٩٠ فترة للسيطرة الفرنسية على منطقة الكاريبى بعد أن فقدت إنجلترا جزءًا لايستهان به من قوتها بعد انقضاء عهد كرومويل. أضف إلى ذلك أن الوضع فى حوض الكاريبى كان قد بدأ فى الاستقرار وانتهت عملية التقسيم السياسى لجزر الأنتيل التى بدأت فى حوالى النصف الثانى من القرن السابع عشر بحلول عام ١٦٤٠ كان الإسبان مايزالون يحتفظون بجزء من إسبانيولا وكوبا وبويرتوريكو وجاميكا أى جزر الأنتيل الكبرى بينما كان الفرنسيون يضعون أيديهم على جزر المارتينيك وجواديلوب Guadeloupe ومارى جالانت والهولنديون يحتلون سانت أستاتيوس وثلاث جزر صغيرة بالقرب من سواحل فنزويلا هى كوارساو وأوربا وبونايرى

والإنجليز باربادوس وجزءًا من جزيرة سانت كيتس فضلا عن جزر نيفيس وأنتيجوا ومونتسيرات.

على أن هذا التقسيم لم يكن ثابتًا وإنما كان عرضة دائمًا للتغيير لقد كان الفيبوستيون ينتمون إلى أجناس شتى مما دفعهم دائمًا إلى السعى وراء الحصول على نقاط ارتكاز لهم تارة لدى تلك الدول وتارة لدى دول أخرى حتى أنهم فى بعض الأحيان كانوا ينجحون فى إقامة دويلات عابرة لهم على هذه أو تلك من الجزر التى يتخذون منها قواعد ينطلقون منها فى حملات للسرقة والنهب.

وسرعان ما انضمت للدول الاستعمارية الأربع السابقة الذكر: إنجلترا وفرنسا وهولندا وإسبانيا دولة أخرى هى الدنمرك التى قامت فى عام ١٦٧١ باحتلال جزيرة سانت توماس.

أخيرًا يسود الهدوء النسبى هذه المنطقة المضطربة بفضل معاهدة مدريد التى تم توقيعها فى عام ١٦٧٠ والتى تنازلت إسبانيا بمقتضاها عن حقوقها فى جزير جاميكا وليستقر الأمر للفرنسيين بشكل نهائى فى عام ١٦٩٧ فى الجزء الغربى من جزيرة سانتو دومنجو.

وبعد أن استقرت الأوضاع فى حوض البحر الكاريبى قامت الدول الاستعمارية بعمل مشترك اجتثت فيه شأفة القرصنة من هذه المنطقة بعد أن دخل جزء من البوكانيين والفليبوستيين ضمن التحالفات الجديدة فى منطقة الكاريبى بينما هاجر الآخر إلى مناطق أخرى من الكرة الأرضية لمواصلة أعمال القرصنة.

## «جماعة الشاطىء» من تورتوجا

تعود الأحداث التى سنذكرها بما يلى إلى عام ١٦٦٥.

من المعروف أن جزيرة تورتوجا كانت ـ من الناحية الرسمية ـ مستعمرة فرنسية، وعلى الرغم من أنها فقدت أهميتها بصفتها قاعدة للقرصنة إلا أنها ظلت مع ذلك وكرًا هائلا للقرصنة لقد نمت فى تورتوجا قرية مأهولة بالسكان،

تنتشر فى أنحائها المنازل المريحة النظيفة جيدة الترتيب نال أهلها حظًا وفيرًا من الثروة ومع ذلك فقد ظلوا يكسبون عيشهم من القرصنة.

كان بيير ليجران النورماندى من بلدة دييب واحدًا من الضيوف دائمى التردد على تورتوجا، تَمَرَّس طويلا على يد القراصنة ثم ما لبث صيته أن ذاع باعتباره بحارًا مقدامًا، وسرعان ما شغل منصبًا متميزًا فى الجزيرة.

بفضل مواهب ليجران فى التجارة استطاع أن يمتلك سفينة صغيرة خاصة ذات أشرعة، يبلغ قوام طاقمها ثمانية وعشرين فردًا ولم يكن ليجران يعتزم اجتراح أية مأثرة من أى نوع خاص وإنما حزم أمره ـ كعادة قراصنة تورتوجا ـ على العثور على خليج ما يكون مستترًا على نحو جيد يستطيع التربص فيه لأية سفينة إسبانية تجارية من النوع المتوسط الحمولة.

وقد بدأ ليجران مشروعه بالهجوم على إحدى الشركات العاملة على ساحل سانتو دومنجو ليوفر قدرًا كبيرًا من المواد الغذائية، بعدها أبحر باتجاه الغرب عبر مضيق وندوارد Windward Passage.

وظل ليجران مبحرًا لعدة أيام بامتداد الساحل الكوبى ولكنه لم يصادف أى غنائم تستحق الاهتمام عندئذ قرر أن يواصل رحلته للغرب مارًا بجزيرة كوسوميل دون أن يعثر أثناء ذلك على ضالته وأخيرًا يصل ليجران إلى رأس كاتوتشا عند شبه جزيرة يوكاتان بالمكسيك.

كانت هذه الفترة التى قضاها ليجران فى البحر كافية لنفاد احتياطياته من المؤن الأمر الذى دفعه للإحساس بالخوف من أن تنتهى أولى رحلاته المستقلة بالفشل، ومن ثم تقضى على هيبته أمام طاقمه ناهيك عن اهتزاز سمعته داخل مجتمع القراصنة بأسره إلا أن رجاله العالمين بتاريخه البحرى السابق كانوا يولون قبطانهم ثقتهم الكاملة.

ذات مرة والجميع عائدون من الغرب وقد اقتربت سفينتهم من الساحل الكوبى إذ بمجموعة من السفن تتراءى لهم فى الأفق كانت السفينة الأخيرة فى هذه القافلة قد تأخرت بشكل ملحوظ عن بقية السفن اهتز قلب ليجران

من الفرح فأرسل فى طلب أكثر بحارته خبرة وعندما وصل هذا إليه بادره سائلا:

- انظر هناك يا توم انظر إلى هذه الغليونات المسلحة التى تنقل الذهب من فيراكروس ألست معى فى أن الأخيرة تسعى جاهدة للحاق بالأخريات أليست غنيمة رائعة يستحقها أناس مثلنا على أتم الاستعداد لفعل أى شىء!

نظر البحار العجوز وقد تملكته الدهشة إلى سيده ولم يفهم ما إذا كان القبطان يتحدث جادًا أم أنه يمزح!

- سيدى لم يحدث إطلاقًا أن قرصانًا إنجليزيًا قد هاجم مثل هذا النوع من السفن.

- إذًا لأكن أنا أول هؤلاء! إن لنا ستة أسابيع لم نر فيها خبزًا ولا خمرًا إن وضعنا ميئوس منه، ولقد بعنا روحنا للشيطان فليتول انتشالنا من مأزقنا الآن اجمع الرجال يا توم!

وماهى إلا بضع دقائق حتى كان ليجران يقف خطيبًا وسط رجاله موجهًا إليهم الكلمات التالية:

- أيها الأصدقاء؛ لقد أبى الحظ إلا أن يشيح بوجهه عنا، على أن الرجال الأشداء كثيرًا ما يحققون المعجزات من المحتمل أن يكون هناك مئات الرجال فوق ظهر هذا الغليون؛ وهذا معناه أن على كل رجل منا أن يتولى أمر أربعة من الإسبان ليس فيهم عاجز أو جبان وفى هذه الحالة لا يبقى أمامنا إلا اللجوء للحيلة أو أن نلجم أعداءنا بالمفاجأة إن الإسبان لن يتصوروا أننا سنهاجمهم لأنه لم يحدث إطلاقًا أن القراصنة قد هاجموا بمفردهم سفينة حربية تسير ضمن قافلة فكروا مليًا فى الأمر إن الشمس قد قاربت على المغيب؛ وعندما تعود لتشرق ثانية نكون قد أصبحنا أغنياء قرروا بأنفسكم أيها الأصدقاء!

ذهب النورماندى العملاق يتمشى على سطح السفينة حتى يعطى لرجاله الذين تحلقوا حول توم الفرصة فى التفكير فى الأمر وسرعان ما جاء أحد

البحارة ليخبر القبطان أن الطاقم قد وافق بالإجماع على الخطة وأنه بانتظار الأوامر.

كان ليجران واثقًا من نجاحه حتى أنه أمر بخرق قوارب النجاة لم يكن بنيته الانسحاب؛ بل إنه اقترح إغراق السفينة ذاتها حتى لا يشك أحد فى نتيجة عمله لقد قرر القراصنة أن يقاتلوا لا فى سبيل الحياة؛ بل فى سبيل الموت.

بعد ساعتين من قيام بحارة ليجران بخرق قاع سفينتهم أخذوا فى الاقتراب خلسة من الغليون الإسبانى ليتسلقوه فى مهارة القردة، ثم شرعوا فى تنفيذ الجزء الثانى والأخير من الخطة بعد أن أطاحوا بالجنود القائمين بالحراسة ومقود السفينة ودانت لهم السيادة على سطح السفينة.

تسلل ليجران بحذر ناحية كوة غرفة الضباط وتطلع ببصره إلى داخلها كان القبطان يجلس مع ثلاثة من ضباطه حول مائدة مستديرة يلعبون الورق على ضوء الشموع.

قال ليجران لنفسه: «سنتولى أمر هؤلاء» ثم أومأ إلى رفاقه وأصدر إليهم أوامره بصوت هامس:

- توم، اختر خمسة عشر رجلاً من خيرة رجالك واهبط على وجه السرعة إلى أسفل السفينة، باغت هناك الطاقم المستغرق فى النوم! اقتل كل من يقاوم، عندئذ سيستسلم لك الباقون سيأتى معى أونسييه، ورين، وأندريه، ويونج وعلى الآخرين تمشيط المكان!

اندفع ليجران ورجاله الأربعة المسلحون بالمسدسات إلى غرفة القيادة تجمد الضباط من فرط الرعب وانهاروا جالسين على مقاعدهم ولم يكن لدى أحدهم القدرة على أن ينبس ببنت شفة صاح ليجران: إما أن تستسلموا أو أن أطلق عليكم النار!

دوت من أسفل السفينة طلقات متفرقة لقد نشب القتال فى مسكن الطاقم، وهاهو الرصاص يعيد إلى الإسبان وعيهم فإذا بالقبطان وضباطه الثلاثة يندفعون ناحية القراصنة لكن هذا الاندفاع كلفهم حياتهم.

فى الوقت نفسه كان قاع السفينة مايزال يشهد صراعًا مستميتًا، فبعدما تخلص البحارة من هول المفاجأة؛ شرعوا يقاومون رجال العصابات بكل قواهم، لم يجدوا مفرًا من االاستسلام عندما شاهدوا ليجران قادمًا ليساعد رفاقه.

لقد فاقت الكنوز التى وجدت على السفينة أكثر التوقعات جنونًا وعلى الرغم من أن البحارة فى تورتوجا اعتادوا الاستيلاء على ثروات ضخمة إلا أن أحدًا من القراصنة لم ير طوال حياته مثل هذه الكمية من الذهب دفعة واحدة لقد كانت هذه الكنوز كفيلة بضمان حياة رغدة لهؤلاء اللصوص جميعهم حتى نهاية أجلهم.

بعد أن تخلص القراصنة من جثث القتلى بإلقائها فى البحر أخذوا فى معالجة الجرحى وإيداع الأسرى سجن السفينة وقد دفع ليجران إلى طاقمه ببرميل من النبيذ وحده على السفينة لم يكن ليجران نفسه ممن يطيقون السكر إلا أنه كان يدرك جيدًا أن أحدًا منهم لم يكن ليرفض أمرًا كهذا بعد المعركة. ذهب القبطان إلى غرفة القيادة ليخلد إلى النوم تاركًا رجاله يحتفلون بانتصارهم فى غرفة الطاقم.

وفى الصباح عقد ليجران اجتماعًا لرجاله فوق سطح السفينة بعد أن عادوا جميعًا إلى وعيهم وتوجه إليهم فيه بالكلمة الآتية:

- أيها الأصدقاء الأعزاء، نحن الآن أغنياء، لقد سنحت لنا الفرصة الهائلة لنتخلص من الحياة المليئة بالمخاطر التى لا تنتهى والتى دفعتنا الحاجة لأن نخوضها. أتوجه إليكم أيها الأصدقاء أن تتركوا هذه الأماكن وأن تعودوا إلى أوطانكم وإن كان لكل واحد منكم بالطبع الحق فى اختيار مصيره لقد لقى اليوم ستة رجال من رفاقنا حتفهم ولعله نفس المصير الذى سيئول إليه غدًا كل منا إن الثروة لا تغشى إلا أبصار هؤلاء الأغبياء الذين يرفضون رؤية ما يمكن أن يكسبوه. من شاء البقاء هنا فيمكنه النزول فى جاميكا؛ ومن لم يشأ فيمكنه الذهاب معنا إلى أوروبا.

خمسة قراصنة فقط هم الذين بقوا فى بورت رويال بصحبة أنصبتهم من الغنيمة بينما واصل الآخرون رحلتهم إلى أوروبا استقر ليجران فى مدينة دييب

مسقط رأسه حيث قضى بها بقية عمره باعتباره مواطنًا ثريًا وموضعًا لاحترام الجميع ولم يعد مطلقًا للتنزه على سطح السفينة كما كان يفعل.

## برج بابل القراصنة

لم يكن جميع البوكانيين يتمتعون بمثل هذه الشخصية اللينة العريكة التى يتمتع بها ليجران. لقد كان مواطنه الفرنسى فرانسوا لولونيه واحدًا من أكثر اللصوص شراسة فى سجل القرصنة فى الكاريبى. فهو أول قرصان يمتلك الشجاعة الكافية لغزو مدينة واحتلالها من البر. حدث ذلك بعد أن قام لولونيه بجمع أسطول كبير توجه به إلى شواطئ فنزويلا حيث هاجم مدينة ماركايبو Maracaibo الواقعة عند البحيرة الكبيرة التى تحمل الاسم نفسه والتى تربطها بخليج فنزويلا قناة عريضة وكانت هذه المدينة مشهورة آنذاك بثرائها العريض. لم يكن الدخول إلى هذه القناة أمرًا هينًا إذ كان يقف على حراستها أسطول قوى اشتبك فى معركة دموية دامت ثلاث ساعات مع القراصنة الذين نجحوا فى نهايتها فى إخضاع القلعة لهم. ثم عبر أسطول البوكانيين القناة ليصلوا إلى البحيرة دون أن يلقوا أية مقاومة ليستولوا على المدينة التى أخذ معظم سكانها فى الفرار إلى الأدغال وقد استولى عليهم الفزع الشديد.

فى اليوم التالى انطلقت فصيلة مسلحة من البوكانيين على إثر سكان ماركايبو الفارين لتعود فى المساء وقد أوقعت فى الأسر عددًا كبيرًا منهم إلى جانب قافلة من البغال كانت محملة بمختلف الممتلكات. وكان من بين ما استولى عليه القراصنة عشرين ألف قرش من الذهب.

وبعد أن قضى لولونيه ما يزيد على عشرة أسابيع فى ماركايبو توجه إلى اسبانيولا. وفى الطريق توقف عند جزيرة فاش الصغيرة حيث اقتسم القراصنة غنائمهم التى بلغت من القروش الذهبية وحدها ستة وعشرين ألف قرش ذهبى فضلاً عن الممتلكات الأخرى التى سرقوها.

كانت خاتمة حياة لولونيه بشعة إذ لقى مصرعه على أيدى هنود دارين(٦) الذين قاموا بفصل يديه وقدميه ثم رأسه عن جسده بسكاكينهم. ومع هذا فلا

يمكن اعتبار لولونيه أكثر القراصنة البوكانيين فى الكاريبى شراسة إذا ما قورن بلويس-سكوت وروك البرازيلى وشيفالييه مونبار الذى كان معروفًا باسم «المدمر» أويبارتولو البرتغالى. إلا أن أحدًا حتى من هؤلاء لم يبلغ صيته ما بلغه الإنجليزى هنرى مورجان الذى خلد التاريخ اسمه فى هذا الميدان.

بعد أن استولى الفرنسيون على تورتوجا فى عام ١٦٨٠ بدا ـ لبرهة من الزمن ـ أن شمس القرصنة فى منطقة البحر الكاريبى قد آذنت بالمغيب. على أن هذا لم يحدث فى واقع الأمر بل الذى حدث هو العكس إذ أن عدد البوكانيين والفليبوستيين قد ازداد عن ذى قبل وأصبحوا ينقضون كالجراد ليس فقط على السفن فى عرض البحر وإنما أيضًا على المستعمرات الإسبانية والفرنسية والإنجليزية دون أن تأخذهم رحمة حتى بأفقر القرى التى يدخلونها.

بعدما فقد القراصنة تورتوجا أقاموا لأنفسهم مركزًا جديدًا للقرصنة فى الكاريبى فى بورت رويال عاصمة جاميكا. فى الوقت نفسه قام الإنجليز الذين انتزعوا جاميكا من الإسبان بتأسيس «الشركة الإفريقية الملكية» التى كانت تعمل بتجارة الرقيق من الزنوج. وكان من نتيجة هذا أن تحولت جاميكا إلى أكبر سوق لتجارة العبيد فى العالم وهى السوق التى كانت بمثابة الوسيط فى تجارة هذه البضاعة الحية بين إفريقيا وأمريكا، وبمرور الوقت أصبحت بورت رويال القاعدة الرئيسية لقراصنة الكاريبى وأهم سوق يصرفون فيها غنائمهم.

فى جاميكا عقد كبار التجار صفقاتهم مع القراصنة وكسبوا من وراء المسروقات من الثروات ما يفوق الخيال، وبفضل هذه الشركة حصل القراصنة على منفذ مجانى لبضائعهم فى بورت رويال وهناك حرصوا على ألا يدركهم أى نوع من الملاحقة أو العقاب، إذن أصبح هذا الميناء هو القاعدة الرئيسية والوكر الأثير إلى قلوب القراصنة.

ويومًا بعد يوم امتلأت المدينة بأناس من شتى الأجناس والشعوب أغراهم الكسب السهل حتى لقد أصبحت المدينة بالفعل أشبه ببرج بابل: فيها أفارقه ومُولَّدون وهجين، وأناس من أجناس سوداء وبرونزية وصفراء وبيضاء، وهولنديون

وإنجليز وألمان وفرنسيون وإسبان وبرتغاليون وأيرلنديون ومن البلاد الإسكندنافية جاءوا إلى هنا وأنشأوا مقاهٍ وخمارات وبيوتًا للدعارة والميسر واستراحات للمسافرين العابرين ومحالاً وورشًا للصناعات اليدوية. لم يكن أحد فى المدينة ليعبأ بمصدر هذه السلعة أو تلك، من أين جاءت؟ ومن صاحبها؟ كانت نوافذ العرض فى المحال مكتظة بالأحجار الثمينة والقطيفة والديباج والعديد من البضائع الأخرى كانت التجارة كلها فى جاميكا تتوخى هدفًا واحدًا هو التخفيف من أحمال جيوب القراصنة الباحثين فى نهم عن المتعة والتسلية.

رجال مجهولون من شتى الأجناس كانوا فى شوارع المدينة يحلون آذانهم بالحلقان، ويعصبون رؤوسهم بالمناديل الزاهية، ويرفلون فى ملابس من القطيفة والحرير. وكان القراصنة يشغلون كل نُزُل بالمدينة وتغصّ بهم المطاعم والحانات يتناولون طعامهم وشرابهم فيها فى آنية وكئوس من الذهب والفضة ويبعثرون أموالهم يمنة ويسرة.

جابت سمعة هذه المدينة الإنجليزية الفاجرة أنحاء الدنيا ووصلت إلى أوروبا التى أطلق سكانها على بورت رويال اسم «برج بابل القراصنة». وكان الرأى العام فى الدول الأوروبية يزداد إلحاحًا يومًا بعد الآخر مطالبًا حكوماته بوضع حد للأعمال الإجرامية التى تقع فى هذه المدينة، التى كانت يومًا ما إحدى جواهر التاج البريطانى. لكن أيًا من الإجراءات التى اتخذت لم تفلح، بما فى ذلك التدخل الشخصى لملك إنجلترا فى الأمر. ولقد بذل المستعمرون فى جزيرة جاميكا أموالا طائلة بلغ من ضخامتها أنهم استطاعوا بها أن يشتروا أصحاب أكبر المناصب وأرفعها لدى البلاط الملكى، وبهذا ضمنوا لأنفسهم النجاة من أية عقوبة.

ونتيجة لما سبق ذكره أخذت القرصنة فى النمو يومًا بعد الآخر وازداد عدد القراصنة عما كان عليه من قبل وأصبحت أساليبهم أكثر عنفًا وشراسة بسبب اندفاعهم المحموم وراء الثراء. ومن بين هؤلاء كان هنرى مورجان الذى أتينا على ذكره من قبل والملقب «بمورجان الشرس».

ولد هنرى مورجان فى إحدى ولايات جلامورجنشاير فى مزرعة من مزارع ويلز المتواضعة فى قرية تسمى لانزيمنى وعندما أصبح صبيًا بحارًا تسنى له أن يزور جزيرة باربادوس ليبحر منها إلى جاميكا وهناك انضم إلى البوكانيين وشارك فى حملاتهم على شواطئ هندوراس.

كانت المرة الأولى التى يستقل فيها مورجان بقيادة سفينة عندما رأى القبطان إدوارد مانسفيلد فيه شخصًا جديرًا بذلك. وإدوارد مانسفيلد هو قائد حملة القراصنة على كيوراساو والتى تعد واحدة من أغنى جزر الأنتيل الصغرى. كان السير توماس موديفورد محافظ جاميكا هو الذى يضع بنفسه خطط هذه الحملة وكان لتوماس علاقات وطيدة مع البوكانيين وكثيرًا ما استثمر خدماتهم لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية. كان ما نسفيلد قد أبلغ بأنه فى حالة نجاح رجاله فى طرد الإسبان من جزيرة كيوراساو فسوف يسمح لهم بنهبها. مثل هذه الوعود كانت تبذلها السلطات الاستعمارية فى القرن السابع عشر وكانت تعد آنذاك من الظواهر العادية.

الذى حدث أن الحملة التى قادها ما نسفيلد إلى هناك باءت بالفشل ووقع قائدها فى أيدى الإسبان الذين حكموا عليه بالإعدام شنقًا.

وأعطى تسلسل الأحداث على هذا النحو الفرصة لمورجان لأن يرتقى سلم مستقبله بوصفه قرصانًا. كان البوكانيين قد توصلوا إلى استنتاج مفاده أن هذا الشاب المقدام الذى شاركهم حملتهم الفاشلة سوف يصبح قائدًا ممتازًا فأولوه ثقتهم وأسندوا إليه قيادة الأسطول بأكمله إبان العودة. وهكذا وجد مورجان نفسه وقد ارتقى فجأة إلى رتبة «أدميرال» ليصبح على رأس عشرة سفن مسلحة ومجهزة على نحو رائع وتحت إمرته طاقم من خمسمائة قرصان لا يهابون الموت.

لم يكن هذا الارتقاء المفاجئ ليدير رأس مورجان فسرعان ما أثبت أنه أهل له، وقد كان آنذاك شابًا فارع الطول قويًا لم تتجاوز سنه ثلاثة وعشرين عامًا كان مورجان، إلى جانب كونه يمتلك صفات كالحزم والمباشرة والحكمة والقسوة،

يمتلك بصيرة نافذة غير عادية، فعندما برزت مشكلة إمكانية عودة الأسطول إلى جاميكا نحى مورجان هذه الفكرة جانبًا وتوجه لرجاله بقوله:

- إذا عدنا مهزومين فسوف تسخر منا كل امرأة فى الجزيرة ناهيكم عن أن المحافظ سيلقى على أكتافنا بمسئولية موت القبطان ما نسفيلد ويصادر السفن، إن علينا أن نعوض ما خسرناه فى كيوراساو فى مكان آخر.

وضع مورجان نصب عينيه أن يحتفظ بهذا المنصب الذى أعطى له مؤقتًا، فقد كان يعى جيدًا أنه فى حالة عودته إلى جاميكا فإن هذا المنصب سوف ينتقل حتمًا إلى شخص آخر أكثر خبرة ودراية بأمور الملاحة البحرية منه، فى الوقت نفسه وضع مورجان فى حسبانه أنه فى حالة نجاحه فى الانتقام من مصرع ما نسفيلد وتعويض الخسائر التى منى بها الأسطول على حساب الإسبان ثم العودة إلى بورت رويال فى هالة المنتصر، فإن وضعه بالنسبة لمنافسيه الأشداء سوف يكون أقوى بدرجة لا يستهان بها وكعادته دائمًا فقد صحت افتراضاته جميعًا.

قرر مورجان بعد أن استحسن رفاقه خططه أن يتخذ طريقه نحو كوبا ثم يشن هجومًا على بويرتو برينسيبى. وقد دلت هذه الخطة على مدى شجاعة هذا القرصان وجرأته. تقع بويرتو برينسيبى فى عمق الجزيرة ولم يحدث إطلاقًا أن تعرضت لأى هجوم من جانب القراصنة الذين كان يقصرون نشاطهم دائمًا على المدن الساحلية وعلى أية حال فقد قرر مورجان أن يسير بحملته عبر الأدغال الكثيفة وأن يداهم المستعمرين بغتة.

فاقت نتائج هذا الهجوم توقعات مورجان. كان القراصنة قد وصلوا إلى بويرتو بينسيبى عند منتصف الليل حيث كان السكان يغطون فى نوم عميق، وبعد أن اتخذ القراصنة موقعًا استراتيجيًا هاجموا أهم المبانى بالمدينة فى آن واحد أيقظت أصوات الطلقات ونباح الكلاب سكان المدينة؛ فانطلق الرجال والنساء والأطفال يهرولون فى شوارع المدينة فى ملابس النوم وقد تملكهم الخوف وسيطر عليه الفزع وتلقى الجميع أمرًا بأن يقوموا طواعية بإحضار ما لديهم من مجوهرات ونقود وملابس وأسلحة وأطعمة وخمر وكان جزاء من يحاول الدفاع

عن ممتلكاته الخاصة أو يخفى جزءًا من ثروته عن اللصوص طعنة خنجر. تم جمع الغنائم كلها فى عدة أكوام هائلة رصت فى ميدان السوق ولم يقف طمع مورجان عند حد فقد طلب من السكان أن يسلموه ألف رأس من الماشية من المرعى القريب مهددًا بإحراق المدينة إذا لم يجب طلبه كان القرصان يفكر وهو يصدر هذا الأمر فى أن عليه أن يطعم خمسمائة رجل، وبعد أن تم له ما أراد أرغم السكان المنهوبين على شحن الغنائم على السفن.

فى طريق العودة رفع القراصنة كئوسهم ليشربوا نخب صحة هنرى مورجان.

على أن «الأدميرال» أعلن أن موعد العودة لم يحن بعد، واعتبر أن الهجوم على بويرتو برينسيبى لم يكن إلا مجرد افتتاحية لنشاطهم القادم، وأعلن عن مخطط جسور للاستيلاء على مدينة بويرتو بللو المنيعة الواقعة عند برزخ بنما. كانت هناك حصون ثلاثة تحمى المدينة وتعوق الوصول إلى الميناء.

واتخذ معظم الضباط ذوى الخبرة موقفًا اتسم بالريبة تجاه خطة مورجان التى رأوا أنها ليست سوى ضرب من الجنون، بل إن ثلاثة سفن فرنسية انسحبت من أسطول القراصنة.

وكما كان متوقعًا فقد أبدت بويرتو بللو مقاومة شديدة ومع ذلك، وبرغم الخسائر الفادحة التى نزلت بالبوكانيين، فقد تمكنوا من الاستيلاء على حصنين والدخول إلى المدينة على أن المحافظ الإسبانى الذى لجأ مع حامية صغيرة العدد إلى القلعة الرئيسية للاحتماء بها فقد رفض الاستسلام عندئذ لجأ مورجان إلى واحدة من أكثر وسائل إدارة الحرب شراسة وقسوة؛ فقد أمر بإعداد سلالم عالية ثم أخذ فى إخراج الرهبان والراهبات من الأديرة القريبة وأمرهم بإسناد السلالم إلى حوائط القلعة لقد لقى هؤلاء جميعهم مصرعهم تقريبًا، لكن الإسبانيين هزموا وانهار آخر خطوط مقاومتهم، أما المحافظ نفسه فقد قتل فى الالتحام الشديد الذى وقع بين الفريقين.

أثبتت التصرفات التى قام بها مورجان بعد ذلك صدق الرأى السائد حوله باعتباره شخصًا يتمتع بقسوة طاغية. لقد تعرضت الكنائس والبيوت الخاصة فى

بويرتو بللو إلى نهب منظم وأخذ القراصنة فى تمشيطها بدءًا من البدرومات وانتهاء بالأسطح، ورغم ذلك فلم يقنع المنتصرون بالغنائم التى حصلوا عليها فقد بقى لديهم شعور بأن السكان يخفون عنهم كنوزًا ما، خاصة وأنهم لم يعثروا فيما نهبوه من ممتلكات الكنيسة على متعلقات نفيسة. وحتى يتسنى له العثور على هذه الكنوز قام مورجان بتعذيب القساوسة. إذ كانت الشفقة التى قلما كان يبديها مورجان وإن حدث فهى لا تكون إلا للنساء. فمورجان يعامل الفتيات والجميلات بأدب جم وحذر بالغ. وكان التكلف والادعاء من الصفات المميزة لهذا القرصان الطموح وربما كان لها الفضل فى أن أصبحت حياته موضوعًا لرواية عالمية.

أخيرًا عاد مورجان إلى بورت رويال حيث استقبل استقبال الفاتحين، وقد اتسم سلوك «الأدميرال» وطاقمه بالغطرسة، فراحوا يتصرفون كما لو كانوا أمراء إقطاعيين ينفقون الأموال ببذخ وسفاهة. التقى السير توماس موديفورد بمورجان وقد أخذ ذهب القرصان بلبه لكنه تحفظ فى البداية ثم ما لبث أن أبدى ملاحظة مفادها أن القرصان الجسور وقد عقد النية على أن يستغل قدراته هذه لأغراضه السياسية فى أول فرصة مناسبة تلوح له.

إبان ذلك اشترى مورجان فرقاطة أسماها «اكسفورد» ثم راح ينهمك فى الولائم والملذات.

وما هى إلا بضعة شهور حتى نفد آخر ما معه من نقود وهو ما كان متوقعًا بالطبع . وعندئذ قرر مورجان أن يعود مرة أخرى للنهب؛ فأعلن عن عزمه القيام بحملة جديدة ودعا من لديهم الرغبة للاشتراك فيها للاجتماع وخاصة ملاك السفن. استهدفت الحملة مدينة ماركيبو التى سبق وأن قام لولونيه نهبها منذ عدة سنوات خلت. كادت الإجراءات التى اتخذت من أجل هذه الحملة أن تمنى بالفشل فى بدايتها، فبعد وصول مورجان إلى جزيرة فاش فى يناير عام ١٦٦٩ أقام مأدبة غذاء فاخرة على شرف رفاقه فوق ظهر سفينة القيادة «اكسفورد» وبينما كان الجميع منهمكين فى وليمتهم إذا بانفجار ضخم يدوى داخلها لتتساقط ألواح خشب مقدم السفينة فوق رؤوس السكارى المولعين اتضح أن أحد البحارة الذين أدارت الخمر رءوسهم قد أشعل نارًا بالقرب من البارود الموجود فى

مخزن السفينة وعلى الرغم من الأضرار التى وقعت، بل ومصرع عدد من البحارة، أصدر مورجان، الذى لم يصب بأذى من جراء الانفجار، أمره بخروج الأسطول إلى البحر.

واستطاع مورجان أن يستولى على ماركايبو بعد أن عبر المضيق مثلما حدث مع لولونيه من قبل وتحولت ماركايبو على مدى خمسة أسابيع إلى ساحة لمهازل لم يسبق لها مثيل عاد بعدها الأسطول إلى بورت رويال بغنيمة ضخمة.

وفى هذه الفترة تحديدًا كن محافظ جاميكا يعانى من وضع عصيب. فقد نزل الإسبان عند الجزء الشمالى للجزيرة وأخذوا فى اختراقها باتجاه بورت رويال انتقامًا للهجمات التى شنها القراصنة. وكان الموقف يهدد بفقدان الجزيرة. آنذاك كان القراصنة الإسبان قد ضيقوا الحصار على الأسطول التجارى البريطانى حتى أخرجوه من حوض البحر الكاريبى وأصبح السير توماس موديفورد هدفًا للنقد الشديد من جانب الأوليجاركية المالية للجزيرة الذين عرضت مصالحهم الحيوية للتهديد.

هنا ظهر مورجان فى بورت رويال بعد أن عاد منتصرًا من ماركايبو.

وانتهز الموظف البريطانى الاستعمارى الحصيف الفرصة فعاد ليذكر مورجان بلباقة أنه - أى مورجان - قد تجاوز صلاحياته واقترح عليه أن يمنحه شهادة القرصنة التى تعطيه الحق فى اغتصاب مراكب وسفن الإسبان وتدمير موانيهم ومخازنهم ونهب مدنهم. كان المحافظ يعول على مورجان فى طرد الإسبان من الجزيرة لعلمه بمدى الطاقة الجامحة والمواهب االفائقة التى يمتلكها هذا القرصان.

وتلقى مورجان اقتراح المحافظ بسرور بالغ على أمل أن يستطيع بدعم من موديفورد أن يصبح الملك غير المتوج لقراصنة جاميكا، وحتى يتجنب أية مشكلات يمكن أن تظهر فيما بعد طلب مورجان من المحافظ أن يعقد معه اتفاقًا مكتوبًا.

وبعد أن امتلك مورجان شهادة القرصنة أصبح باستطاعته أن يُجنِّد علنًا القراصنة فى بورت رويال. وما أن اجتمع لديه ألفا رجل حتى قرر التوجه على

رأسهم لغزو بنما. وكان مورجان يحلم بالوصول إلى المحيط الهادى كما فعل ذلك من قبله فاسكونونيس دى بالبوا. فشرع يستعد لرحلته شهورًا طويلة اتسم عمله فيها بالدقة والإحكام وفى التاسع من يناير عام ١٦٧١ نزل ألف وثمنمائة قرصان من رجاله فى خليج دارين.

لم يبحر أسطول مورجان بالطبع تحت الراية البريطانية فمثل هذه المخاطرة لم يكن ليقدم عليها رجل فى دهاء موديفورد. كانت أعلام القراصنة التقليدية المزينة برسوم الجماجم والعظام المتقاطعة والهياكل العظيمة ترفرف فوق صوارى السفن.

وقع أول صدام بين القراصنة والإسبان بالقرب من قلعة سان لورنزو عند مصب نهر تشاجرس ولم يجد مورجان صعوبة فى احتلال القلعة التى لم يكن يتولى الدفاع عنها سوى حامية مكونة من مائتى شخص ثم غادرها بعد أن ترك فيها فرقة خاصة لتأمين مؤخرته.

كان مورجان على علم بأن نهر تشاجرس يصلح لسير السفن التى تمخر المحيطات لمسافة صغيرة لا تتعدى أربعين ميلاً. وقام مورجان بقطر عدد من زوارق الكنو Canoe وهى زوارق هندية خفيفة تعمل بمجذاف واحد قرر مورجان أن يبحر بها أعلى النهر. وفى نهاية الطريق كان عليهم أن يتوغلوا عبر الأدغال الاستوائية.

تعرض القراصنة لخسائر فادحة نتيجة عدم اعتيادهم على مثل هذه الرحلات. لم تكن التماسيح الأمريكية والثعابين السامة والنمور والأسود الأمريكية هى الشر الأعظم الذى قابلوه فى طريقهم إذا ما قورن ذلك بعذاب لدغات البعوض والعناكب والديدان السامة التى تعج بها أحراش أمريكا الوسطى. وبعد رحلة استمرت ثلاثة أيام شاهد رجال مورجان أخيرًا مياه خليج بنما شديدة الخضرة ذات اللون الزمردى والمدينة الجميلة الراقدة على شواطئها.

أوقف مورجان مقاتليه حتى يتعرفوا جيدًا على موقفهم. لجأ المدافعون عن المدينة إلى حيلة ذكية بأن أطلقوا لى القراصنة المهاجمين بضع مئات من الماشية

المتوحشة ولكن يبدو أن كيدهم قد رد فى نحورهم، فالحيوانات ـ وقد أصابها الجنون من جراء االطلقات ـ رجعت القهقرى واندفعت مجتاحة الفرسان الإسبان الذين كانوا يدفعونها وهى تنطح بقرونها الخيل. على أية حال استمرت المدينة تدافع باستماتة إلى أن اضطر مدافعوها إلى شحن الذهب والفضة والنفائس على سفن القراصنة.

عندما غادرت الحامية الإسبانية المدينة وجدها مورجان خالية من السكان وكان لهذا الانتصار الباهظ الثمن أثره السيىء إلى حد كبير على نفسية القراصنة إلى جانب ما رأوه من عذاب إبان عبورهم الادغال، ومع ذلك فقد كان هناك عذاب آخر شديد الوطأة يرجع سببه إلى الحظر الصارم الذى فرضه مورجان على تعاطى الخمور التى عثروا عليها فى المدينة.

كان مورجان خائفًا من عودة الإسبان ومن أن يسرف رجاله فى الشراب بعد الانتصار الذى حققوه على أية حال فقد سَرَّب مورجان إشاعة مفادها أن الخمر الذى تركه الإسبان خمر مسموم نجحت الحيلة وظل القراصنة على مدى العشرين يومًا التى قضوها فى المدينة محتفظين بوعيهم ينتقلون من بيت لآخر طمعًا فى الغنائم. ترك مورجان المدينة بعده مجرد أطلال وخرائب متبعًا فى ذلك التعليمات التى أصدرها محافظ جاميكا.

فيما بعد أظهر مورجان وجهه الحقيقى؛ رجل بلا ضمير.

كان على القراصنة ـ الذين وصلوا إلى مصب النهر ـ أن يبدأوا فى اقتسام الغنائم وفقًا للاتفاق وذلك قبل أن يصعدوا على السفينة وقد نشب جدل شديد مع القبطان الذى لم يكتف بأن خرق القواعد التقليدية «لأخوة الشاطئ» بل استولى على الجزء الأكبر. طالب الضباط عندما علموا بذلك بزيادة مكافآتهم مما ترتب عليه أن القراصنة العاديين لم يتبق لهم شىء.

أصبح البحارة الصغار يهددون رؤساءهم الذين خدعوهم ووصل الأمر إلى حد التشاجر بالسكاكين. عندئذ قرر مورجان الإفلات من الموقف دون أن يلحظ ذلك أحد؛ فأنزل جنوده ـ البالغ عددهم أكثر من ألف من البوكانيين ـ إلى الشاطئ دون مئونة أو قوارب أو سلاح.

وأخيرًا ضاق صدر كل من حكومتى إسبانيا وانجلترا من جراء هذه الحرب غير المعلنة فوق مياه العالم الجديد والتى من الممكن أن تؤدى فى النهاية إلى انهيار هاتين الإمبراطوريتين الاستعماريتين. وتم التوصل إلى قرار بإيقاف الحرب والشروع فى استئصال جذور القرصنة فى البحر الكاريبى التى كانت تهدد التجارة البحرية للدولتين سواء بسواء. وفيما يتعلق بهذا الأمر تقدم البلاط الإسبانى بشكوى إلى كارل الثانى ملك إنجلترا بشأن أعمال النهب التى جرت فى بنما مطالبًا بتسليم مورجان إلى العدالة. وهكذا صدر الأمر إلى السير موديفورد باعتقال مورجان على وجه السرعة وإرساله إلى لندن لكن المحافظ، الذى شارك فى المسئولية عن الأعمال التى ارتكبها القرصان، كانت لديه المبررات الكافية لعدم تنفيذ الأمر. كان موديفورد يلجأ دائمًا إلى مورجان العقل المدبر كلما انتابته الهواجس والشكوك وكان يقدر فراسته تقديرًا رفيعًا.

فى هذه المرة استمع القرصان باهتمام إلى المحافظ ثم قرر، الأمر الذى أدهش الأخير، أن يتوجه بأسرع ما يمكن إلى إنجلترا. نظر السير توماس إلى قرار القرصان بمزيد من الشك. كان بوده لو أن صديقه فهم النقاش الذى دار بينهما فى هذا الصدد باعتباره مجرد تحذير حتى يتسنى له أن يبحر بسفينته مبتعدًا عن الجزيرة. ولكن يبدو أن مورجان لم يكن لشغله الأمر كثيرًا. فلم يستطع المحافظ أن يغرى هذا الرجل الذاهب طوعًا لمصيره بالفرار!

ظل مورجان طليقًا حتى لحظة رحيله إلى إنجلترا، وكان إبان ذلك يقوم بترويج البضائع المسروقة. كان مورجان يعتقد أن الحرية يمكن شراؤها بالرشاوى الباهظة، كما كان يرى أن لكل شخص سعر، وأن العدالة وجدت فقط لإنزال العقاب بالفقراء لصالح الأغنياء.

ظل مورجان يتمتع بحريته كاملة حتى وهو على السفينة الحربية «Welcome» التى كان من المقرر أن تسلمه للسلطات فى إنجلترا. وكان البحارة يعاملون هذا القرصان باحترام باعتباره واحدًا منهم، فإذا أضفنا إلى ذلك الهبات التى كان مورجان يغدق بها على من معه لعرفنا كيف كانت الرحلة مريحة ذات بهجة.

تميز استقبال مورجان فى إنجلترا بالحفاوة أيضًا. وقد عامله القضاة بتسامح ظاهر متماشين فى ذلك مع الرأى العام الذى وضعه فى مصاف بحارة ألبيون العظام أمثال درايك وهوكنز ورايلى. وحتى الملك نفسه تمنى أن يتعرف شخصيًا على هنرى مورجان. ترك القرصان انطباعًا قويًا لدى الملك إلى حد أنه عرض عليه منصبًا رفيعًا فى جاميكا وكلفه بمحاربة البوكانيين المسلحين فى حوض البحر الكاريبى حتى لا تتكرر مستقبلا مأساة بنما.

ههى ذى الفرصة تسنح لمورجان ليأخذ بثأره من رفاقه السابقين وهو ما كان بدأه إبان رحلته إلى مصب نهر تشاجرس. ولم يكن تطور الأحداث على هذا النحو من حسن طالع السير توماس موديفورد، فالحكومة الإنجليزية كانت تسعى بإخلاص للاحتفاظ بعلاقات طيبة مع إسبانيا وعلى هذا فقد استُبدل السير موديفورد باللورد فوجانوم أحد المحافظين الأشداء.

وبعد عدة سنوات هنيئة قضاها مورجان فى لندن عاد إلى جاميكا ليقدم نفسه للمحافظ ويتسلم المنصب الجديد الذى كلفه به الملك. بدأ مورجان حملته ضد البوكانيين بأن وعد بالعفو عن الذين يتوقفون عن السرقة فى البحر ويلتزمون بتنفيذ القانون بحذافيره. صاحب هذا الوعد اتخاذ عدد من الإجراءات الصارمة تقرر تطبيقها على أعمال القرصنة الإجرامية. على أن هذه الخطوة الأولى لم تؤت ثمارها وهو أمر كان يتوقعه مورجان نفسه الذى كان عازمًا على مواصلة التنكيل المسلح.

وعلى الرغم من أن مورجان الآن أصبح يرتدى السترة العسكرية الإنجليزية فقد واصل العمل دون رحمة فى إنزال العقوبات الصارمة ضد القراصنة من أجل الحفاظ على قوانين جالة الملك وأوامره. وسرعان ما أتت هذه السياسة ثمارها، فراح القراصنة السابقون يومًا بعد الآخر يمارسون الأعمال البحرية الشريفة وأخذت التجارة البحرية فى البحر الكاريبى فى الازدهار. وبدأت جاميكا تقطع صلاتها بالقراصنة بينما تحولت بورت رويال إلى مركز بحرى تجارى ضخم.

ظل مورجان حتى نهاية حياته يشغل منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة البريطانية فى جاميكا. صحيح أنه لم ينجح فى القضاء نهائيًا على القرصنة فى الكاريبى، غير أنه أنزل بها ضربة قاصمة وتوفى مورجان بعد أن طعن فى السن فى بيته الخاص فى بورت رويال.

السابع من يونيو عام ١٦٩٢. كان الوقت يقترب من الظهيرة والطقس يزداد حرارة وهناك بضع سفن شراعية تتهادى فوق أمواج الخليج اللينة. وبينما الحمالون يعملون فى تفريغ عنابر السفن من حمولتها، كانت المطاعم المصطفة بطول الطريق الرئيسى قد بدأت فى إعداد الطعام للبحارة. تصاعدت من المطابخ المعتمة روائح الطعام الشهية من الخراف المشوية على الأسياخ إلى أطباق الكاريبى التقليدية من لحوم السلاحف مع الأسماك والمقبلات لتقديمها فى أوانٍ نحاسية كبيرة.

فجأة تغطى السحب الرمادية الداكنة صفحة السماء الزرقاء الصافية وتجتاح المدينة عاصفة استوائية عاتية، وسرعان ما تهتز الجزيرة كلها بتأثير هزات أرضية جبارة وفى غمضة عين تتحول البيوت إلى تراب وأنقاض. الحرائق تشتعل هنا وهناك ومن بقى حيًا تملكه الهلع فأخذ يهرول مذعورًا موجات ضخمة تأتى من البحر لتكتسح الشاطئ وتحيل شوارع المدينة إلى أنهار متدفقة.

جزء هائل من الساحل ينهار مع جزء آخر من المدينة ليختفى فى أعماق البحر الهادر خمسة آلاف نسمة يلقون حتفهم فى لجة البحر وكنوز لا تقدر بمال تغرق فى الأعماق: ذهب، فضة، بضائع، عنابر ومخازن الشاطئ بأكملها، هكذا تختفى من على ظهر الأرض مدينة غنية كانت تفيض بالحياة.

كانت هذه هى النهاية المرعبة لمدينة «بابل القراصنة» وعلى الرغم من أن بورت رويال أعيد بناؤها فإنها لم تبلغ إطلاقًا ما بلغته من ثراء وعظمة من قبل.

فى الآونة الأخيرة قام علماء الآثار بأعمال تنقيب تحت الماء بالقرب من عاصمة جاميكا المستقلة فقادتهم أعمال البحث التى يقومون بها إلى اكتشافات شيقة تدل بشكل واضح على تلك الزيام المجيدة التى عاشتها عاصمة القرصنة.

## القراصنة النساء

اليوم وبعد أن أصبح «الجنس الضعيف» ممثلاً فى كل المهن بما فى ذلك التحليق فى الفضاء الكونى يصبح الحديث عن أن المرأة لم تعمل إطلاقًا بالقرصنة أمرًا مدهشًا. على أنه حتى فى تلك الأزمنة الغابرة، عندما كان المكان المناسب الوحيد للمرأة هو البيت فإنها وقفت وراء دفة السفينة متمنطقة مسدسًا وسيفًا وهى معتبرة ذلك أمرًا عاديًا تمامًا.

تعتبر أنًا بونين ومارى ريد هما أشهر السيدات القراصنة فى التاريخ. الأولى أيرلندية وهى ابنة غير شرعية لمحام من إقليم كورك، سافرت مع أبيها إلى كارولينا. وقد سببت هذه الفتاة الحسناء لأبيها كثيرًا من الهموم والمشاكل بسبب طباعها الحادة. وقد وصل الأمر إلى حد أنها قتلت فى إحدى سورات غضبها خادمتها الإنجليزية. ولأن أنًا كانت تعد فتاة حسنة التربية ومن بيت طيب فقد جرى «دفن» هذه الحكاية المزعجة.

تزوجت أنًا بعد العديد من المغامرات والقصص الغرامية من بحار نكرة. ولمّا علم أبوها بذلك طرده من البيت. أبحر العريس البائس على أول سفينة وجدها ولم يظهر مرة أخرى لدى عائلة بونين وعلى الفور ظهر من بين معجبى أنًا شاب ثرى وسيم هو القبطان جون ريكام، أشهر قراصنة الشاطئ الشرقى الأمريكى والذى كان يقوم بعملياته تحت اسم «كاليكو جاك». كان جون من أسرة قراصنة، ولكى يحصل على فتاته أنًا الحسناء فقد رسا بقارب صغير أمام منزل أبيها ثم اختطفها وأبحر معها إلى الأفق الأزرق.

لم تنزعج أنًا من جراء زواجها الأول الفاشل من بحار، ووافقت عن طيب خاطر أن تقاسم القرصان العاشق حياته فى السراء والضراء. قضى الزوجان شهر العسل فى البحر؛ وعندما أخبرت أنًا زوجها أنها تنتظر طفلاً أخذها إلى عزبته الصغيرة القائمة على شواطئ كوبا. هنا كان البيت والأصدقاء الذين وعدوا بالاعتناء بالزوجة وطفلها. وبعد بضعة شهور عادت أنًا إلى السفينة لتشارك فى كل أعمال القراصنة وأظهرت شجاعة ومهارة كبيرتين.

على أن الحياة السعيدة للقرصان والقرصانة ما لبث أن تهاوت، ففى أكتوبر عام ١٧٢٠ عندما كان يبحران فى المياه المتاخمة لشاطئ جاميكا هاجمتها بغتة سفينة حربية مسلحة تسليحًا جيدًا وأخذ القراصنة لتسليمها فى جاميكا ثم أحيلا للمحاكمة فى سانتياجو دى لافيجا حيث حكم عليهما بالإعدام. كانت أنّا وقتئذ حاملاً للمرة الثانية، فطالبت بتأجيل الحكم فأجيب التماسها ولم يعرف مصيرها بعد ذلك وإن كان من المرجح أنها استطاعت الإفلات من العقوبة. كان الحكم بالإعدام قد صدر على أنّا بونين وعلى صديقتها الحميمة مارى ريد.

كانت حياة مارى ريد مليئة بمغامرات معظمها بعيد تمامًا عن الحقيقة. إن ما وصلنا عنها هو بعض التفاصيل عن طفولتها، فأم مارى كانت «أرملة شابة لعوبًا» يمكن من بعض الشواهد أن نقول، انطلاقًا من تصوارتنا الشخصية عنها، إنها قامت بتربية مارى الصغيرة كما لو كانت ولدًا. وعندما بلغت الفتاة الثالثة عشر من عمرها أخذتها امرأة فرنسية لتعمل خادمة. على أن هذا العمل لم يرق لها وسرعان ما انتقلت لتعمل مربية لدى بحار يعمل على سفينة حربية. غير أن هذا العمل أيضًا لم ينل رضاها. عملت مارى جنديًا فى فيلق للمشاة كان يرابط فى فرنسا اشتركت معه فى العديد من المعارك وأظهرت شجاعة وحنكة غير عادية وأثناء انتقالها من المشاة إلى سلاح الفرسان وقعت الفتاة فى حب زميلها فى الفوج وكان هذا الحادث سببًا فى أن تخلع مارى زى الجندية لترتدى بدلاً منه فستان الزفاف. وقد أثار زفافها ضجة كبيرة فى الجيش إذ كان كثير من كبار الضباط يقدرون وجودها بينهم ويكنون لها احترامًا كبيرًا. انتقل العروسان ليسكنا فى منطقة بريد Brede بإنجلترا بالقرب من مطعم يسمى «تافرنا الحدوات الثلاث» ما يزال موجودًا حتى اليوم لم تستمر حياة الزوج طويلاً مما اضطر مارى للالتحاق بالجيش وارتداء ملابس الرجال مرة أخرى. على أنها فى هذا المرة لم تستطع أن تتعايش مع مشاق الحياة العسكرية ففرت من الخدمة وعملت بحارًا على إحدى السفن. كانت هذه السفينة فى طريقها إلى جزر الأنتيل عندما استولى عليها القرصان الشهير ريكام الذى سبق أن تعرفنا عليه، وهكذا يعود مصير مارى ريد ليرتبط مرة أخرى بأنّا بونين.

أخيرًا تجد مارى متنفسًا لطبعها النزق من خلال العمل بالقرصنة فتنضم إلى جماعة من لصوص البحر لتعمل معهم دون أن تكشف لأحد عن كونها امرأة. وذات مرة تلحظ مارى على ظهر إحدى السفن التى تم الاستيلاء عليها شابًا وسيمًا ممشوق القوام فإذا بها تهيم به حبًا، لكن هذا الشاب يدخل فى أحد الأيام فى عراك مع أحد القراصنة، ولما كانت السفينة ما تزال راسية فقد تقرر - وفقًا لتقاليد القراصنة التى تحظر المشاجرات على السفينة - أن ينزل المتنازعان إلى الشاطئ ليسويا حسابهما هناك. لنا أن نتخيل مدى ما عانته هذه العاشقة الولهى عندما عرفت أن من اختاره قلبها لم يبد من الشجاعة ما كانت تتوقعه وترجوه. استفزت مارى الفتى لمبارزة استخدمت فيها السيوف والمسدسات وانتهت بأن قتلت مارى حبيبها التعس. وشجعت هذه الحادثة المرأة الشابة على أن تكشف عن شخصيتها التى ظلت تخفيها بحزم لمدة طويلة، ثم ما لبثت أن بدأت سلسلة من المغامرات العاطفية انتهت بعلاقة وطيدة مع أحد القراصنة. انتهى الأمر بأن مثلت كل من مارى وصديقتها أنًا فى قفص الاتهام أمام القضاء فى سانتياجو دى لافيجا حيث أصدرت المحكمة عليهما حكمًا مخففًا للغاية بل وكادت أن تبرئ ساحتهما تمامًا، لولا أن تقدم أحد المتهمين ببعض الأدلة باعتباره شاهدًا لم يجد القاضى بعد اطلاعه على القضية فى ضوء أدلة هذا الشاهد أن يجد أى ظرف مخفف، فما كان منه إلا أن أصدر حكمه بإعدام مارى ريد مع باقى القراصنة.

* * *

## هوامش الفصل الرابع

(١) اتفاقية توردسيلياس: اتفاقية عقدت بين إسبانيا والبرتغال بشأن تقسيم المناطق الاستعمارية.

(٢) إسبانيولا: الاسم القديم لهايتى.

(٣) الفتح الإسبانى Conquista: عصر الغزو الإسبانى لأمريكا الوسطى الجنوبية فى نهاية القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر.

(٤) تورتوجا: ينبغى هنا ألا نخلط بين هذه الجزيرة وجزيرة تورتوجا الأخرى الموجودة فى الأنتيل عند ساحل فنزويلا.

(٥) الفلوبستيون: من الكلمة الفرنسية Flibustier والهولندية Vrijbuiter وتعنى «يسرق بسهولة» أى القرصان.

(٦) دارين Darien: تقع على خليج دارين بكولومبيا (المترجم).

# الفصل الخامس

# قراصنة بحار أمريكا الشمالية

بحلول القرن الثامن عشر بلغ النهب البحرى عند سواحل أمريكا الشمالية حدًا لم يبلغه من قبل. كان للقراصنة نظامهم الخاص كما كان لهم إلى جانب هذا وكلاؤهم فى معظم موانى الساحل الشمالى لأمريكا من سالم فى الشمال إلى شارلستون فى كارولينا الجنوبية كما اكتظت بهم شبه جزيرة فلوريدا وكذلك شاطىء خليج المكسيك بأكملة. وفى حالات الضرورة القصوى كانت سفنهم تجد الملجأ الآمن لها بكل سهولة فى جزر الأنتيل أوفى المناطق التى كانت إسبانيا تضع يدها عليها كما أنهم كانوا يعرجون على موانى نيويورك ونيوبورت وفلادلفيا.

ويعد التقرير الذى كتبه إدوارد راندولف - المفتش العام للمستعمرات البريطانية فى أمريكا آنذاك - بعنوان «دراسة حول القراصنة والإجراءات الواجب اتباعها لمكافحتهم»، المؤرخ عام ١٦٩٥، وثيقة طريفة بصدد القرصنة الأمريكية وهذه الدراسة هى واحدة من المذكرات العديدة التى كان يبعث بها راندولف بدأب بالغ إلى السلطات فى عاصمة الدولة المستعمرة.

يصف صاحب التقرير عادات وممارسات القراصنة الأمريكيين الذين كانوا يسطون على السفن الإسبانية وتحدث بالتفصيل عن أوكار القراصنة وعن علاقات الصداقة التى قامت بينهم وبين السلطات الاستعمارية فى جزر البهاما.

إلى هذه الفترة يرجع نشاط وليم كيد أحد أشهر القراصنة فى التاريخ. ولد كيد فى حوالى عام ١٦٤٥ فى جرينوك[1] فى عائلة قس من أتباع المذهب الكالڤينى[2] حاول أن ينشئه نشأة صالحة ويعلمه أفضل تعليم. ظل كيد لسنوات

طويلة يبحر على ظهر السفن الإنجليزية بوصفه بحارًا بسيطًا، ويومًا بعد الآخر إذ به يحمل على عاتقه مسئولية قيادة سفن القرصنة الإنجليزية فى البحار الأمريكية. كان كيد متزوجًا وله أطفال ومسكن رائع فى نيويورك يعيش حياة رغدة ميسرة وخاصة بعد أن أصبح مالكًا لعدد من السفن التجارية فيما بعد.

فى عام ١٦٩٥ تلقى الكونت بلومنت محافظ ماسا شوسيتس أمرًا من إنجلترا بالقضاء على القرصنة عند شواطىء نيوانجلند وقد أنيط الكابتن وليم كيد بهذه المهمة الصعبة، ومن أجل هذه المهمة منحه الملك وليم الثالث شهادة قرصنة[٢].

فى سبتمبر عام ١٦٩٦ غادرت ميناء نيويورك سفينة وليم كيد المسماة «أدفنشر جالى» وعلى ظهرها طاقم مكون من مائة وخمسين رجلاً. ما برحت الشهور تمر دون أية أخبار عنها، وعلى الفور انتشرت الشائعات التى تقول أن كيد بدلاً من أن يحارب القراصنة انضم هو نفسه إليهم وأنه يعيث فسادًا فى مكان ما بالمحيط الهندى، وبناء على هذه الأقاويل اقترح بلومنت اعتقال كيد على وجه السرعة فى حالة عودته إلى أمريكا.

وفى عام ١٦٩٩ ظهر كيد بالفعل فى بوسطن. وعلى الفور تم إلقاء القبض عليه وأرسل إلى إنجلترا. وقد اتضح أن كيد قد اتجه ـ بعد مغادرته نيويورك ـ إلى جزر ماديرا حيث ملأ عنابر سفينته بالفواكه والخمور ومنها يمم صوب جزر الرأس الأخضر حيث تزود بالماء العذب. دار كيد حول أفريقيا بمحاذاة رأس الرجاء الصالح وبعد عام من مغادرته أمريكا وصل إلى البحر الأحمر. فى العشرين من سبتمبر من عام ١٦٩٧ استولى كيد على سفينة أحد التجار المغاربة وكانت تحمل شحنة من الفلفل الأسود والأعشاب والبن والمر. وفى أحد سورات غضبه قتل كيد قائد مدفعيته المدعو وليم مور، ومنذ هذا الحادث شرع وليم كيد فى نهب كل ما يعترضه من سفن. وفى عام ١٧٠١ أدانت المحكمة فى أولدييلى وليم كيد بتهمة ممارسة القرصنة وأصدرت حكمها عليه بالإعدام.

وفى يوليو من عام ١٧٠٣ أعطى چوزيف دادلى شهادة القرصنة للسفينة «تشارلز» الشراعية ذات الصاريين والتى قام ببنائها وتسليحها الأغنياء من أبناء

مدينة بوسطن بأنفسهم وتم التصريح لقبطانها بالاستيلاء على السفن الفرنسية عند سواحل أكاديا ونيواسكتلندا.

وذات يوم - وكانت السفينة «تشارلز» راسية بالقرب من ماربلهيد - إذ بطاقمها يعلنِ العصيان فيلقى من فوقها بالقبطان ليحل محله زعيم المتمردين المدعو چون كڤلتش لتظهر «تشارلز» بعد ذلك بثلاثة أشهر عند شواطئ البرازيل ترفرف عليها راية «أولد روجر» السوداء يتوسطها رسم لهيكل عظمى بشرى ممسك فى إحدى يديه بسيف، وفى الركن سهم نافذ فى قلب تقطر منه ثلاث قطرات من الدم تسقط فى كف اليد الأخرى، وقد قامت سفينة القرصنة المذكورة بالاستيلاء على تسع سفن برتغالية بما تحمله من ذهب وأموال وذخائر ومنسوجات وأطعمة وروم.

قرر كڤلتش - بعد أن جنى ثروة هائلة هو وطاقمه فى بحار أمريكا الشمالية - العودة إلى ماربلهيد. ومن الصعب أن ندرك سبب إختيار كڤلتش لهذا الميناء بالتحديد دون جميع موانى العالم، على الرغم من أن الجميع كانوا ما يزالون واقعين تحت تأثير تمرد البحارة ومصرع قبطان «تشارلز» الذى لم يمض عليه وقت طويل. ما أن وصل كڤلتش إلى الشاطئ حتى مثل أمام النائب العام وقد أمكن القبض أيضًا على رفاقه الآخرين الذين كانوا قد فروا بغنائمهم إلى أماكن متفرقة. وفى التاسع من يونيو عام ١٧٠٤ تمت إدانة خمسة وعشرين قرصانًا من قبَل إدارة البحرية ببوسطون. وحتى عام ١٧٠٤ لم يكن يُسمَح بمحاكمة من يتهم بممارسة القرصنة إلا فى إنجلترا، وقد وضع هذا القانون العراقيل بشدة أمام مكافحة القرصنة فى المستعمرات، وكذلك كانت هناك مصاعب جمة تتعلق بنقل المساجين إليها ناهيك عن أن الكثير منهم كان يطلق سراحهم على أيدى رفاقهم فى عرض البحر.

فى عام ١٧٠١ أصدر الملك وليم الثالث مرسومًا خاصًا يعطى للمحاكم الإنجليزية خارج إنجلترا صلاحية مطلقة لنظر قضايا القرصنة.

لو أن الأمر اقتصر على مجرد إغارة كڤلتش على السفن الفرنسية فربما كان قد اتهم بالشغب فقط، ولكن بما أنه أصبح يسرق ويقتل أصدقاء وخلفاء ملكته

فقد صدر الحكم عليه هو وشركاؤه الخمسة والعشرون بالإعدام شنقًا كما جرى العفو عن ثلاثة عشر من القراصنة المتهمين بشرط الإلتحاق بخدمة الملكة.

كان يوم الجمعة الموافق عشرين من يونيو عام ١٧٠٤ عيدًا كبيرًا لسكان بوسطن. لقد تحول الإعدام العلنى الذى تحدد له هذا اليوم إلى عرض مسرحى هائل. كانت تلك الحالة من الحالات النادرة آنذاك التى تجرى فيها معاقبة القراصنة الذين كانوا ينجحون فى معظم الأحوال من الإفلات من العقاب بفضل فساد ذمم السلطات الاستعمارية. زد على ذلك أن أعضاء الكونجرس فى بوسطن قد استفادوا كثيرًا من قضية كڤلتش بعد أن تقاسموا فيما بينهم الذهب الذى كان القراصنة قد نهبوه. وقد أشار المؤرخ الذى درس هذه القضية بدقة أن البرتغاليين - أصحاب هذا الذهب الشرعيين - لم يستعيدوا منه ولو جرامًا واحدًا على الإطلاق.

لقد كان للحروب التى دارت رحاها فى القرن الثامن عشر أثرها فى انتشار القرصنة فى بحار أمريكا الشمالية التى سرعان ما تفتحت أمام القرصنة العلنية. وعلى مدى سبع سنوات من الثورة الأمريكية، بدءًا من عام ١٧٧٥، ظل القراصنة يعملون النهب فى جزر الأنتيل، وكان من بينهم إنجليز وفرنسيون وإسبان لديهم شهادات قرصنة.

ولقد تركز عدد كبير من الصيادين على وجه الخصوص عند ساحل أمريكا الشمالية إبان الحروب الفرنسية الإنجليزية، أى فى السنوات من ١٧٩٣ إلى ١٨١٥ أملاً فى الحصول على غنائم سهلة، وقد التزم غالبية القراصنة الذين ورد ذكرهم بالحيدة التامة آنذاك ولم تكن بهم أدنى رغبة فى إسداء العون لأى من الأطراف المتاحة مولين جل إهتمامهم إلى الغنائم الضخمة، غير مبالين بنتائج الحرب التى سوف يتحول الآلاف من لصوص البحر بمجرد انتهائها إلى احتراف القرصنة.

وقد اتضح فيما بعد أن هؤلاء اللصوص أسوأ مائة مرة من كل من سبقوهم فى تاريخ القرصنة البحرية، فلم يكن من بينهم من يمتلك ولو مسحة من النبالة

التى اتسم بها القراصنة البوكانيون القدامى، وإنما كانوا يتحركون يدفعهم أمر واحد هو الجشع.

ربما كانت الشخصية الوحيدة المضيئة قليلاً وسط هذا الجو المظلم هى شخصية جان لافيت الذى بسط نفوذه فى وقت ما على مياه خليج المكسيك، كان هذا الرجل ممثلاً لكل التقاليد الكلاسيكية للقرصنة فى الكاريبى كما كان يتمتع بقدر كبير من خفة الظل، فعندما خصص محافظ لويزيانا مكافأة قدرها خمسة آلاف دولار لمن يأتى برأس لافيت قرر لافيت أن يرد له الصاع صاعين فأعلن عن مكافأة قدرها خمسون ألف دولار لمن يأتى برأس المحافظ.

لا إنجلترا، ولا فرنسا، ولا إسبانيا استطاعت القضاء على القرصنة، ومما زاد من صعوبة الأمر عليهم فى حروبهم ضدها انتشار وباء الحمى الصفراء الذى اجتاح حوض الكاريبى آنذاك.

## القرصان الشريف

إذا كان مجد القرصان يتوقف على مقدار ما يأخذه غصبًا من سفن؛ فإن بارتولى روبرتس يستحق بناء على هذا أن يعطى قصب السبق فهو يتحمل - بشهادة كُتَّاب السيرة - مسئولية اغتصاب أربعمائة سفينة. وليست هناك أية معلومات عن طفولته ولا عن سنوات شبابه: أين وفيما أنفقهما ولكن يعتقد أنه من «ويلز».

فى عام ١٧١٩؛ أبحر بارتولى باتجاه شواطئ غرب إفريقيا باعتباره قبطانًا للسفينة الشراعية «برنسيس» بعد أن حملها «بضاعة حية» تتمثل فى زنوج مقيدين بالسلاسل فى سجن أسفل سطح السفينة، على أنه لم تمض بضع ساعات فقط من خروجه إلى البحر؛ حتى سقطت سفينته فى أيدى القراصنة بقيادة هويل ديفيس.

أدرك بارتولى روبرتس بالطبع أنه بهذا قد وقع فى هوة الإفلاس؛ إذ أن رأسماله عن آخره كان موضوعًا فى السفينة وما كانت تحمله، وهب أن القراصنة

قد أطلقوا سراحه وسمحوا له بالعودة إلى إنجلترا؛ فالمتوقع عندئذ أن يعيش هناك حياة ملؤها الفقر والعَوَز. ولم يبق أمامه شيء سوى أن يقبل اقتراح الكابتن ديفيس بالانضمام إلى قراصنته بعد أن أبدى نحوه رئيس القراصنة ـ وكان هو الآخر من ويلز ـ شعور التعاطف لكونه من أبناء بلدته.

إبان إحدى الحملات التى انتهت بالفشل فى أعماق القارة الإفريقية؛ أظهر روبرتس شجاعة فائقة. وعندما لقى ديفيس حتفه أثناء معركة حامية الوطيس دارت رحاها مع السكان المحليين، حل محله روبرتس فى قيادة القراصنة المنسحبين حتى وصل بهم إلى الشاطئ دون خسارة تذكر؛ الأمر الذى أكسبه احترام رفاقه. كان روبرتس يتوقع أن التنافس الحاد، والذى لا هوادة فيه، بين القراصنة من أجل السلطة؛ من الممكن أن يؤدى بهم إلى معركة صريحة بينهم، على أن مسألة انتخاب القائد الجديد قد جرى حلها نسبيًا على نحو هادئ؛ خلافًا لمخاوفه، وقد وقع الاختيار عليه هو بالذات؛ على الرغم من أنه كان مستجدًا فى عالم القرصنة.

كان أول ما استهل به روبرتس أعماله؛ أن قام بالانتقام لموت ديفيس؛ فأحاط بالقرية التى أنزلت بهم الهزيمة سابقًا، ثم دمرها؛ وبعدها توجه إلى شواطئ البرازيل، وهناك التقى بأسطول من السفن البرتغالية قوامه إثنان وأربعون سفينة محملة عن آخرها بالبضائع؛ تزمع الرحيل إلى لشبونة لتوزيعها فى أوروبا. هنا يقوم روبرتس باجتراح «مأثرة» لعلها الأولى من نوعها فى هذا المقام؛ إذ يستولى على إحدى هذه السفن وهى ما تزال بعد فى المرساة. لم يكن هذا العمل محض جنون على الإطلاق. لقد وزن القرصان الأمر بكل دقة؛ ثم أغار على السفينة ليلاً مستغلاً لحظة مواتية. لم يدر بخلد قبطان السفينة أن يكون الخطر متربصًا به فى الميناء ذاته. أما المخاطرة فقد أسفرت عن نجاح أكبر من المتوقع. ولقد عاد القراصنة من هذه «الحملة» ممتلئين زهوًا وفخارًا بقائدهم الجديد.

وقرر روبرتس أن يمد نشاطه إلى المحيط الهندى، بعد أن ابتسم له الحظ مرة أخرى فى جزر الأنتيل، وقد عانى تجار كل من جاميكا، وباربادوس على الفور من جراء وجوده فيه. استقر المقام بروبرتس فى جزر الأنتيل أطول كثيرًا مما كان قد

عقد عليه العزم فى أول الأمر؛ إذ أن كل الأمور هنا قد سارت على نحو دفع بخططه إلى النجاح، وها هو يستبدل بسفينة ديفيس القديمة سفينة أخرى أكثر مهابة؛ أسماها «رويال فروتشن» (السعادة الملكية).

وذات مرة؛ إذ بروبرتس يواجه بالقرب من جزيرة باربادوس بسفينة تجارية مسلحة تسليحًا جيدًا، وعلى الرغم من أن «رويال فورتشن» لم تصب إصابات بالغة؛ فقد أفلت القرصان من المواجهة، ونجح فى الاختفاء بصعوبة بالغة. وفى مرة أخرى تصاب خططه بالفشل الذريع فى إحدى القرى الواقعة فى المارتينيك؛ وذلك بسبب المقاومة العنيف التى أبداها الأهالى.

والحقيقة أن هاتين الهزيمتين اللتين كانتا الوحيدتين فى سلسلة طويلة من الانتصارات الباهرة؛ قد نالتا بشدة من كرامة روبرتس، ومنذ ذلك الحين؛ كان الرجل من أهالى جزر المارتينيك أو باربادوس، والذى يوقعه حظه التعس فى أسره، يستطيع أن يودع حياته إلى الأبد. كان العلم الجديد الذى رفعه روبرتس قد رسم عليه قرصانًا ممسكًا بسيفه وقد وضع قدمه على جمجمتين رمزًا لانتقام.

كان روبرتس ذا شخصية قوية، طموحًا، حازمًا، على استعداد للصراع مع المصاعب أيًا كانت. على أنه كان حقيقة يمتلك بعض الخصال الحسنة؛ فقد كان لا يعترف من بين جميع المشروبات إلا بالشاى. وحتى لا يفرط الطاقم فى شرب الخمر؛ وضع روبرتس جميع المشروبات المسكرة تحت إمرته فى خزانة، ولم يكن من حق أى بحار أن يخفى ولو زجاجة واحدة. كانت الأنوار تطفأ على السفينة فى الثامنة مساء، تمامًا كالمدرسة الداخلية. فإذا استبدت بأحد من البحارة فكرة أن يحتسى شيئًا من الروم بعد هذا الموعد؛ كان لزامًا عليه أن يصعد إلى سطح السفينة. وأن يشرب على مرأى من القبطان.

كذلك حرم روبرتس ألعاب القمار بالورق، أو الزهر، ولم يكن يسمح باصطحاب النساء إلى السفينة، إذ كان اكتشاف نساء متخفيات فى ملابس الرجال على ظهر السفينة أمرًا يهدد المتورطين فيه بالإعدام. وكان العراك بين

البحارة محظوراً؛ فعلى البحار الذى لديه الرغبة فى تسوية حساباته الخاصة مع أى شخص آخر؛ أن يغادر السفينة إلى الشاطئ حيث يقف الخصمان مسلحين بالمدافع أو المسدسات، وقد وليا ظهريهما بعضهما لبعض فى البداية، ثم يبدآن المبارزة بعد ذلك بإشارة من رفاقهما الشهود. كان لزامًا على المنتصر أن يقدم ـ لدى عودته للسفينة ـ تقريرًا لرئيسه عن نتائج المعركة.

وعلى الرغم من أن الكابتن روبرتس كان يعد من الخارجين على القانون؛ إلا أنه سعى لأن يذيع صيته مسيحيًا غيورًا، فكان يرغم بحارته على الالتزام بالاحتفال بجميع الأعياد. وقام بتكوين فريق موسيقى من العاملين على السفينة؛ وكانوا يأخذون راحة تامة من العمل فى أيام الآحاد.

بل ذهب القبطان روبرتس بنزواته الطيبة إلى أبعد من ذلك؛ عندما حاول أن يحصل على تأييد أحد القساوسة. كان بوده أن يقوم هذا القس بقراءة المواعظ على البحارة أيام الآحاد وفى الأعياد. وعلى الرغم من أنه لم ينجح فى تحقيق رغبته هذه؛ فإن زعيم البحارة قد بذل مع هذا كل ما فى وسعه لإنقاذ نفوس مرءوسيه الآثمة. وذات مرة؛ علم روبرتس أن هناك قسًا بين أسراه؛ فأمر باستدعائه ليجيئه الرجل وقد ملأ الرعب قلبه؛ فبادره باقتراح قائلاً:

ـ لو أنك انضممت إلينا، لأصبح بإمكانك إنقاذ هذه النفوس البائسة من الجحيم المقيم. ولتكن على ثقة بأننى سوف أغدق عليك مقابل هذا، ثم إن الله القدير لن ينسى لك هذا الصنيع.

أصبح القس المسكين فى حيرة من أمره، فمن ناحية كانت المسدسات المعلقة فى حزام القرصان قد أثارت الفزع فى قلبه وأوصاله، ومن ناحية أخرى؛ كان عليه أن يسرع بالرد، فقد تقرر إنزال البحارة صبيحة اليوم التالى فى أقرب ميناء. قال القس مسترحمًا القرصان:

ـ لا، الأفضل أن تطلق سراحى. وقد كان أن أطلق القرصان سراحه.

إن القواعد التى كان هذا القرصان يدير بها سفينته لأمر مثير للاهتمام، وقد احتواها النص التالى:

١ ـ يجب تنفيذ الأوامر التى يصدرها القبطان بكل همة، وعن طيب خاطر، ما لم تتعارض مع القواعد الأساسية للأخوة.

٢ ـ للقبطان سهم ونصف من إجمالى الغنائم، ويستحق الضابط، والنجار، وصانع السلاح، سهم وربع من الغنيمة.

٣ ـ إن أى فرد من أفراد الطاقم يحاول الفرار، أو تتسم تصرفاته تجاه «الأخوة» بعدم الولاء؛ يتم إنزاله فى أول فرصة على أحد الشواطئ المهجورة، ويعطى زجاجة ماء واحدة، وحفنة من الحُمُّص، وسلاحًا يستطيع بواسطته الحصول على طعامه.

٤ ـ إن أى فرد من أفراد الطاقم يعترف بإدانته بالسرقة على ظهر السفينة، أو يراهن فى ألعاب القمار بما يزيد عن قرش واحد؛ تتم معاقبته العقاب المناسب طبقًا للقواعد المعمول بها، وفى حالة ارتكاب جرائم أشد ضررًا؛ يتم إعدام المتهم ـ بالطبع ـ رميًا بالرصاص.

٥ ـ لا يجوز لأى فرد من أفراد الطاقم عقد اتفاقات، أو إبرام عقود مع قراصنة آخرين على غير علْم «الأخوة». كل من يخالف هذه القاعدة يعد خائنًا.

٦ ـ المشاجرات على ظهر السفينة ممنوعة باتًا، من يخالف أمر القبطان؛ يعاقب بأربعين جلدة على ظهره العارى.

٧ ـ تطبق العقوبة السابقة أيضًا على من يفسد سلاحه، أو يدخن غليونًا بدون غطاء، أو يحمل مصباحًا مشتعلاً بدون واق غطاء.

٨ ـ على أفراد الطاقم أن يحتفظوا بأسلحتهم فى حالة نظيفة، وعلى نحو منظم. وكل من يتراخى فى أداء هذا الواجب؛ يفقد نصيبه من الغنائم.

٩ ـ إن الرجل المهذب يعامل النساء دائمًا بكل إحترام. الضابط، أو البحار الذى يتعرض بالإهانة سواء باللفظ، أو بالفعل، لامرأة من الأسرى؛ سوف يعاقب فورًا بالإعدام شنقًا.

على الرغم من هذا النظام الصارم الذى فرضه روبرتس، فإنه كان يتمتع بحب أتباعه واحترامهم. وعلى أية حال؛ لا وجه للغرابة هنا فقد كان الجميع مدينين

فيما أحرزوه من نجاح لمواهبه التنظيمية. وكان من نتائج العمليات التى قام بها القراصنة فى منطقة جزر الأنتيل، والتى استمرت ما يزيد على العام، أن ضمنوا لأنفسهم حياة رغدة، وتوقف بعض من أثروا ثراءً كبيرًا عن العمل، تاركين «أخوة» القرصنة.

وقد ألحقت أعمال النهب التى قام بها روبرتس فى منطقة جزر الأنتيل قدرًا هائلاً من الخسائر بالتجارة البحرية هناك؛ الأمر الذى دفع بإنجلترا، وفرنسا، وإسبانيا، لعقد اتفاق فيما بينهم وجهوه ضد نشاطه فى هذه المنطقة. وعندئذ رأى روبرتس أن عليه أن ينسحب إلى مناطق أخرى.

ظهر روبرتس عند جزيرة نيوفوندلاند كما تظهر الصاعقة فى سماء صافية؛ فها هو ذا ينقض على الصيادين الذين كانوا يقومون باصطياد سمك الماكريل وعلى القرى الساحلية للجزيرة. واستولى القراصنة على الزوارق والمراكب التى يستخدمها الصيادون، لكن الهدف الرئيسى من حملاتهم أصبح هو النقود التى تملكها جمعيات الصيادين التعاونية. وأصبح خليج نيواسكتلاندا، وسانت لورانس المعزولان يمثلان ملجأ هادئًا للقراصنة من سوء الأحوال الجوية ومن المطاردة. على أن روبرتس كان يدرك أن وجوده الطويل فى هذه المياه أمر يكتنفه الخطر بسبب العمليات التى تقوم بها سلطات نيوإنجلاند. فى عام ١٧٢١ يعود روبرتس عدة مرات حول رأس الرجاء الصالح. وكان يعرج أحيانًا فى طريقه على معاقل القراصنة فى مدغشقر.

وذات مرة علم روبرتس أن الفرقاطة الملكية التى تحمل اسم «صوالو» (عصفور السنونو)، تجد فى البحث عنه، وأن قبطانها المدعو «تشالونر أوجل» قد حاز سمعة مدوية عند أعدائه اللدودين من القراصنة؛ على أن روبرتس ـ الذى كان يمتلك آنذاك سفينتين ـ قرر أن باستطاعته أن يتغلب على الانجليز؛ ومن ثم أبحر بدوره لملاقاتهم.

ولقد انتهى هذا التدبير نهاية فاجعة للقراصنة. فما أن اكتشف أوجل السفن التى كان يطاردها حتى هدأ من سيره؛ ثم اختبأ غير بعيد من الجزر. أرسل

روبرتس إحدى سفينتيه للاستطلاع، وما أن رآها أوجل تخرج إلى عرض البحر وحيدة حتى سارع دونما جهد يذكر فى إغراقها، ثم استدار لمطاردة الأخرى.

وفى العاشرة من صباح العاشر من فبراير عام ١٧٢٢ عثر «أوجل» على القراصنة عند الشاطئ بعد ليلة قضوها فى إحتساء الخمر، وما أن رأى روبرتس ما يحدث؛ حتى سارع باستدعاء طاقمه وأمرهم جميعًا بالخروج إلى عرض البحر، على أن أوجل قطع عليه الطريق؛ فلما بلغ بروبرتس اليأس؛ أصدر أمره بالتوجه مباشرة نحو الفرقاطة الإنجليزية وهو يطلق عليها نيران مدفعه. جرت وقائع هذه المعركة فى أحد الخلجان الصغيرة. وقد قتل فيها روبرتس على إثر إصابته بشظية من قذيفة مدفع. بعدها؛ استسلمت «رويال فورتشن».

بعد هذا الانتصار الذى حققه قائد الفرقاطة الانجليزية؛ قرر أن يكرِّم هذا القرصان الشجاع الذى سقط فى المعركة بإجراء مراسم الجنازة البحرية فى حضور طاقمى سفينتى روبرتس. أقيم نعش مرتجل على سطح السفينة، وضع فيه جثمان القرصان، وقد ارتدى سترته الاستعراضية المفضلة والمرصعة بالذهب والأحجار الكريمة الباهرة؛ ثم وارى جثمانه البحر.

ولم يفلت واحد من رفاق روبرتس من العقاب الذى استحقه بسبب الفظائع التى ارتكبها. أعدم الجميع شنقًا فى رأس كوست كاسل على ساحل الذهب.

## قرصان رغم أنفه

تعود أحداث هذا التاريخ إلى شهر أبريل عام ١٨٢١ عندما التحق المدعوا أهارون سميث بالعمل على السفينة «زيفير» التى كانت متجهة من كنجستون فى جاميكا، إلى إنجلترا بوصفه ضابطًا أول، وكان القبطان لومسدن على رأس هذه السفينة.

بعد خمسة أيام قضتها السفينة فى البحر؛ إذ بركابها يلاحظون، وهم عند رأس أنطونيو جنوب الساحل الكوبى، سفينة شراعية مشبوهة تظهر فى الأفق اتضح لهم بعد ذلك أنها سفينة قراصنة. لم تُجد كل أشكال المقاومة التى أبدتها

«زيفير» نفعًا، وكان هروبها ضربًا من المستحيل؛ فاستسلم القبطان لومسدن على الفور. قام القراصنة بنقل كل ما وجدوه على السفينة من نفائس إلى سفينتهم؛ ثم سمحوا للومسدن بمواصلة رحلته؛ إلا أنهم احتجزوا أهارون سميث، وأمروه بأن يقود سفينتهم إلى ريوميدياس فى كوبا.

فى نفس اليوم وصلوا إلى المكان المحدد؛ حيث شاهد العديد من القوارب والأطواف التى خرجت لاستقبال القراصنة.

يصف سميث هذا اللقاء بقوله: «أخبرنى القبطان أنه ينتظر ضيوفًا قادمين من البر: اثنين، أو ثلاثة من الموظفين وعائلاتهم، وكذلك عددًا من القساوسة»؛ ثم أضاف قائلاً: «إنك سترى عددًا كبيرًا من الفتيات الإسبانيات الجميلات». سألته وقد تملكتنى الدهشة عما إذا كان غير خائف من وجود هؤلاء الموظفين؟ فانفجر القبطان ضاحكًا، وقال لى: «إنك على ما يبدو لست عليمًا بعادات الإسبان، إن بضع هدايا صغيرة كفيلة بأن تكسبك صداقة الموظفين؛ ثم فسر لى أنه بفضل هؤلاء بالذات؛ سوف يعرف كل ما يحدث فى هافانا، وأنه سوف يتلقى فى حينه المعلومات اللازمة حول الأعمال الموجهة ضده حتى يبقى على حذر».

عندما وصلت القوارب والأطواف إلى سفينة القراصنة؛ استقبلها الطاقم بحفاوة بالغة، وكان هناك اثنان من الموظفين، وقس، وعدد من النساء. وكان مما زاد من دهشة سميث، هو هذه التهانى الحارة التى قدموها للقبطان على ما حققه من نجاح بكل كياسة ولُطف؛ قدم الكابتن ضابطه سميث إلى ضيوفه بوصفه الرئيس الجديد للبحارة. بعد ذلك نزل الجميع إلى القمرة صحبة ليشربوا نخب القبطان وأصحابه البواسل. وبعد أن تناولوا الأنخاب؛ إقترحت إحدى السيدات الرقص؛ فوافق الرجال على ذلك بسرور بالغ. وقامت إحدى الشابات، وتدعى سيرافينا، بدعوة سميث إلى الرقص، وأكدت له تعاطفها معه، ووعدت بأن تقنع أباها ـ الموظف أن تحصل له على حريته من القبطان.

وفى الصباح الباكر؛ أخذ الضيوف يتهيئون للعودة إلى الشاطئ، فأحضر القبطان لهم الهدايا التى كان قد سبق له إعدادها. وكان أول الهدايا عبارة عن

صندوق ـ كان سابقًا ملكًا لسميث ـ ويحتوى على أقمشة وحرائر سلمها للقس الذى فرح بها. وأعلن للقبطان أن باستطاعته أن يعتمد دائمًا على صلواته! ولم يغادر أحد من الضيوف بخفى حنين.

عند الظهيرة تقريبًا؛ أحاطت بالسفينة قوارب وأطواف الكوبيين الراغبين فى الحصول على بضائع القراصنة، وكان أول المشترين الذين صعدوا على ظهر السفينة هى سيرافينا وأبوها. أخبرت سيرافينا أهارون ـ بعد أن انتحت به جانبًا ـ أن أمها ترغب فى أن تراه بشدة، وأنها ستبذل جهدها للحصول على تصريح له بالنزول إلى الشاطئ. فى هذه الأثناء بدأت حركت البيع على السفينة، وكان أهارون سميث مكلفًا بمراقبة الموازين التى يوزن عليها البن للمشترين، إذ لم يكن هناك أحد من البحارة يعرف كيفية استخدامها. بعد ذلك تم إعداد غذاء فاخر، وطلب القبطان ـ الذى كان يتحدث الإنجليزية قليلاً ـ من سميث أن يقوم بإعداد أى كوكتيل قوى على الطريقة الإنجليزية. وما أن لعبت الخمر برءوس جميع المشترين؛ حتى بدأ القبطان المرحلة الثانية من عملية البيع، فعرض الملابس المسروقة من السفينة «زيفير».

لقد نجح سميث بجدارة فى مهمته، فقد إحتوت كئوس الضيوف على خليط من النبيذ، والروم، والفودكا، والبيرة، فكان كوكتيلاً اعترف بعظمته كل من حضر الوليمة. فاقت النتائج أبعد توقعات القبطان، فارتفعت الأسعار ارتفاعًا باهظًا، ودفع المشترون مبالغ خيالية مقابل أقمشة متواضعة.

عندما ذهبت الصحبة التى لعب برأسها الخمر للراحة، ظل أهارون وسيرافينا وحدهما على ظهر السفينة، واعترف كل للصاحبه بحبه بطريقة إسبانية محضة، ثم قررا أن يهربا معًا، ويتزوجا فى أول فرصة تلوح لهما. وعلى مدى اليومين التاليين؛ ظل القراصنة يطوفون فى البحر بحثًا عن غنيمة جديدة. وقابلوا فى اليوم الثالث مركبًا شراعيًا هولنديًا وافق على أن يتبعهم طائعًا إلى كوبا دون طلقة واحدة. عندما دخلت السفينة إلى الميناء؛ أفادت الأنباء أن أبا سيرافينا قد جرحه أحد اللصوص، وأنه يدعو إليه سميث ليتفحص جرحه. وافق القبطان على الفور على إرسال سميث إلى الشاطئ. لم يكن الجرح خطيرًا بالمرة، لكن سميث أشاع

أنه خطير جدًا حتى تتاح له فرصة أن يلتقى بسرافينا بشكل أكثر. وأخيرًا أخبرت الفتاة عشيقها أنها على أتم الاستعداد للهرب. على أنه اتضح فى الدقيقة الأخيرة أن الدليل الذى أولياه ثقتهما، ليس سوى خائن، ومن ثم أصبح على العاشقين أن يؤجلا تنفيذ خططهما إلى موعد آخر بعد أن يتمكنا من إزالة الشك وتجنب انتباه القراصنة.

أثناء ذلك، أدخل لصوص البحر إلى الميناء عددًا من السفن التى استولوا عليها، ومن بينها سفينة إنجليزية ضخمة. وما أن علم محافظ هافانا بهذا الأمر؛ حتى أرسل بفصيلة قوية من البوليس حتى يقاسم اللصوص الغنيمة.

ما إن وصل البوليس إلى الميناء، حتى أسرع بالتوصل إلى اتفاق مع القراصنة ثم عدل عنه بسرعة فى الوقت المناسب؛ فبمجرد وصولهم دخلت إلى الميناء إحدى سفن القراصنة وعليها مسروقات من ثلاث سفن إنجليزية، كما كان على ظهرها أيضًا غنيمة أخرى لها وزنها: ضابط إسبانى وزوجه، وقد ألمت بالزوجة أثناء الطريق وعكة شدية؛ فاستدعوا لها سميث، الذى كان قد حاز سمعة طيبة كطبيب ذى خبرة. وبفضل مساعدته لها؛ برئت المرأة من مرضها بسرعة، مما دفعها إلى أن تعبر بصراحة عن امتنانها لهذا الرجل الإنجليزى. وذات مرة وبسبب الازدحام فى السفينة - اضطر سميث أن يقضى الليل فى قمرةالضابط الإسبانى وزوجه، فى الوقت الذى كانت المشاجرات تنشب بشكل مستمر بين الأسرى.

وكان سميث من هذا النوع المحظوظ - أو التعس - من الرجال الذين يحالفهم النجاح عند النساء. استمر سميث يناور الزوج الغيور تارة، وتارة زوجته الولهى به، وتارة أخرى سيرافينا العاشقة. وطال الوقت بسفينة القرصان وهى رابضة لا تغادر الميناء، وأخذت شئون القلب التى يمارسها أهارون سميث تزداد تعقيدًا يومًا بعد آخر.

وذات يوم؛ أرسل أحد موظفى الدولة بخطاب إلى القرصان ينصحه فيه بسرعة الخروج من المرسى. كان محافظ هافانا قد عزم على اتخاذ قرار حاسم

ضد لصوص البحر؛ فأرسل بمئات الجنود، وخمس سفن بهدف محاصرة ملجأ القراصنة الذين أفلحوا فى تلك الليلة فى الخروج إلى البحر فور تلقيهم تلك المعلومة.

وثارت ذات ليلة عاصفة شديدة اضطرت سفينة القرصان إلى الاحتماء بأحد الخلجان الصغيرة المعزولة. لزم القبطان - الذى كان يعانى من نوبة الملاريا - قمرته؛ بينما ظل البحارة يقارعون الخمر حتى فقدوا وعيهم. هنا قرر سميث أن الفرصة مواتية للهرب؛ فوضع أدواته البحرية فى مخلاة، مع بعض الخبز الجاف، وأنزل إلى البحر قاربًا شراعيًا؛ ثم قطع الحبل الذى يربطها بالسفينة، وترك التيار يحمله بعيدًا. وبعد أن ابتعد عن الشاطئ، رفع الشراع؛ وأبحر فى اتجاه هافانا، التى وصلها بعد يومين، متصورًا أن ضياعه قد آن له أن ينتهى. على أنه ما كاد يظهر فى واحد من شوارع هافانا حتى اصطدم بالقبطان الذى مكث معه فى الأسر لدى القراصنة. لقد قرر الزوج الغيور أن يثأر لشرفه ورجولته التى أهينت من سميث، وطالب بالقبض عليه فورًا.

كان على سميث أن يظل حبيس زنزانة سجن المدينة الرطبة مدة طويلة؛ قبل أن يقف أمام المحقق. بعد استجوابات مطولة؛ اقتيد إلى السجن العمومى حيث مكث هناك بين مئات المسجونين من النصابين، والمهربين، ورجال العصابات، من شتى الجنسيات عدة أسابيع فى انتظار محاكمته. وقد تقدم للمحاكمة عدة مرات، ولكن قضيته كانت تؤجل لسبب أو لآخر. وفى نهاية الأمر؛ زاره فى السجن أحد أصدقاء القضاة، وعرض عليه أن يطلق سراحه مقابل مائة دوبلون(1) وإلا هذا ما أعلنه القاضى - فسوف يسلمه لسلطات جامايكا، التى تطالب به.

لم يكن سميث عندئذ يمتلك شروى نقير. فى اليوم التالى اقتيد السجن، مخفورًا بثلاثة من الضباط الإنجليز من سفينة الأدميرالية التى يرأسها السير تشارلز دولى ليوضع على ظهر السفينة الحربية «سيبيل». وهناك تم قيده بالأغلال، مثلما يحدث مع عتاة المجرمين؛ الأمر الذى أدهش سميث. بعد رحلة طويلة؛ وصلت «سيبيل» إلى دبتفورد، وأرسل سميث إلى السجن فى نيوهايت

حيث كان عليه أن يمكث به إلى أن تنظر محكمة الأدميرالية فى قضيته بتهمة ممارسة القرصنة.

بدأت محاكمة سميث ـ التى أثارت ضجة هائلة ـ فى يوم الجمعة الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٢٣ فى أولدبيلى. اصطف أمام المحكمة طابور طويل من الشهود، وبفضل شهادة الآنسة الجميلة الفاتنة مس صوفى نايت ـ خطيبة المتهم! ـ حُكم لسميث بالبراءة. أعلنت صوفى للقضاة ـ وهى تذرف الدموع مدرارًا ـ أنها تنتظر عودة حبيبها سميث من أمريكا منذ ثلاث سنوات. وقد دفع اعترافها المحكمة نحو إصدار حكم البراءة.

لم يخبرنا التاريخ عن ما إذا كانت مس نايت المخلصة قد تزوجت من سميث (وهو أمر غير محتمل)، أم أن سميث قد عاد إلى سيرافينا.

## قضية «باندا»

فى الثانى من مارس عام ١٨٣٦ أصبح المشاة الذين كانوا يتنزهون فى الشوارع المطلة على البحر لميناء بوسطن شهودًا بمحض الصدفة لحادث غير عادى.

فى وقت واحد تقريبًا، ومن جهتين مختلفتين، دخلت إلى الميناء سفينتان من ذوات الأشرعة الثلاثة. وبينما كانت إحداهن ترسو على الرصيف؛ كانت الأخرى تدخل إلى الخليج. ومن السفينة التى كانت قد رست لتوها؛ قفز نفر من المكسيكيين يرتدون ملابس مبتكرة، يحركون أيديهم بإشارات عنيفة، ويرفعون عقيرتهم بالصياح. استطاع رئيس الميناء، الذى هرع إلى المكان، أن يعرف من قصتهم المتقطعة، أن القراصنة قد هاجموهم فى البحر، عندئذ دعاهم إلى مكتبه حتى يكتب بذلك محضرًا رسميًا. كان المشاة ينظرون بفضول شديد إلى هذا الحشد الغريب من الرجال ومعهم بعض السيدات وهم يتسكعون فى شوارع المدينة، وقد غطوا أجسادهم بالبطاطين، والملاءات، وستائر النوافذ. اتضح فيما بعد، من الحكايات التى قصها هؤلاء الذين حلَّت بهم المصيبة، أنهم منذ ثلاثة أيام مضت وقعوا ضحية للقراصنة عند سواحل الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت سفينة البضائع المكسيكية «أجيلو» «النسر» متجهة صوب بوسطن وعليها ـ إلى جانب البضائع ـ عدد قليل من الركاب، من بينهم الزوجان مارتينيز، وابنتاهما، وعدد من الخدم. وبالقرب من سواحل أمريكا، وفى حوالى الخامسة ظهرًا، بدا أن السفينة قد دخلت إلى منطقة كثيفة الضباب.عندئذ صاح القبطان سيجوميو بضابط الحرس قائلاً: أشعل النيران المميزة! لكن صوتًا غريبًا على ظهر السفينة أجابه: لا داعى البتة! إننا نراك جيدًا مع ذلك. هنا أدرك القبطان ـ وقد أصابه الذعر ـ أن سفينة أخري ذات أشرعة ثلاث تلتصق تقريبًا بسفينته، وقبل أن ينجح فى اتخاذ أية خطوة مع السفينة المجاورة؛ إذ بالسلالم تلقى منها، ويتسلقها فى لمح البصر ثمانية بحارة مسلحين؛ ليقفزوا منها إلى ظهر «أجيلو».

أدرك القبطان سيجوميو أنه يتعامل الآن مع لصوص البحر. ولقد حاول الرجل أن يشرح لهم أن السفينة لا تحمل سوى أخشاب، لكن زعيم القراصنة «بدرو خيبرت» عاجله بضربة من قبضة سيفه؛ فأطاح باثنين من أسنانه الأمامية. لم يهتم القراصنة بالأخشاب، لكن الذى جذب اهتمامهم هو رجل يدعى مارتينيز يرتدى ثيابًا فاخرة؛ فجذبوه إلى سطح السفينة، وأخذوا فى ضربه حتى يخبرهم أين يخفى نقوده وثروته. ظل المكسيكى يحاول إقناعهم بعدم وجود أموال لديه؛ لكنه، بعد أن وقع فى قبضة رئيس البحارة العملاق المدعو فارس، الذى وضع على رقبته سكينًا حادة، اعترف أنه يملك فى قمرته صندوقًا حديديًا أخفى بداخله ثلاثين ألف دولار. كانت سعادة القراصنة لا توصف عندما سمعوا هذا الرقم الهائل، وعلى الفور أمر خيبرت بدفع برميل من الروم ليبدأ الجميع حفل الشراب.

صباح اليوم التالى؛ أخذ القراصنة فى حبس جميع الأسرى من الرجال والنساء فى باطن السفينة، بعدها أمر خيبرت بإضرام النار فيها. ما أن غادر اللصوص «أجيلو» حتى أخذ الأسرى فى كسر الأبواب المغلقة بالمزاليج، وعلى الفور اندفعوا السطح ليطفئوا النار.

أما المشهد التالى من هذه الدراما فقد جرت أحداثه فى شوارع بوسطن فور إدلاء الضحايا بشهاداتهم وخروجهم من عند رئيس الميناء. ففى طريق عودة

الجميع إلى السفينة؛ إذا بالفتاة إيزابيلا ابنة مارتينيز تشير وهى تصرخ بهستيرية إلى جماعة من البحارة كانت تسير على الجانب الآخر من الشارع.

ـ ها هم! ها هم!

وعلى الفور صاح من خلفها مارتينيز: اقبضوا عليهم؛ ثم انطلق يعدو فى إثر البحارة الذين لاذوا بالفرار فى اتجاه سفينة ذات ثلاثة أشرعة ترسو فى الميناء، كان من السهل قراءة اسمها المكتوب على مقدمتها: «باندا».

كشف البحث الذى جرى على سطح السفينة؛ أن البحارة الذين تم القبض عليهم فى الشارع، هم نفس القراصنة الذى هاجموا السفينة التجارية المكسيكية «أجيلو». بفضل اتفاق هذه الظروف غير العادية، التقى المجرمون بضحاياهم فى قاعة الاجتماعات بمحكمة بوسطن. على الرغم من أن أدلة الاتهام كانت دامغة؛ إلا أن القراصنة جميعهم أنكروها. وقد بدت جهود المحامين دقيقة، وصدر الحكم على طاقم السفينة «باندا» بأقصى درجات العقوبة: وهو الإعدام شنقًا، ولم ينج من هذا الحكم سوى بحار واحد يدعى أنطونيو.

فبينما اتجه البحارة جميعهم فى ذلك اليوم للهو والتسلية؛ ظل أنطونيو على ظهر السفينة، وعندما شاهد وهو على سطحها كيف يتم القبض على رفاقه، قفز إلى الماء، وعبر سابحًا إلى الشاطئ الآخر من الخليج، مفلتًا بهذه الطريقة من البوليس.

عندما نطق رئيس المحكمة بالحكم بالإعدام شنقًا على أنطونيو؛ اتجهت أنظار المحكوم عليهم الآخرين نحو رجل فارع الطول، عريض الأكتاف، يجلس وسط جمهور الحاضرين فى الصف الأول، كان من السهل التعرف فيه على البحار المطلوب القبض عليه، إذ أن القضاة، والمحلفين، والحراس، والجمهور، قد تابعوا باهتمام كيف اتجهت أنظار البحارة السبعة إلى هذا الرجل عند سماع الحكم. ساد القاعة سكون مطبق. ولم يتمالك الرجل، الذى لفت انتباه الجميع أعصابه فهب واقفًا؛ واتخذ طريقه إلى باب الخروج. فى هذه اللحظة؛ قفز القرصان خوان مونتتجرو من مكانه فى قفص الاتهام بصوت حاد:

ـ أنطونيو، اهرب بجلدك!

إرتفع الصخب، وعمت الفوضى القاعة، وإلى أن استطاع البعض أن يمحص الأمر، كان أنطونيو قد اختفى، وظل مصيره بعد ذلك مجهولاً.

بعد عدة أيام استطاع المحامون أن ينجحوا فى تخفيف العقوبة على اثنين من موكليهم، وقد راعت المحكمة أيضًا أن القرصان سوتو قد حاول مرتين الدفاع عن الضحايا، فاستبدلت الحكم بالسجن بالحكم بالإعدام شنقًا وقد تفادى توماس رويس أيضًا الحكم بالإعدام بعد أن اعترف الأطباء بمرضه النفسى.

وقد نفذت أحكام الإعدام شنقًا على القراصنة الباقين فى الحادى عشر من يونيو عام ١٨٣٦.

## سفينة العبيد المتمردين

فى عام ١٨٣٦ عندما كانت سفينة حرس الشواطئ «واشنطن» التابعة للولايات المتحدة الأمريكية تقوم بدوريتها البحرية على اتساع شاطئ نيويورك؛ أبلغ النوبتجى عند وجوده بالقرب من لونج آيلاند عن ظهور سفينة شراعية كانت تقوم بمناورات ما غامضة.

استمر القبطان لفترة طويلة يراقب التحركات الغريبة غير المفهومة لهذه السفينة. فى البداية قرر القبطان أن هذه السفينة ـ لسبب ما ـ ليس بها طاقم، وأنها تسير كيفما شاء لها التيار. ولكنه عندما اقترب منها بالسفينة الحربية؛ لاحظ على ظهرها أشباحًا لأفارقة داكنى البشرة، فارعى القامة، يرتدون ملابس نسائية مختلفة ألوانها كأنهم فى حفل تنكرى.

أصدر القبطان أمره بإنزال زورق، بعد أن وضع فيه أربعة وعشرين بحارًا مسلحين، أرسل بهم إلى السفينة بعد أن جهز سفينته فى وضع الاستعداد القتالى. عندما قرأ قائد الفرقة التى على الزورق اسم السفينة الغامضة «أمستاد» أدرك على الفور مع من يتعامل. فمنذ وقت غير بعيد تلقت قيادة الأسطول البحرى العسكرى الأمريكى بلاغًا عن ظهور السفينة «أمستاد» ـ التى

كانت قد غادرت ميناء هافانا منذ شهرين متجهة إلى جوانا خواتو بالمكسيك - فى عدة بقاع فى الخليج المكسيكى والشاطئ الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها لم تصل إطلاقًا إلى وجهتها المنشودة.

عندما صعد مساعد قبطان السفينة «واشنطن» فى صحبة بحارته المسلحين إلى ظهر «أمستاد»؛ خرج من بين صفوف الأفارقة رجل أبيض، أشيب الشعر، توجه إليه؛ ثم أخذ يلوح بيديه بطريقة عصبية وهو يقول:

- ساعدونا! هؤلاء العبيد أعلنوا التمرد! لقد قتلوا الطاقم! اقبضوا على زعيمهم!

ظل الرعب مرتسمًا على وجه الرجل الأشيب حتى فى وجود البحارة المسلحين، ثم أشار إلى رجل أفريقى عملاق، كان يقف عند مؤخرة السفينة ويداه مشبوكتان على صدره، كان يراقب المشهد فى صمت.

كان هذا الإفريقى يتميز عن بقية أفراد قبيلته، لا بطوله وبنيته القوية فحسب، وإنما - فى شهران كاملان، والزنوج العاملون فى المزارع الجنوبية للولايات المتحدة، يتناقلون همسًا قصة «أمستاد»؛ سفينة الحرية. وها هى الأحداث التى دارت على ظهرها:

ذات يوم توجه المدعو دون خوسيه رويس الثرى الإسبانى الذى كان مقيمًا فى المكسيك إلى هافانا لشراء شحنة من العبيد. وبعد معاينة دقيقة للبضاعة الحية، اشترى السنيور رويس تسعة وأربعين عبدًا، من بينهم الأفريقى العملاق جوزيف سينكس. وقدتبين من القصص التى تناقلها التجار، أن هذا الرجل هو حفيد إحدى السلالات الملكية الإفريقية فى حوض نهر الكونغو، وقد رفض الأمير الأسود الأبى الانصياع لأوامر سادته. اتفق السنيور رويس - بعد أن تدارك الموقف - مع قبطان السفينة «أمستاد» التى كانت متجهة إلى المكسيك، على نقل العبيد والبضائع إلى ميناء جوانا خواتو. وكان من المفترض أن تستمر الرحلة خمسة أيام فقط، ولم يكن السنيور رويس يشعر بالقلق من أن السفينة لم تكن مجهزة لنقل العبيد.

وفى اليوم الرابع اندلع التمرد بين العبيد المحبوسين فى سجن السفينة. لقد استمر هؤلاء العبيد على مدى أربعة أيام يعملون خلسة تحت زعامة سينكس، فى تكسير الأصفاد التى كانت تغل بعضهم ببعض. وكانت بضع دقائق كافية جدًا حتى يفرض العبيد سيطرتهم على السفينة، بعد أن أعملوا القتل فى طاقمها. غير أن البحار الذى كان جالسًا على الدفة استطاع بسرعة البرق أن ينزل إلى الماء أحد قوارب النجاة الصغيرة. ونجح فى الابتعاد به عن السفينة.وعندما وصل إلى الشاطئ؛ أبلغ السلطات عن التمرد الذى اندلع على السفينة «أمستاد».

إلى جانب هذا البحار، كان هنا الخادم أنطونيو، ورويس، والسنيور مونتيس القبطان السابق للسفينة الذى أبقى سينكس على حياته على أمل أن يقود السفينة. وما أن تولى سينكس القيادة؛ حتى قيد مونتيس إلى الدفة، ثم أمره مهددًا إياه بالموت بعد أن لاحظ أن السفينة تأخذ وجهتها نحو الغرب، أن يتجه إلى وطنه الحبيب إفريقيا، حيث البلاد التى يسكنها الأفيال، والتماسيح، والزراف.

غير أن مونتيس حاول أن يسير ـ مستغلاً جهل القائد الجديد ـ بالقرب من الشاطئ المكسيكى أولاً. ثم جزر الباهاما بعد ذلك، على أمل مقابلة أية سفينة حربية. كان الزنوج ـ الذين لم تكن لديهم أدنى معرفة بالملاحة ـ يتطلعون من يوم لآخر إلى شاطئ أوطانهم؛ حيث تنتظرهم الحرية.

ولما طالت الرحلة، أخذ الأفارقة يمرحون كالأطفال، فأخرجوا من الصناديق الملابس النسائية التى أحضرها رويس لأسرته، وبعد جدل طويل بينهم، اقتسموها فيما بينهم، وعلى أنغام الآلات الموسيقية التى اشتراها رويس؛ أخذوا يرقصون رقصاتهم الإفريقية الصاخبة. وها هو السنيور رويس يراقب فى فزع كيف صنع أحد المتمردين من أوتار آلة الهارب عقدًا لابنته. انقضى الوقت، وأوشك الطعام والماء على الانقضاء.عندما اقتربت السينة من جزر الباهاما، أرسل سينكس إلى الشاطئ قاربًا عليه ثلاثة أفراد استطاعوا على مدى عدد من الرحلات جيئة وذهابًا أن يأخذوا احتياطيًا كبيرًا من الماء. وفى الطريق أيضًا؛ قابلوا إحدى السفن طلب منه مونتيس ـ بناء على أوامر سينكس ـ أن تمدهم

بالمواد الغذائية التى دفع المتمردون ثمنها من النقود الإسبانية المنهوبة. وكان سينكس إبان إجراء هذه الصفقات، يخفى مواطنيه فى سجن السفينة. على أن الفضول لديهم كان أقوى من الخطر نفسه، فكان بحارة السفن التى قابلتهم ينظرون بدهشة بالغة إلى هذه الرءوس السوداء المطلة من أركان «أمستاد» وقد تغطت بالقبعات الملونة الغريبة لم يكن مونتيس يعود كثيرًا على المساعدة، إذ كان يدرك تمامًا أن كلمة واحدة تقال بغير حرص؛ قد يدفع ثمنها هو ورويس حياتهما.

أبحرت «أمستاد» ببطء باتجاه الشمال بمحاذاة الشاطئ الأمريكى. وعندما لاحظ سينكس أن الأرض تقع غربيًا؛ أدرك أن مونتيس خدعه. عندئذ قرر أن يستأجر بما بقى لديه من نقود، ملاحًا يمكن أن يقود السفينة إلى شواطئ إفريقيا.

عندما اقتربت «أمستاد» من جديد من ساحل الولايات المتحدة الأمريكية، أرسل سينكس إلى الشاطئ رجلا ممن يثق فيهم ويدعى كاتاهوم عَدَّه من الأذكياء، وأوكل إليه مهمة استئجار أحد الملاحين. على أن كاتاهوم، الذى لم يكن يعرف لغة السكان البيض، لم ينجح فى مهته. وقد أحدث نزول كاتاهوم هو ورفاقه إلى الشاطئ هرجًا فى إحدى القرى الأمريكية؛ حيث سارع السكان لدى رؤيتهم لهؤلا الناس الذين يرتدون الملابس الغريبة، إلى إغلاق مساكنهم بالمزاليج، وإغلاق النوافذ كذلك، بل إن المزارعين أخذوا فى إطلاق النار على هؤلاء العبيد وهم فى طريق عودتهم إلى السفينة.

مرة أخرى يكرر كاتاهوم المحاولة؛ فينزل إلى الشاطئ ويلتقى بمزارع سلبت لبه العملات الذهبية، فأخذ يتفاهم من خلال إشارات، مع مبعوثى سينكس. وافق المزارع دون تردد على بيع كلبين لهم، ولما أدهشه الثمن الذى دفعوه، أعطاهم بالإضافة إلى ذلك بندقيته القديمة.

وكان من الممكن أن تثمر الجولة الثانية لكاتاهوم إلى الشاطئ لولا أن الظروف قد تغيرت فبالقرب من مصب نهر صغير يسمى كولودين، قابل الأفارقة اثنين من الأمريكين خبراء فى الملاحة، يعرفون الطريق جيدًا إلى إفريقيا؛ ما أن شاهدا

الصندوق بالذهب حتى دخلوا فى مفاوضات مع العبيد، لكن السفينة الحربية «واشنطن» كانت قد دخلت إلى الأحداث.

ظهر سينكس ـ الذى كان قد نجح فى الاختفاء فى سجن السفينة من بحارة «واشنطن ـ عند مؤخرة السفينة. كان خصره محاطًا بحزام عريض وسميك، ويبدو أن الرجل كان قد أعد العدة لمثل هذه الظروف، فقد قام بخياطة العملات الذهبية فى حزامه. قفز سينكس إلى الماء، مستغلاً الإرتباك الذى حدث، وطفق يسبح باتجاه الشاطئ بينما أخذ الجنود يرشقونه برصاصهم، لكن هذا السباح الماهر استطاع أن يتفادى الطلقات. عندئذ لم يكن هناك من بد سوى اشتراك «واشنطن» فى المطاردة، وعلى الفور، تم القبض عليه. على أنه كان قد نجح فى فك الحزام عن خصره، وأغرق الذهب فى البحر؛ حتى لا يقع فى أيدى مطارديه.

جرى عزل سينكس عن باقى العبيد، تجنبًا لتمرد جديد، ثم نقل إلى السفينة «واشنطن» تحت الحراسة. أصبح الزنوج فى موقف لا يحسدون عليه. كان من حق قبطان السفينة الحربية ـ طبقًا للقوانين المعمول بها آنذاك ـ أن يقوم بإعدام جميع القراصنة الذين تم القبض عليهم على الصارى دون محاكمة. لكن القبطان لم يفعل هذا تحسبًا للرأى العام، الذى كان شديد الاهتمام بقضية العبيد المتمردين الشهيرة، ومن ثم جرى إرسال الأفارقة إلى سجن فى نيولندن.

كان لموقف سينكس البطولى أثره فى إكسابه العديد من الأصدقاء، بل والاحترام، حتى فى صفوف أعدائه. وعلى الرغم من روح التعاطف التى سادت المجتمع الأمريكى تجاه قضية سينكس، إلا أن الهيئات القضائية فى الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن بنيتها أن تدفن القضية. فقد تم إعدام سينكس شنقًا هو وثلاثة من رفاقه، على أن اسم جوزيف سينكس أحد أول المناضلين فى سبيل تحرير الزنوج الأمريكيين قد بقى فى ذاكرة محبى الحرية؛ وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية.

أما فيما يخص القرصنة عند سواحل أمريكا الشمالية؛ فقد تم اجتثاثها نهائيًا فى منتصف القرن التاسع عشر.

## هوامش الفصل الخامس

(١) جرينوك : مدينة فى بريطانيا، فى سكوتلندا، تشهر ببناء السفن. (المترجم) .

(٢) الكالڤينية: مذهب كالڤن اللاهوتى الفرنسى البروتستانتى (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) القائل بأن قدر الإنسان مكتوب قبل ولادته. (المترجم) .

(٣) شهادة القرصنة: شهادة تعطى من الدولة وتسمح بالاستيلاء على السفن التابعة للأفراد وللدول غير الحليفة أو سفن الدول المحايدة التى كانت تعمل على شحن البضائع لصالح الدول المتحاربة. «المترجم» .

# الفصل السادس

# قراصنة المحيط الهندى

مرة أخرى تصبح مياه النصف الشرقى من الكرة الأرضية مسرحًا للنشاط الحيوى للقراصنة، وذلك على تخوم القرنين السابع عشر والثامن عشر. كان النهب البحرى المحلى قد ازدهر منذ زمن بعيد على السواحل الشرقية لإفريقيا، وفى المحيط الهندى، وفى بحار جنوب شرق آسيا، والشرق الأقصى. لقد كان القراصنة ذوو الأصول الأوروبية؛ الذين طردوا من المياه الأمريكية، ومن حوض الكاريبى على وجه الخصوص، كثيرًا ما ينقلون نشاطهم إلى البحار المتاخمة لشواطئ أفريقيا وآسيا التى كان يدفعهم إليها ما يصلهم عنها من معلومات عن غنائم يمكنهم الاستيلاء عليها فيها.

كان القراصنة البوكانيون، والفليبوستيون يمارسون مهنة السرقة فى المحيط الهندى؛ إما اعتمادًا على شجاعتهم الخاصة، ومخاطرتهم، أو بانضمامهم إلى صفوف القراصنة المحليين من العرب، والهنود، والصينيين، وأبناء الملايو؛ فكانوا يَتَّحِدُون معهم مشكلين بهذا منظمات جبارة، كان البحارة ذوو الأصول الأوروبية المحنكون يقومون بالدور القيادى فيها.

فى تلك الفترة ظهرت فى منطقة المحيط الهندى ثلاثة مراكز هامة للقرصنة، كان لكل مركز منها تقاليده العريقة فيها: عن شاطئ مالابار، وفى مياه مدغشقر، وفى منطقة الخليج الفارسى.

وقد صاف انبعاث القرصنة فى هذه المناطق؛ النضال الذى خاضته شعوب إفريقيا، وآسيا ضد الاستعمار، وعلى رأسه الاستعمار البريطانى، والفرنسى،

والهولندى، والبرتغالى، وفى الوقت نفسه أصبح النضال ضد القرصنة - حقيقة وتظاهرًا - حجة مناسبة للتوسع الاستعمارى.

## القرصنة عند ساحل مالابار

«سيوان صن»[1] رحالة صينى من القرن السابع، زار الإمبراطورية الهندية فى فترة حكم خارشا[2] سرقه اللصوص مرتين فى الأراضى الخاضعة لحكم الأخير، وذات مرة كاد أن يلقى حتفه فى قلب هذه الدولة ذاتها على يد القراصنة الذين أرادوا أن يقدموه قربانًا للإلهة دورجا. وإلى «سوان صن» تنسب الكتابات الأولى عن القرصنة فى هذه المنطقة.

اتخذ العديد من قراصنة الهند السرقة مهنة لهم من جيل إلى جيل، وكانوا ينظرون إلى قتل ضحاياهم كما ينظرون إلى أى طقس من الطقوس. وكان هؤلاء القراصنة يهاجمون القوافل البرية للتجارة، كما كانوا يهاجمون الصنادل والسفن فى البحر على الرغم من أنها تسير عادة فى مجموعات كبيرة، وتحت حراسة مسلحة. حتى أقوى الأمراء الهنود كانوا يجدون صعوبة فى التغلب على السرقة التى اتسع نطاقها. وقد أصبحت أكثر السفن عرضة لهجمات القراصنة هى تلك السفن التى كانت تسير عبر أنهار مثل الجانج أو الهند، وهما النهران اللذان كان يؤديان أهم دور فى التجارة والاتصال.

على أن الهند لم تعان بشدة فى تلك الآونة من قراصنة الأنهار المحليين فحسب. لقد أصابت البلاد خسائر فادحة من جراء نشاط القرصنة الذى كان يقوم به حكام جزر الملايو، والذى شكّل عائقًا كبيرًا فى نمو العلاقات التجارية الحيوية بين الهند والصين. وفى النهاية أصبح هذا النشاط أحد أسباب الحملات التى قادها اثنان من الأمراء من أسرة تشولا[3]: رادجارادجى الأول (٩٨٥ - ١٠١٤) ورادجيندرا (١٠١٤ - ١٠٤٢). أخضع الأول سيلان، ونجح الثانى فى توسيع نفوذه على البر حتى منابع الجانج نفسه، وجهز حملة بحرية ضخمة استطاعت أن تحتل جزءًا من بورما، والملايو، وسومطرة، بعد أن وضع حدًا - لحين من الزمن - للقرصنة التى كانت قد انتشرت فى كل من الملايو وإندونيسيا.

طبقًا للمعلومات التى أوردها المؤرخون العرب فى القرون الوسطى؛ فإن راجوات الساحل الغربى لهضبة ديكان، قاموا فى القرنين العاشر والحادى عشر بتجهيز أساطيل للقرصنة. آنذاك؛ لم يكن بإمكان الأمراء الهنود - الذين لم يكن بحوزتهم أسطول بحرى - أن يواجهوا التطور السريع لمعاقل القرصنة فى هذا الإقليم حيث احتشد القراصنة عند ساحل مالابار من بومباى وحتى «جاوا» نفسها.

ولم يسلم مغول الأكبر(٤) حاكم الإمبراطورية الكبيرة فى الهند من الوقوع هو نفسه ضحية للقرصنة البحرية عند ساحل مالابار. لقد جذبت ثروته الخرافية أنظار الدول الاستعمارية، فضلاً عن القراصنة المحليين؛ بل والأجانب أيضًا. ولم تكن إمبراطورية المغول التى تأسست عام ١٥٢٦ على يد بابور حفيد تيمورلنك الأكبر، واستمرت حتى نهاية القرن السابع عشر، لم تكن تملك آية سفن حربية، ومن ثم فلم يكن بمقدورها الوقوف فى وجه هجمات قراصنة مالابار. أما الإنجليز الذين كانوا يجنون الأرباح الطائلة من جراء تجارتهم مع مغول الأكبر عن طريق شركة الهند الشرقية، التى تأسست عام ١٦٠٠، فقد ظلوا غير عابئين بالمصاعب التى كان يتعرض لها عاهل الهند فى البحر، مولين جل عنايتهم لمصالحهم الاستعمارية والتجارية، بيد أنهم أخذوا فى الاهتمام بنشاط القرصنة فى «مالابار» فقط عندما بدأ أمن الملاحة البريطانية فى المنطقة يتعرض تعرضًا فعليًا للتهديد من جانب القراصنة.

مع اقتراب نهاية القرن السابع عشر، ظهر على ساحل مالابار «آل أنجريا» وهم أسرة قراصنة من المهراجات الهنود، استمرت على مدى ستين عامًا تحتكر هذه المهنة.

كان كونادجى هو أول زعيم للقراصنة من آل أنجريا فى ساحل مالابار. فى حوالى عام ١٦٩٨ ترأس كونادجى الأسطول، وشيئًا فشيئًا أخذ فى التحرر من التبعية الإقطاعية الطويلة لحكام إمارة بونا(٥) الإقطاعية، وفرض سلطانه دون شريك على شريط طوله خمسمائة كيلو متر بامتداد ساحل مالابار جنوبًا من بومباى. وعلى امتداد هذه المسافة أقام كونادجى عددًا من الحصون الساحلية

مثل ألبياج، وسافندروج، وجيريا (خلافًا لفيدجايدورج) انطلقت منها حملاته. استطاع هذا الملك غير المتوج خلال فترة قصيرة أن يصيب التجارة البحرية بالكامل بالشلل، الأمر الذى ظهر أثره مباشرة بشكل ملحوظ على شركة الهند الشرقية، وعلى المحتلين البرتغاليين.

وفى نهاية الأمر؛ نفد صبر سلطات الاحتلال المحلية، وقام ممثلوا الحكومة البريطانية، وشركة الهند الشرقية بشكل رسمى بإبلاغ كونادجى أنه ليس فى نيتهم السكوت أكثر من ذلك على مهاجمة سفنهم. أجاب زعيم القراصنة بأن الإنجليز سيتعين عليهم أن يتذكروا اسمه مرة أخرى. وقد وضع كونادجى بالفعل تهديده موضع التنفيذ، حتى أن الإنجليز أرسلوا فى عام ١٧٠٤ مبعوثًا خاصًا إلى كونادجى ببلاغ بمنع سفنه من الاقتراب من المياه المتاخمة لبومباى، وفى الوقت نفسه، أبلغت شركة الهند الشرقية إدارتها فى لندن أن سفنها الضخمة فقط هى التى استطاعت اختراق حصار قراصنة مالاهار الممتد بطول الساحل من سورات إلى دابول. وتوسلت الشركة لإرسال مساعدة من جانب الحكومة.

وبعد عدة سنوات أصبح كونادجى مالكًا لجزيرة صغيرة تقع عند مدخل ميناء بومباى، وعلى الفور قام بتحصينها، وحيث أن أسطولاً من السفن القوية (يصل تسليح بعضها إلى ستين مدفعًا، وتعمل تحت قيادة بحارة أوروبيين محنكين من هولندا فى الأغلب) أخذ يرابط منذ ذلك الحين عند هذه الجزيرة، فقد أصبحت مدينة بومباى معرضة لتهديد حقيقى. كان نظام الدفاع عن بومباى آنذاك بدائيًا للغاية، وعندما اقترحت إدارة الشركة بناء التحصينات المناسبة، رفضت سلطات المدينة البناء بحجة معاناتها من صعوبات مالية.

بهذه الطريقة أصبح بمقدور القراصنة احتجاز كل سفينة كانت تصل إلى بومباى أو تغادرها. عندئذ وجهت الشركة حملة تأديبية ضد القراصنة قوامها عشرين سفينة. وفى تقرير موجز أجملت نتائج الحملة على النحو التالى: «عادت سفننا فى التاسع من يونيو. ونتيجة للأعمال غير المتقنة التى ارتكبها القائد؛ فقدت الحملة خمسين شخصًا، ولم تضرب سوى مدينة واحدة من المدن الخاضعة لآل أنجريا».

على أن أسباب فشل الحملة التى قادتها الشركة لم يكن مردها إلى عدم الإتقان الذى شاب العمليات التى أدارها القادة، بقدر ما كان مردها إلى سياسة إنجلترا الاستعمارية الاستغلالية فى الهند. ولهذا فقد امتنع المواطنون عن تقديم العون للإنجليز فى صراعهم مع القراصنة. بالإضافة إلى هذا، فقد كان الجيش الذى قامت الشركة بتجهيزه عبارة عن حشد غير منظم من حثالة بلاد أوروبية مختلفة جاءوا للبحث عن كسب سهل فى المستعمرات.

فى عام ١٧١٥ وصل إلى بومباى محافظ جديد يدعى تشارلز بون، يتمتع بالحيوية والنزاهة، وكان يرى أن القضاء على القرصنة فى مالابار أحد المهام الأساسية. وما أن تقلد زمام منصبه حتى قام على الفور بعمل التحصينات حول مقر الرئاسة فى بومباى؛ ثم شرع بعد ذلك فى إنشاء أسطول حربى صغير. وقد ظهرت هناك العديد من المصاعب فى تشكيل الأطقم؛ إذ أن الشركة كانت تعين البحارة برواتب منخفضة جدًا إلى حد أن أفضل البحارة كانوا يفضلون الخدمة على سفن أنجريا الذى لم يكن يبخل بالمال على بحارته. وبقدر بالغ من الصعوبة نجح بون أخيرًا فى تكوين أسطول من تسع عشرة سفينة مختلفة المقاييس والطرز: بدءًا من القوارب ذات المجاديف، وحتى الفرقاطات ذات الأشرعة. ربما كان من الممكن أن ينجح هذا المحافظ فى استئصال شأفة القرصنة على الرغم من نقص الكفاءة، وعدم انضباط مرءوسيه. لولا أنه فى عام ١٧٢١ وصل إلى بومباى - وعلى حين غرة - قادمًا من مدغشقر، القائد توماس ماتيوز.

وربما كان من الصعب العثور على قائد عام آخر للحملة العسكرية أسوأ منه. فقد كان ماتيوز يمتلك قدرًا كبيرًا من الشجاعة مع غياب تام للتفكير السليم، كان نَزِقًا، ليست لديه على الإطلاق قدرة على التآلف مع غيره من الناس، كما كان يتميز على وجه العموم بالقسوة.

غادر ماتيوز مدغشقر على ظهر السفينة «لايون»، ولما لم يلتق فى طريقه بالقراصنة؛ اتخذ مساره مباشرة نحو بومباى دون أن ينتظر السفينتين «سالزبورى» و «اكزيتر»، اللتين كانتا عليهما أن تقدما له المساعدة. كان ماتيوز لدى إبحاره قد سلم أحد مواطنى الجزيرة خطابًا مُوَجَّهًا للقبطان كوكبنى، قبطان

«سالزبورى»، عرض فيه تفصيلاً خطة العملية كاملة. وما أن غادرت «لايون» الميناء؛ حتى حصل اثنان من القراصنة هما تايلور ولبابوش على هذا الخطاب، ثم أسرعا بتسليمه إلى «جهة معينة».

ما أن وصل ماتيوز إلى بومباى؛ حى دب الشجار بينه وبين المحافظ حول من الذى عليه أن يؤى التحية أولاً للآخر. وبسبب سلوكه المُتعجرف؛ اكتسب ماتيوز عداء كل موظفى الشركة، وأصبح الصدام بينه وبين ضباط الأسطول فى بومباى ظاهرة يومية. لو لم يكن سلوك ماتيوز على هذا النحو؛ لاستقبل مجيئه من أجل الاستعداد للعمليات الإنجليزية ـ البرتغالية المشتركة ضد قلعة آل أنجريا الرئيسية ـ البياج ـ استقبالاً حافلاً. على أن ماتيوز ضرب قائد القوات البرتغالية إبان مشاجرة ما بينهما على وجهه بالسوط؛ فما كان من الأخير إلا أن غادر حلفاء الإنجليز تاركًا إياهم وحدهم فى حومة المعركة.

انتهت الحملة على القراصنة، تلك الحملة التى كان ينبغى لها أن تكون نهاية الإعداد الطويل الذى قام به المحافظ بون بفشل ذريع، غير أنه أنزل على أية حال بقراصنة مالابار خسائر أكبر من التى أنزلها بهم أى من الذين سبقوه. فى التاسع من يناير عام ١٧٢٢ أبحر ماتيوز عائدًا إلى إنجلترا. وقد تعرضت سفنه الثلاث ـ عند مرورها بمحاذاة الساحل ـ لهجوم القراصنة، ولكنه نجح فى التصدى لهم. وعلى مدى اتساع جزيرة أندجِّيدف، قاد ماتيوز معركته الأخيرة ضد القراصنة، بعد أن انتزع من أيديهم سفينة كانوا يهاجمونها آنذاك.

وفى عام ١٧٢٩ توفى كونادجى أنجريا تاركًا خمسة أبناء ما لبثوا أن تنازعوا ميراث أبيهم. استغل البرتغاليون هذا الظرف، فعقدوا حلفًا مع أحدهم أولاً، ثم أعقبوه بحلف مع أخ آخر. لكن البرتغاليين لم يهتموا بكسب ود أكثر الإخوة موهبة؛ وهو تولادجى، الأمر الذى كان سببًا فى انهيار خططهم. نجح تولادجى فى زمن قصير فى توحيد ميراث أبيه وزيادته. وفى السنوات التالية دار الصراع الشرس من أجل السيطرة على المياه الهندية بشكل رئيس بين تولادجى وبين الإنجليز، حيث أن سيطرة البرتغال، وهولندا، وفرنسا، على شبه الجزيرة الهندية كانت قد مالت للانهيار.

أعطت النزاعات الداخلية لأسرة أنجريا لشركة الهند الشرقية عشرين عامًا لالتقاط الأنفاس، نجحت إبانها فى بناء أسطول من سفن النقل حسن التسليح، قادر على مقاومة القراصنة. وكانت هذه السفن من طراز جديد تمامًا، واستطاعت أن تحقق انتصارات عديدة عندما التقت بلصوص البحار. على أنه بعدما وطد تولادجى سلطته؛ بدأ من جديد عمليات نهب تكللت بالنجاح. فقد هاجم ذات مرة قافلة من السفن الإنجليزية كانت تسير تحت حراسة مشددة، واستطاع - على الرغم من النيران التى أطلقتها عليه سفينتان حربيتان - أن يستولى على خمس سفن شراعية، وفى عام ١٧٤٩، وبعد معركة استمرت من الظهيرة إلى منتصف الليل؛ وقعت فى يده أفضل سفينة كانت فى خدمة بريطانيا فى بومباى وهى السفينة «ريستورشن».

ولم يمض زمن طويل حتى بسط هذا القرصان سلطانه على ساحل مالابار بأسره. ولو لم يتم إرسال نجدة من أربع سفن حربية مسلحة أفضل التسليح من مدارس تم تخصيصها لحماية بومباى؛ لأصيبت الملاحة التجارية فى هذا الميناء بالشلل التام. عندئذ فقط؛ أدركت الشركة أن الوسيلة الوحيدة الفعالة للدفاع عن سفن النقل هى حراستها بسفن حربية مسلحة تسليحًا جيدًا تعمل بانتظام.

على أية حال؛ لم تكن السفن الإنجليزية وحدها هى التى تعانى من هجوم قراصنة مالابار عليها. فقد كان البرتغاليون، والهولنديون، هم أيضًا يفقدون كل عام عددًا كبيرًا من سفنهم التجارية العاملة فى المحيط الهندى. وكانت أكبر خسارة حلت بالهولنديين فى عام ١٧٥٤ عندما استولى القراصنة على إحدى السفن المحملة بالذخائر، وبعد معركة حامية الوطيس أغرقوا سفينتين أخريين.

نظرًا لتعاظم قوة الاحتلال البريطانى فى الهند، فقد بدأ نفر من القراصنة الهنود فى السعى نحو عقد اتفاقات مع السلطات فى بومباى. وبمرور الوقت أرسل حتى تولادجى الجبار مبعوثيه إلى بومباى عارضًا المصالحة. لا شك أن شروطه كان من الممكن قبولها فى ذلك الزمن عندما كان أبوه ما يزال على قيد الحياة؛ أما الآن فقد تغيرت موازين القوى بشدة لتميل لصالح المحتل الإنجليزى. ولهذا السبب قوبل العرض الذى تقدم به تولادجى بإعطاء السفن الإنجليزية

«شهادة حديدية» تكفل لها الحق فى الملاحة الحرة فى المياه التى يسيطر عليها القراصنة برفض قاطع.

فى عام ١٧٣٩ عقد الإنجليز اتفاقًا مع دولة ماراتهى الواقعة جنوب غربى الهند بشأن النضال المشترك ضد القراصنة برًا وبحرًا. وفى الثانى والعشرين من مارس ١٧٥٥ أبحر الأسطول الموحد البالغ قوامه حوالى خمسين سفينة من مختلف الطرز بقيادة وليم جيمس الذى ظل يقود القوات البحرية لانجلترا فى هذا الاقليم لمدة أربع سنوات باتجاه سافاندورج التى يحتلها القراصنة، وفى التاسع والعشرين من مارس بلغ الأسطول المكان المحدد. لم يعقد القراصنة عزمهم على الدخول فى معركة وإنما لاذوا بالفرار. إبان المطاردة التى استمرت طوال اليوم التالى؛ وجد الأسطول نفسه مشتتًا فى البحر الواسع الممتد. عندئذ أصدر جيمس أمره - بعد أن ترك عقم المطاردة - بالعودة إلى سافاندورج.

كانت المدينة تقع على حافة صخرية تطل على البحر من شبه الجزيرة تحرسها «القلعة الذهبية» المسلحة بخمسة وأربعين مدفعًا، وإلى جنوبها توجد قلعتان أخريان. أدرك جيمس أن الحصار قد يستمر لمدة لا تقل عن شهر؛ ولهذا قرر اقتحام القلعة من جهة البحر؛ فاقترب بسفنه منها حيث أخذت مدفعيتها تمطرها بوابل من النيران طوال يومين كاملين اختفت بعدها قلعة القراصنة من فوق سطح الأرض.

غمرت الفرحة سلطات مدينة بومباى بهذا الانتصار. واتُّخذ قرار بتدمير قلعة القراصنة التالية فى جريا، وهى قلعة أكثر تحصينًا من الأولى. فى الحادى عشر من فبراير عام ١٧٥٦ خرج من بومباى أضخم أسطول قامت بتسليحه المدينة فى تاريخها؛ فإلى جانب ثمانية عشر سفينة حربية ثقيلة تولى قيادتها الكومانور جيمس، أبحرت ست أخرى من بينها أربع بوارج بقيادة اللواء بحرى واطسون. وعلى متن السفن كانت هناك فرقة من قوات المشاة قوامها ٨٠٠ أوروبى و ٦٠٠ من الجنوب المحليين تحت قيادة روبرت كلايف.وطبقًا للتعليمات التى صدرت إلى قائد الحملة، فقد حظرت سلطات المدينة الدخول فى أية مفاوضات مع تولادجى. وما أن اقتربت الحملة من جريا؛ حتى وجدت هناك جيش ماراتهى

الذى قام قائده بإبلاغ الإنجليز أن بإمكانهم الاستيلاء على القلعة دون طلقة واحدة؛ إذ أن تولادجى قد أعرب عن استعداده للتفاوض. طلب واطسون أن يكون الاستسلام دون قيد أو شرط، الأمر الذى رد عليه تولادجى بالرفض؛ عندئذ بدأ الانجليز فى قصف القلعة.

كان تولادجى قد حشد فى الميناء أسطولاً يبلغ قوامه ثمانية وخمسين سفينة حربية على رأسها «ريستورشن» السفينة الحربية التى كان قد تم له الاستيلاء عليها منذ ست سنوات خلت. وبعد قصف دام ساعتين، اشتعلت «ريستورشن» نتيجة لسقوط شظية فوقها، وانفجرت لتنشر الدمار فى السفن التى كانت واقفة فى مساحة ضيقة. وها هى ألسنة النيران تلتهم الأسطول الذى أشاع الرعب بطول ساحل مالابار لمدة نصف قرن كامل.

فيما بعد نزل كلايف إلى الشاطئ على رأس قواته بعد أن اتخذت قواته مع قوات ماراتهى موقعًا لهم فى مواجهة القلعة. امتدت نيران السفن المشتعلة إلى الأسواق والمخازن المليئة بالبضائع والموجودة على الشاطئ، وأصبح الهدف أمام السفن الحربية الإنجليزية واضحًا جليًا. فى صباح اليوم التالى أرسل واطسون إلى القراصنة عضوًا من أعضاء البرلمان يطلب منهم مرة أخرى الاستسلام. رفض تولادجى الامتثال لهذا الطلب، فجدد الإنجليز القصف، بعد أن كانوا قد أوقفوه، وفى الوقت نفسه أخذ كلايف فى مهاجمة القلعة من اليابسة. فى الرابعة بعد دوى انفجار هائل رفع بعده المحاصرون الراية البيضاء.

وفى القلعة جرى اكتشاف كميات من الذهب والفضة والنفائس تبلغ قيمتها مائة وثلاثين ألف جنيه استرلينى. وقد تم تقسيم هذه الغنائم بين القوات البرية والقوات البحرية. وكان من نصيب دولة ماراتهى تولادجى نفسه الذى لم يرغب فى أن يستسلم للإنجليز؛ فسلم نفسه للماراتهيين وظل أسيرًا لديهم حتى وافته المنيه.

وضع الاستيلاء على جريا فى واقع الأمر نهاية للقرصنة على ساحل مالابار. وظلت سواحل مالابار - التى لم تقع إطلاقًا فى أيدى الغزاة الأوروبيين - زمنًا

طويلاً محط أنظار لصوص البحر. كان القراصنة يختبئون فى خلجان الجزيرة، من العواصف والمطاردات. وهناك كانوا يتربصون لسفن التجار الهولنديين والبرتغاليين والإنجليز التى كانت تبحر عبر رأس الرجاء الصالح، فينهبون ما على ظهرها من بضائع وبخاصة الفلفل، والقرفة، والعاج، والقرنفل، والكافور، والحرير، والديباج، والأحجار الكريمة والحلى، ثم يبيعونها فى موانى نيوانجلند حيث لا يهتم أحد بأصلها.

قرر توماس ماتيموز - الذى سبق ذكره والذى كان قد تشاجر مع الجميع فى بومباى - العودة إلى مدغشقر وأنها مهمة القضاء على القرصنة التى كان قد كلف بها. وما أن وصل ماتيوز إلى خليج كارينتر عند جزيرة موريشيوس حتى وجد رسالة له مكتوبة بالفحم على القبر الحجرى للكابتن كاربنتر؛ يفهم منهم أن القراصنة قد أبحروا إلى فورت وفين، وهى قلعة تقع فى جزيرة سانت مارى. وعلى الفور انطلق ماتيوز على إثرهم ليلحق بهم. على أنه، وبعد أن وصل بأسطوله إلى المكان المحدد، لم يُعْثَرْ للقراصنة على أى أثر فى الجزيرة.

وقف الزعيم المحلى على سطح السفينة عارضًا على ماتيوز خدماته مستقبلاً القادمين باعتبارهم فرقة أخرى من القراصنة. عَبَّ الزعيم المحلى مع الإنجليز الكئوس المليئة بخليط من ماء البحر مع البارود كما اعتاد القراصنة الذى كانوا أحيانًا ما يزورون الجزر أن يفعلوا، مقترحًا على الجميع أن يشربوا نخب الصداقة. بعد أن أنهى الزعيم مهمته؛ ظهر على سفينة ماتيوز ضيف آخر غير عادى عَبَّرَ بدوره عن عظيم احترامه للكابتن. كان رجلاً أبيض يدعى جيمس بلانتاين، قرصان وفى الوقت نفسه واحد من أغنى ملاك الأرض فى الجزيرة. اعتاد السكان هنا أن يسموه «ملك رانتر - باى». كان الضيف مسلحًا يرافقه عشرون حارسًا. وبدلاً من أن يقوم ماتيوز باعتقال بلانتاين عقد معه صفقة تجارية مربحة. فباع له قبعات ومشروب العرق. دفع «ملك رانتر - باى» مقابلها - كما يفعل الملوك بحق - ذهبًا وماسًا.

بعد أن غادر بلانتاين السفينة؛ ترك البضائع التى اشتراها على الشاطئ تحت حراسة ملاحظى الرقيق. على أنه ما أن ابتعد بلانتاين؛ حتى أصدر ماتيوز

أوامره إلى طاقمه بإعادة شحن البضائع جميعها إلى السفينة غير عابئ باحتجاج الحراس؛ ثم ما لبث أن أبحر إلى البنغال بعد أن أخذ معه، علاوة على ذلك، عددًا من سكان الجزيرة.

يعتبر جيمس بلانتاين، الذى سرقه ماتيوز واحدًا من أكثر شخصيات عالم القرصنة فى مدغشقر ترفًا. بدأ جيمس احتراف القرصنة منذ أن كان يافعًا فى نيوانجلند، وقد تعلم هذه الحرفة على يد «أستاذ» من أمثال جون وليمز صاحب السفينة «تريبل». على ظهر هذه السفينة أبحر بلانتاين إلى غينيا حيث انضم إلى القراصنة الذين كانوا يعملون على ساحل غرب أفريقيا. وبعد أن أثرى جيمس بشكل لا يستهان به؛ ترك هذه العصابة واستقر به المقام فى رانتر - باى حيث شيد قلعة صغيرة يعيش فيها كما لو كان ملكًا حقيقيًا.

كوَّن جيمس بلانتاين من بين عدد من السكان المحليين لواءًا صغيرًا ولكنه حسن التسليح، جيد الإعداد، كما جنَّد عددًا آخر ليعملوا فى حاشيته؛ بل إنه اتخذ لنفسه كذلك حريمًا من أجمل فتيات الجزيرة، كان يطلق عليهن أسماء إنجليزية: مولى، كايت، سو، وبجى، على أن كل ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة له؛ فإذا به يشتهى حفيدة ميساليدج، ملك الجزيرة، وكانت تدعى إليانورا. فأرسل إليه بالخطَّاب؛ لكن الملك ديكا - كما كان الشعب يسميه - رفض عرض القرصان بشكل قاطع، الأمر الذى اعتبره بلانتاين إهانة له؛ فدخل معه فى حرب انتهت بهزيمة ديكا. وما أن عاد بلانتاين إلى قلعته حتى أطلق من فيها من الحريم؛ وتزوج من إليانورا.

كان قرصان رانتر - باى يبنى خططًا طموحة للغاية. كان الرجل يعتزم أن يصبح ملكًا على مدغشقر بأسرها، ومن هنا فقد بدا أنه قد تورط فى شبكة معقدة من المؤامرات السياسية. بدأ القرصان عمله باستكشاف رأى المحتلين الأوربيين بهدف استمالتهم إلى جانبه؛ ثم أخذ يقيم الولائم الفاخرة للهولنديين، والفرنسيين، والإنجليز، اللذين كانوا يقيمون فى الجزيرة. بالإضافة إلى ذلك فقد تخير رجلين ليعملا لديه كمستشارين، أحدهما اسكتلندى، والآخر دنمركى دعاهما ليقيما معه. على أن السكان لم يكونوا يكنون مشاعر الحب لهذا الملك

غير المتوج. فلما استشعر بلانتاين أن تمردًا يعد ضده؛ أعد زورقًا أبحر به وزوجه إلى ساحل مالابار، حيث استقبل استقبالاً حافلاً من جانب أنجريا.

إلى هنا لم يعرف مصيره بعد ذلك.

## جون آيڤرى المحظوظ

لم يكن جون آيڤرى ـ الشهير بين الطويل ـ بحارًا ذا خبرة إذا ما قورن بغيره من القراصنة فهو لم يقم بغير عدد قليل من الرحلات البحرية قبل أن يبلغ سن الرشد. على أنه فى عام ١٦٨٠ قرر التطوع بالعمل صبيًا على إحدى السفن التجارية فى بلايموث واضعًا نصب عينيه هدفًا وحيدًا هو أن يصبح قبطانًا لسفينة قرصنة. كان جون يعلل النفس بهذا الحلم بعد أن استمع إلى العديد من الحكايات الخيالية من البحارة الذين كانوا يمرون بديڤون(٦) مسقط رأسه.

بمرور الزمن تلقى جون عرضًا ليشغل منصب ضابط على إحدى سفن القرصنة اسمها «دوق» كانت تبحر من بريستول إلى كاديس(٧). وعلى الفور وافق جون أيڤرى دون أدنى تردد؛ وكان قد بلغ من العمر آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا واكتسب بعض الخبرة فى شئون الملاحة البحرية، وها هو يقرر أن الحظ قد ابتسم له فى النهاية.

طال الوقوف فى ميناء كاديس انتظارًا لأوامر الحكومة الإسبانية التى كانت قد استأجرت هذه السفينة لمحاربة القراصنة الفرنسيين فى منطقة جزر الأنتيل. أثار الانتظار المستمر، فى هذا الميناء الممل، السخط بين أفراد الطاقم الذين كانوا يأخذون أجورًا منخفضة، عندئذ قرر آيڤرى؛ الذى ظل سنينًا طويلة يحلم بامتلاك سفينة خاصة، أن ينتهز الظروف التى سنحت له الآن.

ظل جون آيڤرى؛ على مدى الليالى الطويلة التى كان بحارة «دوق» يقضونها فى حانات الميناء فى احتساء الخمر، يُعْمل ذكاءه وفصاحاته فى إشعال السخط بينهم راسمًا لهم آفاقًا مغرية للغنائم الثمينة. ولم يتطرق الشك فى هذا إطلاقًا إلى قلوب البحارة الذين استمالهم جون آيڤرى ليصبحوا قراصنة، فصدقوه من

فورهم؛ وهم العارفون تمام المعرفة بالوضع فى البحر الكاريبى، وعلى الجانب الآخر من رأس الرجاء الصالح. وهكذا تحولت أحاديث المساء تدريجيًا لتأخذ شكل المؤامرة. وعندما صدر الأمر بمغادرة كاديس؛ كانت الأغلبية العظمى من البحارة على أهْبَة الاستعداد للتمرد. ما أن خرجت «دوق» إلى عرض البحر؛ حتى اختلق آيڤرى حجة ما، فخرج على مقصورة القبطان، الذى كان جالسًا منصرفًا إلى لعب الورق، واقترح عليه تحويل السفينة من سفينة مرتزقة إلى سفينة قرصنة. ظل القرصان جيبسون يتفرس طويلاً فى عينى الضابط الشاب محاولاً أن يكتشف نياته الحقيقية، ومن ثم يتخذ قراره. كانت يد البحار العجوز قد استراحت فوق جراب المسدس، الذى لم ينزل آيڤرى عينيه من عليه. فى الوقت نفسه؛ أخذ البحارة يتجمعون فوق سطح السفينة فى انتظار ما سوف تسفر عنه المباحثات بعد أن تلقوا تعليمات مسبقة من آيڤرى بشأن الاجراءات التى يجب عليهم اتباعها فى حالة انهيار هذه المباحثات.

شرع جون آيڤرى فى إغراء جيبسون قائلاً: سوف تظل - إن شئت - قبطانًا لسفينتنا، إننا لا نتخذ منك موقفًا عدائيًا بصفة خاصة. وفى النهاية؛ جاءت النهاية المفاجئة؛ فإذا بجيبسون يأخذ خطوة إلى الخلف، ويسحب مسدسه من جرابه، لكنه لم يستطع أن يستخدمه؛ فقد تلقى القبطان ضربة قوية فى فكه أفقدته توازنه. وبحلول الليل؛ كان جيبسون وثلاثة آخرون من الطاقم رفضوا الانضمام إلى المتمردين قد وضعوا فى قارب، وقد سمح آيڤرى لهم أن يأخذوا معهم أمتعتهم الشخصية، وزودهم بالماء، والخمر، والخبز الجاف، وأنزلهم إلى المياه.

بهذا بدأ جون آيڤرى يشق طريقه فى عالم القرصنة، وعلى الفور قام بتغيير اسم السفينة؛ فأصبحت «تشارلز الثانى»؛ ثم غير مسارها من الغرب إلى الجنوب بمحاذاة سواحل غرب أفريقيا. وكان من الضرورى أن تتزود السفينة إبان إبحارها الطويل باحتياطيات من المواد الغذائية؛ غير أن آيڤرى لم يكن يمتلك نقودًا لشرائها. ولهذا قرر الاستيلاء على احدى القرى البرتغالية الصغيرة الواقعة فى جزر الكناريا. وقد لجأ القراصنة إلى حيلة استهدفوا من ورائها القضاء على

الرغبة فى المقاومة لدى سكان القرية، بأن قاموا بإطلاق الرصاص فى الفضاء محدثين جلبة شديدة عند هجومهم. ولم يسعوا للجوء إلى العنف، وتجنبوا بمهارة إراقة الدماء. لم يفكر السكان البيض فى الجزيرة، الذين أخذوا بغتة فى منتصف الليل فى الدفاع عن أنفسهم.

على أن القراصنة لم يجدوا فى مخازن القرية الصغيرة كمية كافية من الغذاء. ومن حسن الحظ فقد كان البرتغاليون الذين اجتاحهم الذعر، على قدر كبير من لين العريكة، حتى أنهم اقترحوا بأنفسهم الحصول على الغذاء من النقاط المجاورة. لكن هذا الأمر بدا لآيفرى مدعاة للشك. فطلب منهم تسليم عدد من السكان البارزين باعتبارهم رهائن. شحن آيفرى الأغذية التى حصل عليها على المركب، وكذلك الرهائن، ثم خاطب سكان القرية قائلاً:

- سوف أنتظر المواد الغذائية ثلاثة أيام، وإننى أضمن لكم حسن معاملة الرهائن. ولكن ويل لهم إذا لم تحفظوا عهدكم.

نجحت خطة القراصنة. فبعد عدة أيام استطاعوا أن يواصلوا طريقهم بهدوء.

قبل أن يصل آيفرى إلى خليج غينيا، نجح فى الاستيلاء على ثلاثة سفن إنجليزية تحمل شحنة كبيرة من الحرير، والجذور، والعاج، والمشغولات الذهبية والفضية. وهكذا؛ فقد فاق نشاطه فى الأسابيع القليلة الأولى فى هذا المجال الجديد أكثر أحلام شبابه شجاعة عن مهنة القرصنة.

وصل آيفرى بعد رحلة استمرت ثلاثة أسابيع حول رأس الرجاء الصالح إلى مدغشقر على رأس أربعة سفن محملة بالغنائم، وقد كان وصوله إلى هناك أمرًا مثيرًا للغاية. فقد كان القراصنة المتقاعدون ينظرون إلى هذا الفتى الذى استطاع أن يزهو بما حققه من نجاح بأعين تملؤها الغيرة، وإن كانت هذه النظرات نفسها لا تخلو فى ذات الوقت من الاحترام والتقدير. على أن عجوزًا ما، يبدو من سماته أنه كان قرصانًا، لم يستطع أن يقبل بكون الشباب قد انتزعوا منه إكليل الغار. فراح يؤكد فى كل مكان أنه سوف يقطع لهذا الجرو أذنيه. وبرغمه على السكوت. وحتى لا يقال عنه أنه جبان؛ فقد قبل آيفرى الدعوة التى وجهت إليه للقتال بالسيوف.

كان المجد الذى حققه آيفرى باعتباره قبطانًا، وكذلك شبابه، والحظ منقطع النظير الذى حالفه من جانب، والشهرة التى كان العجوز يتمتع بها باعتباره قبطانًا لا يُقْهَر من جانب آخر، من الأمور التى ساعدت على تحول هذه المبارزة إلى عرض مسرحى. كان لفوز جون آيفرى فى هذه المعركة؛ أثره فى تدعيم مركزه بين قراصنة مدغشقر. لقد أصبح حليفًا له وزنه، وعدوًا يُخشى بطشه، وراح الجميع الآن يسعون لكسب وده.

عندما عرف آيفرى أن أسطول مغول الأكبر(٨) يرسو فى ميناء موكا العربى الشهير فى انتظار أعيان دلهى العائدين من الحج فى مكة؛ توجه إلى البحر الأحمر، واضعًا فى حساباته غنيمة من الذهب والنفائس. ظل آيفرى بضعة أيام يتربص بالقرب من ميناء موكا؛ حتى لاح فى الأفق أسطول مغول الأكبر المكون من ست سفن كبيرة. هاجم آيفرى من وضع الحركة أكبر السفن؛ وكانت سفينة رائعة ذات شراع، بنيت فى إحدى الترسانات الإنجليزية، ثم أمطرها بوابل من القذائف، وأشعل النيران فى شراعها، ثم هاجمها بأسلوب التصادم. وبعد أن قذف بالسفينة العاجزة عن الحركة إلى مصير مجهول؛ أسرع القرصان فى مطاردة سفن أسطول المسلمين الأخرى.

فجأة؛ تلبدت السماء بغيوم رمادية، وبدأت عاصفة قوية، كانت الامواج الهائلة تقصف سطح السفينة، أما الظلام الكثيف الذى غطى المكان؛ فلم يكن ينقشع إلا من حين إلى آخر بواسطة البرق؛ الذى كان يخطف سناه الأبصار. كان المطر ينهمر شديدًا قاريًا، وساد الذعر سطح السفينة، وغطى دوى الريح على صوت القائد.

لم يعد آيفرى يفكر فى السفينة ذات الشراعين؛ التى استولى عليها، ولا فى كنوز مغول الأكبر، لقد كثف جل جهده للصراع مع الطبيعة. وفى النهاية أخذت العاصفة التى ظلت تعوى طول الليل فى الهدوء. وبدا أن الخطر قد زال. ولكن آيفرى اكتشف؛ عندما صحت السماء بعض الشىء، وقد أصابه الرعب، أن سفينته على وشك الاصطدام بصخور الشاطئ. وفى هذه المرة أيضًا؛ يكون التوفيق، والحظ، إلى جانبه؛ فينجح بطريقة ما فى الخروج «بتشارلز الثانى» من تيه الصخور الكامنة تحت الماء.

كم كانت دهشته بعد أن خرج من منطقة الخطر، عندما لاحت أمام عينيه السفينة التى استولى عليها بالأمس؛ تنساب مع المياه! لقد حمل الصباح الجديد لآيفرى مفاجأة أخرى: لم تكن السفينة الشراعية تحمل ذهبًا فقط؛ فمن بين كوكبة وجهاء البلاط، كانت هناك ابنة مغول الأكبر نفسه. كانت الأميرة تبدو منتعشة، باسمة الوجه، تمامًا كما لو أن أحداث الليلة الماضية لم تكن تعنيها، فاستقبلت آيفرى استقبالاً جديرًا بها كسليلة لملوك.

انعقدت بين الفتى والفتاة أواصر صداقة، تحولت على مدى الرحلة الطويلة إلى حب جارف. وبعد أن وصل آيفرى والأميرة الجديدة إلى مدغشقر؛ أعلنا عن عزمهما الزواج، الأمر الذى أصاب رجال بلاط مغول الأكبر بالاستياء الشديد، لكن آيفرى وعد بإطلاق سراحهم؛ لو وقعوا على عقد زواجه على الأميرة بوصفهم شهودًا عليه. ومن عجائب المصادفات أن يكون هناك قس بروتستانتى بين القراصنة، أغراه المال الوفير، فوافق على مباركة هذا الارتباط.

أوفى آيفرى بعهده، فأطلق سراح الأسرى، بل إنه شملهم برعايته حتى تم توصيلهم إلى الهند. إلا أنه بالرغم من حبه الشديد لزوجه، فإن هذا القرصان لم تعتره أدنى رغبة فى أن يعيد إلى حميه سفينته التى استولى عليها، أو النفائس، إذ قرر أن هذه الدوطة التى حصل عليها ليست كبيرة إلى هذا الحد بالنسبة لابنة إمبراطور. لكن «حماه» قرر أن ينتقم لهذه الإهانة التى تلقاها كأب، وكعاهل. وقد أدان ابنته لأنها لم تمتلك الشجاعة الكافية لأن تضع حدًا لحياتها بالانتحار، بدلاً من استسلامها لغزل القرصان. بالإضافة إلى أنه لم يكن يريد أن يفقد سفينته الشراعية الرائعة، وكنوزه الضائعة. صب الإمبراطور جام غضبه أولاً وقبل كل شىء على شركة الهند الشرقية، ثم أعلن أنه سوف يهدم كل مبانيها ومنشآتها الموجودة فوق الأراضى الهندية؛ إذا لم تسارع الشركة بالقبض على القرصان.

أخذ رؤساء الشركة هذا التهديد مأخذ الجد؛ فتقرر تخصيص جائزة كبيرة مقابل رأس جون آيفرى. إلا أن القرصان العاشق لم يكن يرى فى هذا العالم سوى بيته الذى كانت تزينه الأميرة الحسناء. فى الوقت الذى ظلت «تشارلز

الثانى» راسية فى الميناء، وتحول طاقمها إلى رجال فاسدين، لا أمل فيهم، من جراء وجودهم لفترة طويلة على الشاطئ. وفى النهاية قرر آيڤرى الخروج إلى عرض البحر؛ وإلا انهار كل أسطول القرصنة الذى يملكه، إلا أن الحملات التى كان يشنها كانت نادرة، وقصيرة.

استمرت الحياة العاطفية الرغدة بضع سنوات؛ حتى وصل آيڤرى فى النهاية إلى استنتاج مفاده أنه أصبح غنيًا بما فيه الكفاية، وأن بإمكانه أن يبدأ حياة أسرية هادئة فى أى ركن من أركان الأرض لم تصل إليه أنباء أعماله الإجرامية. رأى آيڤرى أن زوجه سوف تشعر بالسعادة لو أنه وفر لها احترام «المجتمع الراقى»، وابتعد بها عن أجواء القرصنة، فاتجه فى عام ١٦٩٦ إلى بوسطن، وقد حمل سفينته بكل ثروته، واصطحب معه أقرب الأصدقاء.

وصل آيڤرى إلى أمريكا تحت اسم مستعار، لكنه لم ينجح فى الاختفاء من شكوك المحافظ، الذى لم يكن يولى المهاجرين ثقته، فلم يكن أمام آيڤرى إلا أن يلجأ إلى أسلوب الرشوة ليزيل العقبات من طريقه، ولكنه كان يشعر أن أحواله فى أمريكا ليست على ما ينبغى، ربما بسبب حنينه إلى وطنه. سواء أكان هذا هو السبب، أم أنه كان هناك سبب آخر، فقد رحل على الفور إلى شمال أيرلندا؛ حيث باع سفينته، وودع أصدقاءه القدامى، فكان هذا تأكيدًا لقراره الحاسم بهجر حياة القرصنة بلا رجعة.

والآن فحسب تخلى الحظ عن آيڤرى بعد ما رافقه طويلاً. بمجرد أن حاول استثمار جزء من المجوهرات المسروقة فى دبلن ثارت الشكوك فى نفوس التجار تجاهه، فاضطر من جديد إلى تغيير اسمه، ومحل إقامته. وكان انتقاله هذه المرة إلى انجلترا؛ حيث ديفون مسقط رأسه، هناك تولى أحد أصدقائه القدامى فى منطقة تدعى بيدفورد؛ العمل كوسيط له فى بيع المجوهرات. إلا أن آيڤرى هاجم عصابة من محتالي لندن كانوا قد دفعوا له عربونًا بعد أن وعدوه بتسديد المبلغ الباقى فيما بعد، وعلى الرغم من تذكيره المتكرر لهم، فإنه لم يتمكن من استرداد ما تبقى له لديهم من أموال. لم يكن باستطاعة آيڤرى اللجوء للقضاء لأسباب

غنية عن التفسير. مرت بضعة أعوام توفى بعدها آيڤرى فى أشد حالات الفقر، لاعنًا تلك الساعة التى قرر فيها أن يعيش حياة شريفة.

على أن آيڤرى لم يمت بالنسبة لمن جاءوا بعده، فها هو دانيال ديفو مؤلف «روبنسون كروزو» يخلد اسمه فى كتاب بعنوان «حياة القبطان الشهير سينجلتون ومغامراته» الذى على أساسه كتب تشارلز جونسون بعد ذلك كوميديا «القرصان المحظوظ».

## قراصنة أصحاب رسالة

ولد ميسون فى منطقة البروفانس المشمسة فى جنوب فرنسا. وكان من أسرة كثيرة الأطفال، ولما توسم فيه والده الموهبة؛ فقد أحسنا تعليمه، حتى أنهى المدرسة الثانوية، وأرسلاه بعدها إلى الأكاديمية العسكرية فى مدينة أنجى. قرر ميسون - بعد أن أنهى الأكاديمية - أن يصبح بحارًا، فأخذ فى تعلم فنون الملاحة البحرية بنفس الحمية التى تعلم بها باقى العلوم. وعلى الفور حقق نجاحًا باهرًا أدهش أساتذته. على أنه فى بعض الأحيان؛ يتحدد مصير الإنسان على نحو غير عادى، فإبان الرسو الطويل للسفينة التى كان يخدم على ظهرها ميسون فى خليج نيابوليتان، طلب من القبطان فورين السماح له بالسفر إلى روما ليتسنى له مشاهدة آثار «المدينة الخالدة».

التقى ميسون فى روما بشخص كان له تأثير كبير على نظرته. كان هذا الشخص هو الدومينيكانى كاراتشيولى، الذى أخذ فى بسط أفكاره على الفتى وهو يعرض عليه كنائس وقصور روما، كانت هذه الأفكار فى أساسها تتعارض مع مذهب روما الكاثوليكى الأرثوذكسى. تحولت الدهشة التى استمع بها ميسون إلى الأفكار الغريبة لهذا الدومينيكانى إلى اهتمام عميق بالهواجس الاصطلاحية التى تدور فى رأس القس.

كان هذا الفيلسوف الفذ يؤكد أن العقبة الرئيسية أمام تطور العلاقات الأخوية الحقة بين البشر تكمن فى وجود النقود. يكفى أن نزيل هذا الاختراع

الشيطانى حتى يختفى تقسيم البشرية إلى طبقة تملك، وأخرى لا تملك. كما يختفى أيضًا معها الجشع؛ أصل كل الشرور. اقترح ميسون - الغر، عديم الخبرة، الذى تحمس بكل جدية لهذه الأفكار الطوباوية - على كاراتشيولى أن يترك ملابس الرهبان، ويصبح بحارًا، بعد أن يتطوع للعمل على السفينة «ڤيكتوار». «يجب ألا نفترق مطلقًا يا أستاذى العزيز». قالها ميسون باضطراب، وقد اقتنع تمامًا أنهما بالذات قد اختيرا لحمل رسالة حددت لهما دور الحواريين لإيمان جديد، وأنهما جاءا لإنقاذ البشرية.

كان القس سعيدًا لأنه نجح فى إدخال أول تلميذ إلى عقيدته؛ وعبر بدوره عن رغبته فى ألا يفترقا. لعبت ثروة هذا التلميذ المبتدئ دورًا لا يستهان بصفتها دعمًا كبيرًا للدخل المتواضع الذى كان يحصل عليه الدومينيكانى. هكذا بدأت سلسلة المغامرات الخطيرة التى خاضها هذان الرجلان الفريدان، غريبا الأطوار، اللذان لم يفترقا حتى النفس الأخير.

وسرعان ما أثبت كاراتشيولى أنه يصلح للعمل على ظهر السفينة أكثر مما يصلح لخدمة الله. بعد مرور يومين من مغادرة «ڤيكتوار» لميناء نابولى، قامت هذه السفينة بالهجوم على سفينة قرصنة مسلحة على نحو جديد. لم يتطرق الخوف إلى قلوب القراصنة من جراء ظهور هذه السفينة الحربية، بل حاولا الاستيلاء عليها. جرى التحام شديد بالأيدى بين الجانبين، سقط على إثره عدد كبير من بحارة «ڤيكتوار». وقد أظهر ميسون والقس السابق فى هذه المعركة شجاعة فائقة حتى أن القبطان فوربن عنى بأمر نقلهما - كنوع من المكافأة - إلى سفينة المرتزقة الفرنسية «تريومف» المخصصة للهجوم على السفن التجارية الإنجليزية. أثبت ميسون وكاراتشيولى إبان خدمتهما الشاقة فى سلك المرتزقة، مقدار ما يتمتعان به من شجاعة، وها هما يعودان مرة أخرى إلى «ڤيكتوار» بعد أن نالا مجدًا وشهرة لا ينالهما إلا المحاربون الصناديد؛ ليتخذوا طريقهما معها نحو جزر الأنتيل. لم تخمد المآثر الحربية التى اجترحها كل من ميسون وأستاذه من حميتهما لقضية إصلاح العالم، فراحا ينشران أفكار الحرية، والمساواة، والأخوة، بين أفراد طاقم السفينة، حيث وجدت هذه الأفكار أرضًا

*خصبة. وعلى الفور أصبح جميع البحارة - باستثناء الضباط - متورطين في* المؤامرة.

*أخيرًا قرر الفيلسوف البدائي أن يقوم بوضع خططه الطوباوية* موضع التنفيذ. فدعا إلى التمرد على السفينة بهدف تحويلها إلى جمهورية صغيرة عائمة، إلى جنين لدولة المستقبل التى تحكمها مبادئ المساواة. كان على مبعوثى هذه العقيدة الجديدة - فى رأى القس السابق - أن يطوفوا البحار السبعة لينشروا مذهبهم فى أقصى أطراف المعمورة. ولم يكن يعكر صفو الروح المرحة التى سادت الجميع بعد أن صارت السفينة ملكًا خالصًا لهم، سوى الجدل الذى ثار حول اختيار العلم. البعض رأى أن يكون لونه أحمر بلون الدم، والبعض الآخر رأى أن يكون أسود. أخيرًا احتدم الجدل حتى اتخذ طابعًا عنيفًا مما حدى بكاراتشيولى أن يتدخل فى الأمر قائلاً:

- إنه ليحزننى ألا نتفق فيما بيننا. إننا لسنا بقراصنة، وإنما أناس أحرار نحارب من أجل حق الإنسان فى أن يحيا وفقًا لقوانين الله والطبيعة. إننا نختلف تمام الاختلاف عن القراصنة؛ غير أننا نبحث مثلهم عن السعادة فى البحر. ولهذا فإننى أقترح أن نرفع راية بيضاء كتب عليها: «فى سبيل الله والحرية».

وافق الجميع على اقتراح «الفيلسوف». أما بقية اليوم فقد قضاه ميسون مع أستاذه فى إعداد مشروع دستور الجمهورية الوليدة. فى نفس الوقت كانت السفينة - التى سرقت من الملك - تتأرجح فى سكينة فوق أمواج البحر. ثلاثة وسبعون رجلاً من طاقم السفينة لم يكن يعنيهم كثيرًا هذه الخطط البعيدة لإقامة الجنة على الأرض. كان أهم شىء بالنسبة لهم هو أغراضهم الدنيوية. كانوا يلحون فى طلب المشروبات الروحية من رؤسائهم. فأقنع كاراتشيولى ميسون أن يجيبهم إلى طلبهم، لأنه كان يخشى أن يرفض البحارة تنفيذ خططه، فأجابه ميسون:

- لا مانع لدى. إن تظهر أية سفينة فى مرمى مدافعنا؛ فسوف نسد حاجاتهم إلى الكحول.

فى اليوم التالى مباشرة؛ تلتقى «ڤيكتوار» بسفينة تجارية إنجليزية. فيقفز بحارتها إليها بعد أن أطلقوا نصف دستة من طلقات الإنذار، ويستولون على السفينة الإنجليزية دون مقاومة تذكر. تعامل المهاجمون مع السفينة بكل وداعة، وبحذر بالغ. اتجه ميسون بعد ذلك إلى الريان، واعتذر إليه لاضطراره أن يأخذ من السفينة ثلاثة براميل من الروم، وعلى الرغم من اكتشافهم لوجود ستة براميل بالمخزن؛ إلا أن ميسون تمسك بعهده للريان، فلم يسمح لرجاله أن يأخذوا أكثر من البراميل الثلاثة التى طلبها، والتى تمثل نصف احتياطى السفينة.

فى الوقت نفسه؛ أعلن البروڤنسالى الشاب أنه وطاقمه ليسوا بقراصنة، إنما هم رسل لعقيدة جديدة، وما لبث أن أخذ فى عرض المبادئ الأساسية لهذه العقيدة على الإنجليز الذين عقدت الدهشة ألسنتهم، واختتم ميسون حديثه معلنًا أن كل بحار إنجليزى له الحق فى الانضمام إلى الطاقم الفرنسى إذا شعر بميل إلى ذلك. انتهز ميسون الفرصة؛ فقرأ على الإنجليز محاضرة طويلة شرح فيها العقيدة التى يدين بها أعضاء جمهورية القرصنة العائمة. لم يكن القبطان «بطلر» ليصدق عينيه، لولا أن الشحنة بأكملها، وكذلك خزينة السفينة، وجميع المتعلقات الشخصية لطاقمها، ظلت سليمة لم تمس، الأمر الذى لم يسمع أحد إطلاقًا أنه يمكن أن يحدث من جانب القراصنة. وسط هذه الملابسات الغريبة، قرر بطلر أن يقابل الإحسان بالإحسان؛ فجمع طاقمه كله على ظهر السفينة، وصَفَّهُم فى صفين، وأمرهم بأن يؤدوا التحية إلى القراصنة. وأعلن القبطان أنه يعتبر ميسون وكاراتشيولى سادة محترمين بكل معنى الكلمة.

ظل ميسون ورجاله بعد ذلك يسلكون هذا النهج تمامًا كلما احتجزوا سفينة، فكانوا يحتجزون المواد ذات الأهمية القصوى التى يحتاجون إليها بشدة فى اللحظة الراهنة وعلى رأسها: المواد الغذائية، المشروبات الكحولية، البارود، والذخائر دون أن تمتد أيديهم إلى الأشياء الأخرى، غير عابئين على الإطلاق بالأموال، والحلى، والبضائع، ولم يحدث على الإطلاق أن حرموا أطقم السفن التى هاجموها من المواد الغذائية، بل كانوا «يستعيدون» ما لا يزيد عن نصفها. كان هؤلاء القراصنة فى غاية الكرم على نحو خاص. فإذا ما دفعتهم الضرورة

إلى الرسو على الشاطئ لإصلاح عطب ما ألم بالسفينة، أو لأى سبب اضطرارى آخر، لم يكونوا يلجأون إلى العنف، أو حتى لمجرد التهديد، وفى كل مكان كان ميسون وكاراتشيولى؛ يُلقون بعظاتهم، داعين الفقراء للتمرد على الظلم وطغيان المال.

أثارت الخطب الحماسية التى اتسمت بتماسك شديد لا يمكن أن يصدر عن قراصنة، جدلاً كبيرًا فى صفوف ضحاياهم. نجح ميسون فى كبح جماح طاقمه، فقضى على عادة السكر والسباب، وغرس فيهم الشعور بالاحترام المتبادل، والتعامل مع النساء، والشيوخ، والضعفاء، بنبل وفروسية. بالطبع فإن هؤلاء البحارة لم يتحولوا بين عشية وضحاها إلى ملائكة، لكنهم بدأوا فى التصرف كما يتصرف ذوو الأخلاق الحميدة، مما جعل كاراتشيولى يعقد آمالا جادة على إنقاذ أرواحهم. أخيرًا داعب القراصنة الحنين إلى منطقة الأنتيل، فشدوا رحالهم إلى سواحل غرب إفريقيا، وهناك تم لهم الاستيلاء على السفينة الهولندية «نيفستان» التى كانت فى طريقها إلى أمستردام. ولما تبين لميسون أن السفينة تحمل بضاعة حية تتمثل فى عبيد سود، جمع رجاله وخطب فيهم، وقد استبد به الغضب قائلاً:

ـ هاكم مثالاً على القوانين والأعراف المخزية التى نحاربها. هل من الممكن أن نجد أمرًا منافيًا للعدالة الإلهية مثلما نجده فى المتاجرة بأناس أحياء؟ هل من الممكن أن يُباع هؤلاء التعساء كما لو كانوا قطيعًا من الماشية، لمجرد أن لون بشرتهم يختلف عن لون بشرتنا؟ إن هؤلاء اللصوص الذين يَتَكَسَّبُون من وراء تجارة الرقيق لا روح لهم ولا قلب، إنهم يستحقون العذاب الأبدى فى نار جهنم. إننا ننادى بالمساواة بين البشر جميعًا بلا استثناء، وعلى هذا، وبناء على ما نؤمن به من أفكار؛ أعلن أن هؤلاء الأفارقة أحرار، وأدعوكم جميعًا يا إخوتى أن تعلموهم لغتنا، وديننا، وعاداتنا، وفنون الملاحة البحرية، حتى يتمكنوا من كسب قوتهم من عمل شريف، ويتمكنوا من الدفاع عن حقوقهم الإنسانية.

ما أن انتهى ميسون من خطبته؛ حتى دوت الأصوات فى وئام:

ـ عاش القبطان ميسون.

لم يفهم البحارة الهولنديون لفظًا واحدًا من الخطاب الذى ألقاه ميسون؛ ومن ثم ظلوا يحملقون، وقد أخذتهم الدهشة، فى هذه المظاهرة. على أنهم وقد أدركوا الحالة النفسية التى عليها رجال ميسون، طلبوا فى دهاء أن يسمح لهم بالانضمام إليهم، فأجيب طلبهم بشرط الخضوع التام لقواعد الجمهورية العائمة.

انتزعت القيود والأصفاد عن الرقيق الأسود، وأعطيت لهم الملابس التى أحضرها التجار لبيعها، فارتدوها، ثم جثا الأفارقة على ركبهم أمام محرريهم اعترافًا بفضلهم عليهم. وما هى إلا أيام معدودة حتى كان على ميسون أن يعض إصبع الندم لأنه وافق على قبول غرباء وسط جماعته، فإذا كان الأفارقة يتميزون بالوداعة والطاعة محاولين كسب رضا محرريهم، فإن الأمر كان مختلفًا بالنسبة للهولنديين، الذين سرعان ما أخذوا يخلقون المتاعب. لقد بدأوا فى إفساد طاقم «فيكتوار» بالسكر والسباب وأنواع السلوك المنحط الأخرى.

لم يكن أمام ميسون؛ والحال على هذا النحو، إلا أن يتوجه إلى معلمه طلبًا للنصيحة التى تضىء له الطريق بعد أن اقترح إنزال الهولنديين عند أقرب شاطئ. غير أن كاراتشيولى، الذى كان متحمسًا لدعوته، رأى أن على الجماعة أن تبذل قصارى جهدها، وأن تعمل على إصلاح حال الهولنديين. هذا ما اتفقا عليه.

جمع ميسون الفرنسيين والهولنديين جميعهم وقد حزم أمره على أن يعيد تربية هؤلاء الجدد. فقرأ عليهم موعظة طويلة، حذرهم فيها أن وجود الجمهورية العائمة وأمنها سوف يتعرضان للخطر إذا لم يغير الطاقم من سلوكه. وفى ختام كلمته، أعلن ميسون أنه من الآن فصاعدًا، سوف يعاقب كل بحار يخرج عن طاعة الله بخمسين جلدة. لقد شعر ميسون بمرارة الإحباط بعد أن اقتنع أن التهديد وحده هو الذى أفلح فى تحقيق النتائج التى لم تفلح فى إحرازها الطيبة والتسامح. الآن فقط أصبح الهولنديون يطيعونه ويحترمونه ويسمونه «بالقبطان الطيب». فى الوقت نفسه أخذت آراء معلمه كاراتشيولى تأخذ منحنى آخر. ها هو ذا يعلن أنه فى المرحلة الأولى من عملية إنقاذ البرية، لن يمكن - مؤقتًا - التخلى عن النقود تمامًا، وأنه سوف يتحتم التعامل معها باعتبارها شر لابد منه. بل إنه أعلن أن النقود يمكن أن تكون وسيلة مفيدة لتحقيق نياتنا الحسنة. نتيجة

لذلك اعترف بأن من المستحب جمع المال، وأقنع ميسون بأن يتخلى عن تحفظه القديم، وألا يستخف أكثر من ذلك بالكنوز التى تنقلها السفن. أخذ القبطان نيات معلمه بحسن نية، فالرجل قد أعلن أنه سوف يصبح بإمكانهم إقامة جمهورية ديموقراطية على الأرض؛ بعد أن يجمعوا المصادر المالية الضرورية.

وهكذا عاد ميسون ليصبح لصًا بحريًا، وإن كانت الأمانة تقتضينا أن نقول هنا أنه كان أكثرهم إنسانية وعطفًا، فعندما كان رجاله يستولون على أية سفينة غريبة، كانوا يتجنبون استخدام العنف الذى لا مبرر له، كما أنهم لم يكونوا يتعاملون بقسوة وغلظة مع طاقمها، ناهيك عن أنهم كانوا يقدمون العون الضرورى للجرحى والمرضى، وعندما كان يتبين لهم أن السفينة التى أخذوها لأناس متوسطى الحال يعيشون من كدهم - كالصيادين على سبيل المثال - كان ميسون يتركهم لحال سبيلهم دون أن يأخذ منهم شيئًا؛ بل كان يعتذر لهم عما أحدثه من اضطراب. وفى المقابل لم يكن ليرحم الأغنياء، فكان يستولى على كل ما تطوله يداه.

لسنوات عديدة ظلت جزيرة أنجوان (إحدى جزر القمر)، هى القاعدة الرئيسية التى ينطلق منها ميسون فى حملاته للقرصنة فى المحيط الهندى. هنا بالتحديد قرر أن يؤسس جمهوريته. حاول ميسون أن يكتسب ثقة أهل الجزيرة، فسعى إلى استمالتهم إليه، وقد نصحه كاراتشيولى أن يتزوج من ابنة زعيمهم. الفكرة على أية حال ليست مبتكرة؛ ولكنها مبشرة بالنجاح. على أنه لما لم تَرُقْ ابنة الزعيم لميسون؛ فقد تزوج من أخت الزعيم نفسه، وهى شابة تتمتع بالجمال. تم الزفاف فى جو من الأبهة والفخامة، ثم ما لبث عدد كبير من الطاقم أن حذوا حذو رئيسهم، فتزوجوا من فتيات الجزيرة.

لكن خطط إقامة الجمهورية على أرض هذه الجزيرة اصطدمت بالعديد من المصاعب والعقبات إذ كان السكان شديدى الارتباط بدينهم وعاداتهم القديمة. ولم يفهم ملك الجزيرة ولا زعماؤها معنى الاصطلاحات التى جاء بها الأغراب إليهم، بالإضافة إلى أنهم لم تكن لديهم أدنى رغبة فى التنازل عن المزايا الإقطاعية التى كانوا يتمتعون بها. أخيرًا فقد الزعيم صبره، فاستهان بعلاقات

النسب مع ميسون، وبدأ يهدده بالحرب إذا لم يتخل عن أفكاره الإصلاحية. استسلم القراصنة لليأس؛ فحملوا زوجاتهم، وأطفالهم، وممتلكاتهم، على ظهر سفينتهم، وأبحروا إلى مدغشقر، حيث أقاموا فى أحد خلجان الساحل الشرقى للجزيرة متجنبين بذلك الاتصال بالقراصنة الآخرين الذين كانوا يحتلون الجانب الغربى من الساحل. كان رجال ميسون يأملون أن يحققوا هنا حلمهم، وقد عاملهم أهالى مدغشقر بكل ترحاب. بعد نزول ميسون وكاراتشيولي إلى الشاطئ، وقد صاحبتهما مراسم احتفالية مهيبة، أعلنا على الفور قيام جمهوريتهما المثالية التى أسماها «ليبرتاليا»(٩).

وخلافًا لمخاوف الصديقين من أن يعوق مزاج المغامرات الذى طبع عليه القراصنة فى أن يعتادوا حياة الدعة والاستقرار، فإن هؤلاء ما لبثوا أن باشروا العمل بسرعة، وعن طيب خاطر، وأظهروا انضباطًا تغبطهم عليه كثير من المنظمات الحكومية فى ذلك الزمان. وبفضل ما تمتعوا به من حب للعمل، استطاع مواطنوا ليبرتاليا أن يبنوا فى وقت قصير بلدة صغيرة تضم مبانى سكنية مريحة، وأخرى للأغراض الاقتصادية، بل إنهم أنشأوا أيضًا تحصينات قوية تتيح لهم الدفاع عنها من الهجوم والمطاردة، إذ أن سكان ليبرتاليا لم ينقطعوا عن مهنة القرصنة المربحة على الرغم من أفكارهم السامية. وحتى يُؤَمِّنوا ظهورهم، فقد عقدوا حلفًا مع القبيلة المحلية، وعاهدوا على أن يدافعوا عنها ضد القبائل الأخرى، وضد الأوروبيين، فى مقابل الأيدى العاملة، والمساعدة المسلحة.

كانت الجمهورية تحكم بواسطة مجلس يرأسه ميسون الذى حمل لقب «الحامى». كان هذا المنصب يتم شغله بالانتخاب لمدة ثلاث سنوات. لم تكن الجمهورية تعترف بالملكية الخاصة. بالطبع كانت هناك خزانة عامة؛ ولكنها كانت تستخدم فقط لإشباع حاجات مواطنى الجمهورية. وكانت البضائع التى يتم الحصول عليها، تقسم طبقًا لمبادئ محددة، بحيث يتمتع الأوروبيون والسكان المحليون بحقوق متساوية. لم تكن هناك أية مكافآت خاصة تمنح مقابل العمل، أنه كان يعتبر واجبًا على كل مواطن. أما كاراتشيولى - الذى قام بكتابة دستور الجمهورية - فقد اختير وزيرًا للدولة، كما شغل القبطان تيو، القرصان الإنجليزى

الشهير الذى انضم بطاقمه إلى جماعة المواطنين الأحرار، فقد تولى منصب القائد الأعلى للأسطول.

بمرور الزمن، انضم إلى الجمهورية - فضلاً عن الإنجليز - بحارة كثيرون من أجناس أخرى لتصبح جمهورية القراصنة أشبه ببرج بابل[١٠]، وأصبح التفاهم هنا يتم بأربع لغات: الفرنسية، والإنجليزية، والهولندية، والبرتغالية، ناهيك عن عدد كامل من اللهجات المحلية. فى الوقت نفسه لجأ ميسون إلى توسيع حدود جمهوريته من أجل تحقيق مخططاته، وفى البداية راح يكتشف ساحل مدغشقر، فطاف حول الجزيرة على ظهر السفينتين «أنفانس» و «ليبرتى» اللتين تم صنعهما فى الترسانات الخاصة بالجمهورية، وعكف على وضع خارطة مفصلة للمياه المتاخمة للجزيرة. إبان عملية رسمه للخرائط، كان يحرر العبيد، ويأتى بهم إلى ليبرتاليا.

ازدهرت ليبرتاليا، وانقسمت الجماعة إلى فريقين: فريق يعمل مباشرة فى القرصنة، والآخر - وهو يرتبط رسميًا وماديًا بالأول - يعطى جَهده لأعمال الزراعة ورعاية الماشية والعمل بالحرف. لكن الكارثة حلت بغتة. لقد شنت القبائل الموجودة بالمناطق الداخلية للجزيرة، والتى كانت تعيش فى فقر مدقع، هجومًا على البلدة الغنية الواقعة على البحر، فقتلت أعدادًا كبيرة من السكان، وفر جزء من السكان إلى البحر طالبين النجاة بحياتهم مستقلين السفن. لكنهم ما كادوا ينجحون فى الفرار من الموت على الأرض حتى أصبحوا فريسة لمصائب الطبيعة فى البحر، حيث وقعوا فى قلب الإعصار ذاته. وهكذا استقرت فى القاع أحلام ميسون وكاراتشيولى وطاقمهم فى إنقاذ العالم، وبناء الجنة على الأرض.

## ساحل القراصنة

كان الساحل الواقع شرقى شبه الجزيرة العربية والبالغ امتداده ما يزيد عن مائتى كيلو متر يسمى بساحل القراصنة، وترجع هذه التسمية إلى المستوطنات التى أقامها القراصنة هناك، والتى لم تجر إزالتها إلا فى مطلع القرن الماضى.

لقد اعتبر الخليج الفارسى منذ أقدم العصور مهدًا للملاحة البحرية. هنا وجدت واحدة من أقدم الطرق التجارية التى ربطت بين الشرق والغرب، حيث تركزت فيه ـ لسنوات طويلة ـ تجارة الصين، والهند، من ناحية، وأوروبا، وإفريقيا، من ناحية أخرى فى أيدى سكان شبة الجزيرة العربية، وقد ورد ذكر هذه التجارة التى استمرت خمسة آلاف سنة، أول ما وردت، على حوائط نينوى، وبابل. عمل العرب الذين عاشوا على ساحل الخليجين الفارسى والعُمانى أولاً بالصيد واستخراج اللؤلؤ، وبمرور الوقت أخذوا فى تطوير مراكبهم المسماة بالباركات، فأدخلوا التعديلات على أشرعتها، وزادوا من أحجامها لينتقلوا بعد ذلك إلى النقل البحرى الذى يدر عليهم أرباحًا أكثر.

وقد مارس عرب مسقط التجارة مع عدد من البلاد مثل الصين، وسيام، وجاوه، وسومطرة منذ القرن التاسع الميلادى، فكانوا يحملون التوابل، والعطور الشرقية، والحرير، والأقمشة الأخرى غالية الثمن، بحرًا إلى موانى الخليج الفارسى. كان سكان عُمان على وجه التحديد هم الذين تولوا مد المصريين القدماء باحتياجاتهم من المر، والزيوت العطرية الضرورية لعمليات تحنيط الموتى، أما البضائع المجلوبة من الشرق والمتجهة إلى موانى الخليج الفارسى، فكانت تنقل شمالاً عبر نهر الفرات وحتى بابل نفسها، ثم تحملها الجمال عبر الصحارى حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث تنقل عبره إلى المدن الغنية فى أوروبا. وكانت المرحلة الأخيرة من هذه الرحلة الطويلة من اختصاص الفينيقيين، الذين كانوا يجنون من وراء عملهم بالوساطة أرباحًا هائلة. لم يدخل البحر الأحمر كمنافس ناجح للخليج الفارسى إلا بعد خمسمائة سنة تقريبًا.

لقد ارتبطت التجارة والملاحة البحرية فى منطقة الخليج الفارسى ارتباطًا وثيقًا فى تلك العصور بالقرصنة. آنذاك كانت هناك بضع قبائل من سكان الجزيرة العربية قد استوطنت شاطئ القراصنة، لكن قبيلة واحدة من بينها ـ وهى قبيلة القواسم كبيرة العدد ـ هى التى كانت تعمل أساسًا بالقرصنة. وهذه القبيلة لم يكن الأوروبيون يعرفون عنها شيئًا حتى ذلك الحين، إلى أن عبرت السفن البرتغالية فى القرن السادس عشر مضيق هرمز الواقع على الخليج الفارسى.

يتميز شاطئ القراصنة بكونه متعرجًا، الأمر الذى ساعد على أن تتحول الخلجان والخور العديد إلى مخابئ وأوكار مثالية للسفن. كانت مدينة رأس الخيمة عاصمة قبيلة القواسم، أحد آخر معاقل تجارة الرقيق فى العالم. بل إنها كانت تمثل سوقًا مفتوحة لتجارة البشر عند نهاية القرن التاسع عشر. وبانتقال طريق التجارة الرئيسى من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر، أخذ نشاط القواسم فى القرصنة البحرية يتراجع تدريجيًا. على أن ظهور المستعمرين الأوروبيين بعث القرصنة من جديد فى هذا الإقليم. فى عام ١٧٦٣ تأسست شركة الهند الشرقية فى ميناء بوشير[١١]، فمكنت الأوروبيين من احتكار التجارة فى منطقة الخليج الفارسى، الأمر الذى أفقد تجار الجزيرة العربية مصادر دخلهم. عندئذ بدأ هؤلاء فى ممارسة التجارة الممنوعة والتهريب اللذين تحولا إلى قرصنة صريحة كان لها تقاليد عريقة فى هذا الإقليم استمرت عدة قرون. كانت المرة الأولى التى مارست فيها قبيلة القواسم نشاطها فى القرصنة على نطاق واسع فى ديسمبر عام ١٧٧٨ عندما هاجمت ست باركات تابعة لهم سفينة إنجليزية كانت تحمل بريدًا حكوميًا من المستعمرات إلى إنجلترا عبر الخليج الفارسى. بعد معركة شرسة استمرت ثلاثة أيام، استطاع قراصنة الجزيرة العربية الاستيلاء على السفينة واقتادوها إلى رأس الخيمة، فلما أدار رءوسهم هذا النجاح، عادوا فى العام الذى تلاه فهاجموا سفينتين إنجلزيتين أخريين. وفى أكتوبر ١٧٩٧ توج القراصنة نشاطهم الطويل بهجوم سافر، لا على سفينة تجارية مجردة من السلاح هذه المرة، وإنما على السفينة الإنجليزية «فايبر» إحدى سفن الأسطول الحربى، وكانت راسية فى ميناء بوشير. كان القراصنة على وشك الاستيلاء على هذه السفينة نتيجة للإهمال الجسيم الذى ارتكبه الوكيل المحلى لشركة الهند الشرقية الذى قام ـ بناء على طلب قائد أسطول قبيلة القواسم بتوصية القبطان كيروزيرس قبطان السفينة فايبر ـ ببيع البارود وقذائف المدفعية للقراصنة.

وما أن وصلت براميل البارود إلى سفينة القراصنة، حتى سارعوا بعدها بفتح نيران مدفعيتهم على السفينة الإنجليزية فى الوقت الذى كان طاقمها بأكمله

يتناول طعام الإفطار فى اطمئنان كامل. على أن البحارة الإنجليز سارعوا على الفوز بالصعود إلى سطح السفينة، ثم قاموا بفك حبالها، وانطلقوا بها إلى البحر، ثم اشتبكوا فى القتال. كان أول من سقط فى هذه المعركة البحرية الشرسة هو القبطان كيروزيرس نفسه، فعندما جرحت صدغه شظية، أخذ يحاول إيقاف النزيف الذى أصابه بمنديل يده، وبقى صامدًا فى موقعه حتى باغتته شظية ثانية هَشَّمت رأسه. من بين خمسة وستين من أفراد طاقم «فايبر» سقط اثنان وثلاثون بحارًا بين قتيل وجريح.

وفى نهاية القرن الثامن عشر، يترك أبناء الشيخ جابر عتبة الأربعة من أهالى البحرين وطنهم ليجوبوا مياه الخليج الفارسى على سفينتهم عدة سنوات، استقروا بعدها بالقرب من خليج يسمى خور حسن حيث كونوا عصابة للقرصنة وترأسوها. وفى تلك الفترة لم تكن الدولتان المتنافستان، تركيا، وفارس، تمتلكان أساطيل قوية فى هذه المنطقة تمكنهما من تصفية القرصنة العربية التى كانت قواعدها ترتكز فى جزيرة قيس (منذ عام ١٨٠٥)، وكذلك فى رأس الخيمة.

كان سلطان عُمان النشيط الذى ظل فترة طويلة يقاوم لصوص البحر من أبناء قبيلة القواسم، هو واحد من أعدى أعداء القراصنة فى شبه الجزيرة العربية. وفى سبتمبر عام ١٨٠٤ جهز سلطان عمان حملة لمحاربة القراصنة بعدما بلغ به الغضب أشده نتيجة الهجوم المتكرر على شواطئ سلطنته. وتوجه السلطان على ظهر سفينة عربية صغيرة إلى باسيدا حيث قرر التسلل من هناك إلى وكر القراصنة برًا، وبحيث يتحرك أسطوله فى نفس الوقت ببطء متابعًا إياه بمحاذاة الساحل، لكن هذه الخطة المفتقدة إلى الحصافة كلفته ثمنًا غاليًا فقد خرجت له بغتة من إحدى الخلجان الصغيرة ثلاثة زوارق مليئة بالقراصنة، وبعد معركة لم تدم طويلاً، سقط السلطان ورجاله قتلى.

كان لموت السلطان أثره فى تهدئة القراصنة من قبيلة القواسم الذين قاموا بشن عدد من الهجمات الجريئة على السفن الإنجليزية. وكان الوحيد الذى استطاع إقناع الحكومة الإنجليزية بتنظيم حملة تأديبية ضد القواسم القبطان ديفيد سيتون الذى كان يعيش فى مسقط. قاد سيتون بنفسه أسطول الجزيرة

العربية، وشن هجومًا مباغتًا على جزيرة قيس. وفى السادس من فبراير عام ١٨٠٦ وبعد مباحثات طويلة مع قوات الاحتلال البريطانى فى بومباى، تم عقد اتفاقية مع القواسم فى بندر عباس التزم القراصنة بموجبها بإعادة السفن الإنجليزية التى كانوا قد استولوا عليها، ودفع التعويضات، وعدم التعرض بعد ذلك للملاحة البحرية الإنجليزية، وفى الوقت نفسه سُمِح لهم بدورهم بالتجارة مع القراصنة الإنجليز فى المنطقة الواقعة بين سوارت والبنغال.

على أن الإنجليز ما لبثوا أن عرفوا على الفور الثمن الحقيقى لعقد اتفاقات مع القراصنة: لقد هاجمت أربع باركات تابعة للقراصنة سفينة إنجليزية تتبع شركة الهند الشرقية بعد الاتفاق مباشرة. وبمضى الوقت لم يعد العرب يخشون السفن الحربية الإنجليزية، حتى أنهم راحوا يهاجمونها بكل وقاحة بعد أن حالفهم النجاح فى عملياتهم. وفى إبريل من عام ١٨٠٨ شن القراصنة هجومًا على السفينة الإنجليزية «فيورى» وحاولوا الاستيلاء عليها بطريقة الهجوم بالمصادمة. كان كل تسليح «فيورى» يتمثل فى ستة مدافع مما جعلها تبدو لهم غنيمة سهلة. إلا أن قائدها الملازم جوين أعطى اللصوص درسًا لا بأس به.

وفى العام نفسه عاد القراصنة ليهاجموا السفينة الإنجليزية «سليف» التى كانت فى طريق عودتها من بوشير تحرسها سفينتان حربيتان كان على ظهر إحداهما السير بريدجيس الذى تم تعيينه سفيرًا فى إنجلترا لدى فارس. وإذا بالسفينة «سليف» . التى كانت تسير متأخرة قليلاً عن السفينتين الأخريين . تجد نفسها فجأة محاصرة بباركات القراصنة. التزم قبطان السفينة الملازم جريم بكل دقة بتعليمات سلطات بومباى، فلم يفتح النار إلا عندما اقتربت الباركات العربية من سطح السفينة، لكن الوقت كان قد تأخر لاتخاذ أى قرار. أباد القراصنة طاقم السفينة المغتصبة بأكمله، والذى بلغ عدد أفراده اثنين وعشرين رجلاً. أما جريم فقد أفلت من الموت: فبعد أن أصيب بجرح بالغ فى القتال المتلاحم، نجح فى خضم الفوضى السائدة أن يسقط فى إحدى الفتحات دون أن يلحظه أحد. اتجه القراصنة صوب رأس الخيمة، على أنهم التقوا فى طريقهم بالفرقاطة الإنجليزية «نيدييد» التى نجحت فى استعادة جريم وسفينته.

وفى العام ١٨٠٨ نفسه وقع واحد من أغرب الصدمات بين الإنجليز والقواسم، فقد وقعت البارجة «فلاى» التابعة لشركة الهند الشرقية، والمجهزة بأربعة عشر مدفعًا إبان وجودها فى مياه جزيرة قيس فى أيدى القرصان الفرنسى الشهير القبطان ليميم، الذى كان مبحرًا على ظهر السفينة «فورتون». على أنه وقبل أن يستولى العدو على البارجة، ألقى قائدها القبطان ماينوارنج بالبريد الديبلوماسى، والوثائق، وخزانة السفينة فى البحر بعد أن حدد المكان على الخارطة، حتى يعود إليه فى أقرب فرصة تلوح له ليستخرج هذه الأشياء الثمينة. اقتيد ماينوارنج واثنان من الضباط إلى جزيرة موريشيوس، بينما أطلق سراح باقى أفراد الطاقم فى بوشير، ولما كان الضباط الذين نجوا، والموجودين فى بوشير يعلمون أن البريد الديبلوماسى القادم من إنجلترا، والذى كان على ظهر البارجة، له أهمية سياسية فائقة، فقد اشتروا قاربًا كبيرًا وقاموا على تسليحه ثم أبحروا به فى محاذاة ساحل الخليج باتجاه بومباى.

بعد جهود طويلة نجحوا فى انتشال البريد الغارق، على أنهم التقوا عند أحد المضايق المؤدية إلى الخليج الفارسى بسفن القراصنة، مما اضطرهم للدخول معهم فى معركة حامية الوطيس، كان للقراصنة التفوق العددى، ومن ثم تم أسرهم واقتيادهم إلى رأس الخيمة حيث ألقى بهم فى السجون أملاً فى الحصول من ورائهم على فدية كبيرة. لكن شهورًا عديدة مضت دون أن يتقدم أحد بالفدية، عندئذ قرر القراصنة التخلص من هَمِّ هؤلاء المساجين. هنا أخبر الإنجليز المحكوم عليهم بالموت زعيم القراصنة أنهم قد أغرقوا فى مياه جزيرة قيس كنزًا باستطاعتهم أن يستخرجوه بواسطة غواصين مهرة إذا أطلق سراحهم بالطبع. وقد وافق اللصوص. ما أن وصل القراصنة إلى المكان الذى حدده الإنجليز؛ حتى أخذوا فى الغوص فى المياه واحدًا بعد الآخر طمعًا فى الحصول على الغنيمة. وفى لحظة ما، بدا أن السفينة الراسية قد خلت تمامًا، فقرر الإنجليز أن الفرصة قد سنحت لهم للهرب. غير أن القراصنة الذين يسبحون حول السفينة لاحظوا السلوك الغريب من جانب أسراهم فعادوا إليها، ومنعوهم من الاستيلاء عليها.

على الرغم من هذا الحادث؛ فقد أوفى القراصنة بعهدهم، فأطلقوا سراح الأسرى بعد أن تمكنوا من العثور على الأموال من خزانة السفينة الإنجليزية. واتخذ الإنجليز مسارهم بمحاذاة الساحل فى طريقهم إلى بوشير سيرًا على الأقدام. كان الطريق غاية فى الصعوبة، كما أنهم لم يكونوا على علم بلغة السكان. والآن؛ وبعد أن قايضوا كل ملابسهم بالماء والطعام، باتوا يواجهون الموت جوعًا وعطشًا. اثنان فقط استطاعوا الوصول إلى بوشير: الضابط جوليو، والبحار بينيل، لكنهما بعد أن وصلا فى النهاية إلى بومباى ومعهما البريد الدبلوماسى القيِّم الذى بذلا من أجل إنقاذه كل هذا الجهد، إذ بهما يقابلان بكل برود وغطرسة من جانب المحافظ وانكين، وذلك بدلاً من كلمات الشكر والترحاب.

ومع مطلع القرن التاسع عشر كانت القرصنة قد انتشرت فى مياه الخليج الفارسى إلى حد أنها تسببت فى انهيار التجارة والملاحة البحرية فى هذه المنطقة تقريبًا. عندئذ؛ قررت شركة الهند الشرقية، التى كانت مصالحها قد أضيرت، أن تأخذ على عاتقها محاربة القراصنة على نحو مستقل. فقامت - مستخدمة ما لها من نفوذ كبير - فى تنظيم ثلاث حملات ضدهم. قامت الشركة بحملتها الأولى فى عام ١٨٠٦ تلتها حملتان عامى ١٨٠٩ و ١٨١٠.

فى عام ١٨٠٩ أعد القواسم أسطولاً قوامه ثلاث وثلاثون سفينة ضخمة (بلغ عدد الطاقم العامل على بعضها ثلاثمائة شخص، بينما تراوح تسليح الواحدة منها ما بين أربعين إلى خمسين مدفعًا) إلى جانب ثمانمائة وعشرة من المراكب أقل حجمًا بلغ إجمالى بحارتها تسعة عشر ألف شخص. فى مواجهة هذا الأسطول. جهزت السلطات فى بومباى فى سبتمبر من عام ١٨٠٩ أسطولاً مكونًا من ثمانية عشر سفينة. قرر قائد الحملة العقيد لايونيل سميث - بعد أن طالت مماطلة حكومة فارس فى الرد على ما اقترحه الإنجليز عليها بخصوص الانضمام لهم فى العمليات ضد القراصنة - قرر التوجه إلى مسقط حيث طلب مساعدة اثنين من شيوخ عمان. وفى الحادى عشر من نوفمبر وصلت السفن إلى المكان المحدد، ألا وهو رأس الخيمة عاصمة قبيلة القواسم. استولت الوحدات

العسكرية التى أنزلت على شاطئ المدينة، وكذلك المواقع الحصينة بها، وقد سمح سميث لجنوده أن ينهبوا ما شاءوا، وأن يحرقوا البلدة. تم تدمير ما يقرب من ستين سفينة كانت راسية فى الميناء، وقتل ثلاثة آلاف شخص، وتم أسر ألف آخرين. انتهت هذه الحملة بتدمير مائة وعشرين من سفن القراصنة وإغراقها، ثم اتجهت بعد ذلك النصر الذى حققته، إلى وكر القراصنة الثانى من ناحية الحجم الواقع فى ميناء شيفاس لِتُعْمِل فيه التدمير على النحو السابق. فى هذا الوقت قام الأسطول الفارسى - الذى انضم إلى الحملة - بمطاردة قراصنة القواسم الذين فروا من باسيدا.

نقل قراصنة القواسم نشاطهم إلى البحر الأحمر، واستطاعوا بالفعل أن يوقفوا الملاحة بين الهند وميناء موكا. واستطاعوا فى عام ١٨١٦ أن يستولوا على أربعة سفن تحمل بضائع ثمينة للغاية، مما دفع سلطات بومباى أن تطالب الشيخ حسن، شيخ رأس الخيمة، أن يدفع لها التعويضات المناسبة، لكن الشيخ لم يكتف بالرفض، بل طلب أن يعطى له حق الاستيلاء على السفن الهندية...

فى السنوات التالية قام القواسم ببث الذعر على امتداد الساحل الهندى مهاجمين سفن الملاحة الساحلية التى كانت تسير على مسافة لا تبعد عن بومباى بأكثر من سبعين ميلاً. كان عام ١٨١٧ هو العام الذى سجل فيه القراصنة رقمًا قياسيًا فى الاستيلاء على الغنائم. آنذاك كان أسطول القراصنة العرب مكونًا من أربع وستين سفينة كبيرة، إلى جانب عدد هائل من الباركات يعمل على ظهورها نحو سبعة آلاف قرصان.

قرر الإنجليز - بعد أن بلغ السيل بهم الزبى - أن يضعوا حدًا للنهب البحرى فى الخليج الفارسى إلى الأبد، فتولى السير و جرانت كاير قيادة العمليات، فوضعت تحت تصرفه سفينتان حربيتان كبيرتان: «ليفربول» ذات المدافع الخمسين و «إيدن» ذات الستة وعشرين مدفعًا، أضف إلى ذلك ست سفن مرافقة. بلغت قوة الحملة ألفًا وستمائة جندى أوروبى، وألفًا وأربعمائة من الأهالى، كما استعانت الحملة الإنجليزية بدعم تمثل فى ثلاث سفن من مسقط، وأربعة آلاف جندى عربى دفع بهم السيد سعيد ملك عُمان الذى تحالف مع الإنجليز ضد القراصنة.

فى عام ١٨١٩ وضعت الحملة، وإلى الأبد، خاتمة للقرصنة فى هذه المنطقة. وفى الثامن من يناير عام ١٨٢٠ سارعت معظم القبائل العربية - خوفًا من أن تواجه مصير قراصنة القواسم - بتوقيع معاهدة كان قد تم إعداد نصها، عرفت باسم المعاهدة العامة General treaty أقر بموجبها «السلام الوطيد بين الحكومة البريطانية والقبائل العربية». كان الهدف الرسمى للاتفاقية هو النضال المشترك ضد القراصنة، وضد تجار الرقيق فى منطقة الخليج الفارسى، وفى الواقع فقد كشفت هذه المعاهدة السياسية الاستعمارية لبريطانيا التى كانت تسعى لإخضاع الدويلات العربية الساحلية لسلطانها. لقد وضعت معاهدة ١٨٢٠ نهاية للقرصنة إلى جانب أنها محت أيضًا استقلال دول الخليج الفارسى، وأصبحت هى الحلقة الأولى فى سلسلة كاملة من المعاهدات التى أخضعت هذه الدول لبريطانيا.

فى عام ١٨٣٥ عاد الإنجليز من جديد فأرغموا الشيوخ العرب على توقيع معاهدة تقضى هذه المرة بعقد هدنة بحرية Maritime Truce وهكذا تغير اسم ساحل القراصنة ليصبح ساحل المعاهدة Trucial Coast لقد تجددت المعاهدة الخاصة بالهدنة البحرية عدة مرات حتى جعلها الإنجليز فى عام ١٨٥٣ هدنة خالدة. بل إنه حتى هذا الشكل من أشكال إخضاع ساحل شبه الجزيرة العربية بدا لهم إجراء غير كاف، وما برحوا يفرضون على الدول العربية الواقعة على الساحلين الشرقى والغربى حمايتهم. على سبيل المثال، كان على شيخ البحرين - بناء على البنود الواردة فى المعاهدة المبرمة عام ١٨٦١ - أن «يستأصل شأفة الحرب والقرصنة والرق» مقابل «الوصاية» التى تفرضها عليها بريطانيا.

فى مقابل تمثيل شركة الهند الشرقية فى بوشير - وهو التمثيل الذى فقد فى الواقع طابعه التجارى - أنشئ منصب المندوب السامى البريطانى الذى كان يمثل المصالح الرسمية لبريطانيا، فى علاقتها مع الحكام العرب الواقعين تحت حمايتها. على الرغم من احتجاج كل من تركيا وفارس، فقد استقرت الهيمنة المطلقة للإنجليز على مياه الخليج الفارسى، ولم يعد للقراصنة فيه أى نشاط، أى ساد فيه «السلام البريطانى» «Paks pritanica».

## هوامش الفصل السادس

(١) سيوان صن (حوالى ٦٠٠ . ٦٦٤): رحالة صينى، راهب بوذى. قام فى الفترة من ٦٢٩ . ٦٤٥ برحلة إلى آسيا الوسطى والهند.

(٢) خارشا (حوالى ٥٨٧ . ٦٤٧): حاكم إحدى الدول التى كانت تقع عند منابع نهر الجانج منذ عام ٦٠٦ وقد توسعت هذه الدولة فيما بعد على حساب الأقاليم التى غزتها (وعلى الأخص بيخار والبنغال).

(٣) تشولا: دولة إقطاعية فى العصور الوسطى.

(٤) مغول العظمى: الاسم الذى أطلقه الأوروبيون على الدولة التى حكمت الهند منذ عام ١٥٢٦. مؤسس هذه الدولة هو بابور، وهو من فرغانة بأوزبكستان، والتى كانت تدخل آنذاك ضمن إمبراطورية جنكيز خان.

(٥) بونا: أكبر الإمارات فى اتحاد دولة ماراتهى التى وجدت فى المنطقة التى تعرف الآن بولاية ماهاراشترا فى الهند وذلك فى منتصف القرن السابع عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر.

(٦) ديفون: Devon دوقية فى بريطانيا أكبر مدنها بلايموث وتوركى. (المترجم).

(٧) كاديس: Cadiz ميناء فى جنوب إسبانيا. (المترجم).

(٨) المقصود هنا أورانجزيبى المغولى (١٦٥٨ـ. ١٧٠٧) الذى حققت فيه الإمبراطورية المغولية إبان حكمه أكبر انتصاراتها الخارجية.

(٩) ليبرتاليا: من الكلمة الإيطالية Liberta أى الحرية.

(١٠) برج بابل: وفقًا لما جاء فى الإنجيل هو البرج «الذى يطاول السماء والذى حاول القدماء بناءه فى مدينة بابل بعد الطوفان، لكن الله غضب عليهم فخلط ألسنتهم حتى لم يعودوا يفهمون بعضهم البعض، واضطروا إلى ترك البناء.

(١١) بوشير: ميناء على الخليج الفارسى.

# الفصل السابع

# قراصنة بحار الجنوب

نظرة سريعة إلى خارطة جنوب شرقى آسيا تكفى لأن يقتنع المرء بأن هذه المنطقة التى تنتشر فيها الجزر هنا وهناك؛ تمثل ساحة مثالية للنهب البحرى؛ فالسفن هى وسيلة النقل الاتصال الوحيدة بين الجزر العديدة تمثل مصدرًا هامًا للثروة؛ أما الخلجان المعزولة فهى بالنسبة للقراصنة أوكار رائعة، ليس من المدهش إذًا تزدهر القرصنة فى هذا الجزء من العالم.

تعود أصول القراصنة الذين بدأوا فى احتراف مهنتهم عند سواحل الصين واستراليا إلى أهالى الملايو وإلى الدياكى بصفة أساسية، والدياكى صيادون سيئو السمعة؛ كانوا مجرد قبيلة من الصيادين والمحاربين فى الوقت الذى كان فيه أهالى الملايو - الذين استقروا فى جزيرة بورنيو - ملاحين ذوى خبرة حقيقية، على أن الدياكى انضموا بمضى الوقت إلى مجتمع قراصنة الملايو الذين قبلوهم بينهم لما وجدوهم يتمتعون بمزايا المقاتلين الشجعان الرفيعة.

كان احتكار الشركات الأوربية للتجارة وراء انتعاش القرصنة فى هذه المنطقة التى عمل سكانها منذ قديم الزمن كوسطاء فى تبادل البضائع بين الشرقين الأقصى والمتوسط، بين الصين واليابان من ناحية وفارس والجزيرة العربية من ناحية أخرى، بظهور الأوربيين فى المنطقة ساءت حركة الملاحة البحرية، وباءت التجارة بالكساد؛ ومن ثم بدأ تجار الملايو فى ممارسة التهريب الذى سرعان من تحول إلى نهب بحرى صريح.

كان أول ضحايا قراصنة الملايو هى قوارب وجونكات مواطنيهم أنفسهم؛ إذ أنها لم تكن مسلحة تسليحًا جيدًا على غرار السفن الأوروبية. وبمرور الوقت

سمحت الثروات التى جمعها القراصنة أن يمتلكون جزرا بأكملها؛ أسسوا فيه دويلات صغيرة تعيش على النهب. فبعد أن استولى قراصنة الملايو على جزيرة سولا، وسواحل برناويس، وسلطنة بورنيو الشمالية، وكذلك على سواحل جزر مولوكا؛ مدوا نشاطهم إلى المحيط الهندى، فصاروا يهاجمون سفن الدول الاستعمارية التى كانت تدعم خطوط الاتصال بين كل من المستعمرات الآسيوية والدول المستعمرة الأم فى أوربا. كان لهذا الأمر صدى كبير فى بريطانيا وهولندا والبرتغال، تلك الدول التى كانت تجنى أرباحًا هائلة من وراء مستعمرات فى جنوب آسيا.

يعد القرصان راجا أحد أشهر قراصنة هذه المنطقة، وقد ظل لمدة سبعة عشر عاما يفرض سلطانه على مضيق «مكاسار» الذى يفصل بين جزيرتى بورنيو وسيليبيس، ويفضل ما اجتمع له من صفات الشراسة، والإقدام والذكاء، اشتهر باسم «أمير القراصنة».

فى عام ١٨١٣ نجح راجا فى مهاجمة ثلاث سفن إنجليزية والاستيلاء عليها: بل قام هو نفسه بالإطاحة برءوس قباطنتها، وسرعان ما أرسل الإنجليز بعد هذا الحادث سفنهم الحربية لمطاردة راجا، لم يأل الهولنديون جهدًا فى تقديم المعونة للإنجليز إذ أن ممتلكاتهم فى باتافيا (جاكارتا الآن) كانت تتعرض لهجمات منظمة من قبل «أمير القراصنة». على أن هذه الحملة التأديبية لم يكتب لها النجاح.

وفى صبيحة يوم اكتنفته الغيوم؛ لاحظ قبطان إحدى السفن الشراعية الملاوية المعروفة باسم «البراو» إحدى سفن الحملة الإنجليزية وكانت تحمل اسم «إلك» وقد ظنها القراصنة سفينة تجارية، فاتخذوا قرارهم بالهجوم عليها، وما أن أصبحوا على مسافة مائتى متر منها حتى أطلقوا صيحة الحرب وفتحوا نيرانهم عليها، لم يكتشف القراصنة خطأهم الفادح إلا بعد فوات الأوان؛ إذ انهال عليهم وابل من القذائف ما لبثت على إثره البراو أن أخذت فى الغرق، ولم ينج من أفرادها سوى خمسة أفراد.

لما بلغ راجا نبأ هذه السفينة؛ أقسم أن يحطم كا ما يقابله فى طريقه من سفن أوربية. وهذا ما حدث بالفعل، فعلى مدى عدة سنوات، بعد هاذ الحادث؛ وصل عدد السفن التى استولى عليها راجا، وقتل أطقمها، ما يزيد على الأربعين سفينة، وقد انتشرت سمعة راجا المدوية إلى مسافة مائتى ميل من شواطئ جزيرة سيليبيس حيث كا يحتفظ دومًا باحتياطى من سفن البراو يتراوح ما بين خمسين إلى مائة جاهزة للخروج إلى البحر عند أول إشارة من الزعيم، أقام راجا نقاطًا للمراقبة على قمم التلال فى الجزيرة كانت تستخدم الرايات البيضاء نهارًا والمشاعل ليلاً للإبلاغ عن أية سفينة تبدو لها فى الأفق.

فى سبتمبر عام ١٨٣١ وصلت إلى كوالاباتو - المعقل الرئيسى للقراصنة على الساحل الغربى لجزيرة سومطرة - السفينة الشراعية الأمريكية «فرندشب» تحمل شحنة من الفلفل. لم تكن هناك أية حراسة تحيط بالسفينة الأمر الذى أتاح لمجموعة من الناس - بدا أنهم مسالمون - فرصة الصعود إلى سطحها دون عائق يذكر، وبغتة تنشب معركة على السفينة يروح ضحيتها تقريبًا كل طاقمها الذى لم يكن متأهبًا لقتال، ولم ينج منه سوى ستة من البحارة نجحوا فى الهروب على متن أحد قوارب النجاة. عندما وصل خبر الهجوم على «فرندشب» إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ سارعت الحكومة الأمريكية على الفور بإرسال الفرقاطة «بوتوماك» إلى مولاباتوا بقيادة الكوماندور داونيس الذى تلقى أمرًا بالقصاص من المجرمين.

وصلت إلى كوالاباتو السفينة الحربية وقد تخفت فى هيئة سفينة تجارية، وألقت بمرساتها فى الميناء، وفى نفس الليلة نزل إلى الشاطئ ثلاثمائة بحار كانوا على متن «فرندشب» يقودهم ضابط سابق، وفى الفجر هاجمت الفرقة الأمريكية القلعة، وبعد معركة حامية الوطيس استولت عليها، وقد جرى بعد ذلك إحراق البلدة وقتل سكانها، وبهذا اختفت قاعدة القراصنة فى كوالاباتو من الوجود.

وفى عام ١٨٤٢ تم تعيين جيمس بروك حاكمًا لولاية سرواك بجزيرة بورنيو، وكان الرجل يعى جيدًا أنه لا سلام على الجزيرة دون استئصال شأفة القرصنة عليها، وفى يوليو عام ١٨٤٩ قام بروك بالاشتراك مع القوات الإنجليزية بالتنكيل

بقراصنة الملايو بعد أن دمر لهم خمسين من سفن البراو واستولى على ثمانين سفينة أخرى، وبعد شهر واحد وضعت الحملة التأديبية الإنجليزية خاتمة للقرصنة الملايوية فى إقليم بورنيو.

وكان من نتيجة التقسيم الذى جرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بين هولندا وبريطانيا أن أصبحت جميع جزر أندونيسيا تحت السياسة الاستعمارية باستثناء سلطنة أتشى فى سومطرة التى احتفظت باستقلالها بسبب التنافس الحاد بين الدولتين هولندا وبريطاينا اللتين حاولت كل منهما احتلال أكبر جزء ممكن من الجزيرة، على الاتفاقيتين اللتين أبرمتا فى عامى ١٨١٥ و١٨٢٤ تعهدت الحكومة البريطانية بألا تقيم أية قاعدة لها فوق أراضى أتشى، وقد تعهد الهولنديون من جانبهم باحترام استقلال السلطنة.

وحين انتهى الصراع على تقسيم أندونيسيا واستقرار الوضع نسبيًا، بدأ المحتلون الهولنديون يشعرون بالضجر تجاه جارهم السلطان المستقل، كانت لاهاى تشعر بالقلق من أن يقع السلطان الضعيف فريسة لأى دولة؛ ومن ثم يتحول إلى رأس جسر يمكن أن يمثل تهديدًا لسيادة هولندا فى المنطقة، على أن الفرصة لم تسنح للهولنديين للإطاحة بالسلطان، وكان الإقدام على حرب استعمارية جديدة معرضًا ألا يجد قبولا فى هولندا نفسها خاصة بعد المعارك الدموية البشعة التى جرت منذ فترة طويلة فى جزيرة جاوا. ولكى يتمكن القائمون على الأمر من تبرير استعدادهم للعدوان على أتشى، أخذوا يكيلون الاتهامات للسلطان بزعم تورطه فى أعمال القرصنة، مؤكدين على أن هولندا ملزمة بالقضاء على هذا الشر بناء على شروط الاتفاقات المعقودة، وتجدر الاشارة هنا ـ إحقاقًا للحق ـ أن بعضًا من رعية السلطان كانوا لا يتورعون عن ممارسة النهب البحرى؛ لكن هذه الممارسات كانت فردية وقليلة.

مرة أخرى تعود هولندا لتمزق الالتزامات المنصوص عليها فى الاتفاقات المبرمة لتقوم فى عام ١٨٧١ بعقد اتفاق جديد بينها وبين إنجلترا؛ تتراجع فيه عن «حقوقها» فى ساحل الذهب مقابل ان توافق إنجلترا على السماح لها بضم سلطنة أتشى. عندئذ لم يجد السلطان أمامه، إلا أن يلجأ لتركيا طلبًا للعون، على

أن تركيا - التى كانت قد أصبحت خاضعة لبريطانيا بعد حرب القرم - لم تشأ أن تثير ضدها الحلفاء، ومن ثم آثرت أن تقف بعيدًا عن النزاعات والمؤامرات الاستعمارية، وفى إبريل عام ١٨٧٣ قامت هولندا بهجوم مسلح ضد أتشى، وبعد ثمانية أسابيع من المقاومة البطولية الباسلة انهزم جيش السلطان المكون من ثلاثة آلاف رجل تحت ضربات الحملة العسكرية للفيلق الهولندى المكون من سبعة عشر ألف رجل.

## أرو و دولوريس

كانت الحسناء أروداتوى إحدى ثلاث بنات لأحد الرجوات من جزيرة بالاباك، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وعلى مدى عشرين عامًا تزعمت أرو عصابة من لصوص البحر ظلت تمارس النهب والسرقة عند شواطئ الجزر الفلبينية بل وجرؤت على نشر نشاطها حتى وصلت به إلى مشارف مانيلا ذاتها، كانت أرو تهاجم جونكات التجار الصينيين الأثرياء والسفن الأوروبية والمدن الساحلية. وكانت كثيراً ما تقوم بأسر المواطنين الأغنياء بهدف أخذ فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحهم. كما كانت تقوم بقطع أذن أسيرها التعس وترسلها إلى ذوية باعتبارها دليلا ماديا محافظة بذلك على تلك العادة البشعة التى انتشرت آنذاك فى بحار الجنوب.

فى حوالى عام ١٨٦٠ أمضى تاجر قصب السكر الثرى السنيور فيكتوريس من مدينة مانيلا ثلاثة أشهر أسيرًا لدى أرو داتوى وكتب قصة شيقة عن هذه الفترة. على أن هذا التاجر لم يستطع أن يحدد بدقة مكان إقامته لأنه كان محبوسًا طوال الرحلة فى قفص عانى بداخله من شدة الحرارة والبعوض، وفى جزيرة القراصنة كانوا يعاملونه معاملة حسنة على أمل أن يأخذوا فى مقابلة فدية كبيرة، استطاع هذا العجوز السمين المرح أن يكتسب عطف القراصنة، إذ كان قريب الصلة بالأوساط العليا فى مانيلا وكم من أمسيات قضاها يحتسى الكروم مع القراصنة وهو يمتعهم بحكاياته المرحة ويقال أن أرو داتوى نفسها كانت تضحك بشدة وهى تستمع إليه حتى تفيض أعينها من الدمع.

وفى أبريل من عام ١٨٦٦ قرر الإسبان أن يضعوا حدًا للقرصنة فى منطقة الفلبين، اتجهت إلى جزيرة ميندانـاو اتى كانت تمثل آنذاك القاعدة البحرية للصوص حملة رأسها فرانشيسكو بافيا، وقد شارك فى هذه الحملة ضباط متطوعون من مختلف البلاد كانوا يتطلعون للدخول فى حرب مع القراصنة باعتبارها مغامرة شيقة ورياضة من نوع خاص.

استطاع الإسبان عبر معارك دموية الاستيلاء على قلاع القراصنة قلعة تلو الأخرى وفى الوقت نفسه أخذ القراصنة فى الانسحاب إلى عمق الجزيرة عبر طرق سرية لا يعرفها غيرهم وعندما اقتحم الإسبان آخر قلعة وقعت فى أيديهم قام جميع المدافعين عنها من الذين بقوا أحياء فى الانتحار وكان من بينهم أيضًا أور داتوى.

عام ١٨٢٥ ظل القراصنة الملايو يخطفون سنويًا ما يقارب الألفين من المستعمرين أغلبهم من الإسبان، وقد أصبحت هذه الحوادث من الأمور المعتادة حتى أنها أصبحت تمر مر الكرام، على أن بعضًا من هذه الأحداث مثل مغامرات دولوريس الحسناء ابنة قائد إيلويلو الإسبانية فى الفلبين قد جرى وصفها لتصبح جزءًا من تاريخ القرصنة.

عندما بلغت دولوريس من العمر ستة عشر ربيعًا أصبحت فتاة ذات جمال خلاب، الأمر الذى كان يشكل فى تلك الأزمنة، وفى بلد مثل تلك التى عاشت فيه خطرًا على فتاة شابة، غير أن أباها السنيور كرفاخول رأى أن مدافع القلعة الست، إلى جانب ثلاثين جنديًا تحت إمرته، ثم العلم الإسبانى بصفة خاصة يمثلون ضمانًا كافيًا لأمن ابنته ومن ثم أتاح لها حرية نسبية، اعتادت دولويس ـ التى كانت تتمتع بالورع أيضًا ـ اعتادت زيارة كنيسة صغيرة كانت توجد وسط الحدائق القائمة عند أطراف المدينة على مشارف الأحراش، وعادة ما كنت تتنزه فى الأمسيات قبل غروب الشمس وسط الصخور المتناثرة بامتداد شاطئ البحر مع محبوبها. وذات يوم لم تعد دولوريس من رحلة المساء، فتوجه الجنود الثلاثون على رأسهم السنيور كرفاخول وجدُّوا فى البحث عنها فى كل أنحاء الشاطئ طوال الليل، وقبيل مطلع الصبح عثروا فى إحدى المغارات القريبة من البحر على

الشاب مطعونًا برمح كما عثروا على شال دولوريس ملقى على الأرض وعليه آثار دماء، أما الفتاة نفسها فلم يعثر لها على أثر وقد شهد أحد الصيادين من أبناء الملايو بأن قاربين من نوع البراو مرا بجانبه وكان فى طريق عودته من رحلة وكان من الواضح من حركة مجاديفهما أنهما فى عجلة من أمرهما.

هز نبأ اختطاف ابنة رئيس القلعة الإسبانية سكان المتسعمرة الفلبينية. على أن محافظ المدينة لم تكن لديه أدنى رغبة فى أن يتورط فى حرب مع كل قوى القرصنة فى جنوب شرقى آسيا من أجل أية سنيوريتا مهما كانت رائعة الحسن، صحيح أن القراصنة نكلوا بالمدنيين من السكان لكنهم فى المقابل لم يلحقوا أى أذى بالجيش الإسبانى أو القس كما أنهم لم يتجسروا على سرقة الأديرة أو مهاجمة الثكنات والحاميات العسكرية، ظلت هذه الهدنة الصامتة المبرمة دون كتابة بين المستعمرين الإسبان وقراصنة الملايو سارية المفعول لمدة طويلة وبدقة متناهية من قبل الجانبين، أضف إلى هذا أن السفن الإسبانية كان أمامها مهام أهم بكثير من البحث عن الحسناء المخطوفة، ولا سيما أن كرفاخول نفسه لم يكن يعرف من الذى اختطف ابنته بالضبط.

بعد مرور بعض الوقت نجح الأب من خلال التجار والبحارة أن يعرف أن الفتاة موجودة فى جزيرة خولو المنيعة التى تعد القاعدة الرئيسية للقراصنة، حتى إن الهولنديين القادمين من قلعة باتافيا (جاكارتا) والذين تم إنزالهم فى هذه الجزيرة بصحبة الفرسان والمدفعية اضطروا للتراجع عنها ليعودوا صفر اليدين، كما كان على السفن التى تنقل البضائع بين جزر سومطرة وتسيليبس ومكاو أن تحمل تصاريح خاصة موقعة من سلطان خولو الذى كان - وفقًا للتقاليد المحلية - وريثًا لسلطان البحار بالإضافة إلى أنه كان يتربح أيضًا من أعمال النهب البحرى. كان من الضرورى أن يكون حائز التصاريح التى يصدرها سلطان خولو صينيًا فقط وذلك من أجل إضفاء جو الغرابة الشرقية على التقاليد المستقرة، ولهذا كان على أصحاب السفن أن يستأجروا هؤلاء الصينيين مقابل أجور مرتفعة الأمر الذى كان يعد وسيلة أخرى للحصول على مكاسب إضافية، أى أنها كانت فى الواقع جزية يتم تحصيلها من أصحاب السفن.

لقد تبين أن دولوريس بحالة طيبة وذلك بناء على أنباء وصلت إلى والدها الذى كاد اليأس أن يفتك به. واتضح كذلك أنها موجودة لدى أحد كبار الموظفين الذين ينتمون إلى الطبقة الأرستوقراطية والذين يعملون فى بلاط السلطان، فقد كان هناك موظفون يعملون فى حكومة السلطان فى الشئون العسكرية وفى شئون التجارة والقضاء، وكان الرجل الذى توجد عنده دولوريس الحسناء موظفًا مختصًا فى شئون القضاء ويدعى ميرافايال، كان يحيط الفتاة بكل أنواع البذخ الشرقى آملا أن تبادله الفتاة مشاعره فى نهاية الأمر.

قرر السنيور كرفاخول أن يدفع فدية مقابل إطلاق سراح دولوريس؛ فأرسل إلى الجزيرة صديقه القديم الذى كان فيما مضى بحارًا رائعًا، كما كانت تربطه علاقات صداقة بالقراصنة، غير أن الصديق عاد إلى إيلويلو بخفى حنين، فقد أعلن الموظف الكبير أنه لن يفرط فى دولوريس بأى ثمن. مرت الأيام ولم يتوقف اهتمام الإسبان فى جزر الفلبين بمصير دولوريس الحسناء، وأخيرًا أرسل المحافظ إلى سلطان خولو بأحد كبار الموظفين يعرض فدية رسمية ضخمة مقابل إطلاق سراح دولوريس، على أن الرسول تلقى ردًا بالرفض، كان من الواضح أن السلطان لا يتمتع بتلك السلطة المطلقة كما يتصورها البعض، بل بدا أنه مضطر لأن يضع فى اعتباره الأوليجاركية الإقطاعية التى يعتمد عليها.

واضطر محافظ الفلبين تحت ضغط الرأى العام أن يلجأ إلى عمل مظاهرة عسكرية؛ فأبحرت السفن الإسبانية فى استعراض للقوة بالقرب من سواحل خولو نفسها، على أنه مكان محظورًا عليها تمامًا أن تبدأ هى العمليات العسكرية، وكان المحافظ يقصد بذلك مجرد التلويح بتهديد السلطان الذى أظهر فى الواقع تماسكًا ورباطه جأش؛ فلم يستقر، ومن ثم عادت السفن الإسبانية بخفى حنين.

ولم يكن باستطاعة دولوريس أن تعتاد بأى حال من الأحوال على حياة الأسر، كما أنها لم تشأ أن تستسلم لقدرها ولا سيما أن البحارة والتجار الذين كانوا يأتون إلى خولو - والذين كانت أحيانًا ماتلتقى بهم - كانوا يخبرونها بالجهود التى تبذل من أجل إطلاق سراحها. وقد أقنعوها أن حبيبها قد شفى من إصابته، وأنه سرعان ما يأتى إلى خولا لإنقاذها.

فى الواقع كان الفتى العاشق قد لقى حتفه منذ زمن بعيد، ولكن تم العثور على فتى إسبانى آخر يدعى مارتينيز كان يمتلك قاربًا صغيرًا ذا شراعين. كان مارتينيز كثيراً ما يلاحق بنظراته درلوريس وهى ترتاد شوارع البلدة، ويكتفى بزفرات الحسرة من بعيد،، إذ كانت الفتاة هدفًا لا يمكن الوصول إليه لمن كان فى مثل وضعه، فلما بلغه نبأ اختطاف دولوريس؛ اهتزت جوانحه بشدة، وقرر أن يذهب بنفسه لإنقاذها،من أيدى القراصنة، وكان هذا القرار محض جنون مطبق لولا أن مارتينيز كان إسبانيًا حتى النخاع، فلم يتراجع عن عزمه قيد أنملة.

واستطاع مارتينيز - بعد وصوله إلى خولو - أن يكتسب بسرعة ثقة وعطف التجار المحلين بالتوابل،و والعطور، واللؤلؤ، ثم أخذ يقص عليهم بفصاحة إسبانية حقيقة، مغامراته العاطفية الفريدة، كان مارتينيز يظهر هنا، وهناك لعقد صلات المعرفة اللازمة له، وبفضل شخصيته المرحة؛ استطاع أن يأسر قلوب سكان البلدة من القراصنة.

وأخيراً وصلت أخبار البحار الشاب إلى بلاط ميرافال، وكان الرجل آنذاك يشعر بالملل من جراء المهاترات الفلسفية التى كانت تدور بينه وبين «آسام» وكان عالمًا ذا لحية يعمل لديه فى قصره. قرر ميرافال أن يستبدل الفيلسوف بشخص مرح محب للحياة، فكان أن رأى أن خير من يصلح لذلك هو مارتينيز، ولا سيما أن وجود شخص من بلديات دولوريس يمكن أن يجلب إليها شيئًا من السرور. وسرعان ما أصبح مارتينيز من رجال ميرافال فى البلاط وكاتمًا لأسرار دولوريس التى أطلعها على خطة الهرب، وسرعان ما حانت الفرصة، فقد اعتاد الموظف الكبير أن يصطحب معه مارتينيز من حين لآخر إلى إحدى الجزر القريبة لمتابعة عمل صائدى اللؤلؤ. وذات مرة طلبت دولوريس من ميرافال - بناء على نصيحة مارتينيز - أن يأخذها معه. اندهش الرجل لهذا الطلب فى البداية، ولكن لأن كل رغبة للمحبوب كانت بالنسبة له أمرًا؛ فد وافق على الفور.

أبحرت زوارق الموظف الكبير فى المقدمة تتبعها سفينة مارتينيز حتى وصلوا جميعًا إلى جزيرة صغيرة، وهناك تظاهرت دولوريس بالتعب، وركنت للجلوس فى ظلال النخيل على الشاطئ، فى الوقت الذى ذهب فيه ميرافايال لمتابعة صيد

اللؤلؤ؛ وما أن ابتعد حتى انطلق مارتينيز ومعه دولوريس إلى أحد الزوارق؛ فركباه؛ ومنه انتقلا إلى السفينة الشراعية. فى البداية لم تُثر هذه التحركات أية شكوك لدى خدم ميرافايال، ولكن عندما لاحظوا أن الهاربين فردا الأشرعة؛ سارعوا بإبلاغ سيدهم، ولقد حالف الشجاعين الحظ؛ فقد آزرتهما ريح قوية. وما هى إلا لحظات حتى اختفت السفينة الشراعية عن الأنظار.

أدرك ميرافايال المحنك أن قوارب البراو الثقيلة تمكنه من اللحاق بسفينة شراعية خفيفة الحركة، ولكنه ـ ودون أن يضيع الوقت ـ أبحر بها فى اتجاه خولو، وهناك أسرج أفضل حصان فى اسطبل السلطان وانطلق به إلى الشاطئ الآخر من الجزيرة. كان يعلم جيدًا أن مارتينيز مضطر للدوران حول الجزيرة ليسير متقدمًا نحو الرأس البارزز لها وإلا لما استطاع الوصول إلى أيلويلو.

لم يولو مارتينيز ولا دولوريس اهتمامًا بمن يلاحقهم، فقد كانا على يقين من نجاحهما، كما أنهما لم يقدرا خبرة ومهارة قراصنة الملايو. لم يتبق أمامهما سوى الجزء العلوى من جزيرة خولو وينتهى الأمر تمامًا، وإذا بالريح بغتة تهدأ، وأسوأ من هذا إذا ببروات القراصنة تظهر لهم فى الأفق. هنا أدرك مارتينيز على الفور أن وضعه لا رجاء فيه، على أنه قرر أن يخوض المعركة إلى نهايتها كمنا يليق بإسبانى، اقترح على دولوريس أن تهبط إلى قمرة أسفل السفينة، وأخذ فى إطلاق النيران نحو البراوات التى كانت تتجه نحوه بسرعة، وبعد أن نفدت ذخيرته،؛ نزل ليقف عند باب القمرة التى بداخلها دولوريس منتظرًا قدوم القراصنة وفى يديه مسدسين. أما ما آلت إليه هذه المعركة فليس من العسير عليكم التنبؤ به.

عفا الموظف الكبير عن هروب محبوبته التى ارتضت مصيرها نهائيًا، بل إنها بدأت بعد ذلك حتى فى ارتداء الملابس على طريقة نساء الجزيرة، وتدهن شعرها بزيت الزيتون، ويمضى الزمن وتلد دولوريس لزوجها عددًا من الأطفال، يحكى البحارة الأوروبيون الذين كانوا يأتون إلى جزيرة خولو أن شيئًا من البدانة قد أصاب دولوريس، ولكنهما ما تزال امرأة جميلة كسابق عهدها، وعندما كانوا

يتحدثون إليها كانت تسألهم عن وطنها وعن أبيها، ولكنها لم تبد أية رغبة فى ترك وطنها الجديد.

## كنز جزيرة جريجان

تحتفظ جزيرة جريجان الصغيرة الصخرية الواقعة ضمن أرخبيل ماريانا أيلاند فى المحيط الهادى فى أعماقها بكنز تبلغ قيمته مليونان من القروش الذهبية. ويرتبط مصير هذا الكنز باسم القرصان روبرتسون.

كان روبرتسون الاسكتلندى الأصل صريحًا فى كراهيته للإسبان ولإسبانيا ولكل ما يمت لها بصلة، وقد لعب هذا الإحساس دوراً حاسمًا فى مصيره، خدم ربوبرتسون فى الأسطول البحرى فى تشيلى ثم فى بيرو وذلك إبان ثورة التحرر الوطنى فى أمريكا الجنوبية وأظهر مهارة فائقة أهلته للوصول إلى رتبة قبطان. فى عام ١٨٢٢ علم ربورتسون أن شخصًا يدعى بينافيديس يقوم بقيادة عدد من فصائل قطاع الطرق واللصوص الإسبان والهنود يساعدون الإسبان فى حربهم ضد جيوش التحرر الوطنى التشيلى والبيروانى وأنه يجرى إمداده بالسلاح فى مكان ما من إقليم كونسيبسيون فى شيلى. كان روبرتسون آنذاك قبطانًا للسفينة «جلفارين» فأبحر بها إلى مدينة أراوكا حيث تمكن رجاله هناك من القبض على رجل إسبانى يدعى باتشكيو يعمل ضابطًا للاتصال كان عائدًا لتوه من معسكر بينافيديس، ولما رفض الضابط أن يخبره بمكان الفدائيين؛ أمر روبرتسون بربطه إلى شجرة وجلده، وقد أحدث الضرب أثره بالفعل، ترك روبررتسون الإسبانى وانطلق يطارد بينافيديس حتى عثر على فرقته، فباغته ليلاً وأسر سبعين شخصًا أمر بإعدامهم فى الفجر، غير أن بينافيديس ومساعده الإيطالى ومارتينيلى تمكنا فى الفرار، جرى القبض على بينافيديس بعد ذلك فى ميناء توبوكالما وأطيح برأسه، وبعد إعلان استقلال شيلى صدر قرار بالعفو عن مارتينيلى ورفاقه.

بعد انتهاء الحرب بين إسبانيا وجمهوريات أمريكا الجنوبية؛ تغير أسلوب حياة روبرتسون كلية فاستقر فى جزيرة غير مأهولة تسمى «موتشا» تقع بالقرب من

مصب نهر تيروا على بعد ثلاثين ميلاً من خليج كونسيبسيون. على أن حياة روبرتسون الهادئة هذه لم تستمر طويلاً. لقد عاد الإيطالى مارتينيلى الذى كان العفو قد صدر عنه إلى فالبراسيو حيث عهد بقيادة السفينة التجارية «الأخوات الأربع» التى كان يمتلكها تجار كاكاو إسبانى، كان طاقم سفينة مارتينيلى بأكمله تقريبًا مكونًا من رفاقه القدامى من عصابة بينافيديس فلما عرف مارتينيلى أن روبرتسون بقى ووحيدًا فى جزير موتشا، اتجه إلى هنام لينتقم لمن أعدموا من رفقاه، وعندما شاهد روبرتسون سفينة تحمل العلم الإسبانى وتدخل إلى الخليج؛ أدرك على الفور أن خطرًا يتهدده، وأسرع بالاختباء فى غابة قريبة، غير أن رجال مارتينيلى استطاعوا بعد يومين من البحث أن يقبضوا عليه وأن يزجوا به فى زنزانة السفينة.

قرر مارتينيلى أن ينتقم من الأسكوتلندى بنفس القسوة التى عامل بها رفاقه فاتجه بالسفينة نحو أوركا حتى يقتل روبرتسون فى نفس المكان الذى جرى فيه إعدام رفاقه، وفى طريق مارتينيلى وعصابته التى كانت تتكون من فئران برية أكثر منها ذئابًا بحرية إذا بعاصفة عاتية تهب عليهم. عندئذ تذكروا أن هناك بحارًا محنكًا محبوسًا لديهم فأخرجوه من محبسه يكاد يتجمد من البرد إلى سطح السفينة، وأعطوه كأسًا من الروم حتى عاد إليه صوابه، لم يجد الإيطالى أمامه مخرجًا آخر؛ فعهد بقيادة السفينة إلى روبرتسون. ابتعد الأسكتلندى بالسفينة عن شاطئ أراوكا، وما أن أخذ الجو فى التحسن حتى قفز من السفينة وسبح حتى وصل إلى سفينة اتضح أنها إنجليزية الجنسية.

كانت هذه الحادثة سببًا ليزداد روبرتسون كراهية للإسبان وما أن عاد إلى كونسبيسون حتى أرسل خطابًا إلى مارتينيلى أقسم فيه أن ينتقم منه أشد انتقام، ولكى يسهل على نفسه هذه المهمة عمل روبرتسون مساعدًا لقبطان الأسطول البحرى البيروانى يانج الذى كان يقود السفينة المعروفة باسم «كونجرسو» وكان من مهامه اقتفاء أثر القراصنة عند سواحل أمريكا، وبعد مغامرات عديدة خاضها روبرتسون طرأت على حياته بعض التحولات التى كان لها أكبر الأثر فى مصيره فيما بعد. من هذه التحولات أنه وقع فى الحب.

وكانت المرأة التى وقع اختيار روبرتسون عليها تدعى تيريزا منديس الصديقة السابقة لمحافظ ليما الإسبانى، كانت تيريزا أرملة جميلة متوسطة العمر لكنها كانت تتمتع إلى جانب جمالها بقدر كبير من الحذر والحرص. ولما كان القبطان روبرتسون لا يتميز بجمال أو جاذبية خاصة فقد استطاع أن يعتمد على عطفها طالما أنها كانت تجنى من وراء رابطتها به فائدة مادية. على أن الدخل المتواضع الذى كان يحصل عليه الضابط البحرى لم يكن يكفى لسد مطالب تيريزا الجميلة، وكان روبرتسون مدلها فى حبه حتى أنه كان مستعداً لأن يفعل أى شىء لمجرد أن يظل إلى جانبها.

وذات مساء حضر إلى منزل تيريزا أحد الضباط الشبان وكانت تقيم حفل استقبال رسمى وبينما هى جالسة فى الشرفة وإلى جوارها روبرتسون توجه الضابط الشاب نحوهما ودار بينهم حديث عن الكنوز ثم إذ به يشير إلى السفينة الإنجليزية ذات الأشرعة الثلاث «بيروفيان» وكانت تقف على المرسى وأخبر روبرتسون وهو بين الجد والهزل قائلاً:

- لو امتلكت هذه السفينة فسوف تتخلص من مشاكلك إلى الأبد.

سأله روبرتسو: لماذا؟

فأجاب الشاب مبتسماً: لأنها تحمل مليونين من القروش الذهبية وقد رحل ربانها اليوم إلى ليما، اقتنص هذه السفينة وسوف يكون المال لك!

تظاهر روبرتسون بأنه استمع لكلام الضابط باعتباره مزاحاً لا أكثر، لكن اتضح فيما بعد أنه أخذه على محمل الجد. فور انتهاء الحفل توجه روبرتسون إلى إحدى الضواحى المشبوهة على أمل أن يجد هناك بعض الشركاء، وسرعان ما جاء ليسبح خلسة تجاه «بيروفيان» وبصبحته أربعة عشر مقاتلاً داهموا دون أدنى ضجة، وعلى نحو مفاجئ طاقم السفينة الذى كان نائماً، وبعد ربع ساعة كانت السفينة التى استولى عليها اللصوص فى طريقها إلى عرض البحر.

وكان أول ما فعله صاحب السفينة الجديد أن نزل إلى العنبر ليتأكد مما تحوية الصناديق الكبيرة، ولقد كان الضابط الشاب على حق، إلا أن روبرتسون لم

يكن يرغب فى تقسيم الذهب بينه وبين شركائه، وإنما قرر أن يماطل فى تقسيم الغنيمة، عندما أصبحت السفينة على مسافة يوم من ليما؛ واتضح أن مخزون الماء العذب قد بدأ ينفذ، فعهد روبرتسون إلى اثنين من الآيرلنديين هما وليمز وجورج بالتوجه إلى الشاطئ لإحضار الماء. على أنهما رفضا الانصياع للأمر - ومثلهم مثل الباقين - خوفًا من أن يبحر رفاقهم ويتركوهم، ومن ثم فقد قرروا أن يتركوا شخصًا واحدًا يقوم بحراسة صناديق الذهب، وأن يذهب الجميع للحصول على الماء، كان لهذا الأمر أثره فى إقناع روبرتسون بأن إخضاع مرءوسيه لقيادته أصبح أمرًا بالغ الصعوبة، لاسيما أنهم أصبحوا شركاء، على أنه لم يفقد الأمل، واستمر يُسوِّف فى تقسيمه الغنيمة.

وأخيرًا استدعى روبرتسون الجميع إلى سطح السفينة لاتخاذ قرار بشأن ما يجب عمله مستقبلاً، كان البحارة الذين عاشوا من قبل فاقه شديدة متعطشين للحياة الرغدة التى سيوفرها لهم ما سرقوه من ذهب، ولقد تخيلوا أن إقامة الجنة على الأرض أمر بالغ البساطة: نساء حسناوات، وبحر من الخمر، لعل من الممكن أن تتحقق هذه الحياة فى إحدى الجزر النائية الخالية من البشر من جزر بحار الجنوب، ولقد تقرر الهجوم على تاهيتى للحصول على الروم والنساء، ثم الاستقرار فى إحدى جزر ماريان.

وكان روبرتسون يعى جيدًا أنه لن ينجح فى أن يخدع العصابة بأكملها، عندئذ قرر التآمر بالاشتراك معه ويليمز وجورج، أسفرت حسابات المتآمرين الدقيقة أن قيادة السفينة تستلزم ستة أشخاص على الأقل، ونجحت مساعيهم فى إقناع أربعة من الرفاق بضرورة التخلص من الثمانية الباقين، كان اقتراح روبرتسون يتلخص فى إلقائهم ببساطة فى البحر، لكن المتآمرين اعترضوا بشدة على ذلك لتعارضه مع أخلاقياتهم، لكنهم رأوا أن يضعوهم فى قارب، ثم يلقوا بهم فى عرض المحيط، وهو قرار يعادل فى مضمونه حكم الإعدام سواء بسواء لكن بفضل الاتفاق الغريب للظروف؛ فقد عثرت سفينة عابرة على القارب وكان بداخله جثث سبعة رجال وبحار منهك، وصلت السفينة إلى جزر هاواى، وهناك

قص عليهم البحار التعس كل المصائب التى مرت بهم، وأخبرهم بالكثير من التفاصيل المتعلقة بما اقترفه روبرتسون من أعمال.

حدث هذا بينما اللصوص الذين بقوا أحياء يواصلون إبحارهم عى صفحة المحيط الهادى بحثًا عن جزيرة الجنة، أما الذهب فكان راقدًا فى قاع السفينة فى الصناديق المغلقة إلى جوار براميل النبيذ الضخمة، وفى أعلى كانت النسوة اللاتى تم اختطافهن من تاهيتى يتذكرن ما حدث أمامهن من إلقاء الثمانية أشخاص فى قارب إلى مصير مجهول فى عرض المحيط دون أن يفقهوا كلمة مما يقوله القراصنة، فيما بعد أخذن يجتمعن معًا، ثم يأخذن فى التهامس، عندئذ نجح روبرتسون الذى كان جنون الملاحقة قد أهاجه فى إقناع الآخرين أن هؤلاء النسوة يتآمرن عليهم، وأنه ينبغى التخلص منهن. على أن القتل الجماعى للنساء قد قطع ما تبقى من روابط الثقة الواهية بين أفراد العصابة بعضهم ببعض.

مرة أخرى جرى اجتماع تقرر فيه تأجيل تقسيم الكنز، بل وانتهى الأمر إلى خفائه فى جزيرة جريجان بعد أن أخذوا منه عشرين ألف قرش ذهبى فقط، وهذه كان قد تم العثور عليها قبل ذلك فى قمرة القبطان، كان المفروض أن يكفيهم هذا لمبلغ كحصيلة لبيع السفينة فى أحد موانى الفلبين وذلك حتى موعد التقسيم النهائى للغنيمة.

وافق روبرتسون عن طيب خاطر على هذه المقترحات ظنًا منه أنه بهذا يستطيع أن يستفيد من الوقت إلى حين أن يتسنى له التخلص من شركائه، على أن هؤلاء لم يكونوا يكونون لزعيمهم أدنى قدر من الثقة، فأخذوا يتناوبون الحراسة ليلاً فيما بينهم، على أية حال لم يكن من وراء عملهم هذا أى طائل، فقد نجح روبرتسون مرة أخرى فى إقناع ويليمز وجورج بضرورة التخلص من الطمعين فى تقسيم الكنز معهم، وعندما دخلت السفينة إلى ميناء جزيرة فاو؛ استطاع المتآمرون غدرًا أن يجردوا رفاقهم الأربعة من أسلحتهم، ثم زجوا فى عنبر السفينة بعد أن أحكموا وثاقهم، بعدها أخذوا فى إغراق السفينة وغادروها على زورق من زوارق النجاة ومعهم العشرون ألف قرش الذهبية، وعندما

التقطتهم إحدى السفن الشراعية؛ ادعى القراصنة أنهم ضحايا إحدى السفن الغارقة، وسرعان ما وصلوا إلى ريودى جانيرو.

وذات يوم إذ بجورج بطريقة ما يخسر فى لعب الورق جزءًا من المال المخصص لشراء سفينة كان القراصنة قد خططوا أن تحملهم إلى جريجان، وعندما قص جورج ذلك على ربوبرتسون اشتاط الأخير من الغضب، فما كان إلا أن أطلق الرصاص عليه ليرديه قتيلاً، أبحر من تبقى من الشركاء الأحياء على ظهر إحدى السفن إلى سيدنى باستراليا.

وأصبح واضحًا للقرصانين إأن كلا منهما سوف يسعى للتخلص من صاحبه، وعلى هذا فقد قرر كل واحد أن يراقب الآخر بكل حيطة وانتباه، كان موقف ويليمز فى هذا الصدد ضعيفًا، إذا كان بحارًا رديئًا. بالإضافة إلى هذا ظل روبرتسون يحتفظ طوال الوقت بالإحداثيات الجرافية الدقيقة لجزيرة جريجان التى لم يكن ويليمز يعرف حتى اسمها.

من سيدنى اتجهوا إلى مدينة هوبارت فى جزيرة تاسمانيا، وهناك تعرف الشركاء على بحار إنجليزى معتزل يدعى طومسون يمتلك سفينة صغيرة يتكسب منها باصطياد الفقمة، عرض روبرتسون وويليمز على طومسون خمسة آلاف من القروش التى تبقت معهما مقابل أن يقوم بتوصيلهما إلى إحدى الجزر التى لم يذكروا له اسمها، وقد قبل طومسون العرض.

ذات مساء كان البحر عاصفًا، بينما وقف روبرتسون وويليمز عند أقصى طرف مؤخرة السفينة، ولم يكن هناك شهود على ما حدث سوى ما ذكره روبرتسون نفسه من أن ويليمز ألقى إليه بكلمات كما لو كانت كلمات الوداع، أخذها روبرتسون فى البداية على أنها مجرد مزاح، إلا أن ويليمز بعد أن عانقه ألقى بنفسه فجأة من ظهر السفينة.

بعد الحادث الذى جرى لويليمز، أصبحت طومسون يرتاب كلية فى روبرتسون الذى صمم على ألا يذكر الهدف من رحلته، وأخيرًا لم يتمالك طموسون، وإذا به على نحو ما يعترف لروبرتسون أن وليمز كشف له وهو مخمورر عن سر الكنز،

ولم يكن طومسون الطائش يعرف إلى أى حد من السهولة يتخلص روبرتسون من الأشخاص الذين لا حاجة له بهم، وها هو ذا يمسك بالقبطان المسكين ويلقى به من ظهر السفينة، على أن طومسون كان سباحًا ماهرًا، فأخذ فى السباحة وهو يصيح طالبًا النجدة. هنا وعد روبرتسون البحارة باقتسام الكنز معهم إذا هم لم يقدموا للقبطان أى عون، كان لذكر الكنز وقع السحر، فكان أن انصاع البحارة لأوامر ربورتسون فتركوا القبطان لقدره، ولم يخطر ببال أحدهم مجرد التفكير فى إمكانية نجاته، على أية حال فقد استطاع القبطان بفضل التيار البحرى المواتى أن يصل بعد عدة ساعات إلى جزيرة تينيان.

استقبل السنيورر ميدينيلى . المحافظ الإسبانى لجزر ماريان . استقبل طومسون الذى قص عليه قصة القرصان روبرتسون والكنز الأسطورى المخبوء فى جزيرة جريجان. وبينما راح القبطان يتحدث. كان أحد ضباط حاشية المحافظ يولى اهتمامه الشديد بالحديث، ثم ما لبث أن أخذ يلاحق القبطان بأسئلته عن مزيد من التفاصيل حول مظهره وماضى هذا القرصان، ما أن استيقن الضابط من أن بطل القصة هو روبرتسون، حتى اتجه صوب المحافظ متوسلاً أن يرسله للبحث عن القرصان. كان هذا الضابط هو باتشيكو نفسه الذى أصدر روبرتسون ذات يوم حكمًا بإعدامه. بعد يومين اثنين وصلت الحملة التأديبية إلى جزيرة جريجان، ولم يكن العثور على روبرتسيون هناك أمرًا صعبًا على الإطلاق، وفى هذه المرة اقتيد روبرتسون مكبلاً فى الأغلال إلى الأسر، وفى الطريق باءت كل محاولاته لإغراء باتشيكو بأن يكشف له عن مكان الكنز بالفشل، وأثناء وجوده على سطح السفينة قفز روبرتسون منها إلى البحر ليموت غريقا، وقد ذهبت محاولات ستين رجلاً من سكان جزيرة جريجان جىء بهم خصيصًا للبحث والتنقيب عن الكنز فى كل شبر منها تحت الرقابة الشخصية للمحافظ أدراج الرياح، أما مصير هذا الكنز المخبوء الذى راح ضحيته عدد كبير من الأرواح فما يزال سرًا إلى يومنا هذا.

* * *

# الفصل الثامن

# قراصنة الشرق الأقصى

مارس الصينيون واليابانيون القرصنة فى بحار الشرق الأقصى منذ أقدم العصور مثلهم فى ذلك مثل الإغريق والفينيقيين الذين مارسوها فى البحر الأبيض المتوسط والعرب فى البحر الأحمر. ظلت الحروب والتجارة فى العصور القديمة والوسيطة هى المورد الأول للقرصنة فى الشرق الأقصى. ولقد حقق النقل المائى فى الصين تطوراً كبيراً منذ مطلع القرن الثامن، استخدمت مختلف أنواع السفن على نطاق واسع فى كل المناطق الشرقية بهدف نقل البضائع والمسافرين، وقد احترفَ المهنة - مهنة النقل - أصحاب المراكب الكبيرة، ومن ثم فقد توطدت العلاقات بين الهند وفارس والجزيرة العربية فى الجنوب، وكوريا واليابان فى الشمال من خلال الموانى البحرية، ومثلت الأساطيل النهرية والبحرية المحملة بالبضائع إغراء كبيراً أمام التجار - القراصنة الذين ما برحوا يسطون بعضهم على بعض، ولعل أوضح تصوير لهذه الحالة بأجمعها تعكسه الكلمات التالية من أغنية «جونكى التاجر» والتى ترجع للفترة التى تم فيها وصفها:

«ليس بوسع التاجر أن يقيم دوماً فى مكان واحد؛ فإذا ما استشعر ربحاً وفيراً فى مكان ما فإنه يتخذ طريقه إليه من فوره، إنه يبدأ أولاً بالبحث عن رفيق لسفره ثم يذهب بعدها إلى بيته مودعاً أهله وعشيرته، وهؤلاء يصونوه بقولهم «المال خير من المجد والشهرة»؛ إلى السعى وراء المجد نادراً ما يكلل بالنجاح، أما السعى وراء المال فدائما ما يحالفه التوفيق، يجب أن يشد الرفاق أزر بعض، عليك أن تمتلك القدرة على الخداع عندما تشرع فى بيع بضاعتك؛ كما أن عليك أن تنجح فى خداع رجل الجمارك عند بوابات الحدود، بهذا ينمو رأسمالك ولا

تصيب الخسارة أموالك... تعلم لغة التجار السرية ولا تجامل عند الحساب حتى أبناء جلدتك»(١).

ظهرت فى القرن الثامن فى الطرق البحرية الموصلة بين الصين والهند وفارس السفن الصينية أيضًا جنبًا إلى جنب مع السفن الهندية والفارسية، وقد بلغ التنافس سواء على التجارة العالمية أو على التجارة الداخلية حد الصراع بكل الوسائل الشررسة التى دخلت فى عداد ترسانتها القرصنة أيضًا. ففى عام ٧٦٠ استولى تيان شان ـ جون مدينة يانتشجوا وقتل فيها ما يزيد على ألفى عربى وفارسى وكثير غيرهم من الأجانب.

كانت الحروب الخارجية والداخلية تمثل موردًا حيويًا آخرًا للقرصنة فى الشرق الأقصى لا يقل أهمية عن التجارة نفسها، فى الفترة من عام ١٢٨٠ إلى ١٢٨١ شن الإمبراطور الصينى خوبيلاى هجومًا على اليابان، غير أنه منى بهزيمة منكرة كان من نتيجتها أن فرض على سكان الدولتين حظر الاتصال فيما بينهما حتى نهاية حكم يوان (١٣٣٣). على أن التجار لم يوقفوا التبادل التجارى فيما بينهم صارفين النظر عن هذا الخطر؛ الأمر الذى ساعد على ازدهار التهريب الذى كان يتحول فى أحيان كثيرة إلى قرصنة، كانت سفن التهريب تنقل الأسلحة، وما أن تتيقن أن الدفاعات الساحلية فى أى مكان قد أصابها الوهن حتى تصب هجومًا على المواقع سيئة التسليح على الفور، وعلى هذا النحو كان المهربون يخرقون العزلة التى فرضتها الدولة عنوة.

وقد نشبت الحرب الأهلية فى اليابان فى النصف الثانى من القرن الرايب عشر عندما استعان القادة العسكريون والجنود اليابانيون الذين منوا بالهزيمة من قبل بحارة مرتزقة، ثم عقدوا اتفاقًا مع التجار استطاعوا بمقتضاه أن يعملوا النهب على سواحل الصين مستغلين المناوشات العسكرية التى لم تتوقف فى تلك الفترة التى بدأت فيها شمس أسرة يوان فى الأفول.

فى نهاية القرن الرابع عشر تمت وحدة اليابان، ولم تؤد إعادة العلاقات التجارية مع الصين إلى وقف الهجوم على سواحلها، بل إن هذه العمليات جرى

تصاعدها، فقد استطاع القراصنة اليابانيون إبان فترة النهب البحرى أن يصلوا إلى شبة جزيرة الملايو نفسها وإلى جزر الهند الغربية.

على الرغم من أن اليابانيين عملوا بالقرصنة علانية، فقد بذلت أسرة مين جل جهدها لدعم العلاقات التجارية الطبيعية مع جاراتها، فأدخلت اليابان فى منتصف القرن السادس عشر تطورًا ملحوظًا على تجارتها، ونجح الإقطاعيون اليابانيون فى الحصول على حق ممارسة التجارة مع الصين التى كانت تمثل سوقًا مريحة للغاية لتصريف سلعهم، ومن أجل هذا الغرض أرسل ساكافا أودزى رئيس ضياع الإقطاعى اليابانى أسيكاجا أدودزى، أرسل فى عام ١٥٢٣ نائبه سون سوتسين إلى الصين، كذل فعل الأمير أوتى أودزى الذى أرسل دونج شى وقد وصل المبعوثان إلى ميناء نينبو وعقد كلاهما عزمه للحصول لموكليهما على امتيازات للتجار مع الصين، نجح سون سوتسين فى دفع رشوة للخصى الذى كان يتولى إدارة التجارة البحرية، ومن ثم بات من حقه التجارة مع الصين. عندئذ لم يكن أمام الموكل الآخر ودونج شى سوى نهب نينبو.

أقنع الوجهاء الصينيون الإمبراطور تسيز توان بحل إداراة التجارة البحرية وإغلاق الحدود، وقد ألحقت هذه الخطوة أضرارًا بالغة بالاقتصاد الصينى تفوق ما جلبته عليه من فائدة، فهى لم تقض على القرصنة؛ وإنما أدت إلى تقويض أسس الحرف والتجارة الصينية، فبعد إغلاق الحدود البحرية للصين؛ انتشر التهريب على نطاق واسع، وأخذ التجار الصينيون الذين كانوا يعملون بالتجارة غير المشروعة، هم وملاك الأراضى، الذى كانوا مهتمين بأمر استيراد المنتجات الزراعية. أخذوا مرة أخرى فى إقامة علاقات غير مباشرة مع التجار اليايانيين والقراصنة. و،هنا قام أصحاب النفوذ وكبار الموظفين والنبلاء بدعم التجارة غير المشروعة تدفعهم إلى ذلك مصالحهم الشخصية، الأمر الذى أدى على نحو غير مباشر إلى نمو القرصنة، وفى هذه الظروف بدا أن السلطات المحلية عاجزة تمامًا عن اتخاذ أى إجراءات وليس من المستغرب أن تشوفان - قائد دفاع منطقة فوتزيان - أعلن دون مواربة: «أن الدفاع عن المناطق الساحلية ضد هجوم القراصنة الأجانب أصبح أسهل بكثير من الدفاع عنها ضد أبناء البلد أنفسهم».

كثيرًا ما كان المضاربون الصينيون يأخذون البضائع من التجار اليابانيين بالأجل. ثم لا يردون لهم أثمانها فيما بعد، عندئذ لم يكن أمام المتضررين سوى أن يلجأوا لطلب المعونة من القراصنة اليابنيين من أجل استعادة أموالهم المستحقة.

وفى عام ١٥٤٧ تلقى تشوفان أمرًا بدراسة الوضع فى إقليم تشيتسزيان، وفى ذات الوقت قامت مائة سفينة يابانية بالهجوم على ميناء نينبو ومدينة تايتشجو الصينيتين، وقد نما إلى علم تشوفان أن ملاك سفن القراصنة من بين كبار الإقطاعيين الصينيين فسارع بإبلاغ الإمبراطور علمًا بذلك، حظر تشوفان عى الصينيين التعامل مع التجار اليابانيين خوفًا من الموت، كما حظر عليهم الخروج إلى البحر، على أنه فى الوقت الذى قام فيه تشوفان بأسر عدد من المضاربين متلبسين، قام كبار الملاك بتقديم شكاواهم عن طريق المفتش الإمبراطورى لإقليم فوتسزيان إلى السلطات المركزية ضد إصرار تشوفان على إصداره أحكامًا بالإعدام على الناس دون إذن بذلك، كان من نتيجة هذا أن نقل تشوفان إلى منصب أقل، ثم ما لبث أن أنتحر فى عام ١٥٥٠، بعدها لم يجرؤ أحد على منع التجارة بأوامر رسمية، تم تدمير التحصينات الساحلية وأخذ التهريب فى الازدهار علانية، وعندما لم يجد القراصنة اليابانيون أية مقاومة، راحوا ينهبون سواحل الصين دون أن يتعرضوا لأدنى عقوبة.

وفى عام ١٥٥٣ قامت شرذمة من الخونة بحث بضع مئات من السفن الحربية اليابانية على التدخل فقامت هذه السفن بمهاجمة إقليمى تشجيتسزيان وتسزياسو، وقام اليابانيون - بعد توغلوا فى عمق البلاد - بنهب المدن والقرى الصينية وأعملوا القتل فى سكانها، استغل اللصوص والقراصنة الصينيون هذه الفرصة فارتدوا الملابس اليابانية وأخذوا بدورهم فى نهب السكان، وقد اتضح فيما بعد أن ثلاثين بالمائة من اللصوص فقط كانوا من اليابانيين، وفى عام ١٦٦٥ تم القضاء نهائيًا على القرصنة اليابانية.

وفى العشرينات من القرن الرابع عشر استولى البرتغاليون على مقادير التجارة فى المحيط الهندى، وفى عام ١٥١٦ اقتربت من شواطئ الصين سفينة

الإيطالى رفايلى بيريستويلو الذى كان يعمل ضمن الأسطول البحرى الحربى البرتغالى، وعلى الفور وصل إلى كانتون سفير البرتغال، ومنذ ذلك الحين ازداد وصول الأوروبيين من تجار ومبعوثين رسميين، ثم ما لبث أن تبعهم القراصنة الأوروبيون الذين سرعان من نالوا قصب السبق من اللصوص اليابانيين الذين كانوا يفوقونهم قسوة ووحشية. وقد أعمل البرتغاليون، بكل ما أتوا من قوة، النهب وقتل سكان السواحل الجنوبية الشرقية للصين.

تلى ظهور البرتغاليين فى الصين ظهور الإسبان والهولنديين والإنجليز الذين مارسوا بدورهم النهب والقتل واغتصاب السكان الصينيين، ولا شك أن أبرز القراصنة الصينيين كان كوكسينجا الممثل الثانى لأسرة عريقة من لصوص البحر انتقلت عبر أجيالها حرفة القرصنة، الأمر الذى لم يكن بالمناسبة يمثل ظاهرة فريدة، كان لين تشين - تسى والد كوجسينجا عاملاً فقيرًا يتقاضى أجرًا يوميًا، واضطرته الحاجة بعد ذلك إلى أن يلتحق أجيرًا فى مستعمرة ماكاو البرتغالية، وهناك تمكن من ادخار مبلغ من المال استطاع بفضله أن يذهب إلى اليابان بهدف رؤية عمه، وهناك أيضًا تزوج من يابانية تدعى تاجا فأنجبت له فى عام ١٦٢٣ بطل قصتنا.

امتلك تشين بعد مغادرته اليابان أسطولا صغيرًا للقرصنة دفع فيه ما اكتسبه من نقود علاوة على الدوطة التى حصل عليها من زوجة، وسرعان ما نما الأسطول حتى أصبح بالفعل يسيطر على التجارة البحرية عند الساحل الجنوبى الشرقى للصين، واحترف أسطول تشين للقرصنة نهب قرى الصين الساحلية والجونكات فضلاً عن المراكب التجارية الهولندية الكبيرة التابعة لشركة الهند الشرقية.

قبل عدة سنوات من هذه الأحداث كانت الصين قد تعرضت لغزو من منشوريا، واستمرت أسرة مين فى نضالها ضد الغزاة فى جنوب الصين إلى أن قرر امبراطور الصين أن يتخذ قرارًا يائسًا فعرض على تشين منصب أميرال الأسطول الصينى حتى يشارك أسطول القرصنة معه فى النضال ضد منشوريات، على أن تشين طالب أن يتبنى الإمبراطور ابنه، وأن يخلع عليه لقب

أمير، وذلك مقابل خدماته، اعتبرت طلبات القرصان أمورًا مبالغًا فيها الأمر الذى استغله المنشوريون، فوجهوا الدعوة لتشين للحضور إلى بكين، اقترحوا عليه لقب إمبراطور جنوب الصين، ولكن عندما وصل تشين فى عام ١٦٤٠ إلى المدينة تم إلقاء القبض عليه وأودع السجن حيث تعرض للتعذيب وانتهى الأمر بإعدامه.

بعد مصرع تشين، تولى ابنه كوكوسينجا قيادة أسطول القرصنة، ولما كانت الرغبة تحدوه فى الانتقام من منشوريا، فقد انضم عن طيب خاطر إلى الإمبراطور مين، واستمر على مدى عشرين عامًا فى نهب سواحل الصين. عندئذ لجأت السلطات المنشورية إلى تكتيك «الأرض المشتعلة»! فأخلت السواحل فضلاً عن جزء كبير من اليابسة من جميع السكان، وأمرتهم بحرق مساكنهم وتدميرها. قرر كوكسيجا بعد أن فقد مصدر غنائمه أن ينقض على الهولنديين أعداء أبيه القدامى الذين كانوا قد بدأوا آنذاك فى احتلال فورموزا (تايوان).

وفى مايو عام ١٦٦١ قام كوكوسينجا على رأس أسطول مكون من ستمائة سفينة بالهجوم على الهولنديين الذين كانوا متحصنين فى قلعة زيلاند، وبعد حصار دام عشرة أشهر استسلمت الحامية الهولندية بعد أن أنهكها الحصار، ومن بعدها انتقلت السيطرة الفعلية على فورموزا بأسرها إلى يد كوكسينجا، على أنه لم يتمكن من أن يجنى ثمار انتصاره إذ هاجمه الموت فتوفى بعد عام ليتولى ابنه تشين تسين قيادة منظمة القرصنة، لقد كان لانتصار كوكسينجا تأثير غير مباشر على مستقبل فورموزا، فقد أوقف طرد الهولنديين عملية الاحتلال، وبعدها قل ارتباط الجزيرة بالقارة الصينية.

## السيدة تسين

جاءت بداية نهضة القرصنة عند تخوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على يد سيدة تدعى تسين، وما هى إلا سنوات قليلة حتى أصبحت هى الأدميرال غير الرسمى لأسطول القرصنة الصينى، بأسره، وقد أضفى هذا الوضع احترامًا رسميًا حتى أن الامبراطور الصينى منحها فى عام ١٨٠٢ لقب الفارس الملكى،

الأمر الذى لم يفعله ملك إنجلترا لأبرز قراصنته وكان يمنحهم ألقابًا سامية. على أية حال فقد كان ما حصلت عليه تسين مجرد لقب.

كانت سفن القراصنة المنتمية إلى أساطيل مختلفة تسير رافعة أعلامًا مختلفة الألوان: حمراء وصفراء. وخضراء، وسوداء، وزرقاء، وبيضاء. قبل وفاة زوج القرصانة السيدة تسين، تولت قيادة أقدم أسطول كان يمخر عباب البحر تحت راية حمراء، ولكنها بعد وفاته أصبحت تقود الأساطيل الستة جميعها، سنت تسين نظامًا محكمًا لتسير عليه جماعة اللصوص، فقد طبقت القواعد الصارمة التالية على مرءوسيها:

١ - إذا هبط البحار إلى البردون إذن، تقطع أذناه فى حضور طاقم الأسطول بأكمله، فإذا تكرر هذا الفعل يتم إعدامه.

٢ - محظور امتلاك حتى أقل المسروقات قيمة بلا تصريح بذلك، بل تخضع جميع الأشياء للحساب ثم يأخذ القرصان جزأين من عشرة (٢٠٪) وتدخل الثمانية أعشار الأخرى فى المخزن لتكون ملكية عامة، امتلاك أشياء من الرصيد العام يعرض من أخذها للإعدام.

وقد وضعت هذه المرأة الماهرة فى حسبانها أن تكون هى الوحيدة التى لاتأخذ لنفسها شيئًا، وجدّت فى البحث عن حلفاء وكذلك عن دعم من السكان، هناك مادة فى ميثاق القراصنة تنص على الحظر الصارم لنهب الفلاحين كما يفرض هذا الميثاق عليهم أن يدفعوا ضرائب على الخمر والأرز وبقية المنتجات الزراعية الأخرى، وقد مكّن الحفاظ على هذه القواعد القراصنة من ضمانهم المواد الغذائية والذخائر بشكل دائم.

أظهرت تسين فى إحدى المعارك البحرية مع أسطول الحكومة دارت رحاها عام ١٨٠٨ موهبة استراتيجية عالية، فعندما اقتربت سفن الحكومة منها دفعت نحوها ببضع سفن بعد أن أخفت باقى السفن وراء الرأس، وما أن انشغلات القوة الرئيسية بالمعركة مع تلك السفن حتى هاجمتها تسين على رأس بقية السفن من الخلف، وقد لقى الأسطول الحكومة هزيمته بعد معركة دامت طوال اليوم.

انتقامًا من هذه الهزيمة أصدرت الحكومة الصينية أمرًا للجنرال لين - فا - بمعادوة الهجوم على القراصنة. ولكن لين - فاشعر بالخوف عند لقائه بأعدائه وجبن عن مواجهتهم وشرع فى الانسحاب، ولكن القراصنة أسرعوا بمطاردته ولحقوا بأسطوله بالقرب من ألونجابو. وما أن بدأت المعركة حتى هدأت الريح تمامًا ووجد الأسطولان أنفسهما فى مواجهة بعضهما البعض وقد حكم على كليهما بالشلل التام وفقدوا القدرة على القيام بأية أعمال عسكرية، عندئذ ترك القراصنة سفنهم وأخذوا فى الوصول إلى السفن الحكومية سباحة، ومرة أخرى يحرز القراصنة انتصارًا باهرا.

فى العام الذى تلى هذه الهزيمة، قام الأدميرال تسون مين - صن على رأس مائة (سفينة بمهاجمة القراصنة، وبعد معركة هائلة انتهى الأمر بهزيمة لصوص البحر، على أن الحكومة - ولم تكن تمكنت بعد من مكافأة المنتصرين) - إذ بها تفاجأ بالسيدة تسين تسيطر مرة أخرى على الموقف، فبعد أن استجمعت قواها المبعثرة واستدعت لنجدتها عصابتين أخريين من القراصنة، انطلقت تبحث عن أسطول الحكومة المنتصر، وما أن عثرت عليه حتى صبت عليه جام غضبها انتقامًا من الهزيمة التى منيت بها قبل فترة قصيرة.

بعد أن استنفد الامبراطور الصينى كل طرق النضال ضد القرصنة لجأ - مثله فى ذلك مثل الحكام الأوربيين قبله فى غابر الزمن - إلى إغراء القراصنة بوعود العفو عنهم إذ هم توقفوا عن حرفتهم الإجرامية، الأمر الذى أتى ببعض الثمار. كانت أولى هذه الثمار هى ترك أوبو - تايى قائد الأسطول الأسود الذى يبلغ قوام طاقمه ثمانية آلاف بحار ومائة وستين سفينة للسيدة تسين وبصحبته قراصنته ليستسلم للإمبراطور. كان بحوزة هذا الأسطول خمسمائة مدفع ثقيل إلى جانب خمسة آلاف وستمائة قطعة سلاح خفيفة (تدل هذه الأرقام، بالمناسبة، دلالة بليغة على ما كان لمنظمة السيدة تسين للقرصنة من قوة جبارة). كنوع من المكافأة قامت الحكومة الصينية بتقديم قريتين للقراصنة الذين فروا من الخدمة، أما أوبو - تايى فقد استحق منصبًا رفيعًا ولقبًا حكوميًا ساميًا.

أصيبت السيدة تسين بالدهشة البالغة من جراء هذه الخيانة، على أن ما حدث قد ترك أثره عليها إذ راحت تفكر: «كيف إذاً ستكافئنى حكومة الصين وأنا أقوى عشر مرات من أبوب ـ تايى؟». على أن مسألة استسلام منظمة القرصنة الجبارة بكامل هيئتها كان أمراً أكثر تعقيداً من مجرد استسلام أسطول واحد، وبدأت المباحثات الطويلة والشاقة بين الحكومة والقراصنة، كان الوسيط فيها طبيباً من جزيرة ماكاو التى يحتلها البرتغاليون ويدعى تشان.

وفى نهاية الأمر تم الاتفاق على أن يحصل كل قرصان يتخلى عن حرفة النهب على جنزير صغير وبريمل من الخمر ومبلغ من المال يمكنه من بدء حياة جديدة، لاقت هذه الشروط رضا البعض، أما القلة من القراصنة الذين رفضوا الاستفادة من هذا العرض فقد سوت حكومة الصين حساباتها معهم بكل سهولة. منذ هذا الحين ساد الهدوء مياه الصين مؤقتاً.. أما السيدة تسين فقد أكملت حياتها تعمل بوصفها زعيمة عصابة للمهربين.

* * *

# الفصل التاسع

# قراصنة زماننا

بانتهاء القرن التاسع عشر، لم تعد القرصنة تمثل خطرًا حقيقًا على الملاحة البحرية مثلما كانت فى بداية ظهورها، أما القرن العشرون فقد شهد بعض الأعمال الفردية للنهب البحرى خاصة فى البحر الأحمر وفى البحار المتاخمة للصين. لقد اتخذت عصابات القرصنة فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الحالى أشكالاً منظمة على غرار المؤسسات الرأسمالية، إذ كان يتم إنشاء المؤسسة باستئجارعصابة من المجرمين يخرجون للبحث عن الضحية المرتقبة. كان زعيم العصابة ومساعدوه يبدأون بجمع المعلومات عن السفينة التى ينوون نهبها، وعن قائدها، وبنائها وطاقمها، وما إلى ذلك من معلومات، فإذا ما جاءت نتائج الاستخبار المبدئى إيجابية، يأخذ القراصنة فى التسلل إلى السفينة على هيئة مسافرين، بينما يتسلل البعض إليها للعمل ضمن طاقمها، ولا يبقى بعد ذلك إلا مهمة توصيل الأسلحة والذخائر إلى سطحها.

كانت الصعوبة تتمثل فى أن شرطة الموانئ فى كل من شنغهاى، وهونج كونج، وسنغافورة تقوم بتفتيش أمتعة الركاب الصينيين بدقة متناهية، غير أن الأمر كان مختلفًا تمامًا فى الموانئ الصغيرة التى يزدحم مئات الصينيين فيها فوق حواجز الأمواج وأرصفة الموانئ حيث يصعب تمامًا تفتيش كل صُرّة. ولهذا فإنه بتطور أعمال القرصنة ضد السفن التى كانت تحمل عددًا كبيرًا من المسافرين الصينيين جرى استئجار الخفراء المسلحين، وعمل أصحاب السفن على فصل غرف مختلف الدرجات بعضها عن بعض بحواجز حتى يصعب التنقل بين أجزاء السفينة.

هاكم نموذجًا لهجوم القراصنة الصينيين على السفن فى فترة ما بين الحربين[1].

«تصوروا المشهد التالى، غروب الشمس، سفينة تبحر بصعوبة بمحاذاة الشاطئ مجتازة للرياح الموسمية الجنوبية الشرقية العاصفة. الحر خانق فى عنابر المقدمة والمؤخرة حيث تنزل جمهرة من الرجال والنساء والأطفال يجلسون فوق أمتعتهم، البعض منهمك فى إعداد الطعام والبعض الآخر مشغول فى أخذ زينته، بينما تحلق آخرون فى جماعات. من الممكن مشاهدة الركاب ـ سواء فى أيام الصحو أو فى أوقات القيظ ـ وقد افترشوا الأرض شبه عراة أسفل قوارب النجاة بامتداد جانب السفينة. وعلى السطح العلوى عدد من ركاب الدرجة الأولى: إنجليز، وصينيون. هنا توجد كذلك غرف طاقم القيادة وبرج القبطان.

الآن وقت الغذاء، كبار القادة وأصحاب الرتب الكبيرة فى الطاقم يجلسون فى غرفة الطعام بدون أسحلتهم، فجأة تعطى إشارة ما ـ قد تكون مجرد إشعال سيجارة ـ وعلى الفور يدوى نداء مرتفع: «ارفعوا أيديكم!»، تنعقد ألسنة الموجودين من الدهشة وقد بوغتوا، ثم تتجه نظراتهم إلى الرشاشات الموجهة إليهم فى أيدى الحمالين والتجار والبحارة. يسلم الجميع سلاحه تبعًا لدوره، يتم إبلاغ كل الذين تم حبسهم فى الغرب أو فى الصالونات بأن أى مقاومات مهما بدت صغيرة جزاؤها الموت. يتكرر المشهد ذاته فى برج القبطان، وفى حجرة عامل اللاسلكى، وفى قسم الماكينات« أمر مباغت مع توجيه المسدس إلى الوجه ثم استسلام لا مناص عنه، يلى ذلك أمر «مهذب» بالتوجه إلى خليج بياس بحيث يكون الوصول إليه فى تمام السادسة والنصف صباحًا، لن يصاب أحد بضرر طالما لم تجر أى محاولة لاستعادة السفينة.. بعد هذا يبدأ نهب السفينة بالاستيلاء على الأشياء الثمينة والملابس الغالية بانتزاعها من فوق أجساد أصحابها الذين ينتابهم الهلع الشديد.

تتخذ السفينة مسارها فى الظلام الدامس وقد تم إخماد المشاعل المميزة وكذلك الإضاءة بالغرف نحو خليج بياس، أحد أكثر الخلجان غموضًا على الشاطئ لصينى حيث المياه فسيحة وغير عميقة وتحيطها الهضاب الرملية. من

البحر يمكن مشاهدة عدد قليل من القرى الصينية الصغيرة وزوج من جونكات الصيادين وجميعها تترك فى النفس إحساسًا بالهدوء والسكينة، ولكن ما أن تدخل السفينة التى اغتصبها القراصنة إلى الخليج حتى يهرع لاستقبالها أسطول كبير من قوارب الجونكات يرسل راكبوه الغلاظ ذوو الوجوه العابسة اللامبالية بالتحية إلى القراصنة، ثم سرعان ما يشرعون فى عملهم بتفريغ السفينة من حمولتها على وجه السرعة، بل ويأخذون أيضًا أجهزة الكرونومتر وآلة السدس التى تستخدم لقياس ارتفاع الأجرام السماوية، وكذلك ينتزعون الأجزاء النحاسية الكبيرة، وكثيرًا ما تحدث وقائع مفجعة، إذ يتم اقتياد الآباء والأمهات تحت تهديد المسدسات إلى داخل البلاد فى اتجاه الجبال حيث يرغمون على القيام بالأعمال الشاقة، وهؤلاء قد يقضى عليهم بالموت من الجوع والإجهاد فى انتظار الفدية. أخيرًا تصل السفينة بصعوبة، وفى أسوأ حال، إلى هونج كونج حيث تتولى الشرطة الأمر فيتم عمل جرد للخسائر التى حدثت من جراء السرقة، على أنه بمرور الوقت يتوقف الرأى العام عن الاهتمام بالقضية برمتها».

نادرًا ما كان القراصنة يتعاملون بمثل هذا «التسامح» مع ضحاياهم، فكثيرًا ما كانوا يعملون الذبح فى الحراس الهنود، فعندما تعرضت السفينة «سولفيكن» للهجوم قتل قبطانها ياستوف لمجرد أنه تأخر فى فتح باب غرفته، وعلى السفينة «أنكينج» قام القراصنة بإطلاق الرصاص على ضابط الحرس وعلى ضابط صف السفينة وأصابوا القبطان بجراح بالغة.

تعد حادثة السفينة «سانينامخا» من الحوادث المشهورة، فقد حاول ما يقرب من ثلاثين قرصانًا الاستيلاء عليها عندما كانت موجودة على مسافة لا تبعد عن ميناء بيخاى خمسة عشر دقيقة إذ نجح القبطان ج. سبارك فى الوصول إلى غرفة القيادة وهناك استطاع ببندقيته الآلية أن يقاتل بشجاعة القراصنة الذين اتضح أنهم ليسوا محترفين فى أعمال السرقة وقد اضطروا للهرب من جراء خدعة بسيطة قام بها القبطان سبارك الذى أعطى أربعة إشارات صوتية أخذ بعدها فى تغيير مسار السفينة، فقد ظن اللصوص أن القبطان لابد وأنه شاهد سفينة خفر السواحل فأخذوا يقفزون إلى البحر.

بعد عام ١٩٢٣جرى تسجيل نمو ملحوظ لنشاط القرصنة فى المياه الصينية. ففى عام ١٩٢٤ وحده أربعة عشر هجومًا، وفى عام ١٩٢٥وقع سبعة عشر. أما فى السنوات التى تلت ذلك فقد قلت هجمت القراصنة ثم أخذت فى التلاشى حتى كادت تصبح من الأمور النادرة. على أنه، وحتى الآن، ما تزال تقع هنا أو هناك أحداث متفرقة من النهب البحرى. فى نهاية عام ١٩٥٢على سبيل المثال تم القبض على سفينة تمتلكها عصابة من لصوص البحر يرأسها أمريكى يدعى س. بيل.

وفى السادس من أكتوبر عام ١٩٦٥ قام ما يقرب من مائة قرصان يجرون على ظهر ستة قوارب من نوع الباركة تحمل علم الفلبين بمهاجمة السفينة اليونانية «إيكوس» وتبلغ حمولتها سبعة آلاف طن فى مياه جنوب شرقى آسيا، وكانت تحمل شحنة من لب جوز الهند المجفف من الفلبين فى طريقها إلى أوروبا. وقدنجح ثلاثة من البحارة فى الهرب بواسطة أحد قوارب النجاة وأبلغوا عن حادث الهجوم، وعلى الفور قامت السلطات بمطاردة القراصنة.

فى مايو ١٩٦٨ قام خمسة وعشرون قرصانًا على ظهر زورقين بمهاجمة مركب من نوع البراو يحمل اسم «لورد» عليه عدد من الركاب كانوا قد غادروا لتوهم ميناء زامبوانج الذى يبعد تسعمائة كيلومتر جنوب مانيلا فى جزر الفلبين. دخل القراصنة المسلحون على نحو جيد فى معركة مع طاقم المركب وأثاروا الرعب فى قلوب ركابه المائتين، ونجحوا فى الاستيلاء على مائتى ألف بيسو (حوالى ستين ألف دولار) وقد قتل فى هذا الاشتباك أحد الركاب الذين أبدوا مقاومة، بينما التهمت أسماك القرش ثلاثة أخرين قفزوا من الماء محاولين الوصول إلى الشاطئ سباحة.

## تحت راية الفاشية

كان من المتصور أن القضاء على المراكز الرئيسية للقرصنة نتيجة للعمليات المشتركة التى قادتها الدول البحرية الكبرى على مدى المائة عام المنصرمة سوف

يؤدى إلى الاختفاء التام للنهب البحرى. هذا ما افترضته بالفعل حكومات بعض الدول، فقد أكدت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى معرض إجابتها على استجواب لجنة خبراء الأمم المتحدة المكلفة بوضع تشريع القانون الدولى فى عام ١٩٦٢ «إن القرصنة بهذا الشكل الذى يعنى به القانون الدولى لم يعد لها وجود تقريبًا، ولهذا فإن دراسة هذه المشكلة من وجهة نظر ضرورة معالجتها من خلال اتفاقية دولية ليس لها فى الوقت الحالى مغزى كبير».

على ضوء الحقائق الفعلية، فإن مثل هذه النظرة المتفائلة لم تكن تستند على أساس قوى إطلاقًا لأن القرصنة لم يكن قد تم القضاء عليها نهائيًا. فما زال النهب البحرى مستمرًا حتى أيامنا هذه وإن اتخذ له أشكالاً أخرى تمثل - تمامًا كما كان يحدث فى الماضى - تهديدًا لأمن الملاحة البحرية. فأعمال القرصنة لم تعد الآن تمارس بواسطة سفن خاصة، وإنما باتت تمارس بإيعاز من الدوائر الحكومية لأشد الدول الاستعمارية عدوانية. إن أعمال القراصنة المعاصرين تتم بمؤازرة فعلية من جانب بعض الدول وتتمثل فى المصادرة غير القانونية للسفن التجارية للدول الأخرى والاستيلاء عليها وعلى ما تحمله أو إغراقها فى عرض البحر. ونتيجة لتطور مفهوم القرصنة، فقد توصل عدد من فقهاء القانون أخيرًا إلى استنتاج مؤدَّاه أن القرصنة تشمل كل الأعمال الإجرامية التى تهدد أمن الملاحة البحرية وكذلك استخدام العنف المسلح فى عرض البحر.

إن الاتجاه نحو اعتبار القرصنة مجرد أعمال عنف تقوم بها سفن وطائرات خاصة لأغراض شخصية وكذلك التصينف الخاطئ لمثل هذه الأعمال التى تقوم بها سفن حربية أمران يؤديان إلى حرية لا تقوم على أساس بالنسبة لأخطر شكل من أشكال النهب البحرى المعاصر ونعنى به تحديدًا قرصنة الدولة. بلغت أعمال القراصنة فى البحار مستويات ضخمة وخاصة إبان الحرب العالمية الأولى، فقد أدخل الطرفان المتحاربان أنواعًا جديدة من الأسلحة تتناقض بشكل صارخ والمفاهيم السائدة عن وسائل الصراع التى يبيحها القانون الدولى. لقد تسببت حرب الألغام والغواصات والحصار الكامل فى هزيمة جيوش الأعداء فضلاً عن

أنها تسببت فى خسائر جسيمة بين المدنيين سواء فى الدول المحاربة أو فى الدول المحايدة.

إن إغراق الغواصات الألمانية للسفن التجارية لمختلف الدول يمكن اعتباره عملا من أعمال قرصنة الدولة. فى السابع والعشرين من يوليو عام ١٩١٨ قامت إحدى الغواصات الألمانية بقصف السفينة - المستشفى الانجليزية «ليندوفيرى كاسل» بقذائف الطوربيد قرب شواطئ أيرلندا على الرغم من وجود علامات إرشادية واضحة عليها يمكن رؤيتها من مسافة كبيرة. ولكى تتمكن الغواصة من محو آثار فعلتها الشائنة، أصدر الضباط الألمان أوامرهم بضرب قوارب النجاة التى لجأ إليها الضحايا لتنقلهم إلى الشاطئ وكانت النتيجة أن لقى ٢٣٤ شخصًا حتفهم. أصبحت هذه الواقعة موضوع التحقيق الجنائى الذى أجرته محكمة الرايخ فى لايبزج عام ١٩٢١، وقد أصدرت المحكمة العسكرية حكمًا على الضباط القراصنة يقضى بعقوبتهم عقوبة كانت مثارًا للسخرية، إذ حكمت عليهم بالسجن لمدة أربع سنوات، ثم ما لبثت السلطات الألمانية أن أتاحت لهم فيما بعد فرصة الهرب من السجن.

فى عام ١٩١٥ قصفت إحدى الغواصات النمساوية العاملة فى البحر المتوسط سفينة تجارية أمريكية، وكانت الولايات المتحدة آنذاك ما تزال عل الحياد، وعندئذ طالبت الحكومة الأمريكية النمسا بتقديم اعتذار رسمى «للإهانة المتعمدة لعلم الولايات المتحدة الأمريكية» وبمعاقبة قائد الغواصة ودفع التعويضات المستحقة عن الخسائر التى لحقت بالسفينة.

أدى اتساع نطاق هذه الجرائم فى البحر - وخاصة الأعمال الإجرامية التى قامت بها الغواصات الألمانية التى وقع ضحيتها العديد من السفن التجارية لدول محايدة (تشير بعض التقديرات إلى أن عددها جاوز سبع عشرة ألف سفينة)، إلى جانب إصابة السفن - المستشفيات العسكرية - إلى طرح قضية قرصنة الدولة للدراسة العميقة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

وقد أدت الحرب الأهلية فى إسبانيا إلى عقد اتفاق يقضى بوضع تعريف قانونى لقرصنة الدولة، ففى الفترة ما بين عامى ١٩٣٦و١٩٣٧ كانت بعض

الطائرات والغواصات التى لا تحمل أية علامات تقوم بمهاجمة السفن التجارية فى البحر المتوسط والتى كانت تتجه إلى شواطئ الجمهورية الإسبانية فضلاً عن أنها كانت تهاجم كل السفن المسالمة التى تمر عبر مضيق جبل طارق. لم تشأ أية دولة من الدول أن تعترف بمسئوليتها عن هذه الأعمال المخالفة للقوانين على الرغم من أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن تلك الغواصات كانت تتبع الدولتين الفاشيتين إيطاليا وألمانيا. فى تلك الفترة أيضًا وقعت سفن كل من بريطانيا وفرنسا والدانمارك والنرويج ودول أخرى ضحية لهجمات القرصنة. فى الواحد والثلاثين من أغسطس والأول من سبتمبر عام ١٩٣٧ هاجمت غواصات «مجهولة» السفينتين السوفيتين «تميريازيف» و«بلاجوييف» وكانت تبحران عبر البحر المتوسط. وقد أعربت حكومة الاتحاد السوفيتى آنذاك عن احتجاجها الشديد لدى الحكومة الإيطالية إذ أمكن التعرف فى حينه على المتهمين فى هذه الأعمال. وقد نفى وزير خارجية إيطاليا السيد تشيانو مسئولية إيطاليا عن ضرب السفن السوفيتية على أن الوثائق التى استخرجت فيما بعد من أرشيف وزارة الخارجية الألمانية الهتلرية، والتى نشرت بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها تدل بما لا يدع مجالاً للإنكار على أن حكومتى موسولينى وهتلر قد تورطتا فى أعمال القرصنة المذكورة عن عمد وإصرار.

على الرغم من أن الفاشيين قد ألحقوا ضررًا جسيمًا بخطوط الملاحة التجارية لكل من بريطانيا وفرنسا، إلا أن حكومتى هاتين الدولتين قد التزمتا سياسة عدم التدخل، بل كانتا متعاطفتين فى الوقت نفسه مع الجنرال الفاشى فرانكو، وظلتا لفترة طويلة تعانيان من جراء هذا الاستبداد الجارى فى البحار المتاخمة لشبه جزيرة أيبيريا. وفى صيف عام ١٩٣٧ فقط ـ وهو العام الذى بلغت فيه هجمات القرصنة ضد السفن الفرنسية والإنجليزية ذروتها ـ صممت حكومتا الدولتين على تقديم مذكرة احتجاج، الأمر الذى لقى تعاطفًا وتأييدًا من جانب الدول الصغيرة، فقد أعلنت حكومة هولندا على سبيل المثال فى عام ١٩٣٧ أنها ستنظر فى استيلاء السفن الإسبانية الفاشية على السفن الهولندية باعتبار «عملا من أعمال القرصنة».

أما الاتحاد السوفيتى الذى كان يقف بحزم دائمًا ضد جميع مظاهر النهب البحرى فقد أيد بحرارة الاقتراح بعقد مؤتمر دولى يكرس لمكافحة القرصنة. وقد تم عقد هذا المؤتمر فى مدين نيون بسويسرا، وانتهت أعماله فى الرابع عشر من سبتمبر ١٩٣٧ باتفاق وقع عليه ممثلوا تسع دول هى الاتحاد السوفيتى، وبريطانيا، وفرنسا، وبلغاريا، واليونان، ومصر، ورومانيا، وتركيا، ويوغوسلافيا. ويقضى هذا الاتفاق باتخاذ إجراءات جماعية لمكافحة أعمال القراصنة الفاشيين. وفى السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٣٧ وقعت هذه الدول نفسها على اتفاق تكميلى يتم بمقتضاه مكافحة القرصنة بجميع أشكالها بما فى ذلك السفن والطائرات بعد أن كانت مقصورة قبل ذلك على الغواصات فقط. وهكذا أمكن القضاء فى فترة وجيزة على أعمال القرصنة التى كان يقوم بها الفاشيون فى البحر المتوسط. وما إن دارت رحى الحرب العالمية الثانية حتى أصبحت الطرق البحرية من جديد ساحة لعدد كبير من أعمال القرصنة التى كان لألمانيا الهتلرية النصيب الأكبر منها، تليها اليابان. كانت هاتات الدولتان تقومان بالاستيلاء على السفن التجارية وتدميرها سواء كانت تابعة للدول المتحاربة أو المحايدة مخالفتين بهذا المبادئ الأساسية للقانون الدولى، بل أن ألمانيا الهتلرية قامت ببث الألغام فى مياه الدول المحايدة وكانت تستولى على البضائع التى تحملها السفن بدعوى أنها مواد عسكرية مهربة، وراحت تغرق السفن - المستفشيات العسكرية دون مراعاة للعلامات المميزة التى تحملها.

ونتيجة للهجوم الذى كانت تقوم به الغواصات على السفن الأمريكية عند سواحل جرينلاند، أكد الرئيس روزفلت فى رسالة له بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٤١، أى قبل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، أن هذه العمليات تعتبر من أعمال القرصنة سواء من الناحية القانونية أو من الناحية الأخلاقية. وقد ظهرت بشكل خاص الأدلة المذهلة على أساليب القرصنة التى اتخذها الأسطول البحرى النازى فى إدارة الحرب فى الحرب إبان محاكمات نوربدج إذ ثبت أن المسئولين الرئيسيين عن تلك العمليات هما الأدميرال دينيس والأدميرال ريدير.

فى اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٤٠ أصدرت القيادة الألمانية أمرًا بالهجوم على السفن التجارية اليونانية فى منطقة الجزر البريطانية وامتد الأمر ليشمل الهجوم على جميع السفن التجارية الموجودة فى منطقة الخليج البريطانى. وبعد خمسة أيام أخرى كان على الغواصات الألمانية أن تقوم على وجه السرعة بالهجوم على أية سفينة موجودة فى بحر الشمال دون استثناء. وأخيرًا، ومنذ الثامن عشر من يناير عام ١٩٤٠ سمح الغواصات الألمانية بإغراق أية سفينة تبحر بالقرب من شواطئ العدو دون سابق إنذار، ولم يستثن من هذا الأمر سوى السفن الأمريكية والسوفيتية والإيطالية واليابانية. لم يلجأ الألمان إطلاقًا وهم يدمرون السفن إلى إنقاذ ركابها. وقد تبين أثناء محاكمات نوربرج بصفة خاصة أن المتهمين قد أصدروا بذلك الصدد أمرًا مستقلاً.

إلى جانب ذلك فقد كان الأسطول اليابانى الحربى يقوم هو الآخر بأعمال القرصنة. ففى الفترة من عام ١٩٤١ إلى ١٩٤٤؛ وعلى الرغم من المعاهدة المعقودة بين الاتحاد السوفيتى واليابان بشأن الحياد، فقد أخذت حكومة اليابان، الحليف السابق لألمانيا الهتلرية، تعمل بكل الوسائل على إعاقة الملاحة أمام السفن السوفيتية فى الشرق الأقصى. ولم تسمح السلطات اليابانية للسفن السوفيتية باستغلال الطريق البحرى الآمن المار عبر مضيق سانجار. بل قامت الغواصات اليابانية بإغراق كل من «أنجارستروى» و«كولا» و«إيلمين». وفى الفترة من سبتمبر عام ١٩٤١ وحتى نهاية عام ١٩٤٤ احتجزت القوات المسلحة اليابانية ١٧٨ سفينة تجارية سوفيتية، واستخدمت السلاح فى ثلاث حالات. وفى ديسمبر عام ١٩٤١ أطلق اليابانيون النيران من مدافع موجودة فى هونج كونج على السفن «كريتشيت» و«سفيرستروى» و«سيرجى لازو» و«سيمفرويل». وكان من نتيجة هذا القصف أن غرقت السفينة «كريتشيت» بينما أصيبت السفن الأخرى بأضرار جسيمة. وأخيرًا فإن الاعتداء على سفن ليست فى حالة حرب فى اليابان لم يكن من الممكن النظر إليه وتقديره إلا من زاوية اعتباره عملاً من أعمال القرصنة.

ما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى عادت قرصنة الدولة سيرتها الأولى فى منطقتين تقليديتين من مناطق النهب البحرى هما بحارالجنوب والبحر الكاريبى ولكن هذه المرة بقيادة دولة إمبريالية كبرى هى الولايات المتحدة الأمريكية.

## قراصنة من تايوان

فى الأول من أكتوبر ١٩٥٣ كانت السفينة البولاندية «براتسا» تتجه إلى الشواطئ الصينية عبر مضيق تايوان عندما حلق فوقها عدد من الطائرات المائية مما دعا البحارة إلى الخروج إلى سطح السفينة. كانت هذه الطائرات تحوم على ارتفاع منخفض إلى حد أنه كان من الممكن قراءة العلامات المميزة على أجنحة الطائرات وأجسامها بسهولة بالغة، وهى علامات تؤكد انتماء الطائرات إلى «البحرية الأمريكية» U.S. Navy ، كان من الواضح أن الطائرات تلتقط صورًا للسفن.

استمرت الطائرات الأمريكية تراقب السفينة «براتسا» وحتى الزابع من أكتوبر، بعدها بدأت طائرتان من طراز «داكوتا» تابعتان لقوات شان كاى شيك فى استكمال المهمة نفسها. وسرعان ما ظهرت فى الأفق طائرتان حربيتان أيضًا لقوات شان كاى شيك اقتربتا من السفينة ووجهتا لها أمرًا بتغيير مسارها مهددة بقصفها بالنيران إن هى لم تمتثل للأمر. وفى جاوسيون بتايوان جرى تفريغ حمولة السفينة من النفط إلى صهاريج متوسطة الحجم، أمريكية الطراز، أما السفينة نفسها فقد اقتحمها فرقة من الجنود قادوها إلى أحد الموانى الداخلية واقتيد البحارة الصينيون من أعضاء الطاقم وقد تم ربط بعضهم بالأصفاد على الفور.

وفى الثانى عشر من أكتوبر بدأ أحد العقداء فى جيش شان كاى شيك فى استجواب آدم ليفاندوفسكى الضابط البولندى. اتسم حديث العقيد بالخشونة، ولم يخل أيضًا من التهديد. أما باقى أفراد طاقم السفينة الذين لم يكن لهم أدنى فكرة عن المصير الذى ينتظرهم فلم يكن أحد قد مسهم بسوء بعد. أما جنود كاى شيك الذين كانوا يتولون حراسة السفينة فقد كانوا يجيبون على أسئلة البحارة

البولنديين بإجابات مبهمة، بل راحوا يحاولون إثارة الخوف فى نفوس البولنديين بنشرهم الإشاعات عن إطلاق الرصاص على البحارة الصينيين الذين كانوا من بين أعضاء طاقم «براتسا». فى حين جرى عزل فونسوفسكى قبطان السفينة وخضعت غرفته للحراسة. فى نهاية شهر أكتوبر صعدت إلى ظهر «براتسا» قوة من الشرطة قامت بأخذ بصمات أصابع البحارة كما لو كانوا مجرمين. وتبع ذلك هجوم نفسى، إذ راح الجنود بين الحين والآخر يوحون إلى البحارة المساجين بقرب إطلاق سراحهم. ثم ما يلبثون أن يفقدوهم هذا الأمل بعد عدة أيام. وفى يناير ظهر على ظهر السفينة رجلان فى ملابس مدنية، أما الأول فكان يدعى مستر «لو»، أما الآخر فكان يدعى مستر «أو»، وقد اتضح فيما بعد أن «لو» هو مساعد رئيس شرطة تايوان السرية لشئون مكافحة الشيوعية، وأما «أو» فكان يتولى نفس المهمة بالنسبة لميناء جاوسيون، كان كلا الرجلين يحضران إلى السفينة يوميًا ويقومان باستجواب الطاقم. كان البحارة البولنديون يرفضون الإجابة على الأسئلة التى تتعلق بالخدمة أو تمس الأسرار العسكرية.

كان الاستجواب يجرى ببطء وبدقة متناهية. فيبدأ باستدعاء اثنين أو ثلاثة من البحارة لاستجوابهم يوميًا. وعلى الفور أصبح واضحًا أنهم يمدون مدة الاستجواب عمدًا لإثارة الأعصاب. وكانوا طوال الوقت يلوحون للمعتقلين أنهم على استعداد لاعتبارهم لاجئين سياسيين مع فتح آفاق العمل السهل والمرتبات العالية لهم على السفن الأمريكية. وفى الوقت نفسه كان البحارة يتعرضون فى بعض المناسبات للإغراء بالفودكا وبالنساء الحسناوات.

بذل رجلا شان كاى شيك قصارى جهدهم لشراء أعضاء الطاقم مقترحين على من يرفض العودة إلى بولندا بتوقيع طلب حق اللجوء، مبالغ باهظة. لكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل. لم يستسلم طاقم «براتسا» حتى جاء شهر فبراير وفيه قرر البحارة البولنديون أن يعبروا عن احتجاجهم، فأبلغوا الشرطة بأنهم إذا لم يتلقوا ردًا رسميًا بشأن مسألة عودتهم إلى بولندا فى خلال أسبوعين فإنهم سيبدأون الإضراب عن الطعام. أبلغ المستر «لو» الطاقم أن الأمر قد طال لأن عينة من البترول الذى كانت تحمله السفين قد أرسل إلى الولايات المتحدة

لاختباره لمعرفة ما إذا كانت هذه الشحنة فى قائمة البضائع المفروض عليها الحظر. وأكد مستر «لو» أن القرار سوف يصدر بشأنهم فور تلقيه رد الولايات المتحدة الأمريكية، وبناء على ذلك تأجل موعد بدء الإضراب عن الطعام.

وذات يوم من أيام النصف الثانى من شهر فبراير ١٩٥٤؛ اقترحت الشرطة على الطاقم الذهاب إلى المدينة للتنزه، وقد رفض الاقتراح غالبية البحارة. على أنهم أجبروا على الذهاب إليها عنوة، وقد لجأت الشرطة إلى تقسيم الطاقم إلى مجموعتين؛ ثم دفعت كل مجموعة إلى المدينة على حدة فى أيام مختلفة. ما أن وصل البحارة البولنديون إلى مقر الأركان الحربية حتى التف حولهم عدد من النساء، كما كان بانتظارهم مصورون سارعوا على الفور بالتقاط صور لهم أجريت عليها بعد ذلك عمليات مونتاج خاصة مخزية تمت تحت إشراف ضباط أمريكيين كانوا يقيمون فى الطابق الأعلى من نفس المبنى.

تعرض طاقم السفينة «براتسا» لمختف أنواع الضغوط، منها تهديد البحارة بسوء العواقب عند عودتهم للوطن بسبب انغماسهم فى «الملذات» إلى جانب حرمان أعضاء الطاقم الذين كانوا يقفون موقفًا متشددًا؛ من تلقى الخطابات التى أرسلها ذووهم فى بولندا. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك مناقشات تدور بصورة انفرادية مع البحارة بعضها يسعى لاستمالتهم والبعض بهدف التهديد. حاول رجال شان كاى شيك الإيعاز للطاقم بأنهم لا يملكون أية إمكانية للعودة إلى بلادهم على نحو قانونى، وأن هؤلاء الذين لن يوقعوا على طلب الحصول على حق اللجوء سوف يتعرضون للموت فى سجون تايوان.

فى الواحد والعشرين من شهر مارس صعد إلى سطح السفينة «براتسا» رجال الصليب الأحمر التابع لشان كاى شيك لدعوة الطاقم للذهاب إلى السينما، وكان العرض يجرى تحت حراسة بوليسية مشددة. وسرعان ما تبين أن إنزال الطاقم من السفينة كان بهدف إحلال رجال شان كاى شيك محله. وبعد انتهاء الفيلم؛ اقتيد الطاقم إلى أحد الفنادق الذى قام البوليس والبوليس السرى بفرض الحراسة عليه. وفى الفندق مورست ضغوط أشد على البولنديين حيث نشرت الشائعات حول نية إرسال المتشددين منهم إلى معسكر جماعى.

نتيجة لهذه الظروف؛ قرر البحارة البولنديون أن يبدأوا إضرابهم عن الطعام، ولم ينهوا إضرابهم إلا بعد أن تسلموا بلاغًا رسميًا بترحيلهم إلى بلادهم. تلقى طاقم «براتسا» وهم يتأهبون للرحيل إلى بولندا نبأ استيلاء رجال شان كاى شيك على سفينة بولندية أخرى تدعى «بريزدينت جوتوالد». عندما ذهب البحارة لتسلم متعلقاتهم من المخزن قبل الرحيل، تسنى لهم أن يلتقوا لبرهة قصيرة بطاقم «بريزدينت جوتوالد» وعلموا منهم أن رجال شان كاى شيك يستخدمون ضدهم نفس أساليب الضغط والتخويف التى استخدمت ضدهم. لم يتوقف رجال شان كاى شيك ـ بعد أن وعدوا البحارة البولنديين بترحيلهم ـ عن ممارسة ضروب الإرهاب نحوهم، فقاموا بتأجيل موعد رحيلهم أكثر من مرة، ووضعوا العراقيل أمام عقد مقابلة بينهم وبين وفد من الصليب الأحمر كان قد حضر إلى تايوان.

اضطرت السلطات التايوانية بعد المحاولة الرابعة للإضراب عن الطعام والأعمال الحاسمة التى اتخذتها الحكومة البولندية والصليب الأحمر السويدى إلى الإفراج عن طاقم «براتسا».

إن ما أوردناه هنا بشأن حقيقة الاستيلاء على السفينة البولندية من قِبَل قراصنة تايوان لم يكن الحادثة الوحيدة فى هذا الصدد. ففى الخمسينيات بدأت صحوة أخرى منظمة للقرصنة فى البحار المتاخمة لسواحل الصين، وأصبحت تايوان هى مركز ثقل القرصنة الحديثة فى العالم. استنادًا إلى معلومات غير مكتملة قام القراصنة الجومندانيون[٢] على مدى السنوات الأربع الأولى من نشاطهم بالهجوم على ما يقرب من خمسمائة سفينة تجارية صينية وما يزيد على مائة سفينة أخرى تمتلكها كل من بريطانيا، والاتحاد السوفيتى، وبولندا، وبنما، واليونان، والدانمارك، والنرويج، وهولندا، واليابان، وألمانيا الغربية.

عانت الملاحة البريطانية من الجوميندانيين أكثر مما عانته أية دولة أخرى. ففى عام ١٩٥٢ تعرضت السفن التجارية البريطانية «سان جورج» و«هليكون» و«جلينوفين» و«روزيتا» للهجوم. وقد لقى الكابتن روبرت آدمز قبطان السفينة الأخيرة مصرعه على أيدى القراصنة. فى عام ١٩٥٣ عزز القراصنة الجومندانيون عملياتهم فى المياه الصينية واستطاعوا فى مارس أن يحتجزوا

سفينة هولندية فى عرض البحر واستولوا على حمولتها، وعندما حاول قبطانها أن يقاوم عدوانهم احتجزوه فى السجن لمدة ثلاثة شهور وفى نفس الوقت قاموا بالاستيلاء على سفن هولندية وبريطانية إضافة إلى أنهم قاموا بضرب قبطان السفينة البريطانية ضربًا مبرحًا.

فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٣ قامت ثلاث سفن حربية «مجهولة الهوية» - وفقًا لم أوردته الصحافة البريطانية - بالهجوم على السفينة البريطانية «انتشاليفا» فى مضيق تايوان بينما كانت متوجهة إلى هونج كونج لم تمض على هذا الحادثة بضعة أيام حتى وقع هجوم آخر فى نفس المكان على السفينة الإيطالية «ماريلا» وكانت تنقل شحنة من الحرير الخام وبعض البضائع الأخرى من الصين إلى أوروبا. بعد ثلاثة أسابيع أطلق سراح السفينة بعد أن استولى القراصنة على كل ما كانت تحمله. على مدى ثمانية عشر شهرًا منذ مطلع عام ١٩٥٤ اضطر الأسطول البحرى الحربى البريطانى إلى الدخول فى أربعين معركة دفاعًا عن السفن التجارية التى تعرضت للهجوم من قبل الجوماندانوفتس.

لم يكتف قراصنة تايوان باستخدام السفن، ففى السادس من نوفمبر عام ١٩٥٢ قامت طائرة حربية من طراز «القلعة الطائرة» بضرب الطائرة البريطانية «هاى دريلوك» بقذائف مضادة للمدرعات. وفى الوقت الذى كانت السفينة البريطانية تتعرض للهجوم من الجو إذ بسفينة حربية «مجهولة الهوية» تطاردها بحرًا، وإزاء هذا الهجوم المزدوج اضطرت السفينة للهرب ونجحت فى ذلك. فى التاسع عشر من يناير عام ١٩٥٥ تعرضت الباخرة البريطانية «ايدنديال» للقصف الجوى من جانب طائرة جوميندانية إبان وجودها فى ميناء سفاتو الصينى، مما أسفر عن غرقها. وفى مطلع شهر أغسطس من العام نفسه قامت طائرتان نفاثتان بإسقاط قنابلهما فوق سفينة الشحن الإنجليزية «إينشويلث».

فى السنوات التالية استمر الهجوم حتى أصبح يهدد أمن الملاحة فى الشرق الأقصى مما شكل مشكلة خطيرة أهتم العديد من الدول بحلها. فى أكتوبر عام ١٩٥٤ تقدم الاتحاد السوفيتى بطلب إدراج اقتراح خاص «بخرق حرية الملاحة فى منطقة البحار الصينية» فى جدول أعمال الدورة التاسعة للجمعية العامة للأمم

المتحدة. على أنه نتيجة المنازعات الإجرائية للدبلوماسية الأمريكية نجحت الولايات المتحدة فى إعاقة مناقشة هذه القضة فى هيئة الأمم المتحدة على نحو جوهرى.

لقد تعارضت أعمال القراصنة الجوميندانيين والتصريحات التى أدلى بها أوصياؤهم الأمريكيون الذين حاولوا أن يموهوا الأمر، فيثبتوا أن أتباع شان كاى شيك يسعون فقط لعرقلة وصول المواد الاستراتيجية إلى الصين الشعبية، الأمر الذى قد يبرر عملياتهم هذه قانونيًا باعتبارها نضالاً شرعيًا ضد تهريب المعدات العسكرية. على أن الحقائق كانت تناقض واقع الأمر بشكل سافر.

وبوجه عام فإن اتجاه الرأى العام العالمى، وكذلك تخفيف حدة التوتر، قد أرغما القراصنة (الجوميندانوفيين) على الانسحاب.

## صحوة القرصنة فى البحر الكاريبى

فى اليوم الأول من شهر يناير عام ١٩٥٩ قامت القوى الثورية فى كوبا بزعامة فيديل كاسترو بقلب نظام حكم الديكتاتور باتيستا الذى كان يلقى الدعم من الجهات الاحتكارية الأمريكية ومن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. فى بداية الأمر لم يسبب خلع باتيستا رد فعل خاص فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث ظل الأمريكيون لحين من الوقت ينظرون إلى الثورة فى كوبا باعتبارها انقلابًا بورجوازيًا دوريًا يحدث مثله الكثير فى بلدان أمريكا اللاتينية. ولكن عندما أدركت واشنطون أن حكومة فيديل كاسترو تضع لنفسها أهدافًا ثورية؛ شنت الولايات المتحدة الأمريكية حملة شديدة ضد كاسترو ناعتةً إياه بأنه عميل « الشيوعية العالمية».

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بعد ذلك فى ممارسة الضغوط السياسية ثم العسكرية بعد أن مارست ضغوطها الاقتصادية. وفى الثالث من يناير عام ١٩٦١ قطعت الولايات المتحدة الأمريكية علاقاتها الدبلوماسية والقنصلية مع كوبا، ثم فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٩٦١ تم فى الولايات المتحدة تأسيس ما عرف باسم المجلس الثورى المكون من المهاجرين الكوبيين أنصار باتيستا.

فى الخامس عشر من إبريل عام ١٩٦١ تعرضت هافانا لقصف القنابل، وفى السابع عشر من نفس الشهر حدث التدخل العسكرى المخزى فى بلايا خيرون(٣) فى كوبا، وفى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٦٢ قام قاربان طوربيديان بقصف هافانا بالمدفعية. مع نهاية عام ١٩٦٢ ظهر ما عرف باسم الأزمة الكوبية.

على هذه الخلفية السياسية للستينيات من القرن العشرين انتعشت القرصنة فى منطقة البحر الكاريبى على يد الدوائر الرجعية للمهاجرين الكوبيين الذين لقوا دعمًا ماليًا ومعنويًا من جانب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وعددًا من حكومات جمهوريات وسط أمريكا الذين وضعوا أراضيهم تحت تصرف القراصنة كما أمدوهم بالمال والسلاح. لقد كان المهاجرون الكوبيون قراصنة بكل معنى الكلمة؛ إذ أن كل ما ارتكبوه من أعمال ينطبق والمقاييس التى صاغها القانون الدولى الحديث بشأن القرصنة.

فى مارس عام ١٩٦٠ قام المعادون للثورة بعمل تخريبى حيث أحدثوا انفجارًا لسفينة بلجيكية تدعى «لاكوبر» وقد نجم عن هذا الانفجار عدد كبير من الضحايا علاوة على ما أحدثه من خسائر مادية. فى هذا الوقت بالتحديد رفعت الثورة الكوبية شعار «Partia O muerte» («الوطن أو الموت»). فى مارس عام ١٩٦٣ تعرضت السفينتان التجاريتان السوفيتيتان «لافوف» و«باكو» للهجوم داخل المياه الإقليمية الكوبية. فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٦٤ قام قاربان مجهولان بالهجوم على سفينة الشحن الإسبانية الصغيرة «سيرا أرنساسو» فى عرض البحر على مسافة ١٧ ميلاً شمال شرقى الساحل الكوبى وقد وفتح القاربان نيران رشاشاتهما على السفينة دون تحذير سابق، وما هى إلا خمس دقائق حتى تحولت «سيرا أرنساسو» إلى كتلة من اللهب وقد لقى القبطان ورئيس النوتية والميكانيكى الأول مصرعهم. ومن بين السبعة عشر فردًا من أعضاء الطاقم الذين جرى إنقاذهم بفضل السفينة الهولندية «ب.ج.تولين» كان هناك ستة جرحى. كان هذا الهجوم مثالاً لشراسة القراصنة الذين استخدموا الرصاص المحرم دوليًا، وأجهزوا على ضحاياهم العزل فى الماء.

كانت «سيرا أرنساسو» تحمل إلى كوبا حوالى ألف طن من المواد الغذائية والمنسوجات ولعب الأطفال. من الملابسات ألتى أحطات بالحادث؛ لم يكن من العسير إدراك أنه من تدبير المهاجرين الكوبيين. غير أن المسئولية فى وجودهم فى البحر الكاريبى تقع بالدرجة الأولى على الولايات المتحدة التى سمحت بنشاط المنظمات الإرهابية على أراضيها ووفرت لهم الدعم المادى، وهو ما أشار إليه فى وضوح تام ممثل السفارة الإسبانية فى واشنطون حيث ذكر أن «المنطقة التى وقع فيها حادث الهجوم تقع تحت سيطرة الولايات المتحدة».

وقد وصف فيديل كاسترو هذا العمل بأنه «عمل بربرى سبق الإعداد له للانتقام من إسبانيا لمواصلتها التجارة مع كوبا. لقد تم الهجوم على يد مجموعة من المناهضين للثورة بدعم من إدارة المخابرات المركزية، وقد قدمت لهم العون إحدى سفن الدوريات التى تطوف حول كوبا بتوجيه من المخابرات المركزية والأسطول البحرى الحربى الأمريكى، وهذه السفن معروفة جيدًا وهى من طراز «ركس». إن أيًا من المجموعات المناهضة للثورة لا تملك الوسائل التى تمكنها من القيام بمثل هذا العمل دون دعم من المخابرات المركزية». كان من المفترض، كما يبدو، أن تكون «سيرا أرنساسو» التى تحولت إلى كتلة من اللهب؛ إشارة وتحذير لكل من لم يخضع للضغط الدبلوماسى أو «القوائم السوداء» الأمريكية للتحول عن التجارة مع كوبا الاشتراكية.

فى الليل من الثالث عشر وحتى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩٦٥ قام المناهضون للثورة الكوبية بعمل جديد من أعمال القرصنة حيث أطلقوا النيران من مدفعية ذات عيار كبير على سواحل هافانا. لقد تم القصف من فوق سطح قاربين تم إنزالهما إلى منطقة العمليات من حاملة من طراز «ركس» قامت بالتمويه عليها المخابرات المركزية الأمريكية.

لقد نشرت القرصنة فى منطقة البحر الكاريبى تحت وصاية الدولة. ففى الصباح المبكر من يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩٦٨ قامت سفينتان تتبعان الأسطول الحربى الفنزويلى بفتح نيران مدافعهما على سفينة الصيد الكوبية «أليكرين» وهى فى عرض البحر، على مسافة مائة ميل شمالى شواطئ فنزويلا وذلك دون

سابق إنذار. وقد تعرض هيكل السفينة وسطحها لأضرار بالغة ولم تعد ماكيناتها تصلح للعمل. كان ركاب «أليكرين» مكونين من ثمانية وثلاثين راكبًا من بينهم مهندس يابانى كان يعمل ضمن طاقم أسطول الصيد الكوبى. وقد قامت السفن الفنزويلية بعد القصف بقطر السفينة الكوبية التالفة. وقد اعتبرت الحكومة الكوبية هذا الحادث عملا من أعمال القرصنة وطالبت بإعادة السفينة وإطلاق سراح طاقمها. وقد جرى تنفيذ ذلك فيما بعد.

## القرصنة الجوية

ساهم مناخ الرعب والتوتر اللذان سادا منطقة البحر الكاريبى على ظهور القرصنة الجوية فى هذه المنطقة وهى القرصنة التى ميزت القرن العشرين. تمثلت القرصنة الجوية فى الأعمال غير الشرعية لخطف الطائرات فوق عرض البحر، وقد أثبتت اتفاقية جينيف المبرمة فى عام ١٩٥٨ هذا الشكل من القرصنة. وقد جرى تسجيل عدد من حوادث القرصنة الجوية فى تاريخ بلدان المعسكر الاشتراكى بعد الحرب العالمية الثانية عندما لجأت بعض الجماعات والأفراد الرجعيين المشبوهين سياسيًا إلى هذه الوسيلة غير الشرعية لمغادرة بلادهم جوًا والتسلل إلى الخارج. وقد بلغت القرصنة الجوية أقصى مدى لها فى منطقة البحر الكاريبى بعد انتصار الثورة الاشتراكية فى كوبا وخاصة فى عام ١٩٦١ الذى سجل أكبر عدد من هذه الحوادث.

فى الفترة ما بين الأول من مايو وحتى التاسع من أغسطس عام ١٩٦١ اضطرت ثلاث طائرات ركاب أمريكية تعمل على خطوط منتظمة أن تحول مسارها بالقوة وتم إحباط محاولة خطف طائرة أمريكية رابعة. فى الأول من مايو عام ١٩٦١ قام راكب مسلح على طائرة صغيرة تعمل بين ميامى و«كى وست» بإرغام قائد الطائرة تحت تهديد السلاح بالهبوط فى هافانا فى كوبا، وقد سمحت السلطات الكوبية للطائرة وجميع طاقمها وركابها بالعودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس اليوم.

فى الرابع والعشرين من يوليوعام ١٩٦١ قام أحدالأمريكيين من أصل كوبى وكانت السلطات الأمريكية قد رفضت منحه تصريحًا للعودة إلى بلاده بررغام قائد طائرة ركاب كبيرة من طراز «إلكترا» تحمل على متنها عددًا كبيرًا من الركاب على تغيير مسارها والهبوط بها فى هافانا، وقد سمحت السلطات الكوبية فى اليوم التالى مباشرة للطاقم والركاب بالعودة إلى الولايات المتحدة، ولكنها رفضت إعادة الطائرة. فقد أعلن فيديل كاسترو رئيس وزراء كوبا للحكومة الأمريكية أنه لن يعيد الطائرة إلا بعد إعادة الولايات المتحدة للطائرات التى تحتجزها، وكانت السلطات الأمريكية قد صادرت بعضًا من هذه الطائرات وهاجمت البعض الآخر أثناء تحليقها فى الجو. وحتى يتجنب الأمريكيون تسمية الأمور بأسمائها، قاموا بسك اصطلاح خاص للتعريف بأعمال القرصنة الجوية وهو «Hijack».

فى التاسع والعشرين من أغسطس أعلن دين راسك وزير خارجية أمريكا رفضه لاقتراح كاسترو على الرغم من أنه اعترف بأن الولايات المتحدة الأمريكية قامت بدءًا من عام ١٩٥٩ بالاستيلاء على مجموعة من الطائرات الكوبية بلغ عددها خمسًا وعشرين طائرة. وقد جرى فيما بعد إعادة أربع عشرة طائرة فقط وظلت الطائرات الباقية محتجزة على نحو غير شرعى. وقد أبلغت الحكومة الكوبية مجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتحدة أنها على استعداد أن تضع الطائرة الأمريكية تحت تصرف الأمم المتحدة حتى تتمكن بهذه الطريقة من حرمان الولايات المتحدة من ذريعة الاعتداء على كوبا الأمر الذى كانت تسعى إليه الدوائر الرجعية.

فى الثالث من أغسطس عام ١٩٦١ جرت محاولة لاختطاف طائرة أمريكية أخرى؛ فوفقًا لما أكده عملاء مكتب التحقيق الفيدرالى قام المدعو ليون بيردون وهو مجرم اتهم بارتكاب عدد من الجنايات وكان يعالج فى إحدى المصحات النفسية بركوب إحدى طائرات الركاب فى فينكس بولاية أريزونا الأمريكية بصحبة ابنه البالغ من العمر ستة عشر عامًا. وقد نجح المجرمان فى التسلل إلى غرفة قيادة الطائرة أثناء تحليقها فى الجو، وطلبا من قائدها تحت تهديد

السلاح الهبوط فى مطار هافانا، وعندما أبلغهما الطيار أن كمية الوقود الموجود فى الطائرة لا تكفى للطيران إلى هناك؛ وافق المختطفون على الهبوط فى مدينة إل باسو فى ولاية تكساس، وبعد أن هبطت الطائرة فى المطار سمح قراصنة الجو للركاب بمغادرتها بعد أن احتجزوا أربعة منهم إلى جانب جميع أفراد الطاقم باعتبارهم رهائن. وقد قامت الشرطة ـ بعد أن أبلغها الركاب بما حدث ـ بمحاصرة المطار، وحاولوا على مدى عدة ساعات إقناع بيردون بالاستسلام، على أن محاولاتهم باءت بالفشل. قام المجرم تحت تهديد السلاح بإرغام الطيار على السير بالطائرة حتى ممر الإقلاع، لكن رجال الشرطة نجحوا فى إيقاف الطائرة بأن أطلقوا عددًا من الطلقات أصابت عجلاتها بدقة متناهية، ونتيجة للارتباك الذى حدث استطاع أحد الركاب تجريد المجرم من سلاحه. حكم على مختطف الطائرة بالسجن مدى الحياة وتم إيداع ابنه إحدى الإصلاحيات حتى يبلغ السن القانونية.

فى التاسع من أغسطس عام ١٩٦١ جرى اختطاف إحدى الطائرات النفاثة الجبارة التابعة لشركة الخطوط الجوية «بان أمريكان» وكانت فى طريقها من مدينة هيوستن بولاية تكساس إلى جواتيمالا، وقد تم الاختطاف فور إقلاع الطائرة من المطار فى المكسيك وتم إجبار الطيار على تغيير مساره والهبوط فى هافانا. وقد اتضح أن مرتكب الجريمة ـ بناء على ما أذاعه مكتب التحقيقات الفيدرالى ـ فرنسى يقيم بصفة دائمة نيويورك، وكان هو الآخر يعانى من اضطرابات نفسية. ما أن وصلت الطائرة إلى كوبا وهبطت فى مطار هافانا حتى جرى تجريد القرصان من سلاحه وقامت السلطات الكوبية باعتقاله، وقد تم السماح للطائرة وطاقمها وركابها ـ الذين كان من بينهم وزير خارجية كولومبيا ـ بالعودة إلى ميامى.

فى ذات اليوم قامت عصبة من المناهضين للثورة مدججين بالسلاح بمحاولة اختطاف طائرة ركاب كوبية كانت تقوم برحلتها على أحد الخطوط الداخلية وإرغام قائدها على الهبوط فى فلوريدا. وكان من نتيجة المعركة الحامية التى نشبت على ظهر الطائرة أن لقى الطيار وأحد رجال الشرطة وأحد المختطفين

مصرعهم. وفى هذه الأثناء هبط الطيار الثانى بالطائرة فى أحد حقول القصب الأمر الذى نجم عنه تلفيات شديدة بالطائرة. تم الحكم على اثنين من القراصنة بالإعدام رميًا بالرصاص لقتلهم الطيار ورجل الشرطة، وحكم على أربعة وثلاثين من المشتركين فى المحاولة بالسجن لمدة طويلة.

فى عام ١٩٦٦ حاول القراصنة اختطاف طائرة مدنية كوبية من طراز «إليوشن ـ ١٨» والذهاب بها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه الطائرة تقوم برحلتها المنتظمة بين سانتياجو دى كوبا وهافانا. وفى ليلة السابع والعشرين صباح الثامن والعشرين من مارس قام ضابط الملاحةأ. بيتانكور البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا بضرب رجل الشرطة أ. رايس على حين غرة ثم أطلق عليه الرصاص بعد أن انتزع منه مسدسه الخاص. كانت الطائرة فى هذه الأثناء تحلق بالقرب من الساحل الشمالى لكوبا. حاول بيتانكور أن يرغم قائد الطائرة الفريس على تحويل مسار طائرته ليهبط بها فى ميامى بولاية فلوريدا، لكن الطيار حلق بالطائرة فوق البحر بمحاذاة الشاطئ الكوبى محافظًا على رباطة جأشة حتى تمكن من الاتصال لاسلكيًا بنقطة المراقبة الأرضية فى مطار هافانا وأبلغ السلطات بما يحدث فى الجو.

تم الاتفاق على خطة هبوط الطائرة فى هافانا، وإبان ذلك كان على الطيار أن يبقى القرصان المسلح على اقتناعه بأن الطائرة فى طريقها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. لم يدرك القرصان أنه قد جرى التغرير به إلا لحظة هبوط الطائرة فى مطار هافانا، وعندئذ حاول من جديد إرغام الطيار على التحليق فى الجو، وعندما فشلت محاولته أطلق عليه الرصاص ثم قفز من الطائرة وفر متسترًا بالظلام الحالك. وظل مختفيًا عدة أيام فى أحد الأديرة حتى تمكنت الشرطة من إلقاء القبض عليه لينال جزاءه الذى قضت به إحدى المحاكم الكوبية.

وقد جاء فى البيان الرسمى الذى أذاعته السلطات الكوبية بشأن هذا الحادث أن هذا القرصان كان بوسعه أكثر من مرة أن يغادر كوبا إبان رحلاته إلى الخارج بوصفه ضابط ملاحة جوية، لكن الملابسات التى أحاطت بتصميمه على ارتكاب

هذا العمل الإجرامى المغامر يستوجب الإشارة إلى تأثير الدعاية الأمريكية التى تشجع الخونة الكوبيين على القيام بهذا النوع من الأعمال «البطولية».

لم توقف العقوبات القاسية على القرصنة الجوية المجرمين من الاستمرار فى خطف الطائرات فى الجو فى منطقة البحر الكاريبى حتى كادت تصبح من الأمور المألوفة حتى أن الصحافة لم تعد تخصص لها سوى بضع سطور على صفحاتها. وقد لوحظ أن الطرق التى لجأ إليها مختطفو الطائرات والدوافع التى تقف وراء أعمالهم وهم يخاطرون بحريتهم أو حياتهم تختلف من واحد إلى الآخر بشكل كبير.

على سبيل المثال فالطائرة العاشرة فى سجل الطائرات التى أجبرت على الذهاب إلى كوبا وصلت إلى هناك فى عام ١٩٦٨ وكانت طائرة صغيرة من الطائرات التى يتم استئجارها من طراز «سيسنا». فى صباح الأحد الرابع من أغسطس وكان الجو صحوًا، قام مواطن أمريكى باستئجار الطائرة المذكورة فى مدينة نابلس بولاية فلوريدا وذكر أنه يرغب فى القيام بنزهة جوية بصحبة ابنته الصغيرة، وما أن حلقت الطائرة فى الجو حتى أرغم الراكب الطيار تحت تهديد السلاح على العبور بالطائرة إلى هافانا. وقد أعادت السلطات الكوبية الطائرة إلى الولايات المتحدة كما أطلقت سراح قائدها.

تعد الطائرات الكبيرة التى تعمل على خطوط جوية منتظمة هى أكثر ضحايا القرصنة الجوية. فى الثالث والعشرين والرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٨ هبطت فى مطار هافانا طائرتان أمريكيتان بعد أن أجبر طاقماهما تحت تهديد السلاح على تغيير مساريهما والطيران إلى كوبا. كانت الطائرتان نفاثتين، إحداهما من طراز «بوينج - ٧٢٧» تتبع شركة طيران «إيسترن إيرلاينز» وعلى متنها ثلاثة وثمانون راكبًا، والأخرى من طراز «بوينج - ٧٠٧» وتمتلكها شركة طيران «بان أميركان». وقد أعيدت الطائرتان وعلى متنهما جميع الركاب الذين أعربوا عن رغبتهم فى العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية على الفور.

فى نهاية شهر نوفمبر ومستهل شهر ديسمبر عام ١٩٦٨ جرى تسجيل رقم قياسى لخطف الطائرات فى منطقة البحر الكاريبى حيث اضطرت ثلاث

طائرات نفاثة أمريكية ضخمة تحمل مائتين وثمان وسبعين راكبًا من الهبوط - خلال أسبوع واحد فقط - فى مطار هافانا وقد انتهت كل الحوادث المذكورة نهاية طيبة ويبدو أن شركات الطيران التى تقوم بتشغيل الخطوط الجوية المارة بالقرب من منطقة بحر الكاريبى قد استسلمت للقرصنة الجوية وأخذت فى التعامل معها على أنها شر لابد منه، فاكتفت بتوفير أمن وسلامة الطائرات والركاب بل إن هذه الشركات قامت - تحسبًا لأية ظروف طارئة - بمد طياريها بخرائط لمطار هافانا الذى يحمل اسم خوسيه مارتى وأصدرت أوامرها للمضيفات ألا ينزلقن فى أى نوع من الشجار مع أى شخص يحتمل أن يكون من مختطفى الطائرات، وأن يقمن على قدر الإمكان بتنفيذ التعليمات المنوطات بتنفيذها.

وبمناسبة هذه الحوادث قامت مجلة «تايم» الأمريكية الأسبوعية مستغلة المعلومات الوفيرة التى حصلت عليها فى عام ١٩٦٨ - بنشر مذكرة لركاب الطائرات المخطوفة فى أحد أعداد شهر ديسمبر تميزت بالطرافة، اقترحت طبعها على هيئة كراسات يمكن وضعها خلف مقاعد الطائرات مع بقية الإرشادات الموجهة للركاب. ها هى «النصائحَ الغالية» التى أسدتها المجلة فى «مذكراتها».

هناك أربعة «محاذير» فى الجو! وهى بالتحديد:

**أولاً**: لا تتصرف بعدوانية لأن مختطفى الطائرة عادة ما يكون مسلحين جيدًا. وهم ميالون - بحكم المخاطرة الكبرى التى يقومون بها - إلى المسدسات والسكاكين. هناك مع ذلك بعض الاستثناءات فقد استخدم المدعو إناندیس المهاجر الكوبى البالغ من العمر ثلاثة وعشرون عامًا والذى قام فى يوليو عام ١٩٦٨ باختطاف طائرة من طراز «دى سى - ٨» تابعة لشركة الطيران «ناشيونال إيرلاين» استخدم شيئًا ما أكد أنه قنبلة يدوية وذلك بهدف إثارة الخوف لدى طاقم الطائرة وركابها، وقد تبين بعد هبوط الطائرة فى هافانا أن هذا الشىء لم يكن ببساطة سوى زجاجة عطر رشاشة تستخدم بعد الحلاقة وقد لفها فى منديل يد.

**ثانيًا**: لا تستسلم للذعر فقراصنة الجو على الرغم من عدوانيتهم يمكن أن يكونوا فى الوقت نفسه أناسًا ودودين. فى نوفمبر عام ١٩٦٨ قام المدعو خوسيه وهو واحد من ثلاثة رجال قاموا باختطاف طائرة شركة طيران «بان أمريكان» أثناء قيامها برحلتها رقم ٢٨١ متجهة إلى سان خوان فى جزيرة بويرتوريكو، قام بتوزيع طلقات رصاص من عيار ٣٢ ملم على الركاب على سبيل التذكار، وأخذ فى مجاذبتهم أطراف الحديث فى مودة بالغة، وفى أدب توجه بالحديث إلى جوزيف هانوفيل وزوجته، اللذين كانا قد تزوجا لتوهما قائلاً:

- إننا فى غاية الأسف لأننا أفسدنا عليكما رحلة زفافكما!

**ثالثًا**: لا ينبغى إطلاقًا أن تضغط على زر الجرس المثبت فى المقعد إذ أن الرنين الذى سيدوى فى غرفة الطيار يمكن أن يثير ذعر القرصان، وقد يدفعه إلى فتح نيرانه. إن أية طلقة طائشة من المحتمل أن تخترق جدار الطائرة المحكم والذى يحافظ على ضغط الهواء المناسب لحياة الركاب، وإذا حدث ذلك فيجب اتباع التعليمات المسجلة والتى تشير إلى كيفية التصرف فى حالة وقوع مثل هذه الكارثة.

**رابعًا**: لا تستدع المضيفة بصوت مرتفع. إذا كنت فى حاجة إلى المساعدة أو إذا كنت تريد التوجه إلى دورة مياه، عليك أن ترفع يدك إلى أعلى البطن. إن طاقم الطائرة يمكنه أن يوفر للركاب المشروبات بناء على تصريح من المختطفين. والحقيقة أن مثل هذه المواقف لا تخلو أبدًا من المفاجآت. على سبيل المثال فقد قام أحد قراصنة الجو الذين اختطفوا طائرة شركة الطيران الأمريكية «إيسترن إيرلاينز» فى شهر نوفمبر عام ١٩٦٨ أثناء قيامها برحلتها رقم ٢٧٣ من شيكاغو إلى ميامى بولاية فوريدا بشراء مشروبات كحولية للركاب من جيبه الخاص بمبلغ عشرين دولارًا.

على الأرض هناك أمران «مباحان»! وهما بالتحديد:

**أولاً**: يجب أن تهتم بأخذ قسط كبير من الراحة. على الرغم من النظام القائم فى البلاد فإن الكوبيين فى واقع الأمر يتعاملون بظرف ورقة، وما أن ينتهوا من

إجراءات الدخول الشكلية اللازمة حتى يسعون للتخفيف عن الركاب ـ قدر الإمكان ـ من أثر الهبوط الاضطرارى المزعج. أما بالنسبة للإجراءات فهم ملتزمون بالأمور التقليدية فى مثل هذه الأحوال من ملء للاستمارات الخاصة بملكية الركاب للآلات التصوير الفوتوغرافية والسينمائية وأجهزة الاستريو، وبالنسبة للذين لا يحملون شهادات التطعيم ضد الحصبة فإنهم يتعرضون لأخذ الأمصال فى المطار أو الحجر الصحى.

**ثانيًا**: ينبغى أن تستغل فرصة وجودك بأفضل وسيلة ممكنة، وسوف يساعدك الكوبيون أنفسهم على تحقيق ذلك تمامًا. فى أغلب الأحوال تمتد فترة بقائك الاضطرارى ليلة واحدة كحد أدنى إذ أن السلطات الكوبية لا تسمح لطائرات الركاب الأمريكية النفاثة بالطيران من مطار خوسيه مارتى. سوف تضطر للانتظار حتى ترسل شركة الطيران طائرة مروحية أخرى، بينما تدبر السلطات الكوبية أمر إقامة الركاب فى فندق المطار أو فى أحد أفضل فندقين فى كوبا: «هافانا ليبرى» (هيلتون هافانا سابقًا) الموجود فى قلب العاصمة، أو «فيراديور إنترناشيونال» ويبعد عن المدينة مسيرة ساعة بالسيارة حيث يقع بالقرب من مطار فيراديرو وهو المطار الذى تقلع منه الطائرات المروحية».

إليك ما يستطيع السائح الاضطرارى أن يراه فى هافانا تبعًا للمكان الذى سيضطر للإقامة فيه:

«تسمح السلطات الكوبية فى مطار خوسيه مارتى للركاب بأن يتحركوا كما يشاءون وأن يشتروا ما يحلو لهم من هدايا تذكارية من الأكشاك، ويحظى السيجار الهافانى بشكل خاص بشعبية كبيرة من الأمريكيين وكذلك الروم الكوبى، وكلاهما من السلع المحظور اصطحابها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإن نجح البعض فى أخذها بطريقة أو بأخرى، يتبقى بعد ذلك قليل من الوقت لمشاهدة المدينة، وهو الوقت الذى ينتقل فيه الركاب من مطار إلى آخر بواسطة سيارات الأوتوبيس التى تخصصها لهذا الغرض سفارة سويسرا القائمة على رعاية المصلح الأمريكية فى كوبا.

هناك فرصة متاحة أمام الركاب الذين ينزلون فى فندق «هافانا ليبرى» للتعرف على حياة الليل فى كوبا الاشتراكية، فبإمكانهم أن يحتسوا كأسًا من كوكتيل «دايكيرى» الوطنى المصنوع من الروم الكوبى فى جو المطعم المريح الملحق بالفندق، كما يمكنهم مشاهدة عروض فنانى الكاباريه ومقابلة جمهور يتميز بالطرافة بالنسبة للأمريكيين وخاصة من السائحين القادمين من بلدان أوروبا الاشتراكية، إلى جانب أنه من الممكن القيام بجولة فى وسط المدينة للشراء أفضل بكثير من تلك التى يتيحها المطار. هنا تباع آلات التصوير الممتازة من ألمانيا الشرقية، والبلوزات القومية التشيكية المطرزة بالرسوم الجميلة والدانتيلا، إلى جانب السيجار، والروم الكوبى المتميز. قد تصادر الجمارك الأمريكية هذه السلع، وإن كان من الممكن استعادتها مرة أخرى بعد التقدم بطلب إلى لجنة الاستيراد فى واشنطن.

أما الركاب الذين ينزلون فى فندق «فيراديرو إنترناشيونال» فننصح بأن يأخذوا معهم ملابس البحر؛ فالبلاج هنا يمتد إلى مسافة خمسة عشر ميلا من الرمل الأبيض، ومياه البحر نظيفة ودافئة، وهو مكان يتميز حقيقة بالجمال الخلاب. فى الوقت نفس فالكوبيون يقومون دائمًا وبكل ظرف بتقديم غذاء مجانى (فاتح للشهية، لحم وأرز وسلاطة، وطبق حلوى) للسائحين العرضيين على أنغام فرقتين موسيقتين يتبادلان عزف أغنيتى «باصا نوڤا» و«أستالا ڤيستا». فى مطلع عام ١٩٦٩ ازدادت حوادث القرصنة الجوية فى منطقة البحر الكاريبى، ففى شهر يناير وحده كان يجرى اختطاف طائرتين فى المتوسط أسبوعيًا إلى كوبا. وفى يوم الأحد الموافق التاسع عشر من يناير تم اختطاف طائرتين: الأولى أمريكية وتتبع شركة «إسترن إيرلاينز» وعلى متنها واحد وسبعون راكبًا، والأخرى إكوادورية وتتبع شركة «إيرلاينز إلكترا» وعلى متنها ثلاثة وثمانون راكبًا.

أصبح اختطاف الطائرات أمرًا معديًا، وأصبحت الأنباء ترد من وقت لآخر حول اختطاف طائرات من شتى أنحاء العالم.

فى الثانى من يناير عام ١٩٦٩ تعرض طاقم طائرة الخطوط الجوية اليونانية أثناء توجهه من إيراكليون بجزيرة كريت إلى أثينا لهجوم شنه أحد سكان الجزيرة

ويدعى ف. فلاموريديس أرغم الطاقم على تحويل مسار الطائرة والتوجه بها إلى القاهرة. وقد جرى تحذير طائرتين قاذفتين يونانيتين كانت قد سارعتا بمطاردة الطائرة المخطوفة باللاسلكى من قبل المختطف الذى أعلن أنه سيفجر الطائرة إذا لم تتراجعا. كانت الطائرة اليونانية تحلق وعلى متنها سبعة وتسعون راكبًا، وقد هبطت الطائرة ظهرًا فى مطار القاهرة وقامت السلطات المصرية بإعادتها إلى اليونان، أما ركابها فقد عادوا إلى أثينا عل متن إحدى طائرات الركاب النفاثة من طراز «بوينج ٧٠٧» تمتلكها شركة الخطوط الجوية اليونانية.

كان أمرًا مثيرًا للدهشة أن تهبط فى مطار صوفيا على غير انتظار فى السادس عشر من سبتمبر ١٩٦٩ فى تمام الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة ظهرًا، إحدى الطائرات التركية وعلى متنها خمسون راكبًا كانت فى طريقها من إسطانبول إلى أنقرة. وقد تبين أن مختطف الطائرة طالب يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا ويدرس بكلية الحقوق بإحدى الجامعات التركية ويدعى سعدى طاهر، قام بتهديد طاقم الطائرة بمسدسه وأرغمه على تحويل مسارها والهبوط بها فى صوفيا، وبعد توقف لم يطل هناك جرت أثناء الإجراءات الرسمية اللازمة حلقت الطائرة وطاقمها وركابها عائدة إلى إسطانبول تاركة وراءها مختطف الطائرة، وقد توجهت الحكومة التركية بالشكر لحكومة بلغاريا على سرعة إعادة الطائرة.

وما هى إلا أسابيع قليلة بعد هذا الحادث حتى اهتز الرأى العام لما سمى آنذاك بقضية مينيكيللو، فبينما كانت الطائرة العملاقة من طراز «بوينج ـ ٧٠٧» تتأهب للهبوط فى مطار سان فرانسيسكو قادمة من لوس أنجلوس، إذا بشاب يقتحم غرفة الطيار ويطلب منه ـ تحت تهديد السلاح ـ أن يتجه بالطائرة إلى نيويورك. بصعوبة بالغة استطاع الطيار الأول أن يقنع قرصان الجو بأن الطائرة ليس بها وقود يكفى للطيران لمثل هذه المسافة الطويلة، عندئذ سمح المختطف بهبوط الطائرة فى دنفر (ولاية كلورادو) وهناك تم إنزال جميع الركاب ومضيفة واحدة، وبعد أن جرى تموين الطائرة بالوقود عادت للطيران مرة أخرى. جلس مينيكيللو (كما كان يسميه الطيارون) طوال الرحلة إلى نيويورك والتى تبلغ ثلاث

ساعات فى غرفة الملاحة مصوبًا مدفعه الرشاش نحو طاقم الطائرة المكون من خمسة أفراد.

وعندما لاحظ القرصان ـ بعد أن هبط من مطار كينيدى الدولى فى نيويورك ـ أن سيارات الشرطة قد هرعت نحو الطائرة، أطلق النار إلى أعلى فاخترقت خزان والأوكسجين السائل الموجود أسفل سقف غرفة القيادة؛ ثم صاح فى الطيارين قائلاً:

ـ سوف أطلق النار على الجميع وحتى على من فى المطار إذا لم تقلعوا فورًا من هنا!

فى نيويورك نجح طياران آخران فى الصعود إلى الطائرة ليتبادلا العمل مع الطاقم الذى أرهقه الطيران المتواصل لمدة ثمانى ساعات، وتحت تهديد القرصان عادت الطائرة لتحلق فى الجو دون أن يتم تموينها بالوقود. لم يستطع قناصة مكتب التحقيق الفدرالى الذين ظلوا راقدين ساعة بأكملها وسط الحشائش المحيطة بالمطار من إطلاق الرصاص لو لاحت لهم رأس القرصان من النافذة. هؤلاء كانت لديهم الأوامر بإطلاق الرصاص دون أدنى خطأ، على أن الفرصة لم تتح لهم.

كان الهبوط التالى للطائرة فى مطار بنجور (ولاية مينسوتا) حيث أصدر مينيكيللو أوامره بتزويد «البوينج» بالوقود استعدادًا لعبور المحيط الأطلنطى. بعد خمس ساعات، وفى تمام الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، هبطت الطائرة فى مطار شانون (أيرلندا). لم يستغرق توقف الطائرة وقتًا طويلاً، فسرعان ما عادت للتحليق من جديد لمدة أربع ساعات أخرى لتصل فى الرابعة والنصف صباح أول نوفمبر عام ١٩٦٩ إلى مطار ليوناردو دفنشى فى روما. هكذا تم تسجيل الرقم القياسى العالمى لأطول رحلة تقطعها طائرة مختطفة وقد بلغت المسافة إحدى عشر ألف كيلومتر.

قام مينيكيللو بالاتصال لاسلكيًا بالشرطة الإيطالية قبل هبوطه فى مطار روما وطلب أن يرسلوا له سيارة. وصلت سيارة الشرطة إلى سلم الطائرة بالفعل؛

فاتصل مينيكيللو بقيادة غرفة العمليات وأصدر أمره الدورى: على الضابط الجالس خلف مقود القيادة فى السيارة الصعود إلى الطائرة مجردًا من السلاح، وقد تم تنفيذ هذا الأمر فورًا، وما هى إلا عشر دقائق حتى ظهر بالقرب من الطائرة نائب مدير شرطة روما وكان يرتدى سترة شاويش خصيصًا لهذه الحادثة، ثم هبط وراءه القرصان وفى يده مدفعه الرشاش. جلس الضابط إلى مقود السيارة بينما جلس القرصان فى المقعد الخلفى وقد صوب فوهة مدفعه إلى مؤخرة رأس السائق. سرعان ما انطلقت «الألفا ـ روميو» القديمة لتغادر المطار تتبعها على مقربة سيارتا الشرطة. ولما كان قرصان الجو مدركًا أنه مطادر؛ فقد أصدر أمر للسائق أن يسير فى خطوط متعرجة فى ضواحى روما ثم يتخذ مساره فى اتجاه نابولى، وعندما أصبحا فى مكان ناء خال من الناس، قفز مينيكيللو من السيارة وانطلق يعدو عبر الحقول وفى أثره انطلقت الشرطة الإيطالية تطارده.

نجحت كلاب الشرطة بعد أربع ساعات من العثور على قرصان الجو مختبئًا فى إحدى الكنائس وقد استبدل ملابسه بعد أن ألقى سلاحه فى إحدى الغابات القريبة. اقتيد مينيكيللو إلى روما وأودع السجون وقد أطلق عليه اسم «ريجينا تشيليس» (ملكة السماوات) وهكذا انتهى المطاف بالمختطف وراء القضبان، وأعيدت الطائرة إلى أصحابها الشرعيين.

اهتمت الصحافة والرأى العام بحياة قرصان الجو الذى تبين أن اسمه رافاييلى مينيكيللو، أمريكى الجنسية من أصل إيطالى، اختار هذه الطريقة الغريبة ليحقق حلمه فى العودة إلى وطنه وكان أبوه المريض قد رحل عائدًا إلى مسقط رأسه فى مدينة نابولى منذ عدة أعوام خلت.

لم يكن رافاييلى قد تجاوز العشرين عامًا وهو يحلق على متن الطائرة المختطفة عبر المحيط الأطلنطى، كان شابًا مبتسمًا محبًا للحياة وصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية قادمًا من إيطاليا وكان يبلغ من العمر آنذاك أربعة عشر ربيعًا، وعلى الفور التحق بالمدرسة. تطوع رافاييلى للخدمة فى البحرية الأمريكية قبل ما يزيد عن العام من قيامه باختطاف الطائرة وكان قد خدم لمدة

عام كامل فى فيتنام فى منطقة منزوعة السلاح دارت فيها معارك حربية شرسة. حصل رافاييل على رتبة عريف وكذلك على عدد من المكافآت العسكرية وقد تعلم كيف يقتل بالمسدس والبندقية والخنجر وأيضًا باليد الخالية من أى سلاح. وبعد أن عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية قام بسرقة مخزن حربى، وفى ومحاولة منه للهروب من العقوبة استطاع الحصول على السلاح ثم قام باختطاف الطائرة التى حلق بها عبر المحيط ليهبط فى أوروبا. وقد رفض القضاء الإيطالى تسليم مينيكيللو وقرر معاقبته فى وطنه.

فى الفترة من مساء السابع عشر إلى صباح الثامن عشر من مارس عام ١٩٧٠ وقعت حادثة اختطاف لإحدى الطائرات العاملة على الخطوط الجوية الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية كان لها عواقب وخيمة فاقت الحادثة السالفة الذكر.

إبان مراجعة تذاكر السفر على الطائرة «دى سى - ٩» وكانت قد اقتربت من الهبوط فى مطار بوسطون قادمة من نيويورك وعلى متنها ثلاثة وسبعون راكبًا إذ بالمدعو ج. ديفيفو يبلغ المضيفة بأنه لايملك نقودًا لمواصلة رحلته وطلب من قائد الطائرة تغيير وجهتها. كانت الطائرة تستعد للهبوط فى مطار بوسطن ومن ثم فقد رفض الطيار مطالب قرصان الجو فما كان من الأخير إلا أن أخرج من جيبه مسدسًا وأطلق الرصاص على الطيارين فقتل واحدًا وأصاب الآخر بجرح بالغ فى كتفه. على الرغم من إصابة الطيار فقد تحامل على نفسه ونجح فى الهبوط بالطائرة. حاول القرصان أن ينهى حياته منتحرًا فأطلق على صدره الرصاص.

على الرغم من أن حوادث اختطاف الطائرات أصبحت يومًا بعد الآخر من الحوادث المألوفة، فإن قليلاً منها كان بهذا القدر من الإثارة مثلما حدث فى أول حادثة لاختطاف طائرة يابانية فى ربيع عام ١٩٧٠. يعد هذا الحادث أحد الحوادث الفريدة فى تاريخ القرصنة الجوية وكانت له عواقب غير متوقعة وإن بدا الأمر فى أوله عاديًا تمامًا.

فى السابعة والنصف صباحًا من آخر أيام شهر مارس عام ١٩٧٠ بتوقيت طوكيو، اقتحمت مجموعة من الطلاب اليابانيين ينتمون إلى منطقة سنجاكورين اليسارية الماوية غرفة الطيار الذى كان فى طريقه من طوكيو إلى فوكو أوكا، وكانت الطائرة تحمل على متنها مائة وواحدًا وثلاثين راكبًا وطاقمًا من سبعة أفراد وطلبوا منه التوجه إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية. فى الوقت نفسه قامت مجموعة من المختطفين ببث الذعر فى قلوب المسافرين مهددة بتفجير الطائرة لو حاول أحد منهم مغادرة مكانه، بل إن القراصنة قاموا بربط أيدى الرجال منهم بعد أن أوثقوهم إلى مقاعدهم. بلغ مجموعة القراصنة تسعة طلاب مسلحين. أبلغ الطيار المختطفين أن الوقود الذى لديه لن يكفى للوصول إلى كوريا الشمالية، عندئذ وافقوا على الهبوط فى إيتادزوكى (جزيرة كوسو) للتزود بالوقود. نتيجة للمباحثات التى جرت إبان ساعات التوقف الخمس سمح المختطفون لثلاثة وعشرين راكبًا من المرضى والعجائز والنساء والأطفال بمغادرة الطائرة. ردًا على ذلك وافقت قيادة الأسطول الجوى اليابانى على مغادرة الطائرة المخطوفة للمطار والتوجه إلى كوريا.

ما أن حلقت الطائرة فى الجو حتى تبعتها طائرتان قاذفتان من كوريا الجنوبية نجحتا فى الاتصال بطاقم «البوينج» وقد طالب الطيارون الكوريون من الطاقم الهبوط بالطائرة فى سيول. فى هذا الوقت تمامًا بدأ الاستعداد لأكبر عملية تضليل فى تاريخ الطيران المدنى. كان مطار كيمبو فى سيول قد أجرى عددًا من التغييرات ليصبح مستعدًا لأن يترك انطباعًا لدى المختطفين أنهم قد هبطوا فى بيونج يانج فتم نزع أعلام الدول الغربية ورفعت على جميع الصوارى أعلام جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية والرايات الحمراء وعلقت اليافطات وعليها الشعارات الشيوعية وارتدت الفرقة العسكرية بالمطار السترات العسكرية للجيش الشعبى الكورى. وأعلنت إذاعة المطار للطائرة: «هنا مطار بيونج يانج. يمكنكم الهبوط».

غير أن المختطفين سرعان ما اكتشفوا الخدعة، فبعد هبوط الطائرة مباشرة طلبوا إحضار آخر الصحف الصادرة فى بيونج يانج ولكنهم لم يتسلموها. أغلق

المختطفون كل أبواب الطائرة وطالبوا بالسماح للطائرة بالإقلاع فورًا والتوجه إلى كوريا الشمالية. لكن الطيار أخبرهم أن هذا الأمر أصبح مستحيلاً إذ أن موظفى الخدمة الأرضية بالمطار قاموا بإفراغ إطارات الطائرة من الهواء لإعاقتها عن الإقلاع.

بدأت مباحثات طويلة مشحونة بالتوتر بين مختطفى الطائرة من ناحية والسلطات المحلية فى كوريا والسلطات اليابانية أيضًا من ناحية أخرى، اشترك فى المباحثات سفير اليابان فى سيول ووزير النقل والمواصلات اليابانى الذى هرع إلى عاصمة كوريا الجنوبية. استمرت المباحثات لساعات طويلة وتم إعلان أكثر من مرة عن إقلاعها الوشيك، غير أن هذا الإقلاع كان يتعرض للتأجيل فى كل مرة. أصبح الوضع على الطائرة يكتسب شكلاً دراميًا ساعة بعد الأخرى، فقد الركاب الذين أرهقهم الجلوس الطويل الممض فى مقاعد ضيقة ما تبقى لديهم من قوة وأصبحوا فى حال يرثى لها. كان هذا ما تدل عليه البرقيات اللاسلكية التى تبادلها الجانبان.

قام قائد الطائرة، الذى كان يتحلى بقدر كبير من الصبر والتماسك، بإبلاغ السفير اليابانى فى سيول بالوضع على الطائرة فى برقية جاء فيها: «إن الطلاب فى قمة غضبهم، يتصاعد لديهم الإحساس بالتوتر. الموقف لم يعد محتملاً. يريدون الإقلاع فورًا. وفى رأيى أن علينا أن نطير فورًا تجنبًا للعواقب الوخيمة». وقد توجه أحد الركاب برجاء مماثل إلى السفير قائلاً: «إننا جميعًا موافقون على مواصلة الرحلة حتى لو تم القبض علينا هناك. نتوسل إليكم! دعونا نطير».

وأخيرًا وبعد أن ظلت الطائرة على أرض المطار إحدى عشرة ساعة كاملة قررت السلطات المحلية أن تنهى وعلى وجه السرعة هذه الكوميديا المصطنعة، وعبر نافذة غرفة الطيارين المفتوحة وصل بيان سلطات المطار من خلال الميكروفونات يقول: «أنتم هنا-فى مطار كيمبو فى كوريا الجنوبية». ومن خلال هذه النافذة ذاتها أخذت المياه والمواد الغذائية تتدفق على الركاب وطاقم الطائرة استجابة للتوسلات اليائسة كما جرى شحن البطاريات حتى أمكن تدفئة الطائرة التى كان ركابها يشكون من شدة البرد. بعد ذلك وجهت السلطات نداء إلى

مختطفى الطائرة جاء فيه: «أطلقوا سراح الركاب وفى هذه الحالة سوف نتيح لكم غدًا الإقلاع إلى كوريا الشمالية». غير أن القراصنة الذين سبق وتعرضوا للخداع من قبل أجابوا نقطة المراقبة بقولهم: «لن نسمح لأحد بمغادرة الطائرة. لسنا بحاجة لمساعدتكم لنطير إلى جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية وسوف ندمر الطائرة بمن فيها من الركاب إذا ما حدث هجوم عليها». فى نفس الوقت أكد قائد الطائرة وجود مواد متفجرة بحوزة المختطفين. الأمر الذى لم يكن يعلمه الركاب أن قادة الطائرة المدنية التابعة للأسطول الجوى اليابانى قد نجحوا بشق الأنفس فى منع السلطات فى سيول من استخدام الغازات ومحاولة اقتحام الطائرة عنوة.

فى الوقت نفسه كان هناك حوار طويل بين سيول وطوكيو اشتركت فيه جهات عديدة. بعد مباحثات طويلة استمرت لمدة ثمانية وسبعين ساعة بين المسئولين فى كل من سيول وطوكيو، وافق القراصنة على إبداء بعض التنازلات بإخلاء سبيل ما يزيد عن مائة راكب ظلوا على مدى أربعة أيام يعانون من الجوع والتوتر فى انتظار وضع حد لهذه القصة. على أن الطلبة اشترطوا - فى مقابل إطلاق سراح هؤلاء الركاب - أن يصعد إلى الطائرة رهائن أخرين هم بالتحديد السيد ياماموزا نائب وزير النقل والمواصلات والسيد آبى عضو البرلمان اليابانى عن الحزب الاشتراكى ووافقوا على إطلاق سراح خمسين راكبًا فى البداية ثم إطلاق سراح باقى الركاب بعد صعود الرهائن إلى الطائرة، كما وافقوا على اقتراح السلطات المحلية بإرسال ثمانية أطباء وخمس عشرة ممرضة إذ أن غالبية الركاب كانوا بحاجة إلى معونة طبية (كان أحد الركاب قد أخذ يعانى من نوبة قلبية بينما ظهرت على راكب آخر بوادر انهيار عصبى نتيجة للصدمة). الأمر الذى لم يقبله القراصنة إطلاقًا هو استبدال طاقم الطائرة بطاقم آخر على الرغم من وصول خمسة طيارين ومضيفتين من طوكيو إلى سيول برفقة الرهينتين المذكورتين ليحلا محل طاقم الطائرة المخطوفة الذى أنهكته الرحلة تمامًا حتى بدا أنه ليس بإمكانه مواصلة الطيران. وعدت السلطات فى سيول بأن الطائرة سوف تكون جاهزة للإقلاع وستسحب إلى خط الطيران فور تبادل الركاب بالرهائن.

كان قد مضى على وجود «البوينج» ما يقرب من ثمانين ساعة على أرض مطار سيول عندما فتح بابها أخيرًا ليظهر أمامه طالبان يابانيان يحملان سيوف ساموراى طلبا من موظفى الخدمة الأرضية عدم الاقتراب من سلم الطائرة أكثر من مترين. بعدها ظهرت على درجات السلم طلائع الركاب الذين كانوا يتحركون بالكاد واحدًا وراء الآخر فى طريقهم إلى ساحة المطار حيث كانت تنتظرهم سيارات الإسعاف مجهزة بالأطباء والممرضات. بعد أن غادر الركاب الخمسون الطائرة، عادت أبوابها لتغلق من جديد. فى الوقت الذى كان الركاب الذين أطلق سراحهم يدخلون إلى مبنى مطار سيول كان يامامورا قد صعد إلى «البوينج» وبمجرد أن غادرها بقية الركاب حتى أقلعت فى طريقها إلى بيونج يانج.

هكذا انتهت أصعب مائة واثنين وعشرين ساعة من مغادرة الطائرة التى اختطفها الطلاب مسجلين بذلك «رقمًا قياسيًا» فريدًا فى مجاله. انتهت القصة لكن نتائجها استمرت بعد ذلك زمنًا طويلاً. فى الخامس من إبريل أعلن إيزاكو ساتو رئيس وزراء اليابان من خلال لجنة الهدنة الدولية عن شكره لحكومة جمهورية كوريا الديموقراطية الشعبية لإعادتها الفورية للطائرة المختطفة. لا شك أن المسئولية فى هذا الحادث تقع بالدرجة الأولى على الأشخاص الذين قاموا باختطاف الطائرة، على أن الحكومة اليابانية قد أتهمت بأنها عرضت حياة أكثر من مائة نفس للخطر.

لم تسلم الطائرات المدنية البولندية من موجة الهجوم على الطائرات التى زادت حدتها فى تلك الفترة، ففى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٦٩ كانت طائرتان منها هدفًا للقرصنة الجوية. فى التاسع من نوفمبر عام ١٩٦٩ أرغمت طائرة بولندية من طراز «إيل ـ ١٨»، كانت تطير من وارسو فى طريقها إلى بروكسل عبر برلين عاصمة ألمانيا الديموقراطية، على الهبوط فى برلين الغربية. وفى العشرين من نوفمبر عام ١٩٦٩ تعرض طاقم طائرة الركاب البولندية من طراز «إن ـ ٢٤» وكان متجهًا بالطائرة من فروتسلاف إلى وارسو لهجوم من جانب اثنين من قراصنة الجو أرغموه على تغيير وجهته إلى فيينا.

طلبت الحكومة البولندية تسليم كلا المجرمين لها. وفى مارس من عام ١٩٧٠ نظر القضاء النمسوى فى فيينا أمر مختطفى الطائرة وأصدر حكمه على واحد منهما بالسجن سنتين وثلاثة أشهر بينما حكم على الآخر بالسجن سنتين، وبعد انقضاء مدة العقوبة كان لزامًا على المجرمين وفقًا لحكم المحكمة أن يغادروا الأراضى النمسوية فورًا. وقد أشار رئيس المحكمة فى حيثيات حكمه إلى أن المفوضية العليا للأمم المتحدة لشئون اللاجئين لا تعترف بحق اللجوء عند ارتكاب أعمال القرصنة الجوية.

وقد حاول المتهمان بكل الوسائل أن يثبتا أن الدافع الأساسى وراء أعمالهما كان لاعتبارات سياسية، وأن ما اكتسباه من شكل مادى كان أمرًا جانبيًا. على أن المحاكمة أظهرت أن الشكل المادى بالتحديد هو الذى لعب الدوو الرئيسى فى هذه الحادثة. وردًا على سؤل للدفاع أعلن المتهمون أنهم استمعوا إلى إذاعة «أوروبا الحرة» تقول إن اختطاف طائرات الدول الاشتراكية لا يطبق عليه القانون الجنائى فى الدول الرأسمالية. وقد أوضح هذا المقطع من المحاكمة الدور التخريبى الذى لعبته إذاعة «أوروبا الحرة» فى مجال خطف الطائرات.

كان لغياب التعريف الدقيق للقراصنة فى القانون الدولى أثره فى تصعيب التكييف القانونى للقرصنة الجوية ناهيك عن القرصنة البحرية، إذ كان من العسير تعليل حوادث التمرد التى يقوم بها طاقم الطائرة أو اختطافها على يد متمردين أو من قبل أعضاء حركات التحرر الوطنى. على أنه من وقت لآخر كانت تقع أحداث شبيهة كان يتم النظر فى كل منها على حدة وعلى نحو مختلف فى كل مرة كما يحدث ـ على سبيل المثال ـ إبان اختطاف طائرات الركاب الإسرائيلية على يد الثوار الفلسطينيين.

فعندما أقلعت الطائرة «بوينج ـ ٧٠٧» التابعة لشركة الخطوط الجوية الإسرائيلية «العال» من مطار روما فى طريقها إلى اللد (القريبة من تل أبيب) لم يكن هنا ما يوحى على الإطلاق بأنها سوف تصبح فى وقت قريب جدًا محورًا لاهتمام الرأى العام العالمى. آنذاك لم يكن هناك أيضًا من يعلم أن من بين ركاب

الطائرة، وهم من مختلف الجنسيات، ثلاثة ركاب ينتمون للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

بعد مضى خمس وعشرين دقيقة من لحظة الإقلاع، كانت الطائرة قد خرجت من المجال الجوى الإيطالى وأصبحت تحلق فوق سطح البحر وإذا بثلاثة من الركاب يتوجهون نحو غرفة الملاحة الجوية. توقف أحدهم ـ وكان مسلحًا بمسدس ـ وأصدر أوامره لجميع الموجودين بصالون الطائرة بأن يلتزموا أماكنهم، أما طاقم الطائرة فقد ألجمتهم المفاجأة . أمر المسلحان اللذان اقتحما غرفة القيادة الطيار بتغيير خط سير الطائرة والتوجه بها إلى الجزائر، أما الطيار الثانى الذى حاول أن يبدى مقاومة، فقد تم إسكاته بمؤخر المسدس. أجرى مختطفوا الطائرة اتصالا بمطار الجزائر ووجهوا إليه لاسلكيًا البيان التالى: «نحن فلسطينيون اختطفنا طائرة ركاب إسرائيلية، نرجو السماح لنا بالهبوط» وطوال الرحلة امتثل الطاقم لتعليمات الثوار، أما الركاب الذين كانوا تحت الحراسة فلم يغادروا أماكنهم إلى أن استقرت الطائرة فى مكانها فى ميناء الجزائر الجوى.

بالنسبة للمسافرين الذين لايحملون الجنسية الإسرائيلية فقد أقلتهم سيارة أوتوبيس خاصة إلى المدينة وسمح لهم فى نفس اليوم بمغادرة البلاد إلى باريس، وبعد أربعة أيام تم ترحيل النساء الإسرائيليات بمن فيهن من مضيفات بالإضافة إلى الأطفال. أما الرجال الإسرائيليون البالغ عددهم اثنى عشر رجلاً سبعة منهم من أفراد الطاقم والباقى من الركاب فقد تم احتجازهم مع الطائرة فى الجزائر.

فور اختطاف الطائرة الإسرائيلة أذاعت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى بيروت بيانًا جاء فيه أن هذه العملية قد قام بتنفيذها أعضاء من الجبهة من تلقاء أنفسهم وعلى مسئوليتهم الخاصة دون علم من السلطات الجزائرية أو أى دولة أخرى.

انتهى حادث اختطاف طائرة شركة «العال» الإسرائيلية على يد الثوار الفلسطينيين لحل وسط، ففى الأول من سبتمبر عام ١٩٦٨ تم إعادة الطائرة إلى

تل أبيب وعلى متنها اثنا عشر مواطنًا إسرائيليًا كانوا محتجزين من قبل السلطات الجزائرية. وبدورها وافقت الحكومة الإسرائيلية على إطلاق سراح ستة عشر مواطنًا عربيًا كانوا يقضون حكمًا بالسجن لوجودهم غير الشرعى داخل الأراضى الإسرائيلية. ساهمت جهود وزير خارجية إيطاليا، الذى قام بدور الوسيط فى المباحثات بين حكومتى إسرائيل والجزائر اللتين لا تربطهما علاقات دبلوماسية فى تسوية الحادث.

لم يكن هذا العمل هو آخر الأعمال التى قام بها الثوار الفلسطينون. ففى الساعة الثانية عشر وخمس دقائق بتوقيت جرينتش يوم التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٦٩، غادرت الطائرة «البوينج ـ ٧٠٧» التابعة لشركة الخطوط الجوية الأمريكية «ترانسورلد إيرلاينز» مطار فيوميتشينو فى روما وعلى متنها مائة وواحد راكبًا بخلاف طاقمها المكون من اثنتى عشر فردًا. كان مقررًا ـ طبقًا لجدول الرحلة ـ أن تقلع الطائرة القادمة من الولايات المتحدة الأمريكية إلى تل أبيب مرورًا بروما وأثينا حيث كان من المنتظر أن يغادرها ثلاثة وسبعون راكبًا. على أن الطائرة مرت على أثينا دون أن تهبط بها، وفى الساعة الواحدة وأربعين دقيقة ظهرًا بتوقيت جرينتش أرسل قائد الطائرة برقية قصيرة هذا نصها: «نحن فى طريقنا إلى تل أبيب، لقد هوجمنا».

بعدما هبطت الطائرة فى مطار اللد بالقرب من تل أبيب، طلب قائدها من نقطة المراقبة الأرضية إرشادات الطيران إلى بيروت. لكن هذا الطلب أثار قلق السلطات الإسرائيلية. وصل إلى المطار رئيس أركان الجيش الإسرائيلى الذى كانت مهمته الاستيلاء على الطائرة من يدى مختطفيها المجهولين. حلقت فى السماء القاذفات الحربية الإسرائيلية وأخذت تدور حول طائرة الركاب وكانت أثناء ذلك تجرى اتصالها بقائدها الكابتن كارتر، لكن الطيار دعا القاذفات للابتعاد بحجة إمكانية تعرض المسافرين لخطر الموت.

عندما اقتربت «البوينج ـ ٧٠٧» من بيروت طلب الطيار السماح له بالهبوط فى مطارها المحلى. على أن طلبه قوبل بالرفض. عندئذ لم يكن أمام كارتر إلا أن يتوجه بالطائرة إلى دمشق هناك طلب من السلطات أن تسمح له بالهبوط فى

المطار الذى لم يكن فى الحقيقة مستعدًا لذلك استنادًا إلى نفاد الوقود. وقد هبطت الطائرة وسط خطوط ممر الهبوط وسارع الركاب - تنفيذًا للأوامر - بمغادرة الطائرة تحت تهديد تفجيرها وهو ما حدث بالفعل بعد ربع ساعة من مغادرة الجميع لها. تحطمت غرفة الطيار وأصيبت الطائرة بتلفيات أدت بها للخروج من الخدمة إلى الأبد. أولت السلطات السورية جل عنايتها بالركاب وخاصة أولئك الذين أصيبوا فى الارتباك الذى حدث أثناء مغادرة الجميع للطائرة.

تعتبر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وهى الجهة المسئولة عن حادث اختطاف الطائرة الإسرائيلية التى أقلعت من روما والتى أجبرت على الهبوط فى الجزائر والمسئولة أيضًا عن حادث الهجوم على طائرات «العال» فى مطار أثينا وزيورخ هى المنظمة الفلسطينية الوحيدة التى لا تخضع للقيادة العامة للقوات المسلحة الفلسطينية وهى غير ممثلة فى التنظيم السياسى للفلسطينيين المعروف باسم منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد سعت بعض الدوائر فى الغرب باستغلال حوادث اختطاف الطائرات سالفة الذكر لخلق جو من العداء حول نضال الفلسطينيين من أجل حريتهم، ومما خفف من وطأة هذا الجو التصريح الرسمى الذى أدلى به ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الذى أعرب عن رفضه لاختطاف الطائرات كشكل من أشكال نضال الشعب الفلسطينى الوطنى التحررى.

تطبق بعض الدول فى الوقت الحالى عقوبات محددة على أعمال القرصنة الجوية وفقًا لطابعها الإجرامى الذى حددته اتفاقية جنيف المبرمة عام ١٩٥٨ بشأن البحار المفتوحة. تصل عقوبة القرصنة الجوية وفقًا للأحكام القانونية العامة الحالية الخاصة بمكافحة القرصنة إلى عشرين عامًا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى أربعين فى المكسيك. فى الوقت نفسه فالدول الأخرى التى لم تفرد بعد قوانين خاصة بهذا النوع من الجرائم تقوم بتطبيق قوانين القرصنة البحرية كبديل مؤقت. على أن تطبيق العقوبات الجنائية على أعمال القرصنة الجوية يواجه صعوبات كبيرة بسبب الإجراءات المعقدة فى تسليم المجرمين.

جدير بالذكر أن هناك فى واقع الأمر معاهدة دولية تم توقيعها فى طوكيو فى الرابع عشر من سبتمبر عام ١٩٦٣ خاصة بالجرائم التى يتم ارتكابها على متن الطائرات، على أن مواد هذه المعاهدة تتعرض للانتقاد بشدة من جانب رجال القانون من مختلف بلاد العالم الذين يشككون فى مدى الفاعلية الحقيقية لها فى مجملها. ونتيجة للتسويف فى تحديد موعد التصديق على هذه المعاهدة من جانب العديد من الدول فإنها لم تصبح سارية المفعول إلا ابتداء من الرابع من ديسمبر عام ١٩٦٩.

وقد ورد فى إحدى مواد معاهدة طوكيو أنه فى حالة ارتكاب أية أعمال على متن الطائرة بهدف اختطافها فإن على الدول المتعاهدة اتخاذ كل الوسائل اللازمة لإعادة قيادة الطائرات لقائدها الشرعى أو العمل على احتفاظه بقيادتها، على أنه حتى الآن لم تعرف مثل هذه الوسائل التى يمكن للدول أن تلجأ إليها لتغيير إرادة مجرم مستعد لارتكاب أى شىء، وقد وقف مسددًا مسدسه إلى رأس الطيار.

تقضى المعاهدة بعد ذلك بضرورة أن تسمح الدولة التى هبطت الطائرة المختطفة فى أراضيها للمسافرين بمواصلة رحلتهم على الفور وإعادة الطائرة إلى أصحابها. وهذا ما تفعله بالضبط على سبيل المثال كوبا التى لم توقع على هذه المعاهدة، فهى تعيد كل الطائرات وتخلى سبيل أطقمها وركابها. تقضى معاهدة طوكيو أيضًا بإمكانية احتجاز قرصان الجو، على أن الإجراءات المرتبطة بهذا العمل ماتزال على قدر بالغ الصعوبة إلى حد أن هذه المادة تفتقد كل مغزى عملى لها.

أصبحت القرصنة الجوية أمرًا ممكنًا يرجع السبب الرئيسى فيه إلى انعدام العلاقات المشتركة العادية بين العديد من الدول ولم يعد ممن الممكن التصدى لهذه الكارثة التى تحيق بالمواصلات الجوية إلا عن طريق تطبيع العلاقات الدولية.

أدت القرصنة الجوية فى منطقة بحر الكاريبى إلى عواقب وخيمة بالنسبة لكوبا التى أصبح عليها إعاشة وإقامة مئات المسافرين العابرين. فى الوقت الذى

أصيبت فيه بقلق بالغ - من جراء هذه الظاهرة - الدوائر الحكومية فى الولايات المتحدة الأمريكية إذ أن الأمريكيين الذين كانت المقادير تلقيهم فى كوبا ليصبحوا سائحين بمحض الصدفة لهذه البلاد كانوا يعودون منها بانطباعات تختلف تمامًا والروايات الدعائية المتناقضة التى تطلقها الإدارة الحكومية للولايات المتحدة الأمريكية والصحافة الأمريكية.

أخذت أحداث اختطاف الطائرات المدنية فى الانتشار لتشمل مناطق جديدة من العالم، الأمر الذى أثار قلق الرأى العام فى العديد من الدول ودعا رجال القانون للعمل بحماس أكبر من أجل معالجة الجوانب القانونية لهذه الجريمة. حيث أن المواصلات الجوية ذات طبيعة دولية، فقد أصبح اختطاف الطائرات مشكلة دولية لها نتائجها القانونية والسياسية المتعددة، وقد دفعت الأخيرة بأعلى هيئة دولية ألا وهى منظمة الأمم المتحدة لدراسة مشكلة اختطاف الطائرات.

فى مستهل تقريره الذى ألقاه فى سبتمبر عام ١٩٦٩، أعرب السكرتير العام للأمم المتحدة عن قلقه العميق بشأن العدد الكبير للحوادث المرتبطة باختطاف الطائرات وتحويلها عن مسارها المحدد ثم أعلن: «أن اختطاف الطائرات عمل إجرامى للغاية وخاصة إذا جاء ارتكابه من أجل تحقيق مصالح بعض الأشخاص؛ على أنه عندما ينعكس هذا العمل على المجال السياسى وعندما يستخدم باعتباره سلاحًا سياسيًا أو لممارسة الضغوط بعينها فإنه يصبح أكثر مدعاة للوم.

ولهذا فسوف يكون من المرغوب فيه لو أن كل الدول أعضاء المنظمة الدولية للطيران المدنى ICAO استطاعت أن تقدم - حتى قبل انعقاد اللجنة الخاصة بإعداد التوصيات المتعلقة بالإجراءات الوقائية المحددة وتدابير وقف اختطاف الطائرات - توصياتهم بشأن إجراءات توفير الأمن للمواصلات الجوية الدولية حتى لا تتعرض للتهديد نتيجة الأعمال غير المسئولة التى يقوم بها بعض الأفراد والمنظمات » (٤).

على أنه قد اتضح أن قضية اختطاف الطائرات المدنية أكثر تعقيدًا مما يبدو للوهلة الأولى ليس فقط من الناحية السياسية، وإنما أيضًا من وجهة النظر

القانونية. فى الثالث من أكتوبر عام ١٩٦٩ اقترحت إحدى عشرة دولة من الدول الأعضاء فى منظمة الأمم المتحدة والتى كانت أعمالها منعقدة فى ذلك الوقت فى نيويورك . وقد نبه الأعضاء الذين تقدموا بالاقتراح فى مذكرتهم التفسيرية المرفقة به إلى أنه فى عام ١٩٦٨ وحده وقعت سبع وعشرون عملية قرصنة جوية وبحلول منتصف شهر سبتمبر ١٩٦٩ ارتفع عددها إلى خمسين عملية.

وقبل بحث الاقتراح أشار مندوب الأردن إلى أن مصطلح «القرصنة» المأخوذ من القانون البحرى والمعنون به الاقتراح يوصى بالأعمال التى تتخذ طابع الهجوم بهدف السرقة ولتحقيق أطماع لها صفة شخصية، على حين أن حوادث اختطاف الطائرات التى جرت فى الآونة الأخيرة تنطلق من دوافع أخرى بعضها ذو صبغة سياسية. على أى حال فقد واصلت الجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشة هذا الموضوع ولكن تحت عنوان آخر وهو «التغيير القسرى لخط سير الطائرات المدنية إبان طيرانها».

وقد شدد بعض الأعضاء إبان مناقشة الموضوع على النتائج السياسية والقانونية المختلفة لاختطاف الطائرات مؤكدين بالإجماع على ضرورة إنزال عقوبات صارمة بالمجرمين، كما نبه مندوب الأكوادور إلى عدم فعالية إجراءات تسليم المجرمين وهى نفس المسألة التى أشار إليها مندوب كوبا الذى أحاط الجمعية العامة علمًا بالقوانين الخاصة التى سنتها بلاده لمكافحة القرصنة[٥]، وأضاف قائلاً إن الولايات المتحدة الأمريكية وعملاءها فى أمريكا الجنوبية قد وقعوا هم أنفسهم ضحية لهذا الصنف من الجريمة الذى أسسوه. على الرغم من أن كوبا تعانى من «القرصنة الجوية» من وجهة نظر الحكومة الكوبية، فإن حل المشكلة يستلزم بذل كل الجهود استنادًا إلى الاتفاقيات الثنائية. فى الوقت نفسه أشار مندوب كوبا إلى بعض النتائج المترتبة على اختطاف الطائرات، على ضوء قرار الأمم المتحدة الخاص باللجوء السياسى. أما مندوب الولايات المتحدة الأمريكية فقد رأى أن من الضرورى تنحية الجوانب السياسية للموضوع جانبًا إذ أن أهم ما يجب النظر فيه هو تهديد سلامة الأبرياء وكذلك الممتلكات نتيجة اختطاف الطائرات.

وهكذا وعلى الرغم من أن اختطاف الطائرات قد تم اعتباره بالإجماع عملاً إجراميًا، سواء تم تصنيفه باعتباره «قرصنة» أو أى شىء آخر. فقد كان هناك اختلاف واضح فى وجهات النظر بين ممثلى مختلف الدول بخصوص طرق القضاء عليها. وفى الثانى عشر من ديسمبر اتخذت الجمعية العامة القرار رقم ٢٥٥١ (٢٤) بأغلبية سبعة وسبعين صوتًا ضد صوتين وامتناع سبعة عشر عن التصويت وفيه:

١ ـ تدعو الجمعية العامة للأمم المتحدة الدول لاتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لسن التشريعات القومية المناسبة التى تضع الأطر اللازمة لاتخاذ الإجراءات القانونية الفعالة ضد أى من أعمال التدخل غير الشرعية واختطاف الطائرات الموجودة فى الجو أو القيام بفرض السيطرة الإجرامية عليها بالقوة أو بالتهديد باستخدامها.

٢ ـ تؤكد، على نحو خاص، على دعوة الدول إلى تطبيق العقوبات على الأفراد الذين يقومون بارتكاب هذه الأعمال على متن الطائرات.

٣ ـ تؤكد على الدعوة إلى تقديم الدعم الكامل لجهود المنظمة الدولية للطيران المدنى الموجهة لإعداد وتنفيذ المعاهدة التى تقضى باتخاذ الإجراءات الملائمة بما فيها إدراج عمليات الاختطاف غير المشروعة للطائرات المدنية ضمن الجرائم التى تستوجب العقوبة ومعاقبة الأشخاص الذين يقومون بارتكاب هذه الجرائم.

٤ ـ تدعو الدول للتصديق على المعاهدة الموقعة فى طوكيو فى الرابع من سبتمبر ١٩٦٣ الخاصة بالمخالفات القانونية وبعض الأعمال الأخرى التى يتم ارتكابها على متن الطائرات أو الإنضمام للمعاهدة وفقًا لشروط المعاهدة الحالية(٦).

وأشار البروفيسور أ. كلافكوفسكى مندوب بولندا فى معرض تعليقه على الموضوعات التى جرى بشأنها التصويت، أن القرار الذى تم اتخاذه لا يمكن اعتباره وسيلة كافية تسمح ببدء نضال مؤثر ضد اختطاف الطائرات حيث إنه

يفتقد إلى بنود واضحة تتناول مسألة تسليم المتهمين فى هذه الجرائم. كما قام مندوب هولندا بقراءة الإعلان التالى الذى أدرجته فى تقريرها لجنة الشئون القانونية التابعة للجمعية العامة التى تولت بحث هذه القضية:

«ترى اللجنة أن اتخاذ القرار لا يمكن أن يقدم أى حقوق دولية أو يفرض التزامًا على الدول فيما يخص مسألة تسليم (المجرمين)».

لما تباطأت الدول التى وقعت على معاهدة طوكيو لسنة ١٩٦٣ فى التصديق عليها، قامت المنظمة الدولية للطيران المدنى، التى كان قلقها يزداد نتيجة الازدياد المحموم لحوادث اختطاف الطائرات، بتأسيس هيئة خاصة أطلقت عليها اسم اللجنة الفرعية لشئون «التدخل غير القانونى» وكلفتها بدراسة قضايا «اختطاف الطائرات المدنية عنوة بواسطة الهجوم المسلح وارتكاب الأعمال التخريبية ضدها»، وقد أعدت هذه اللجنة الفرعية فى دورتها التى عقدت فى الفترة من ١٠ إلى ٢١ فبراير ١٩٦٩م، مشروع معاهدة جديدة جاءت قراراتها أشمل وأكثر تفصيلاً مما جاء فى الفصل الرابع من معاهدة طوكيو. وقد شمل المشروع بشكل خاص تعريفًا مفصلا لعملية القرصنة الجوية واعتبرتها «استخدامًا للقوة أو تهديدًا باستخدامها بغرض تغيير وجهة الطيران»، ودعا المشروع الدول التى وقعت على معاهدة أن تعترف فى قوانينها الجنائية بالقرصنة باعتبارها جريمة مخالفة للقوانين.

قررت اللجنة الفرعية بالإجماع ضرورة تسليم المتهمين إلى الدولة صاحبة الطائرة، ورأت ضرورة إدراج هذا النوع من الجرائم فى جميع الاتفاقيات الموجودة أو التى يمكن أن تعقد فى المستقبل. كذلك قرر أعضاء اللجنة المذكورة بأغلبية تسعة أصوات ضد ثلاثة أن الدولة التى يتم هبوط الطائرة على أراضيها من حقها، استنادًا إلى قوانينها الداخلية، أن ترفض تسليم المختطف. وينطبق هذا - على سبيل المثال - على الحالات التى يكون المتهم فيها مواطنًا فى هذه الدولة أو عندما يكون وراء ارتكابه لهذا العمل دوافع سياسية وخاصة فى تلك الحالات التى يكون طلب تسليم المتهم فيها لأسباب سياسية. يرى مندوب الولايات المتحدة الأمريكية أن الدولة التى يتم هبوط الطائرة على أراضيها ينبغى أن تكتفى بإعلان

يفيد كون مختطف الطائرة غير مطلوب فى الدولة المطالبة بتسليمه لأية أسباب سياسية.

أخيرًا، وبعد مماطلة استمرت ست سنوات، صدقت اثنتا عشرة دولة فقط على معاهدة طوكيو، ولم تكن كوبا ولا دول الشرق الأوسط، أى الدول الموجودة فى المناطق المشهورة بحوادث اختطاف الطائرات من بين هذه الدول.

إن أنصار إقامة نظام راديكالى عالمى لمكافحة القرصنة الجوى يطلبون أن ينظر إلى هذه الجريمة من الناحية القانونية قياسًا بالقرصنة البحرية، وأن يتم اعتبارها كواحدة من الجرائم الموجهة ضد البشرية واعتبار الأشخاص الذين يقومون باختطاف الطائرات «أعداء للبشرية».

على أية حال ينبغى أن لا ننسى أن واحدة من أهم سمات القرصنة - على النحو الذى جرى وصفها به فى القانون الدولى - تتمثل فى القيام بها انطلاقًا من دوافع شخصية مثل الكراهية والحسد والانتقام إلى آخره. وعلى هذا فإنه فى تلك الحالات التى يجرى اختطاف الطائرة فيها لدوافع سياسية يستحيل تصنيفها باعتبارها عملاً من أعمال القراصنة.

خلاصة القول إنه حتى فى مجال القرصنة الجوية التى استقر مفهومها على مدى عصور طويلة من الممارسة فإن الدول ما تزال تجد مصاعب قانونية محددة عند اصطدامها بهذه الجريمة. إن حكومة أى دولة لها الحق فى وصف أى تمرد يقوم به طاقم إحدى السفن على سلطتها أو استيلاء أعدائها السياسيين على سفينة من سفنها عملاً من أعمال القرصنة. تستخدم الدولة هنا حقها الأكيد فى ملاحقة هذه الأعمال استنادًا إلى قوانينها الداخلية. على أن دولاً أخرى ليست ملزمة بالضرورة أن تقاسم تلك الدول وجهة نظرها ويمكنها أن ترفض ملاحقة المتهمين.

فى الفترة من السادس عشر إلى التاسع عشر من ديسمبر ١٩٦٩ عقد فى واشنطون مؤتمر دولى لبحث مشكلة اختطاف الطائرات، اشتركت فيه اثنتا عشرة دولة هى إستراليا، والبرازيل، وبريطانيا، والدنمرك، وإيطاليا، وكندا، وهولندا،

والنرويج، والسويد، وفرنسا، وألمانيا الاتحادية، واليابان وجميعها أعضاء فى المنظة الدولية للطيران المدنى، لم يقتصر الاهتمام بمشكلات اختطاف الطائرات المدنية على المنظمات الحكومية وإنما تعداه ليشمل منظمات أخرى غير حكومية كان على رأسها الهيئة الدولية للنقل الدولى المعروفة باسم إياتا (IATA) والاتحاد الدولى للطيارين المدنيين.

فى منتصف شهر مارس عام ١٩٧٠ عقد فى جينيف ـ بمبادرة من الهيئة الدولية للنقل الدولى التى تضم ثلاثًا ومائة شركة طيران ـ مؤتمرًا دوليًا لبحث مسألة وقف اختطاف الطائرات، وقد جرت أعمال المؤتمر فى سرية تامة ولم تنشر قراراته. فيما يتعلق بأعمال المؤتمر أصبح من المعروف أنه على مدى العامين الأخيرين قبل انعقاده وقعت ما يزيد عن مائة طائرة من خمس عشرين دولة ضحية للقراصنة. بناء على ذلك أسست الهيئة الدولية للنقل الدولى لجنة خاصة لبحث قضايا اختطاف الطائرات وكلت إليها مهمة إعداد توصيات بهذا الصدد وتقديم تصورها للهيئة. وقد بادرت الإياتا برصد جوائز تمنح للذين يساعدون فى كشف قراصنة الجو وتأمين الجو وتأمين الطائرات منهم. وشرع فى استخدام الأجهزة المغناطيسية للكشف عن القنابل والأسلحة فى ملابس وأمتعة المسافرين وذلك فى إطار أعمال مقاومة القرصنة.

أما مندوب الإياتا فى المؤتمر فقد أعلن أن التوصيات التى أعدتها الهيئة تستهدف التقليل إلى أقصى حد ممكن من مخاطر اختطاف الطائرات دون أن تخلق مزيدًا من المتاعب أمام الرحلات العادية، وكانت الإياتا قد وجهت فيما سبق توصيات لبعض الدول وشركات الطيران والمطارات ولكنها كانت تحمل طابعًا استشاريًا فقط. وقد ارتأى المشروع التمهيدى للمعاهدة ضرورة معاملة الأشخاص المتهمين باختطاف الطائرات باعتبارهم مجرمين عاديين بغض النظر عن الأسباب التى دفعتهم لارتكاب جريمتهم، أما الاتحاد الدولى للطيارين المدنيين فقد قدم إلى المؤتمر الذى انعقد فى لندن فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٩ اقتراحًا بمعاقبة المتهمين بخطف الطائرات بعقوبات مشددة تصل إلى الإعدام.

وقد أكدت صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» الأمريكية فى عددها الصادر فى السابع من نوفمبر عام ١٩٦٩ أن «أعضاء الوفود لدى الأمم المتحدة يدركون جيدًا أنهم ليس بمقدورهم إعداد نظام ملائم للعقوبات طالما أن المنظمة غير قادرة على تطبيقه. إن الحكومات وحدها هى التى تستطيع إدخال هذه العقوبات ضمن تشريعاتها».

على الرغم من أن هذا الحكم لا يحمل قدرًا كبيرًا من التفاؤل، إلا أنه من المثير للاهتمام أن نشير إلى بعض التدابير العملية التى لجأت إليها إثيوبيا فى نضالها الناجح ضد اختطاف الطائرات، ففى مايو عام ١٩٦٩ تعرضت خمس طائرات تابعة لشركة الخطوط الإثيوبية لهجوم من قراصنة الجو، وقد أصيبت طائرتان نفاثتان تابعتان لهذه الشركة بأضرار بالغة على يد الإرهابيين فى مطارى فرانكفورت فى شهر مارس، وكراتشى فى شهر يوليو. واستطاع القراصنة اختطاف طائرتين أخريين من إثيوبيا، الأولى فى شهر أغسطس وتم توجيهها إلى الخرطوم، والثانية فى شهر سبتمبر وتم توجيهها إلى عدن.

بعد هذه الحوادث حرصت السلطات الإثيوبية على دفع أفراد من رجال الأمن ضم أطقم جميع طائرات الركاب سواء على الرحلات الداخلية أو الخارجية. وقد أثبتت هذه التدابير فعاليتها عند تطبيقها. فى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٦٩ دفع قرصانان حياتهما على محاولتهما السابعة عشر لاختطاف طائرة مسجلين بذلك سابقة فريدة من نوعها فى تاريخ «القرصنة الجوية» القصير نسبيًا عندما سقطا ضحية أعمالهما الإجرامية. وقعت هذه الدراما على متن الطائرة الإثيوبية النفاثة من طراز «بوينج ـ ٧٠٧» العاملة على خط مدريد ـ روما ـ أسمره ـ أديس أبابا. بدأت محاولة الاختطاف بالقرب من شواطئ إسبانيا، على ارتفاع حوالى عشرة آلاف متر. كان عدد المسافرين على الطائرة خمسة ومائتان راكب واثنان من الطيارين وطاقم يبلغ عدده تسعة أفراد بالإضافة إلى ثلاثة من رجال الأمن الإثيوبيين.

فى البداية سارت الرحلة سيرًا طبيعيًا، ثم بغتة قفز أحد الركاب من مقعده حاملاً مسدسه فى يده متوجهًا ناحية غرفة الطيارين، لكنه لم يتمكن من

الوصول إلى بابها إذا اندفع نحوه رجل الأمن وانتزع منه مسدسه وقتله برصاصتين من مسافة قريبة. فى اللحظة نفسها تم انتزاع سلاح المهاجم الثانى ـ الذى هرع لنجدة زميله ـ وقتل بدوره على يد رجل الأمن الثانى. أثار إطلاق النار ذعر المسافرين ـ الذين ارتموا على أرضية الطائرة ـ ثم ما لبثوا أن استردوا هدوءهم وعادوا إلى مقاعدهم. وقد قدمت المضيفات الشمبانيا لجميع الركاب لمساعدتهم على الشعور بالاطمئنان بعد ما عانوه من قلق واضطراب.

سحبت جثث المهاجمين إلى دورة المياه كما تم اكتشاف مواد متفجرة فى أمتعهتم، قام رجال الأمن بتأمينها، بعد ذلك عادت الطائرة تواصل رحلتها فى سلام، غير أنها لم تهبط فى روما كما كان مقررًا فى جدولها، وإنما اتجهت مباشرة إلى أثينا حيث وصلت سالمة بعد منتصف الليل. هرعت قوة الشرطة فى العاصمة أثينا إلى الطائرة فور إحاطتها لاسلكيًا بأخبار المأساة ثم شرعت فى التحقيق بمجرد هبوط الطائرة. حيث أن الحادث وقع بعد إقلاع الطائرة مباشرة من مدريد وبالتالى بعيدًا عن المجال الجوى لليونان، فقد رأت السلطات اليونانية أن من غير الممكن التدخل فى هذه القضية وسمحت للطائرة بمواصلة الرحلة. فى أثينا هبط المسافرون الذين كانوا متوجهين إلى روما ليستقلوا طائرة أخذتهم إلى إيطاليا. ما أن هبطت الطائرة فى أديس أبابا حتى بدأت السلطات الإثيوبية فى إجراء تحرياتها التى كشفت أن أحد المعتدين سنغالى والآخر يحمل جواز سفر يمنى.

فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٦٩ أصبحت معاهدة طوكيو «الخاصة بارتكاب الجرائم وبعض الأعمال الأخرى على متن الطائرات نافذة المفعول، إلا أنها لم تساهم بأى قدر من تحسين الوضع القائم. لقد اكتشفت الدول الموقعة عليها مدى ما تحتويه هذه المعاهدة من تناقضات سياسية عميقة. وتظهر هذه المتناقضات بالدرجة الأولى بين تلك الدول التى تتعرض شركات الطيران فيها بشكل متكرر لاختطاف طائراتها أو الاستيلاء غير الشرعى على الطائرات حسب الاصطلاح الخاص، والدول التى تعطى فى أحيان كثيرة حق اللجوء للمتهمين مستندة فى ذلك إلى قواعد تقديم هذا الحق.

لم تتناول معاهدة طوكيو لسنة ١٩٦٣، والتى جرى توقيعها بناء على المؤتمر الدولى الرابع بخصوص القانون الجوى. (وكانت المنظمة الدولية للطيران المدنى هى التى تولت عقد هذا المؤتمر)، لم تتناول مسألة المخالفات والأعمال غير القانونية التى يتم ارتكابها على متن الطائرة والتى يمكن أن تهدد سلامة الطائرة أو الأشخاص أو الممتلكات الموجودة عليها أو تهدد المحافظة على الضبط والربط فيها[٧]. تبعًا لذلك فإن مسألة الاستيلاء غير الشرعى على الطائرات قد وردت فى نص المعاهدة غامضة بعض الشىء وذلك فى الفصل الرابع، القصير نسبيًا، وبالتحديد فى المادة الحادية عشرة منه فقط.

ومما ورد فى نص هذه المادة: «فى حالة وجود أشخاص على متن الطائرة يقومون ـ على نحو غير شرعى ـ باستخدام القوة أو بالتهديد باستخدامها بغرض ارتكاب عمل من أعمال التدخل أو الاختطاف أو استخدام أى شكل اجرامى آخر لقيادة الطائرة إبان تحليقها أو عند استعدادها للإقلاع، تتخذ دول المعاهدة كل الإجراءات المناسبة لإعادة قيادة الطائرة إلى قائدها الشرعى أو لاستمرار احتفاظه بقيادتها» (المادة ١١، الفقرة ١)؛ «وفى الأحوال التى تشتمل عليها أحكام الفقرة السابقة، فإن على الدولة العضو فى المعاهدة والتى تهبط على أرضها الطائرة أن تسعى قدر المستطاع لتوفير إمكانات مواصلة الركاب والطاقم رحلتهم وإعادة الطائرة وشحنتها إلى أصحابها الشرعيين» (مادة ١١، الفقرة ٢)[٨].

وهكذا نجد أن القرارات الواردة فى المادة الحادية عشر من معاهدة طوكيو لم تتغلب على العقبتين الأساسيتين فى الملاحقة الفعالة للمتهمين فى عمليات اختطاف الطائرات وهما بالتحديد:

( أ ) الجدل المحتدم بين الدول حول الجهات القضائية المختصة وسلطاتها.

(ب) الصعوبات الخاصة بتسليم الخارجين على القانون. صحيح أن هناك قرارات فى المعاهدة تنظم ـ على نحو غير مباشر ـ هذين الأمرين، على أن المنفعة العملية لها ما تزال موضع شك.

فنحن نجد على سبيل المثال أن المادة الثالثة من المعاهدة تتضمن حكمًا عامًا

يعطى «للدولة المسجلة باسمها الطائرة سلطة النظر قضائيًا فى الجرائم والأعمال التى يتم ارتكابها على متنها»[٩].

ثم تأتى الفقرة الأولى من المادة السادسة عشر من معاهدة طوكيو لتنص بدورها على أن «الجرائم المرتكبة على الطائرة المدونة فى سجل الدول عضو المعاهدة تعامل ـ فيما يخص تسليم المتهمين ـ كما لو كانت قد ارتكبت ليس فقط فى مكان حدوثها وإنما أيضًا كما لو كانت قد وقعت على أراضى الدولة المسجلة باسمها هذه الطائرة»[١٠]. يتعارض هذا القرار مع الاتفاقيات الدولية الملزمة بشأن تسليم المتهمين والتى تقضى فى معظم الأحيان بتسليمهم إلى الدولة المطالبة بهم وهى الدولة التى يتم ارتكاب الجريمة على أراضيها. على أن الفقر الثانية من المادة السادسة عشر تستدرك لتدفق قرارات الفقرة الأولى مؤكدة على «ألا يتنقص ذلك من الفقرة السابقة إذ لا تنظر المعاهدة الحالية إلى هذه الفقرة باعتبارها ملزمة للتسليم»[١١].

إن هذا الأمر يفقد إلى حد كبير المادة السادسة عشر مغزاها العملى حيث أن غالبية قرارات المتهمين تستثنى من مجال تأثيرها الجرائم ذات الطابع السياسى وقد أصبح من الشائع فى الوقت الراهن النزوع لإدراج حوادث الاختطاف تحت هذا الصنف بالذات من الجرائم.

* * *

# عملية دولتسينية

لا تتضمن معاهدة جنيف المؤرخة ٢٩ إبريل ١٩٥٨ بشأن البحار المفتوحة أى تعريف جامع للقرصنة يتفق وواقع الحال المعاصر. وهذا الأمر يؤدى إلى مصاعب جمة عند التكييف القانونى لحالات عصيان أطقم السفن أو الاستيلاء عليها على أيدى المتمردين فى البحار المفتوحة.

إن الإجابة على هذا السؤال ما إذا كانت هذه الأعمال مرتبطة بارتكاب أعمال إجرامية ضد السفن الأخرى (اعتداء، سرقة، قصف استفزازى إلى آخره..) أم لا، أحد أهم الجوانب الجوهرية للتكييف القانونى للحقائق المتعلقة بأحداث تمرد الأطقم أو الاستيلاء على السفن فى عرض البحر. فى شهر فبراير عام ١٩٦٣ قام متمردون فنزويليون بالاستيلاء على سفينة من سفن الدولة تدعى «أنسواستيكى» فى محاولة فهم لجذب أنتباه الرأى العام العالمى إلى الوضع فى فنزويلا. وقد توجهت الحكومة الفنزويلية بطلب عدد من الدول للقبض على هذه السفينة، على أنه ما إن دخلت «أنسواستيكى» إلى المياه الإقليمية للبرازيل حتى أعطى طاقمها حق اللجوء السياسى ثم جرى بعدها إعادة السفينة إلى فنزويلا. من هذا يتضح أن البرازيل رفضت اعتبار ما قام به المتمردون عملاً من أعمال القرصنة كما اقترحت عليها الدوائر الرجعية. جدير بالذكر أن الاستيلاء على «أنسواستيكى» الفنزويلية بواسطة المتمردين لم يكن مرتبطًا على أى نحو بأية أعمال غير قانونية ضد سفن أخرى.

نفس الأمر كان قد وقع قبل ذلك للسفينة البرتغالية «سانتا ـ ماريا»، على أن الجانب السياسى والقانونى بصدده اتسم بقدر أكبر من التعقيد. فى شهر إبريل

عام ١٩٦١ قامت مجموعة من الثوار البرتغاليين المناهضين لنظام سالازارالفاشى بالاستيلاء على سفينة الركاب «سانتا ـ ماريا» فى عرض البحر، وقد أبقى الثوار علم البرتغال مرفوعًا عليها، ولكنهم غيروا وجهتها بعد أن عقدوا عزمهم على الوصول بها إلى إحدى المستعمرات البرتغالية فى إفريقيا حيث يقومون بإثارة انتفاضة ضد الحكومة، على أن المطاردة التى تم تنظيمها لسفينة الركاب أرغمتها على الاحتماء بالمياه الإقليمية للبرازيل، فما كان من الحكومة البرازيلية إلا أن منحت الثوار البرتغاليين حق اللجوء السياسى، ثم ما لبثت أن أعادت السفينة إلى البرتغال. على هذا النحو وضد رغبة حكومة سالازار، رفضت البرازيل اعتبار الثوار قراصنة.

فيما يلى نورد بعض تفاصيل هذا الحادث الذى يعد أبرز حادث لاختطاف سفينة فى القرن العشرين.

فى شهر مايو من عام ١٩٥٩ أطلق سراح القبطان إنريسكى جالفاو من سجون سالازار، وعلى الفور انضم القبطان إلى حركة تحرير وطنه من النير الفاشى. على أن الوطنى المفعم بالحماس لم يستطع أن يقوم بنشاط فعال فى نضاله ضد الرجعية فى البرتغال فغادرها متجهًا إلى فنزويلا. وهناك فى كاراكاس استطاع بمساعدة اثنين من الثوار يتمتعان بالنفوذ لدى السلطات المحلية من تنظيم عدد من الأعمال الثورية.

ظهرت فكرة «عملية دولتسينية» فى رأس القبطان جالفاو عندما قرأ فى إحدى الصحف إعلانًا عن الرحلة الدورية لسفينة الركاب البرتغالية «سنتا ـ ماريا» إلى مياه لاجوايرا الفنزويلى القريب من كاراكاس. على أن الطريق من الفكرة وحتى تنفيذها كان طويلاً وشاقًا.

كان من الضرورى وقبل كل شىء جمع المال وإعداد الرجال الذين سيقومون بالاستيلاء على السفينة ثم الحصول على أهم المعلومات الممكنة عنها. قامت شركة الملاحة البحرية صاحبة الشركة بإسداء العون إلى الثوار بمحض اختيارها (على نحو روتينى بالطبع) وذلك بإصدار تصاريح زيارة للضيوف الراغبين فى

مشاهدة السفينة إبان رسوها فى الميناء، وكذلك عن طريق برامج الدعاية المطبوعة المحتومة على رسوم تفصيلية ومعلومات فنية عن السفينة، لكن المال ظل هو حجر العثرة فى خطة القبطان، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة تم اختصار كشف التقديرات المبدئى من ثلاثين ألفًا إلى ستة آلاف دولار.

تم تقسيم «عملية دولتسينية» إلى عدة مراحل. أولا: الاستيلاء على السفينة ثم تحويل مسارها والوصول بها - دون علم السلطات البرتغالية - إلى شواطئ غرب إفريقيا. كان على السفينة أن تستمر فى رحلتها لمدة ثمانية أيام، ولهذا فقد كان فى نية الثوار أن يرسلوا برقية إلى التوكيل القائم بأعمال السفينة يخبرونه فيها بتغيير وجهة السفينة لضرورة إجراء اصلاحات بالآلات، كل ذلك يهدف تخدير سلطات حكومة سالازار اليقظة وتعطيل مطاردتها للثوار. ثانيا: خطط الثوار للهجوم على فرناندو - بو بالاشتراك مع طاقم السفينة الذى كان جالڤاو يعقد على مساعدته له آمالا كبارًا، ثم يقوم بعد ذلك بالاستيلاء على أية سفينة مسلحة لكى يتمكن هو رجاله فى النهاية وبمساعدة الأهالى من احتلال عاصمة أنجولا. آنذاك كان من المفترض أن يتم تحرير جزء من هذا البلد الواقع تحت الحكم البرتغالى. كان جالڤاو قد قرر أن يشكل هنا حكومة ثورية ويبدأ حربه ضد الديكتاتور سالازار.

فى يوم الخميس الموافق ٢٠ من يناير عام ١٩٦١ وفى تمام الساعة الثامنة صباحًا وصلت «سانتا - ماريا» وعلى ظهرها ستمائة راكب وطاقم مكون من ثلاثمائة وخمسة عشر فردًا إلى ميناء لاجوايرا. فى هذا الوقت كان الثوار البرتغاليون قد انتهوا من استعداداتهم التى جرت على نحو ساده الاضطراب والعجلة. وفى بيت أحد المتآمرين - الذى تحول إلى مقر أركان للحرب - نسى الجميع عددًا من صناديق الأسلحة والذخائر كان من المخطط شحنها على السفينة، لكنهم نجحوا فى نهاية الأمر من الصعود إلى السفينة ونقل الشحنة من كاراكاس إلى لاجوايرا.

لما كان من الصعب توفير المال اللازم لشراء التذاكر لجميع المشتركين فى العملية؛ فقد صعد جزء من الثوار إلى السفينة بعد أن أبرزوا التصاريح الخاصة

بالزيارة وظلوا بها إلى ساعة الرحيل الحاسمة ليختفوا عليها ويسافروا «خلسة». أما القبطان جالڤاو فقد كان عليه أن يجد طريقه للصعود على السفينة إذ مجرد ظهور اسمه على قائمة الركاب المتوجهين إلى البرتغال كان من الممكن أن يثير سحابة من الشكوك، وبهذا فقد استقل جالڤاو طائرة فى الصباح حلقت به إلى ميناء كيوراساو الواقع فى جزيرة فى خليج فنزويلا غير بعيد عن كاراكاس حيث كان عليه أن ينضم من مع ثلاثة آخرين إلى بقية رفاقه على السفينة يوم ٢١ يناير.

فى كيوراساو نزل جالڤاو فى فندق «برياس» واختار لنفسه غرفة يطل من نافذتها على القناة التى تعبرها السفن الداخلة إلى الميناء. إبان تناوله طعام الغذاء، استمع جالڤاو - بمحض الصدفة - إلى حديث اثنين من العاملين بالميناء علم منه أن «سانتا - ماريا» قد أصابها عطل فى التوربين. وقد انتاب القبطان قلق بالغ من جراء هذه الأنباء التى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن المعلومات التى حصل عليها الثوار ليست مكتملة إلى حد كبير. وقد اتضح فيما بعد أن الثوار لم يكونوا على علم بالخلل الذى أصاب التوربين فضلاً عن عطل آخر أصاب الماكينات الأمر الذى سيترتب عليه حتمًا أن لا تتمكن السفينة من زيادة سرعتها. على أن الأسوأ من ذلك كله أنه لم يكن هناك تصور لدى المشتركين فى العملية عن مخزون المياه أو الوقود على السفينة.

الشخص الوحيد الذى كان على علم بعملية «دولتيسنية» والذى لم يشترك فيها بنفسه كان هو الجنرال ديلجادو رئيس جبهة التحرير البرتغالية القومية.

منذ الصباح الباكر ليوم السبت الموافق ٢١ يناير أخذ القبطان جالڤاو فى مراقبة السفن الداخلة إلى الميناء، وعندما بلغت الساعة التاسعة والنصف انفتح الجسر المتحرك على القناة لتدخل «سانتا - ماريا» تتهادى حتى استقرت على بعد ما يقرب من مائة متر فقط من نوافذ الفندق. عندما نظر جالڤاو فى منظاره المقرب ليستطلع رجاله على ظهر السفينة لم يجد أحدًا منهم.

كان القبطان قد اتفق مع مساعده سوتومايور عشية إبحار السفينة على أن يصعد الأخير على سطحها مع عدد من الثوار أصحاب التذاكر، ثم يتم بعد ذلك

وضع التفاصيل الأخيرة للعملية. كانت المعلومات التى حصل عليها سوتوماير مبشرة. فقد قام بفحص السفينة وجميع البيانات الضرورية، كما جرت عمليات ركوب الأفراد والشحنات فى ميناء لاجوايرا بنجاح تام ولم يتبق سوى فرد واحد وصندوقين يحويان موادًا خاصة بالقنابل اليدوية وأسلاكًا. هكذا دخلت «عملية دولتسينية» مرحلتها الحاسمة.

استطاع جالفاو وثلاثة من رفاقه الحصول. بمساعدة أحد الموظفين فى الوكالة البحرية فى كيوراساو. على ثلاثة تصاريح لزيارة السفينة. ولما كان القبطان شخصية شهيرة فى البرتغال فقد كان لزامًا عليه أن يتخذ بعض الإجراءات الوقائية. كانت السادسة مساء هى موعد مغادرة السفينة، بينما كان على جالفاو أن يكون على متنها فى الساعة الرابعة والنصف. اتجه جالفاو ناحية سلم السفينة فى الوقت الذى تزاحم عليه عدد من الركاب وكان يضع على رأسه قبعة أنزل حخوافيها على وجهه. لم يسأله أحد عن التصريح الذى يحمله، وما هى إلا دقائق حتى كان القبطان يجلس فى غرفة من الدرجة السياحية مجهزة لأربعة أشخاص، ومن الطبيعى أن يكون مرافقوه فى الغرفة من رفاقه الذين يحملون تذاكر سفر.

فى المساء بدأت الاستعدادات الأخيرة للعملية، فتحت الصناديق وتم توزيع الأسلحة، ومرة أخرى يتم الاتفاق وتنسيق التفاصيل الأخيرة للاستيلاء على السفينة. فى الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل أعطى جالفاو إشارة بدء العملية، فتوجهت فرقة الهجوم بقيادة سوتوماير لاحتلال غرفة اللاسلكى ومركز قيادة السفينة وبرج الملاحة، فى نفس الوقت كانت هناك جماعة أخرى بقيادة جالفاو نفسه مكلفة بالهجوم على السطح حيث كانت توجد غرف قبطان السفينة وطاقمها.

كان الثوار قد قرروا أن يحققوا أهدافهم دون إراقة للدماء معولين على النجاح فى ذلك بواسطة مباغتة الطاقم. على أن فرقة سوتوماير قد تعرضت لمقاومة مفاجئة من جانب أحد ضباط الحراسة وذلك بعد أن نجحت فى الاستيلاء على غرفة اللاسلكى بسهولة بالغة. وقد أعلن جالفاو فيما بعد أن هذا الضابط كان

الوحيد من بين أفراد الطاقم الذى كان يتمتع بقدر عال من الشجاعة. وقد انتهى تبادل النيران الذى جرى آنذاك فى الظلام بمصرع الضابط وإصابة رفيقه بجراح.

دفع الصدام المسلح الذى جرى على سطح السفينة بالكابتن جالفاو لتغيير خططه الأولى وتراجعه عن الهجوم على غرف الضباط. فتوجه إلى غرفة القيادة مع فرقته بعد أن أغلق وراءه المخرج الوحيد الذى يمكن للضباط من خلاله الصعود إلى السطح، كانت غرفة القيادة قد وقعت بالفعل فى يد الثوار عندما دق جرس الهاتف بها. رفع جالفاو السماعة. كان القبطان يستفسر عن إطلاق النار على سطح سفينته، وعلى الفور شرح جالفاو الموقف بقوله:

سيادة القبطان، أرجوك أن تحتفظ بهدوئك. لم يحدث هناك أى أمر غير عادى سوى أننى قد استوليت على مقاليد الأمور فى سفينتك. لا جدوى من المقاومة وإننى أدعوك للاستسلام.

وقد أعلن القبطان أنه يتحدث من غرفته وحوله جميع الضباط الذين هرعوا إليه إنتظارًا لأوامره بعد أن استمعوا لطلقات الرصاص على سطح السفينة، واقترح على الثوار النزول إليه وقد تخلوا عن أسلحتهم حتى يمكن التفاهم معهم. وقد أجاب جالفاو على هذا الاقتراح بقوله:

لست الآن فى وضع يسمح لك بفرض شروطك.

عندئذ ظل القبطان يلح فى أن ينزل إليه جالفاو بنفسه بسلاحه أو بدونه. وجد جالفاو فى انتظاره بغرفة القبطان مجموعة من الضباط بعضهم بملابس النوم والبعض الآخر بأردية الاستحمام. كان الجميع يجلسون فى حالة من الاكتئاب حتى أن أحدهم انخرط فى بكاء مر. وقف جالفاو لدى الباب فى حيرة من أمره ولا يعرف من أين يبدأ وقد كان يظن أنه سيلقى بحارة شجعان. وعندما رأى أن أحدًا من البحارة لا يعتزم الوقوف فى سبيله وضع مسدسه على طاولة كتابة القبطان ثم طرح ثلاث اقتراحات:

- الذين يشاركوننا وجهة نظرنا السياسية ويطمحون لأن تعود البرتغال مرة أخرى لتمتلك زمام أمرها كدولة حرة يستطيعون الانضمام إلى حركتنا.

ـ يستطيع الضباط من الآن فصاعدًا القيام بواجباتهم وفقًا للظروف الجديدة التى تلزمهم بتنفيذ الأوامر الصادرة من القيادة الثورية للسفينة بكل ولاء.

ـ فى حالة الاعتراض على الاقتراحين الأولين يتم اعتبار الضباط أسرى حرب.

كانت وجوه الضباط تعكس مشاعرهم المتناقضة ومع هذا فقد قرروا الاستسلام مؤكدين ولاءهم لجالفاو الذى كان يشعر ـ رغم ذلك ـ بحالة شديدة من الكدر وعدم الارتياح. زاد هذا القرار من إيمان الثوار بأن أعداءهم أناس ضعاف النفوس لا يستحقون الثقة.

فى الوقت الذى كان جالفاو يجرى فيه مباحثاته كان الثوار قد تمكنوا من احتلال كل المواقع الحساسة فوق ظهر السفينة: غرفة القيادة، قسم الآلات وغرف الضباط، أما الجرحى فقد نقلوا إلى عنبر المرضى. وقد جاء فى تقرير طبيب السفينة أن حالة أحدهم حرجة.

نزل سموتوماير مع بعض رفاقه إلى غرفة القبطان ليكون شاهدًا على الاستسلام، وفى هذه اللحظة ذاتها إذا بالشك يفترس ضباط «سانتا ـ ماريا». حتى هنا على بعد آلاف الأميال من لشبونة تملكهم الذعر عندما تذكروا مدى ما سيحيق بهم على يدى رجال سالازار سيئ السمعة.

كان جالفاو الذى عانى بنفسه فظائع سجون سالازار يدرك جيدًا هذه المشاعر التى عصفت بهؤلاء الضباط الذين لم يكونوا يتمتعون أساسًا بصفات الشجاعة والإقدام. وحتى ينجح فى تهدئتهم ويجنبهم العقاب والاضطهاد المتوقعين مستقبلاً من جانب البوليس البرتغالى، سلم جالفاو لطاقم السفينة شهادة أثبتت أن تصرفاتهم جميعها تمت قسرًا، وانضم للتوقيع على هذه الشهادة التى توثق لاختطاف السفينة أيضًا الثوار والقبطان وستوماير وعدد آخر من الشهود. جدير بالذكر أن المستسلمين ظلوا وحتى نهاية الرحلة ملتزمين بتنفيذ كل أوامر الثوار ولم يبدوا أى قدر، ولو ضئيل، من المقاومة.

لقد أصبحت هذه الجزيرة البرتغالية العائمة تحت سيطرة الثوار بعد ساعة واحدة من بدء «عملية دولتسينية» حتى أن المسافرين الذين كانوا يغطون فى النوم

فى غرفهم لم يكن لينتابهم الشك أن شيئًا يحدث تلك الليلة. كان جالفاو على أهبة الاستعداد لمواجهة أية مضاعفات يمكن أن تنشأ نتيجة معرفة المسافرين والبحارة الذين كانوا ينالون آنذاك قسطهم من الراحة بما حدث. على أية حال لم يكن لهذه الهواجس ما يبررها، فالوضع - بعد معرفة الجميع بما حدث - ظل كما كان عليه، فلم تكن هناك مظاهر للذعر سواء بين المسافرين أو بقية أفراد الطاقم.

الأمر الوحيد الذى وقع دون أن يكون فى حسبان أحد هو الاضطراب الذى وقع بين عمال المطعم الذين تصوروا أن الركاب قد قاموا بتمرد فوق السفينة، ولكنهم عندما علموا أن القبطان جالفاو على رأس المتمردين، وان اختطاف السفينة يحمل طابعًا سياسيًا؛ هدأت نفوسهم. وعلى عكس المتوقع فقد لقى الثوار تفهمًا أكبر لدى السائحين الأجانب. وكثير من هؤلاء أصبحوا أصدقاء مخلصين لجلفاو ورفاقه دون أن ينتابهم أى إحساس بالخوف من انتقام من البوليس البرتغالى.

على الرغم من العطب الذى أصاب أحد الماكينات فقد واصلت السفينة سيرها بسرعة كبيرة تمامًا كما وعدت بذلك شركة الملاحة المسافرين فى إعلاناتها. كان جالفاو يسعى بكل ما أوتى من حيلة للخروج بأسرع ما يمكن من متاهة الجزر المنتشرة فى البحر الكاريبى حتى يتمكن من الخروج إلى عرض المحيط الأطلنطى.

فى صباح يوم الاثنين الموافق ٢٣ يناير أبلغ طبيب السفينة القبطان جالفاو بأن حياة واحد من الاثنين اللذين أصيبا إبان إطلاق النار فى خطر، الأمر الذى يستلزم اتخاذ قرارًا حاسمًا. ورأى الطبيب أن من الممكن إنقاذ حياة المصاب فى حالة إنزاله إلى الشاطئ حيث يمكن توفير الرعاية الطبية اللازمة. علاوة على ذلك فقد فاجأت أحد المسافرين آلام مبرحة فى الكبد. لم يكن جالفاو يثق ثقة كاملة فى النتائج التى توصل إليها الطبيب، ولكنه لم يكن - فى الوقت نفسه - يمتلك أية إمكانات للتثبت من صحتها. وانطلاقًا من أن موت رجلين بريئين يمكن أن يلطخ سمعة الثوار، قرر جالفاو أن ينزل المرضى إلى الشاطئ على الرغم من

أنه بذلك العمل يكشف عن مكان وجود السفينة. ومع ذلك فقد نشرت إحدى الصحف الأرجنتينية ـ بعد هذا الحادث بعدة أيام ـ مقالاً صفيقًا تعلق فيه على قرار القبطان جالفاو بأنه قرار يفتقر إلى صفات الثورية الحقة وإن لم تنقصه القسوة والفظاظة.

كانت «سانتا ـ ماريا» قد رست فى التاسعة صباحًا على بعد ميلين من شواطئ جزيرة سانتالوتشيا حيث نقل المرضى بواسطة قارب بخارى يصحبهم فيه مساعد الطبيب.

لم تكن سوى بضع دقائق توقفت فيها السفينة لتؤدى مهمتها انطلقت بعدها بأقصى سرعة مخترقة عباب الأطلنطى ميممة نحو شواطئ أفريقيا. فى البداية قطع الثوار كل اتصال لهم بالعالم الخارجى حرصًا منهم على بقاء موقعهم فى المحيط مجهولا، ثم مالبث جالفاو أن رفع هذا الخطر . لقد اتضح فيما بعد أن نظام سالازار قد أعاق وصول العديد من البرقيات التى أرسلتها «سانتا ـ ماريا» محاولاً بذلك خلق انطباع بأن الثوار يسيئون معاملة الركاب والطاقم.

فى ليلة الرابع والعشرين من يناير استمع من فى السفينة ـ من خلال الراديو ـ إلى أول ردود فعل للصحافة العالمية. واستنادًا إلى شهادة أفراد من الطاقم الذين تم إنزالهم إلى الشاطئ أذاعت وكالة الأنباء الأمريكية «يونايتد برس» قصة ملفقة عن الأحداث جاء فيها «نشب تمرد على عابرة المحيط البرتغالية «سنتا ـ ماريا» وهى فى طريقها من كيوراساو إلى ميامى. استولى سبعون فردًا من الطاقم يملكون الرشاشات والقنابل اليدوية على السفينة» ومن واشنطن ورد نبأ آخر يقول «خرجت السفن الأمريكية والبريطانية الحربية للبحث عن السفينة البرتغالية التى وقعت فى أيدى الركاب المتمردين».

وحتى يقطع سبل هذه الوشايات الملفقة فى حق الثوار البرتغاليين والتى عمدت إلى وضعهم أمام الرأى العام العالمى فى صورة القراصنة. أرسل القبطان جالفاو بالنبأ التالى عبر الأثير:

«بتكليف من اللجنة التنفيذية لجبهة التحرير الوطنية التى يرأسها الجنرال أومبرتو دیلجاو الذى اختاره رئيس جمهورية البرتغال والذى جردته حكومة

سالازار من حقوقه عن طريق الخداع، قمت فى الثانى والعشرين من يناير بالاستيلاء على السفينة «سانتا ـ ماريا». إنه عمل سياسى محض وقد قبله طاقم السفينة على هذا النحو».

لم تثمر المطاردة فى ساعاتها الأولى عن أية نتائج. كانت «سانتا ـ ماريا» التى يقودها البحار المحنك سوتومايور تغير وجهتها من حين لآخر فتارة تسير باتجاه شواطئ غوينيا وتارة باتجاه جزر الرأس الأخضر.

كان جالفاو قد استنتج من الأخبار التى يتلقاها بالراديو أن الرأى العام متعاطف مع الثوار وفى نفس الوقت كانت الدعاية التى تبثها أجهزة سالازار تصور الثوار على أنهم قتلة يعملون لصالح الشيوعية السوفيتية وأنهم يعاملون المسافرين والطاقم معاملة لا إنسانية. كتب جالفاو فى مذكراته «إنهم يصفوننا بالقراصنة، بيد أن هؤلاء القراصنة غريبى الأطوار لم يأخذوا من أحد سنتًا واحدًا ولم يمسوا الثروات الضخمة التى وجدوها فى خزائن «سانتا ـ ماريا» والتى كان بإمكانهم اعتبارها غنائم حرب».

لقى اشتراك السفن الحربية البريطانية فى مطاردة «سانتا ـ ماريا» احتجاجًا لدى مجلس العموم. وفى النهاية توقفت السفن البريطانية عن المطاردة بحجة نقص الوقود.

لم يكن من الممكن بالطبع أن ينجح الثوار فى التنبؤ بكل المصاعب التى يمكن أن تظهر فى طريقهم، فعلى الرغم من أن «سانتا ـ ماريا» اتخذت لنفسها مسارًا يندر أن تستخدمه السفن فقد التقت فى طريقها بسفينة نقل دنمركية استطاعت أن تحدد موقعها. فى حوالى السادسة من مساء الخامس والعشرين من يناير حلقت فوق السفينة طائرة تحمل العلامات الأمريكية. وإبان تحليق الطائرة فوق «سانتا ـ ماريا» تم الاتصال بينهما بالتليفون اللاسلكى حيث كان الاتصال البرقى معطلاً:

الطيار: إلى أين تتجه «سانتا ـ ماريا»؟

جالفاو: لن أخبرك حتى أتلقى ردًا من منظمة الأمم المتحدة بشأن اعتبار عمليتنا عملية سياسية.

الطيار: باسم القيادة العليا لأسطول شمال الأطلنطى الأمريكية، أدعو القبطان جالفاو للاستسلام وقيادة السفينة إلى سان خوان بجزيرة بوبرتو ـ ريكو.

جالفاو: أعتبر طلبك غير قانونى إذ أنه ينطلق من كوننا قراصنة وهو الشىء الوحيد الذى كان من الممكن اعتباره مسوغًا للأسطول البحرى الأمريكى لفرض مثل هذه الشروط علينا.، إننا منظمة سياسية تعمل فوق الأراضى البرتغالية مناهضة للحكومة الاستبدادية فى بلادنا وبناء على ذلك فإننا لا نعترف بأية أوامر تصدر لنا من حكومات البلاد الأجنبية.

الطيار: هل يمكنك إذن أن تستجيب لطلبى؟

جالفاو: لا أعرف إن كنت سأفعل، لكنى على استعداد أن استمع إليك.

الطيار: أرجوك التوجه إلى بوبرتو ـ ريكو حتى يتم التفاوض شخصيًا بينك وبين الأدميرال دينسون.

جالفاو: أرفض هذا الطلب تمامًا ولن أغادر السفينة تحت أى ظروف من الظروف. على أننى مستعد للتفاوض مع الأدميرال على ظهر «سانتا ـ ماريا». وأظن أن موضوع حديثنا ينبغى أن يقتصر فقط على الحفاظ على حياة وممتلكات المسافرين الأمريكيين.

الطيار: هل تنوون إنزال هؤلاء المسافرين على الشاطئ؟

جالفاو: نعم بالشروط التى أبلغتها للأدميرال لاسلكيًا.

الطيار: هل الركاب بحالة جيدة؟

جالفاو: فى أحسن حال. إذا أحببت يمكن استدعاء أيًا منهم ليحدثك شخصيًا مؤكدًا ذلك.

وعلى الفور اشترك فى الحديث أحد الركاب الأمريكيين الذى قدم كثيرًا من المساعدات للثوار بوصفه مترجمًا وأكد على ما قاله جالفاو.

الطيار: هل تود أن تبلغ الأدميرال أى شىء؟

جالڤاو: أبلغه تحياتى فقط. سوف أتصل به لاسلكيًا.

الطيّار: إلى اللقاء

جالڤاو: إلى اللقاء.

بعد نصف ساعة اختفت الطائرة، أما السفينة فكان عليها أن تغير وجهتها من جديد وبعد مضى ما يزيد على ثلاث ليال نجح الثوار. الذين كانوا من قبل ذلك قد عاودوا اتصالهم بالعالم الخارجى عبر أجهزة الاتصال اللاسلكية - فى تجنب السفن والطائرات الحربية الأمريكية التى كانت تطاردهم. وفى الوقت نفسه انضم إلى الثوار نادلين كانا قد طلبا من القبطان جالڤاو أن يدرجهما فى قائمة رجاله وبعد بضعة أيام أقسما اليمين وارتديا الزى الخاص بالثوار. أما باقى البحارة بما فى ذلك قادة الطاقم، فعلى الرغم من أنهم لم ينضموا إلى الثوار، إلا أنهم أظهروا قدرًا كبيرًا من الولاء لا يقل عن الذى أظهره الآخرون. وقد أعرب قبطان السفينة - الذى كان يشعر بالامتنان من جراء المعاملة الطيبة التى كان يتلقاها - أعرب للثوار عن مخاوفه من تناقص احتياطى المياه على السفينة الأمر الذى أكده الفحص الذى تم إجراؤه على الفور وكان من نتيجته أن جرى ترشيد استخدام المياه فى الغسيل.

وقد سجل القبطان جالڤاو السطور التالية فى مذكراته: «إن الرأى العام العالمى يدرك الآن الفظائع التى يرتكبها النظام السياسى القائم فى البرتغال ويعرف الصورة الحقيقية للديكتاتور سالازار. منذ ثلاثة أيام كنا مجرد جماعة صغيرة مكونة من أربعة وعشرين بحارًا، أما الآن.. هناك مشكلتان تؤرقاننا «كيف ننزل المسافرين إلى البر ونحقق هدفنا. يجب أن نعطى المسافرين إمكانية النزول إلى الشاطئ بشرط أن لا يسبب هذا فقدان السفينة والقبض على رجالنا. إن على سلطات الميناء الذى سنمر به أن تضمن لنا ذلك».

كان الأدميرال دينسون مستعدًا لأن يحل المشكلة الأولى فقط دون أن يعبأ بمصير السفينة أو الثوار. ولهذا فقد نحى جالڤاو اقتراح الأدميرال. فى الوقت نفسه راحت السماء تمتلئ فوق «سانتا - ماريا» بالعديد من الضيوف الثقلاء.

كانت الطائرات واحدة تلو الأخرى تحوم فوق رءوس الثوار. ثم انضمت إليها طائرات وكالات الأنباء التى أخذت تلتقط الصور للسفينة وأخيرًا شاركت فى المطاردة الغواصة الذرية الأمريكية «سى ولف».

فى يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من يناير استمر التبادل النشط للبرقيات اللاسلكية بين القبطان جالفاو والأدميرال دينسون والذى كان من نتيجته الاتفاق على مكان إنزال الركاب. لقد تقرر أخذهم من السفينة فى باحة البحر على بعد خمسين ميلا من ميناء ريسيفى البرازيلى. أحاط الثوار المسافرين علمًا بالقرار الذى تم اتخاذه ثم شرعوا فى الاستعداد لإنزالهم. كانت خطة الإنزال تقتضى مغادرة المرضى أولاً يليهم النساء المسافرات بمفردهن ثم العائلات وأخيرًا بقية الركاب.

بينما كانت «سانتا ـ ماريا» تؤدى مهمتها كان جالفاو قد وصل إلى استنتاج مفاده أن استمرا العملية بالمعطيات الجديدة أمر بالغ الصعوبة إلى جانب أنه يمكن أن يكون باهظ التكلفة ومن ثم قرر أن يتوجه بالسفينة إلى أى ميناء برازيلى ويتركها هناك. هكذا أخذت السفينة تبحر فى اتجاه ريسيفى، وكلما اقتربت من شواطئ البرازيل؛ ارتفع عدد الطائرات المحلقة فوقها، والتى ظهر الآن أن تُرافقها بلا توقف تقريبًا. وعندما هبط المساء يوم الأحد كان من الممكن مشاهدة أضواء الشاطئ البرازيلى من «سانتا ـ ماريا» وفى اليوم التالى فجرًا كانت «سانتا ـ ماريا» تبعد عن ريسيفى حوالى خمسة وأربعين ميلاً وقد تحدد يوم الثلاثاء موعدًا للقاء الأدميرال ألين سميث.

أما فى لشبونة فقد التقى سفير البرازيل بسالازار وأحاطه علمًا بأن حكومة البرازيل لن تقوم بتسليم الطاقم أو السفينة. فى ذات الوقت أمر جالفاو بإعداد تأشيرات نزول المسافرين الإسبان والبرتغاليين بعد أن وقع عليها ووضع عليها خاتم اللجنة التنفيذية لجبهة التحرير الوطنية.

فى المساء أقيم عشاء وداع مهيب للمسافرين . ومن لشبونة وصلت أنباء تفيد بأن حكومة سالازار تتهم القبطان جالفاو رسميًا «بسرقة» السفينة التى تبلغ

قيمتها سبعة عشر مليونًا ونصف مليون دولار. وفى الوقت نفسه فقد تلقى الأسطول البحرى الحربى البرتغالى أمرًا بالبحث عن السفينة وإغراقها إذا لزم الأمر، كما توجهت الحكومة البرتغالية بشكوى إلى «الإنتربول» ضد القبطان جالڤاو.

فى يوم الثلاثاء الموافق ٣١ يناير وفى الساعة العاشرة صعد الأدميرال ألين سميث إلى ظهر السفينة «سانتا . ماريا» وبمجرد أن أنهى اجتماعه عليها نزل هو ومرافقوه إلى بهو السفينة حيث كان المسافرون فى انتظاره. وفى التصريحات التى أدلى بها بعد ذلك، أكد الأدميرال للصحافة أن جميع الركاب الذين تم استجوابهم أشادوا بالمعاملة الحسنة من جانب الثوار، بل إن كثيرًا منهم أعربوا عن تأييدهم للقبطان جالڤاو.

ما يزيد عن ثلاثمائة صحفى تجمعوا فى القوارب بانتظار السماح لهم بالصعود إلى ظهر «سانتا . ماريا» وفجأة إذ بأحد المظليين يقفز فجأة من طائرة كانت تحلق فوق السفينة. اتضح فيما بعد أنه الصحفى الفرنسى جيل ديلامار الذى قرر أن يسبق رفاقه لكنه أخطأ الهدف ليسقط فى الماء وقد سارع أحد قوارب الثوار بإنقاذه قبل أن تفترسه أسماك القرش.

وفى يوم الأربعاء الموافق أول فبراير كانت «سانتا . ماريا» تقف على مكلأ ميناء ريسيفى حيث صعد عليها مجموعة من موظفى الميناء بصحبة الأدميرال قائد المنطقة البحرية الثالثة. وفى المساء أكد الأدميرال دياسفرنانديز فى وجود المحافظ بيلوبيداس، أكد القبطان جالڤاو أن بإمكانه الدخول لميناء ريسيفى ثم مغادرته بعد إنزال الركاب. وعلى هذا النحو تحقق الهدف الأول من «عملية دوليتيسينية» وأصبح للثوار مطلق الحرية فى التصرف فى السفينة التى استولوا عليها. وفى المساء أيضًا وصل السفينة الجنرال أومبرتو دياجادو الذى لم يكن القبطان جالڤاو قد شاهده منذ أربعة عشر شهرًا مضت. فى صباح اليوم التالى، الثانى من فبراير دخلت «سانتا . ماريا» فى مشهد احتفالى إلى ميناء ريسيفى تصحبها ست سفن حربية وناقلتا بترول أمريكيتان وعدد من السفن الأخرى.

على الرغم من أن نقص الموارد المالية لدى الثوار لم يمكنهم من تنفيذ «عملية دوليتسينية» حتى نهايتها إلا أنها كانت بمثابة ضربة قاصمة لنظام سالازار. ولم تسفر محاولات الحكومة البرتغالية لاعتبار الثوار قراصنة عن أى نجاح يذكر. وقد منحت الحكومة البرازيلية لهم حق اللجوء السياسى، وفى عام ١٩٦٣، على الرغم من اعتراض الدول الإمبريالية، سمحت لجنة من الأمم المتحدة للقبطان جالفاو أن يدلى بشهادته بشأن الأوضاع فى المستعمرات البرتغالية.

## قراصنة عبر الأثير

فى الزمن الغابر كان القراصنة ينجحون فى إسقاط الملوك بل وفى غزو الدول، أما أن يقوم القراصنة بعمليات تمكنهم من إسقاط حكومة دولة تقع فى قلب أوروبا الغربية نفسها فالأمر يكتسب هنا طابعًا مثيرًا. إن منجزات العلم والتكنولوجيا يمكن أن تصبح مفيدة للبشرية فضلاً عن أنها يمكن أن تجلب عليها أضرارًا بالغة، إن الاكتشافات والاختراعات الجديدة كثيرًا ما تخلق أشكالاً مبتكرة من الجرائم كما أن المنجزات التقنية الهائلة تساهم فى تحويل الجرائم التقليدية التى تأخذ فى اكتساب أشكال مستحدثة وغير معروفة حتى الآن. أشكالاً لا تدرج فى إطار الصيغ القانونية الموجودة حاليًا والتى تقضى بملاحقة المجرمين وإنزال العقوبات التأديبية بهم، وهذا هو واقع الأمر فيما يتعلق بأحد أشكال الجريمة التى تعتبر جريمةً دولية ونعنى بها القرصنة.

لقد تحولت القرصنة تدريجيًا على مدى عصور طويلة من وجودها من مجرد النهب البحرى التقليدى إلى شكل مختلف يصعب وضع تعريف دقيق له باعتباره ظاهرة اجتماعية واقتصادية لها رد فعل سياسى كبير. فى أول الأمر؛ لم تكن هناك سوى البحار الفسيحة ساحة للقرصنة، وبمرور الوقت؛ وأخيرًا ظهر ما عرف بالقرصنة عبر الأثير. وعلى الرغم من أن النشاط الإجرامى لهذا النوع من القرصنة ما يزال خارج أطر التعريفات القانونية للقرصنة حتى وقتنا هذا(١٢) فإن الاصطلاح ذاته قد أصبح شائعًا فى الحديث اليومى وعلى صفحات الجرائد فضلاً عن انتشاره فى الوثائق الرسمية.

لقد استطاعت هذه المشكلة الجديدة ـ مشكلة القرصنة عبر الأثير ـ أن تثير قدرًا كبيرًا من الاهتمام عند رجال القانون. فالأعمال التخريبية التى مارستها بعض الإذاعات فى فترة الحرب الباردة مثل «أوروبا الحرة» و «صوت أميركا» وغيرها، دفعت بعض الدوائر النشطة فى البلاد الرأسمالية إلى فكرة استخدام القرصنة عبر الأثير على أساس تجارى.

لاحظ كبار رجال الأعمال فى أوروبا الغربية الذين يعملون فى مجال الإعلام التجارى والدعاية، لاحظوا بحسد بالغ كيف أن رفاقهم الأمريكيين قد جمعوا ثروات طائلة من الإعلان فى الإذاعة والتليفزيون.

تخضع الإذاعات فى بريطانيا، وألمانيا، وهولندا، وبلجيكا، وسويسرا، والنمسا، وإيطاليا، وإسبانيا، والبرتغال، وأيرلندا، والسويد، والدنمرك، والنرويج، وفنلندا للحكومة، ولا تعمل بالإعلان، أما فى لوكسمبرج، وأندروا، وموناكو، وفيسارا فتوجد محطات إذاعة أوروبا، وجميعها إذاعات غير مركزية تعتمد فى دخلها على الإعلانات. وقد أدى نشاط هذه الإذاعات عبر الأثير إلى عدد من الصدامات وقعت بين الدول المتجاورة التى يحظر القانون فيها بث الإعلانات ولهذا فقد أخذت الإذاعات الخاصة فى تلقى طلبات إذاعة الإعلانات من الشركة فى الدول التجارية الأجنبية.. أما فيما يتعلق بالتليفزيون فإن غالبية محطاته فى الدول الأوروبية تعد احتكارًا حكوميًا، بالإضافة إلى أن البرامج التليفزيونية فى كل من بريطانيا وألمانيا يتم تمويلها جزئيًا من عائد الإعلانات.

وقد أدى حظر الإعلانات الشخصية التى تجلب أرباحًا ضخمة وتقييدها إلى ظهور القرصنة عبر الأثير فى أوروبا الغربية، فقد اندفعت الشركات الكبرى التجارية والشركات العاملة فى مجال الإعلان والتى ليس لديها الإمكانية القانونية لبث إعلاناتها التجارية من خلال الإذاعة والتليفزيون إلى استخدام أشكال مخالفة للقانون مستغلة فى ذلك بعض الثغرات فى التشريعات المحلية والدولية التى لم تكن قد تكيفت بعد وتطور القرصنة فى هذا الاتجاه.

بدءًا من عام ١٩٥٨ أخذت فى عرض البحر بالقرب من شواطئ أوروبا الغربية سفن مجهزة بمحطات إرسال إذاعية وتليفزيونية كانت تبث برامج إعلانية. وقد

أحصى ما يزيد على عشر سفن من هذا النوع تعمل كمحطات إرسال فى مياه بحار البلطيق وأيرلندا والشمال من بينها ست محطات ما تزال تعمل حتى الآن (أربعة منها تقف بالقرب من شواطئ إنجلترا، وواحدة بالقرب من الشاطئ الهولندى والأخيرة عند مضيق زوند)[١٣]. وها هو بيان هذه المحطات.

١ ـ فى مياه زوند (يقع بين الدنمارك وجنوب السويد): «راديو سيد» عمل على ظهر السفينة «تشيتا» ثم انتقل إلى السفينة «تشيتا ـ٢» والسفينتان ترفعان علم هندوراس تبلغ قوة المحطة ٦ كيلووات، وقد بدأت إرسالها عام ١٩٥٩ وما تزال حتى الآن على الرغم من قرارات الجهات القضائية فى السويد. «راديو ميركور» على السفينتين «تشيتا ـ ٢» و«لكى ستار» ترفعان علم جواتيمالا وقد بدأ إرسالهما منذ خريف عام ١٩٥٨ وأنهياه فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٦٢ نتيجة الإجراءات التى اتخذها البوليس السويدى.

٢ ـ فى المياه القريبة من ستوكهولم: «راديو نورد» ويبث إرساله من بحر البلطيق إلى كل من السويد وفنلندا.

٣ ـ فى المياه القريبة من هولندا: «راديو فيرونيكا» على السفينة «سانتافيرنيكا» التى كانت ترفع علم بنما فى البداية ثم علم جواتيمالا بعد ذلك، تبث إرسالها منذ السادس عشر من فبراير عام ١٩٦١ إلى هولندا على موجة ١٩٢ مترًا.

٤ ـ فى المياه القريبة من أوستيندى ونورماندى: «راديو أنتفير مير دو نور» فيما بعد «راديو نور» على السفينة «ماجدا ماريا» التى غيرت أسمها لتصبح السفينة «أوليشبيجل» بدأت ببث إرسالها إلى هولندا وإنجلترا فى أكتوبر عام ١٩٦٢ووقف نشاطها فى السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦٢ فى المياه القريبة من هاريدج (إنجلترا): «راديو كارولاين» فيما بعد «راديو كارولاين نورث على السفينة البنمية «مى أميجو »، بدأت ببث إرسالها إلى إنجلترا على الموجة ٢٠١ مترًا منذ الثامن والعشرين من يناير عام ١٩٦٤ حتى الآن «راديو لندن» وتعمل منذ شهر ديسمبر عام ١٩٦٤ وتبث إرسالها إلى إنجلترا على الموجة ٢٦٦ مترًا.

على أى نحو ظهرت هذه المحطات؟ من الذى يقوم بتمويلها؟ من الذى يتحمل مسئولية ما تبثه من مواد؟ لقد أزاح القراصنة أنفسهم الستر المسدلة على هذا النشاط الإجرامى. اعترف ما نفريد ڤايسليدر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا والمقيم بمدينة هامبورج وأحد أهم قراصنة ألمانيا الغربية عبر الأثير، اعترف صراحة أنه يحقق أحلام طفولته، فعندما كان يبلغ من العمر ست سنوات أراد أن يصبح قرصانًا وأن يرسو بسفينته عند مصب نهر لابا خارج حدود المياه الإقليمية لألمانيا حتى «يتصيد النقود». تتمثل شبكة «الصيد» التى يستخدمها ڤايسليدر الآن فى هوائيات محطة الإذاعة التى تعمل على «موجاتها السوداء» برامج محطة «ستار كلوب راديو» ويلتقط إرسالها واحد من كل خمسة أجهزة استقبال فى المناطق الشمالية الغربية.

يتمثل اهتمام ڤايسليدر الوحيد فى وضع البرامج لمحطته، أما الأمور الأخرى فيتولاها المولون البريطانيون الذين يقومون بتغطية كافة نفقات السفينة وتجهيزاتها. لم يفصح ڤايسليدر عن موكليه واكتفى بالتلميح للصحفيين بأن «لديهم من الأموال أكثر ما لدى كروب أو أوناسيس».

لقد كان كبار رجال الأعمال يقومون أيضًا بتمويل مثل هذه المحطات حتى أن تكلفة إحداهما بلغت ثلاثة ملايين مارك ألمانى غربى بالطبع فهؤلاء كانوا يتوقعون ممن تم تكليفهم بهذا العمل أن يحصلوا لهم على أرباح كبيرة من إذاعة البرامج الموسيقية والإعلانات.

وإذ كان نشاط هذه المحطات غير القانونى لا يمكنها من العمل إلا فى عرض البحر، إلا أن ما تجنيه من أرباح خرافية يعوضها عما تلاقيه من مصاعب فى هذا الصدد. وحتى يمكن أن نتصور حجم عائدات محطات القرصنة من الإعلانات يكفى أن نذكر أن ثمن الدقيقة الواحدة من الإرسال يتراوح بين ٩٠٠ إلى ١٥٠٠ مارك ألمانى.

لقد كان من الصعب أن تنجح مقاومة القرصنة عبر الأثير وذلك لغياب الأحكام القانونية الدولية الواضحة التى تتناول مثل هذا النوع من النشاط

باعتباره نشاطًا إجراميًا، بل لم توجد أية مواد تسمح للدولة بملاحقة هذا النشاط خارج حدود صلاحيتها القانونية على النحو الذى يتم به التعامل مع القرصنة فى شكلها الكلاسيكى.

على أية حال فهناك عدد من الأحكام القانونية التى تحظر القرصنة عبر الأثير تشتمل عليها بعض المعاهدات الدولية. ففى عام ١٩٤٧ عقد المؤتمر الاتحادى الدولى للاتصالات السلكية واللاسلكية فى أتلانتيك سيتى وقد جاء فى لائحة الاتصالات اللاسلكية قرار يحدد الإذاعة من على المحطات المتحركة العاملة خارج حدود الدول. وفى عام ١٩٥٩تقرر إدخال تعديل على معاهدة جنيف تشمل الحظر المشار إليه بالنسبة للسفن الراسية خارج المياه الإقليمية. وتنص اللائحة الخاصة بالاتصالات اللاسلكية (الموضوعة عام ١٩٥٩) والتى أقرها مؤتمر جنيف[١٤] فى دورته غير العادية التى جرت أعمالها فى الفترة من ٧ أكتوبر إلى ٨ نوفمبر ١٩٦٣ على «حظر إقامة واستغلال أية محطات إذاعية من جانب أشخاص أو مؤسسات دون تصريح من حكومة الدولة التى تتبع لها هذه المحطة». «يحظر إقامة واستغلال محطات للبث (الإذاعى أو التليفزيونى) على متن السفن، أو الطائرات أو أية وسائل أخرى مبحرة أو محلقة خارج الحدود القومية»، «يحظر استخدام محطات إذاعة متحركة على سطح البحر أو على شواطئ البحار». وقد جاء فى قرارات مؤتمر جنيف:

١. أن محطات القرصنة الإذاعية عملت على ترددات تملكها محطات قانونية أخرى وفقًا للاتفاقيات الدولية مما تسبب عنه عوائق فى الأثير.

٢. خالفت محطات القرصنة الإذاعية الخاصة الاحتكار الإذاعى لحكومات الدول الساحلية وقوانين حظر الإعلان التجارى؛

٣. خالفت محطات القرصنة الإذاعية قوانين حقوق المؤلف فهى لم تحصل على تصريح بإذاعة المؤلفات الموسيقية ولم تدفع أجورها.

٤ ـ خالف القراصنة قوانين الضرائب.

مثلت الأحكام والحجج المذكورة نقطة انطلاق لعدد من الأعمال الموجهة التى اتخذتها بعض دول أوروبا الغربية ضد القرصنة بعد أن تسببوا فى إنزال خسائر فادحة بهم فى مجال الإذاعة، وقد قام بالمبادرة فى هذا المجال الدول الإسكندنافية التالية: السويد، النرويج، الدنمرك وفنلندا.

فى يوليو عام ١٩٦٢ وعلى أساس التشريعات الجديدة التى سنتها السويد والدنمرك تم القضاء على محطة القرصنة الإذاعية «راديو ميدكور» ومع هذا استطاعت السيدة ب. ڤادنر، وهى سيدة سويدية تمتلك محطة تسمى «راديو سيد»، أن تواصل نشاطها على الرغم من الأحكام القانونية والغرامات التى صدرت ضدها. وتوقف العمل فى المحطة - مؤقتًا - بعد القبض على السيدة ڤادنر وموظفيها وإيداعهم السجن، وقد صرحت هذه السيدة عند اقتيادها للسجن أنها سوف تواصل نشاطها الإذاعى فور خروجها من السجن فى ربيع عام ١٩٦٥، وأضافت أنها سوف تعمل بالنشاط التليفزيونى أيضًا؛ وقد أوفت ڤادر بوعدها بالفعل. ففى مارس من عام ١٩٦٥ عاد «راديو سيد» ليواصل إرساله مرة أخرى.

جاءت بلجيكا بعد الدول الإسكندنافية لتصدر تشريعًا خاصًا لمقاومة القرصنة عبر الأثير.

حتى مارس عام ١٩٦٤، وهو التاريخ الذى بدأت فيه محطة «راديو كارولينا» نشاطها. لم يكن قراصنة الأثير ليشكلوا أى قدر من الخطورة على المصالح البريطانية - إلا أن هذه المحطة التى كانت تعمل فى منطقة الجزر البريطانية لم تكن إلا أول الغيث - فما هى إلا فترة من الزمن حتى بلغت القرصنة فى هذه المنطقة مدى شكَّل كارثة حقيقية، إذ أطلق للعمل هنا عدد من الإذاعات تباعًا: «راديو أطلانتا» (فى شهر أبريل)، «راديو ساتش» (فى شهر مايو)، «راديو انفيكتا» (فى شهر يوليو) وأخيرًا «راديو لندن» (فى شهر ديسمبر).

أخذت السلطات البريطانية فى تطبيق عدد من العقو بات القانونية تختلف عن تلك التى تطبقها الدول الإسكندناڤية. قدمت وزارة المواصلات البريطانية، استنادًا إلى القرارات الواردة فى لائحة الاتصالات اللاسلكية الصادرة عام

١٩٥٩، مذكرة رسمية إلى الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية بجنيف تطلب فيها مساعدتها فى القضاء على محطة «راديو كارولينا» التى تمارس إرسالها على نحو مخالف للقانون فى عرض البحر بالقرب من الشواطئ البريطانية، وفقًا لما أذاعته السلطات البريطانية فإن السفينة العاملة عليها المحطة المذكورة تبحر رافعة علم بنما وتذيع برنامجين بقوة عشرة كيلووات.

ردًا على ذلك قدمت اللجنة الدولية لتسجيل الترددات طلبًا رسميًا إلى السلطات البنمية بوضع حد لنشاط القرصنة التى تمارسه هذه السفينة وقد قرر وزير المالية والخزانة البنمى بعدها - نيابة عن رئيس الجمهورية - رفع السفينة «كارولينا» من سجل الأسطول التجارى البنمى.

فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٦٧ أصدرت بريطانيا قانونًا خاصًا بالإذاعة فى البحار Marine Broadcasting Act يحرم نشاط محطات القرصنة الإذاعية على متن السفن والطائرات وكذلك على الأرصفة العائمة الموجودة فى باحة البحر بالقرب من الشواطئ. منذ هذا التاريخ أصبحت الأعمال التى تمارسها المحطات المذكورة تدخل فى نطاق الأعمال غير القانونية وتستوجب الملاحقة. لقد بلغ عدد المستمعين إلى محطات القرصنة الإذاعية فى الأراضى البريطانية عام ١٩٦٦ - وفقًا لتقديرات السلطات البريطانية - خمسة وعشرون مليونًا كما بلغ دخل هذه المحطات مليونى جنيه استرلينى. وقد دفعت السلطات القضائية البريطانية فى مايو عام ١٩٦٧، أى قبل سريان القانون المذكور، دعاوى قضائية ضد عدد من محطات القرصنة الإذاعية، فى الوقت الذى راحت فيه سبع عشرة دولة أوروبية غربية. أعضاء فى المجلس الأوروبى، وخاصة تلك التى أضيرت بشدة من جراء القرصنة عبر الأثير، تعمل فى إعداد اتفاقية إقليمية تنظر فى مقاومة هذا الشكل الجديد من الأنشطة الإجرامية ذات الطابع الدولى.

على أن القراصنة ومَنْ وراءهم مِنْ ذوى النفوذ الذين يتولون رعاية هذه الإذاعات لم يكن بنيتهم التراجع عن هذه المهنة المريحة، فقرروا - نتيجة إحساسهم بعدم الأمان وهم على متن سفنهم التى ينطبق عليها الحظر على نحو لا خلاف فيه - استخدام منجزات الصناعة الحديثة.

قام قراصنة الإذاعة بإقامة رصيف عائم هائل على ركائز مثبتة فى قاع البحر تشبه تلك المستخدمة فى قواعد استخراج النفط من البحر وذلك فى عرض البحر بالقرب من حدود المياه الإقليمية لهولندا وعلى بعد ستة أميال تقريبًا شمال شرقى مصيف نوردفيك. هناك أقيمت محطة إذاعة وتليفزيون باسم «تى ڤى نوردزى» بدأت فى أول سبتمبر عام ١٩٦٤ فى إرسال الإعلانات الإذاعية والتلفزيونية إلى هولندا. لما بلغ السيل الزبى بالقراصنة، لم يكن أمام الحكومة الهولندية إلا أن قامت فى السابع عشر من ديسمبر عام ١٩٦٤ بشن هجوم بوليسى عسكرى ضد محطة القرصنة ووضعت حدًا لنشاطها. كان لهذا الإجراء الذى اتخذته السلطات الهولندية ردود فعل قوية فى الصحافتين المحلية والعالمية. وقد انقسمت الآراء بشأنه فبينما اعتبر البعض أن الحكومة الهولندية قد اتخذت خطوة قانونية بقضائها على محطة الإذاعة التى كبدتها خسائر طائلة، أكد آخرون أنها خرقت مبدأ حرية البحار بأن قامت بعملية بوليسية ضد محطة إذاعة يمتلكها مواطنو دولة أخرى وتعمل خارج المياه الإقليمية لهولندا، بل إن الإشاعات راحت تتحدث عن عرض القضية برمتها على محكمة العدل الدولية فى لاهاى.

قرر النائب العام لهولندا إحالة القراصنة المقبوض عليهم إلى المحكمة بيد أنه رفض أن يفصح عن أسماء الأشخاص الذين تورطوا فى هذا الأمر. فى نفس الوقت اكتسبت قضية العملية البوليسية التى اتخذت ضد «تى ڤى نوردزى» منحى مفاجئًا بعد أن فجرت مناقشات واسعة فى أنحاء هولندا حول مسألة احتكار الدولة للإعلانات فى الإذاعة والتليفزيون. وقد استخدمت المعارضة هذه المناقشات، التى أثارت ضجة كبرى فى البلاد، بذكاء شديد لتحقق من ورائها أهدافًا سياسية، وقد حدثت بالفعل أزمة وزارية فى السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٦٥ واستمرت حوالى ستة أشهر ولم تنته إلا فى الثلاثين من شهر مارس عام ١٩٦٥ عندما توصلت الأحزاب السياسية فى هولندا إلى اتفاق بشأن فرض قيود على احتكار الدولة. وهو الاحتكار الذى ظل قائمًا حتى هذا التاريخ. لأنشطة الإعلان فى الإذاعة والتليفزيون. لقد سبق سقوط الحكومة الهولندية

توقيع اتفاقية قانونية هامة تتعلق بمقاومة القرصنة عبر الأثير. ففى الثانى والعشرين من يناير عام ١٩٦٥ وقع فى ستراسبورج مندوبون عن حكومات بلجيكا، وبريطانيا، والدنمرك، وفرنسا، واليونان، ولكسمبرج والسويد، وقعوا اتفاقًا يهدف إلى القضاء على الإذاعة خارج الحدود الإقليمية لهذه الدول.

نصت المادة الأولى فى هذا الاتفاق على حظر نشاط محطات الإذاعة الموجودة على متن السفن والطائرات وكذلك حظر استخدام أية وسائل أخرى سواء أكانت تتحرك بحرًا أوجوًا وتعمل على أراضى الدول التى وقعت على الاتفاق المذكور ومنع بث برامج مخصصة للاستقبال أو يمكن التقاطها فى جميع أراضى الدول المذكورة أو فى أجزاء منها أو يكون لهذا البث أثر فى إعاقة الاتصالات السلكية واللاسلكية بين هذه الدول.

على الرغم من كل ما ورد فى هذا الاتفاق فقد بدا - على ضوء حادثة «تى فى نوردزى» - عاجزًا، فقد ظل العديد من الاقتراحات والتوصيات الداعية إلى توسيع مجالات الحظر قاصرة على محطات الإذاعة العاملة على متن السفن والطائرات. أما فيما يتعلق بالمحطات المبنية على منصات مثبتة فى قاع البحر فقد كانت علاقة هذا الاتفاق بها مجرد علاقة ثانوية.

لقد أثار هذا الوضع الكثير من الانتقادات الحادة. ها هى ذى الجمعية الاستشارية للمجلس الأوروبى تعرب فى التاسع والعشرين من يناير عام ١٩٦٥ عن أسفها لكون لجنة الوزراء لم تطرح مقدمًا نص الاتفاق المذكور لتقره الجمعية. فيما بعد كلفت الجمعية لجنة من الخبراء فى شئون الاتصالات السلكية واللاسلكية لدراسة إمكانية إضافة بروتوكول خاص إلى هذا الاتفاق يمكنه أن يوسع من قراراته بحيث تشمل محطات الإذاعة المقامة على منصات بحرية.

إلى جانب حادثة الرصيف الذى أقيم بالقرب من شواطئ هولندا، أذيعت أنباء عن بعض الحوادث المتفرقة حيث جرى استغلال بعض المنشآت الدفاعية التى أقيمت فى عرض البحر لأغراض الاتصالات اللاسلكية إبان الحرب العالمية الثانية والتى ظلت قائمة بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها وهى بالتحديد:

١ ـ «راديو انفيكتا» وكان يبث إرساله من يوليو عام ١٩٦٤ من قلعة مارتيليو تاور الموجودة عند مصب نهر التايمس على موجة طولها ٣٠٦ مترًا وتوقفت فى السابع عشر من ديسمبر من نفس العام عندما غرق صاحبها.

٢ ـ «راديو ساتش» بدأ عمله من مايو ١٩٦٤ وتغير اسمه من يناير ١٩٦٥ ليصبح «راديو سيتى» وكان يبث إرساله من مارتيليو تاور على موجة طولها ٢٩٩ مترًا وتوقف هذا الإرسال بعد مصرع صاحبه فى ظروف غامضة.

فى نهاية يونيو ١٩٦٧ وعلى بعد أحد عشر كيلو مترًا من شواطئ بريطانيا بالقرب من Harwich وقعت معركة حقيقية بين ممثلى اثنتين من محطات القرصنة الإذاعية المتنافسة فيما بينهما. فقد حاولت إحدى الجماعتين الاستيلاء على إحدى القلاع المهجورة الموجودة خارج المياه الإقليمية لإنجلترا وتسمى راف تاور؛ وقد قام بالمحاولة صاحب محطة «راديو كارولينا» عندما توجه ورجاله للاستيلاء على الميناء غير أنه ووجه بمقاومة شديدة من جانب محطة «راديو إسكس» المنافسة.

فى ليلة الثامن والعشرين من يونيو أبحر قارب قراصنة «راديو كارولينا» خلسة عاقدًا العزم على اقتحام راف تاور والاستيلاء عليها غير أن سكان القلعة، على ما يظهر، كانوا على أهبة الاستعداد لاحتمال هجوم يقع عليهم فأمطروا المهاجمين بقنابل اللهب واستمر التراشق بالأسلحة بين الفريقين المتنافسين طوال الليل تخلله توقف قصير بين الحين والحين. وأثناء الاقتحام سقطت قذيفتان أضرمتا النار فى قارب محطة «راديو كارولينا» مما أفشل محاولة الاستيلاء على القلعة واضطر قراصنته إلى طمس معالم محاولتهم بأكملها وقد حذت السلطات البريطانية حذوهم فلم تذكر حرفًا واحدًا عن الحادث.

إن تطور الأمور على هذا النحو أعطى أساسًا للافتراض أن القرصنة عبر الأثير لن يتم القضاء عليها فى المدى القريب. أصبح من المتوقع أيضًا أن يغدو هذا النوع من القرصنة هدفًا لمناقشات رجال القانون إلى جانب رجال السياسة.

* * *

# هوامش الفصل التاسع

(١) "The times", December, 12, 1929

(٢) الجومندانيون: حزب سياسى أسس فى الصين عام ١٩١٢ واستمر نشاطه حتى عام ١٩٢٧. فى البداية كان حزبًا تقدميًا، ولكنه انقلب ليصبح حزب البرجوازية الرجعية التى أسقطها الشعب الصينى عام ١٩٤٩ ظهر حزب الجوميندان ليعمل فى تايوان.

(٣) بلايا خيرون Playa Giron: منطقة فى خليج كونتشيوس على الساحل الجنوبى لجزيرة كوبا، تعرضت للقصف من ١٧ إلى ١٩ إبريل ١٩٦١ من المرتزقة الذين أنزلوا إليها تغطيهم القوات المسلحة الأمريكية بهدف إسقاط الثورة فى كوبا، وقد عرفت هذه العملية باسم «خليج الخنازير» (المترجم)

(٤) الجمعية العامة، التقارير الرسمية، الدورة الرابعة والعشرون، ملحق A(A/٧٦٠١) منظمة الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٦٩.

(٥) قانون رقم ١٢٢٦ المؤرخ ١٦ سبتمبر ١٩٦٩.

(٦) «الجمعية العامة، التقارير الرسمية، الدورة الرابعة والعشرون، ملحق رقم ٣٠ (٨/٧٦٣٠)، منظمة الأمم المتحدة الأمريكية، نيويورك ١٩٦٩.

(٧) انظر «الأنباء الجوية العالمية للاتحاد السوفيتى»

(٨) المرجع السابق ص ١٤٧.

(٩) المرجع السابق ص ١٤٤.

(١٠) المرجع السابق ص ١٤٩.

(١١) المرجع السابق ص ١٤٩.

(١٢) ورد هذا التعريف فى المادة ١٥ من معاهدة البحار المفتوحة التى جرى إقرارها فى جنيف فى التاسع والعشرين من إبريل عام ١٩٥٨. انظر (القانون الدولى الحديث).

(١٣) تم إعداد هذه القائمة بناء على المعلومات التى وردت فى مقال N. M. Hummings, Pirate Proadcasting in European Waters""the International and Comparative Law Quarterly",vol. 14, part2, April, 1965, pp. 410-412 ولم ترد فى هذه القائمة

أسماء المحطات التى عملت لفترة قصيرة مثل «راديو رد روز» التى كانت تبث إرسالها منذ ١٢ يوليو ١٩٦٤ من على ظهر سفينة كانت تقف على بعد حوالى عشرين ميلا من ليڤربول. اتجهت هذه السفينة بعد ذلك ناحية أمستردام حيث كان من المفترض تجهيزها بمعدات إرسال أقوى إلا أن ذكرها لم يرد بعد ذلك إطلاقًا (ملحوظة للمؤلف).

(١٤) فى عام ١٩٦٥ اعتمد مؤتمر مونترى المعاهدة الدولية الجديدة للاتصالات السلكية واللاسلكية التى أصبحت نافذة منذ أول أيام يناير عام ١٩٦٧.

# الفصل العاشر

# القراصنة والقانون

تحظى القرصنة - شأنها شأن العديد من الظواهر الاجتماعية الأخرى - باهتمام حيوى من جانب رجال القانون كما أنها تدخل بشكل أساسى ضمن تخصصات علوم القانون مثل القانون الجنائى والقانون الدولى العام. وعلى مدى عدة قرون تعرضت علاقة القانون بالقرصنة لعدد من التغيرات.

فى العصور القديمة والوسيطة، عندما كانت القرصنة جزءًا لا يتجزأ من حركة التجارة، كان رجال القانون يولون النهب البحرى قدرًا قليلاً جدًا من الاهتمام، آنذاك لم تكن هناك قوانين محددة تحظر القراصنة، كما أنه لم يتخذ أية إجراءات تفرض عقوبات على ممارسة هذه المهنة. زد على ذلك أن القانون الرومانى القديم كان يحوى مبدأ قانونيًا اعتبره المشرعون فيما بعد نقطة الانطلاق عند إعدادهم للقوانين الموجهة ضد القرصنة. وقد رسم هذا القانون القراصنة بأنهم «أعداء البشرية» Pirata hostis generis humani. حدث ذلك فى تلك الفترة التى أصبح حجم النهب البحرى فيها يمثل تهديدًا لسيادة روما على حوض البحر المتوسط. جدير بالذكر أن روما فى القرن الأول الميلادى اضطرت للتورط بصورة غير مباشرة فى أعمال القرصنة وهو ما أعتبر آنذاك ظاهرة استثنائية.

على أية حال فالدولة وجهات العقاب الموجود تحت تصرفها بما فى ذلك القواعد القانونية لم تتدخل لمكافحة القرصنة إلا فى فترة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية. عندئذ فقط تم اعتبار القراصنة أفرادًا خارجين على القانون.

وقد تمت صياغة مبادئ عامة، وقواعد قانونية، تدين القرصنة، وتقضى بممارسة الضغط على الأشخاص الذين يمارسون السرقة فى البحر. كما تكفل القانون بحماية مبدأين أساسيين ينظمان مسائل التجارة والملاحة فى عصر الرأسمالية وهما بالتحديد: مبدأ حرية التجارة ومبدأ حرية البحار، وقد اعتبر القراصنة الذين كانوا يمثلون تهديدًا حقيقيًا لهذين المبدأين من المجرمين بناء على الصياغة التى وضعتها روما القديمة.

وانطلاقًا من قواعد هذا القانون جرى بعد ذلك حرمان القراصنة من حق المواطنة واعتبار القرصان «عدوًا شرعيًا» وقد أدى ذلك بالتبعية إلى عدم تطبيق القوانين العسكرية، التى تحدد الوسائل المشروعة للحرب، بالنسبة للقراصنة وتنظيمها.

وفى القرن التاسع عشر ازداد عدد الدول التى أضافت إلى قوانينها الجنائية موادًا جديدة تقضى بإنزال عقوبات صارمة على من يمارس النهب البحرى، وفى عصرنا هذا تشتمل القوانين الجنائية لجميع الدول تقريبًا على مواد تعد القرصنة من الجرائم الخطيرة وتصنفها بينها، وعلى مر الأيام أخذ المشرعون يضعون تفاصيل المواد التى تُجرِّم النهب البحرى وينظرون فى الوسائل القانونية لمحاربته على الصعيد الدولى، وكانت إحدى المهام الأولى التى ألقيت على عاتق القانون الدولى العام هى قيامه بوضع تعريف للقرصنة. وقد أثارت مشكلة التعريف القانونى المحكم للقرصنة جدلاً شديدًا متصلاً.

فى عام ١٩٢٢ قامت عصبة الأمم بعدة محاولات لوضع التشريعات القانونية الخاصة بالقرصنة، ولكن هذه المسألة رفعت من جدول الأعمال بعد مرور ثلاث سنوات، دون أن ينتهى البت فيها، كما جرى الاعتراف بأن عقد معاهدة شاملة بشأن هذا الموضوع أمر قد تكتنفه المصاعب. وقد قامت لجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة بدورها بالمحاولة نفسها، وذلك فى إطار الأعمال التمهيدية لوضع تشريعات القانون البحرى. وعلى أساس وضعت اللجنة مشروعًا كانت جامعة هارفارد الأمريكية قد أعدته قبل ذلك فى عام ١٩٣٢.

أدرجت قضية القرصنة ضمن مواد واحدة من أربع معاهدات خاصة بالقانون البحرى قامت بوضعها منظمة الأمم المتحدة، وهى بالتحديد اتفاقية أعالى البحار التى اعتمدت فى التاسع والعشرين من إبريل عام ١٩٥٧ فى جنيف، وتشير المادة الخامسة عشر من هذه المعاهدة إلى أن «أيًا من الأعمال التالية يعد عملاً من أعمال القرصنة :

(١) العنف غير الشرعى، الاحتجاز أو السرقة ـ لغرض خاص ـ والذى يتم بواسطة طاقم أو ركاب أية سفينة خاصة أو طائرة خاصة مستهدفًا :

ـ أى سفينة فى أعالى البحار أو طائرة أو أشخاص أو ممتلكات تكون على متنها.

أى سفينة أو طائرة أو أشخاص أو ممتلكات تكون بعيدة عن حدود اختصاص أى دولة من الدول.

(٢) الاشتراك طواعية فى العمل على أى سفينة أو طائرة إذا كان الشخص المشترك فى العمل يعلم أن هذه السفينة أو الطائرة هى سفينة أو طائرة قراصنة.

(٣) أى عمل يمثل تحريضًا أو تعاونًا واعيًا على ارتكاب الأعمال التى ورد ذكرها فى البندين الأول والثانى من المادة الحالية [١].

إن أوضح دليل على الصعوبات التى واجهت المشرعين عن وضع المادة المذكورة عاليه هوسياق المناقشات التى احتمت قبيل التوصل للصياغة النهائية الملائمة للمعاهدة. ولقد أشارت لجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة فى ملاحظتها التى أبدتها على مشروع المعاهدة أن تعريف القرصنة الذى ورد فى المشروع لم يشتمل على أعمال الاغتصاب التى تتم فى المياه الإقليمية، أو الهجمات التى تأتى من البحر ضد الشواطئ، والتى تطبق عليها الأحكام القانونية الخاصة بالسرقة على البر، وذلك خلافًا لوجهات النظر التقليدية لبعض أعضائها، أولئك الذين أرادوا إدراج هذه الأعمال تحت طائلته. أما فيما يتعلق بمسألة الأسلحة التى يستخدمها القراصنة فقد تخلت اللجنة أيضًا عن الصياغات التقليدية فلم تكتف بذكر السفن الحربية. وإنما أضافت الطائرات

كذلك، وجدير بالذكر هنا أن اللجنة رفضت اقتراحًا بشأن اعتبار أى عمل يقوم به أى من أعضاء الطاقم أو الركاب، بهدف الاستيلاء على السفينة أو الطائرة، عملاً من أعمال القراصنة.

وقد برزت إبان المؤتمر مشكلة أخرى على قدر كبير من الأهمية العملية أثارت جدلاً كبيرًا وهى ما إذا كان المقصود بمعنى القرصنة تلك الأعمال التى ترتكب بغرض تحقيق منفعة شخصية فقط أم يمكن اعتبار الأعمال الأخرى ذات الأهداف السياسية من بينها أيضًا . وقد اتضح للجنة القانون الدولى فى سياق عملها وجود خلافات حادة فى وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة. جدير بالذكر هنا أيضًا أن نشير إلى أنه قد دارت قبل ذلك، وخاصة إبان وجود الدول التى مارست القرصنة، مناقضات تساءلت عما إذا كان القراصنة، عيدون أعداء بالمعنى المتعارف عليه فى القانون العسكرى؟ وفى القرن التاسع عشر كان تجار الرقيق واللصوص و ـ أحيانًا ـ المتمردون الذين يستولون على السفن يعاملون معاملة القراصنة، وذلك حين يقومون بارتكاب أعمال تخالف قواعد القانون الدولى.

وتولت العديد من المعاهدات الدولية ـ مثل إعلان واشنطن فى عام ١٩٢٢ بشأن استخدام الغواصات، والمعاهدة التى وقعت فى عام ١٩٣٧ فى نيون بسويسرا ـ مسألة تصنيف أعمال الاغتصاب فى البحار، التى تقوم بها سفن حكومية بين أعمال القرصنة، ويمكننا أن نجد وجهة النظر هذه فى قرارات القانون الدولى ومبادئه التى تنظر إلى هذه الأعمال نظرتها إلى القرصنة، حتى ولو كانت السفن التى قامت بها تابعة لإحدى الدول.

ويرى رجل القانون الإنجليزى «لاوترياخت» إنه من الممكن اعتبار المتمردين الذين يقومون بالتحرش بسفن الدول الأخرى قراصنة، على الرغم أنه فى الحالات المشابهة الأخرى التى تظهر فيها الدوافع السياسية وتختفى الأغراض الشخصية تكون هذه الأمور مبررًا لاتخاذ إجراءات عقابية مخففة.

وترتبط مشكلة الوضع القانونى للمتمردين والسفن التى يقومون بخطفها بمشكلة أخرى ألا وهى مشكلة الدفاع عن ملاحة الدول المحايدة إبان الحروب

الأهلية. وفى هذه الظروف فإن السفن الحربية الموجودة تحت أيدى المتمردين، أو الحكومة غير المعترف بشرعيتها بعد لا تعد من سفن القرصنة، ما دامت لم ترتكب أية أعمال إجرامية ضد مواطنى وممتلكات الدول الأخرى حتى ولو أعلنت الحكومات السابقة غير ذلك، فعلى سبيل المثال أصدرت كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا أوامرها - إبان التمرد الذى وقع فى إسبانيا عام ١٨٧٣ - إلى سفنها الحربية فى البحر الأبيض المتوسط بعدم اتخاذ أية أعمال عسكرية ضد سفن المتمردين.

وقد حدث فى عام ١٨٨٧ أن وقع تمرد فى بيرو وقام المتمردون، بعد استيلائهم على السفينة الحربية البيروانية. المدرعة «أوسكار» باحتجاز سفينتين بريطانيتين فى أعالى البحار (استولوا على حمولة الأولى من الفحم دون أن يسددوا ثمنها، بينما أنزلوا اثنين من ركاب السفينة الأخرى وكانا موظفين من بيرو). كان من نتيجة هذا الاعتداء أن اعتبرت السفينة البيروانية من سفن القراصنة وقامت إحدى السفن البريطانية بالهجوم عليها وإصابتها، وبعدما تم تسليم «أوسكار» إلى السلطات البيروانية طالبت حكومة بيرو بريطانيا بدفع تعويضات مقابل الأضرار التى ألحقتها بالسفينة غير أن طلبها قوبل بالرفض.

نتيجة انتشار ما يسمى بقرصنة الدولة فقد رأى كثير من المشرعين أن الهدف الشخصىLurci Causa لا ينبغى أن يكون هو الدافع الحتمى وراء الأعمال الإجرامية التى ترتكب فى البحر.

وكما أشرنا من قبل فإن لجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة قد أيدت تعريف القرصنة بالمعنى الضيق لهذ الكلمة، وإذا كان هذا التعريف قد تجاوز قليلاً إطار مفهوم السرقة Furandi - causa إلا أنه استثنى الجريمة لدوافع سياسية. وكما جاء فى تعليق اللجنة «إن الكراهية أو الانتقام، وليس فقط الحصول على مكاسب، يمكن أعتبارهما من دوافع القرصنة [٢]» تنص المادة الخامسة عشر أيضًا على أن مشرعى معاهدة چنيف بشأن أعالى البحار قد سعوا لاستثناء أعمال العنف التى تقوم بها السفن أو الطائرات التابعة للدول من صفة القرصنة، وتفسر المادة ١٦ من المعاهدة «أن أعمال القرصنة، التى تم

تحديدها فى المادة الخامسة عشر، والتى ترتكبها سفينة حربية أو سفينة تابعة لدولة، أو طائرة تابعة لدولة يقوم طاقمها بالتمرد وفرض سلطانه على هذه السفينة أو الطائرة؛ فإن هذه الأعمال تتساوى مع تلك الأعمال التى ترتكب على السفن الخاصة (٣)؛ وعلى هذا فإن قطع الطاقم لاتصالاته مع السلطات الشرعية، يتساوى وفقدان هذه الثقة، أو الطائراة لانتمائها القومى

تتعامل تشريعات بعض الدول مع بعض الأعمال باعتبارها من أعمال القرصنة، حتى ولو لم تتسم بطابع العنف، وترى ضرورة تطبيق القانون بشأنها من هذا المنطلق؛ فالقوانين الفرنسية - على سبيل المثال - تعتبر أن طاقم أى سفينة فرنسية مسلحة، تبحر دون امتلاك للوثائق الرسمية اللازمة من القراصنة، بينما تساوى القوانين بين تجار الرقيق والقراصنة (أحكام القانون الصادر عام ١٨٢٤ المعروف باسم «القرصنة بالقياس».

إن قضية تعريف القرصنة بصفة عامة وثيقة الصلة بقضية تحديد سفينة أو طائرة القرصنة. فطبقًا لما جاء فى المادة السابعة عشرة من معاهدة ١٩٥٨ فإن «أى سفينة أو طائرة تعتبر سفينة قرصنة، أو طائرة قرصنة إذا ما استخدمها أشخاص لهم كامل السيطرة عليها لارتكاب الأعمال المنصوص عليها فى المادة الخامسة عشرة وينطبق الأمر نفسه على السفينة أو الطائرة التى تستخدم لارتكاب هذه الأعمال طالما ظلت تحت سيطرة أشخاص متهمين بارتكاب تلك الأعمال (٤). أما الإبحار دون علم فهو أمر لا يكفى - من وجهة نظر لجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة - ليكون مبررًا لاعتبار السفينة من سفن القرصنة.

# القراصنة أعداء البشرية

## Pirata hostis generis humani

طبقا للاقتراح المبدئى للجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، فإن من حق السفينة والطائرات الحربية فقط الاستيلاء على سفن القراصنة، وقد جاء مؤتمر جنيف ليوسع من هذا الحق - بناء على اقتراح وفد تايلاند - ليشمل السفن والطائرات الأخرى التى تعمل فى خدمة الدولة، مثل السفن والطائرات التابعة للشرطة. وعلى هذا النحو حُرمت السفن التجارية من حق مطاردة القراصنة «أعداء البشرية»، دون تفويض بذلك من حكوماتهم. وينبغى هنا تناول الأمر بمزيد من الحرص، لتجنب حدوث نزاعات، وهو ما عالجته المادة ٢٠ من اتفاقية جنيف حيث ألقت بالمسئولية المادية على الدولة التى تقوم بمصادرة سفينة أو احتجازها للاشتباه فى كونها سفينة للقراصنة دون أن يكون لديها مبررات كافية لذلك.

كما أن الجهات التى تقوم باحتجاز القراصنة، ليس لديهم الحق فى القيام بمحاكمتهم من تلقاء نفسها وعليها تسليم المجرمين المقبوض عليهم إلى السلطات القضائية فى الدول صاحبة السفينة المحتجزة. ودائمًا ما يسترشد المشرع فى معظم الدول بمبدأ إعادة الممتلكات التى نهبها القراصنة إلى أصحابها الشرعيين. وفى هذه الحالة تقوم المحكمة بخصم نسبة محددة مقابل المساعدة فى إعادة الممتلكات؛ على سبيل المثال ١/٨ قيمة الممتلكات وفقًا للقانون الإنجليزى أو ١/٦ القيمة وفقًا للقانون الأمريكى.

وفى حالة ما يسمى بقرصنة الدولة فإن الذين يقومون بارتكاب الجريمة، هم فى النهاية بعض الأشخاص، وهؤلاء عليهم أن يتحملوا المسئولية الجنائية، بغض النظر عن المسئولية القانونية التى تقع على كاهل الدولة. ويرى بعض المشرعين أن السفينة التى تمارس أعمال القرصنة تفقد جنسيتها وتصبح وفقًا لتعريف المشرعين الألمان Vogel Frei أى «طائرًا طليقًا».

غير أن لجنة القانون الدولى التابعة لمنظمة الأمم المتحدة رفضت مثل هذا الاقتراح. فالمادة الثامنة عشر من معاهدة جنيف تنص صراحة على أن «السفينة أو الطائرة يمكنها أن تحتفظ بجنسيتها على الرغم من أنها أصبحت سفينة أو طائرة قرصنة». وفى هذه الحالة فإن «الاحتفاظ بالجنسية أو فقدانها يتوقف على قانون تلك الدولة التى منحتها هذه الجنسية [٥]». وعلى ذلك فإن سفينة القرصنة يمكن اعتبارها سفينة فاقدة الجنسية فقط فى حالة ما إذا اعترفت بذلك قوانين الدولة التى تبحر تحت علمها تلك السفينة. ولا تكتفى معاهدة جنيف بتحديد حقوق الدول التى أضيرت من القراصنة، وإنما تحدد لها أيضًا واجباتها. إن المادة الرابعة عشر من المعاهدة تفرض على هذه الدول واجب التعاون الدولى على نطاق واسع. عند مطاردة القراصنة فى أعالى البحار أو فى أية مناطق أخرى، تقع خارج أية دولة مهما كانت حتى ولو كانت فى القطب الجنوبى مثلا.

وتطرح منظمة الأمم المتحدة رأيها فى هذا الصدد من خلال تعليق لجنة القانون الدولى الذى يتحدث بشأن «الدولة التى يمكنها أن تتخذ تدابير ضد القرصنة، ثم لا تفعل ذلك وتتقاعس عن القيام بالواجبات المنوطة بها، وفقًا للقانون الدولى» وكيف أن «من الضرورى إعطاء هذه الدولة بعض الحرية فى اختيار التدابير التى من الضرورى اتخاذها ضد القرصنة فى كل حالة بالتحديد»[٦].

لا ينسحب مبدأ التفويض المطلق للدولة صاحبة العلم الذى تبحر تحته السفينة التى ترتكب عملا من أعمال القرصنة على هذه السفينة. فطبقًا للمادة التاسعة عشرة من معاهدة جنيف «يمكن لأى دولة الاستيلاء، فى أعالى البحار، أو فى أى مكان آخر يقع خارج حدود صلاحيات هذه الدولة أيًا كانت، على سفينة

القرصنة أو طائرة القرصنة أو على السفينة التى جرى الاستيلاء عليها بواسطة أعمال القرصنة، والتى تقع تحت سيطرة القراصنة وكذلك اعتقال الأشخاص الموجودين على هذه السفينة أو الطائرة ومصادرة الممتلكات الموجودة عليها. ويمكن للمؤسسات القضائية لتلك الدولة التى قامت بالاستيلاء، إصدار قرارات بشأن توقيع العقوبات وتحديد الإجراءات التى يجب اتخاذها بشأن هذه السفن والطائرات أو الممتلكات دون مساس بحقوق الأشخاص الأبرياء» (٧).

لم يحدد القانون الدولى إجراءات عقوبات القراصنة، كما لم يقرر أيضًا كيفية التعامل مع سفينة القرصنة التى تم الاستيلاء عليه، ولا على البضائع الموجودة عليها وإنما أعطى الحق فى حل هذه القضايا لقوانين الدول التى قامت بالقبض على القراصنة، وتحتوى القوانين الجنائية لكل دولة على المواد الملائمة المحددة. هناك - على سبيل المثال - المادة التاسعة فى القانون الجنائى البولندى لسنة ١٩٣٢ وهو ينص على «تطبيق مواد القانون الجنائى البولندى على المواطنين البولنديين وكذلك على الأجانب الذين تقرر عدم تسليمهم وذلك إذا ما قاموا بارتكاب الجرائم التالية خارج البلاد وذلك بغض النظر عن التعليمات المعمول بها فى المكان الذى وقعت فيه الجريمة: (أ) أعمال السرقة فى البحر، (ب) تجارة الرقيق، ( ج ) تجارة النساء والأطفال......».

تعنى المادة ٢٦٠ من القانون الجنائى البولندى على وجه الخصوص بتفسير السرقة فى البحر فتنص على أن «كل من يسلح أو يجهز مركبًا بحريًا، لإعداده لارتكاب جرائم فى البحر، وهى الجرائم المنصوص عليها فى المادة ٢٥٩، أو يذهب للخدمة على هذا المركب يستحق السجن لمدة تصل إلى عشرة أعوام».

ولم يشر القانون الجنائى البولندى الجديد الصادر فى ١٩ إبريل عام ١٩٦٩ إلى القرصنة باعتبارها شكلاً خاصًا من أشكال الجريمة، وإنما أشير فيه إلى مادة ذات طابع عام تسمح بإمكانية إنزال العقاب ليس فقط على ممارسة السرقة فى البحر وإنما أيضًا على القرصنة الجوية. وقد ورد فى الفقرة الأولى من المادة ١٤٥ من هذا القانون أن «مخالفة قواعد الأمن الخاصة بالمواصلات البرية والمائية والجوية - ولو عن غير عمد - والتى يتسبب عنها إصابات جسدية أو

مرض شخص آخر أو إنزال أضرار جسيمة بالممتلكات يعاقب عليها بالحبس لمدة تصل إلى ثلاث سنوات».

## ألوان من القرصنة

ينبغي تمييز بعض أشكال اللصوصية في البحر عن القرصنة بمعناها الشائع.فإذا كان القراصنة يمارسو النهب في البحر في أوقات السلم والحرب على السواء فإن هناك نوعًا آخر من اللصوص دأبوا على القيام بأعمال القرصنة في أوقات الحرب فقط باعتبارها عملاً من أعمال «الفدائية» الاستثنائية. إن القرصنة من هذا النوع هي ظاهرة تاريخية صرفة، إذ أن الدول التي وقعت معاهدة باريس السلمية في عام ١٨٥٦ رفضت هذا الشكل من أشكال الحرب تمامًا. وفي الماضي كانت القرصنة من هذا النوع واسعة الانتشار بل واعتبرت وسيلة شرعية من وسائل الحرب في البحر.

القرصنة ـ من النوع الثاني ـ هي اشتراك عدد من السفن الخاصة في الأعمال الحربية على أساس تفويض تتلقاه من الدول المتحاربة (على غرار ممارسة القرصنةبعد الحصول على شهادات بذلكKaper). في هذه الحالة يقوم القراصنة الفدائيون بممارسة أعمالهم على مسئوليتهم الخاصة.

وطبقًا لشروط الاتفاق المعقود مع هذه الدول يحصل القرصان على الممتلكات التي يستولى عليها من الدولة المعادّية كلها. أو على جزء منها باعتبارها مكافأة له على ما قام به.

كانت المرة الأولى التي طرح فيها الاقتراح بإلغاء هذا النوع من القرصنة في عام ١٧٩٢ في الجمعية العمومية لفرنسا ثم جرى حظرها نهائيًا في معاهدة باريس المعقودة عام ١٨٥٦ كما سبق وأشرنا (لم تعترف الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الحظر سوى عام ١٩٠٩).

وجاء الخلط في الاستخدام الشائع للمعنيين، لأن القرصنة الفدائية كانت كثيرًا ما تتحول إلى القرصنة في شكلها التقليدي. وفي الوقت نفسه جرى

استخدام القرصنة لتبرير النهب البحرى. وعلى سبيل المثال فقد حصل أحد القراصنة الكبار، وكان يعمل فى منطقة البحر الكاريبى، وعلى إحدى القلاع الكبرى للقرصنة فى الماضى، على شهادة القرصنة من محافظ وست إنديا، وكان دنمراكيًا مقابل مبلغ ضخم من المال (جدير بالذكر هنا أن هذا المحافظ كان قرصانًا سابقًا). ولم يفهم القرصان نص الوثيقة التى أعطيت له والمكتوبة باللغة الدنمركية، وقد اتضح فيما بعد أن هذه الوثيقة لم تكن تسمح إلا... «باصطياد الخنازير فى جزر الأرخبيل الدنمركى».

كانت أطقم سفن القراصنة الفدائيين عادة ما تذهب لحال سبيلها بعد نهاية الحرب. على أنه فى حالات كثيرة كان هؤلاء اللصوص الذين استمرأوا الكسب السهل، والحياة الرغدة يرفضون التخلى عن هذا الأسلوب فى المعيشة ومن ثم يتحولون إلى قراصنة دائمين.

كانت ناك أيضًا مصادر أخرى للقرصنة ـ وما القرصنة إلا النتاج الحتمى لكل التكوينات الاجتماعية الاقتصادية فى المجتمع الاستغلالى. ولقد وجدت أكثر العناصر الشُجاعة والمغامرة الفرصة دائمًا لتجنيد أطقم السفن، والاستيلاء على الأساطيل وأحيانًا تكوين مجتمعات كاملة للقرصنة. ولقد جرى تجنيد القراصنة من بين العبيد الهاربين. أو من الفلاحين الأقنان، أو البحارين العاطلين، والعسكريين الفارين من الخدمة، ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء الأشخاص المطاردين بسبب قناعاتهم الدينية والسياسية، أو لتصورات أخرى. ومن هنا يمكن أن ندرك أسباب تنوع أنماط القراصنة الذين عرفناهم جيدًا بفضل الكتب. والأفلام السينمائية والتليفزيونية.

وقد امتدت جذور القرصنة إلى الأعماق مع وجود النظام الاستعمارى لما لما فى هذا النظام من طابع استغلالى قاس للشعوب المستعبدة. فإن بعض الشعوب التى وقعت تحت نير المستعمرين الأوروبيين رأت فى القرصنة واحدة من أفضل أشكال حركات الكفاح فى سبيل التحرر الوطنى. ولعلنا لهذا السبب نكتشف أحيانًا بين هذا الحشد الهائل من المذابح الدموية القاسية تارة هنا وتارة هناك.

وجهًا مضيئًا للمصلح الرومانسى الذى يقاتل ضد قوى العالم بأسره من أجل العدالة الاجتماعية.

وإن بإمكاننا أن نكتشف أيضًا فى سياق تطور القرصنة بعض القوانين التى تتكرر بغض النظر عن أماكن ظهورها. ففى مرحلة ما قبل ظهور بؤر للقرصنة، اقتصر الأمر على بعض السفن التى قام باختطافها أو سرقتها طاقم متمرد يعمل مخاطرًا بنفسه. وبمرور الوقت اتحدت هذه السفن فى شكل أشد قوة وأدق تنظيمًا، ثم نشأت الأساطيل ذات القيادة الموحدة. ونظرًا لنمو القوى فى المرحلة التالية من تطورها تحول هذا الشكل من التنظيم، إلى قرصنة الدولة التى تمتلك أرضًا خاصة عليها سكان دائمون يخضعون لسلطان القراصنة.

وتعرضت القرصنة على مدى تاريخها الطويل لفترات من الصعود والانهيار وكان لغياب التعاون الدولى الضرورى فى النضال ضد هذه الظاهرة (ناهيك عن الاعتراض الشكلى بأن القراصنة هم «أعداء البشرية») قد ساعد على الوجود المستمر الطويل للنهب البحرى على نطاق كبير. إن القرصنة لم تنته من عالمنا كلية حتى الآن.، لتصبح ماضيًا. إنها ما تزال تزدهر أمام أعيننا متخذة لنفسها أشكالاً جديدة، مستخدمة إنجازات التكنولوجيا، مستمرة فى تهديد النظام الاجتماعى والأمن. وفى هذه الظروف فإن من الأسباب ما يبرر الخوف من أن تخرج القرصنة من الإنسان إلى الفضاء الخارجى لتمد أذرعها فيه بشكل جديد من الأشكال.

* * *

## هوامش الفصل العاشر

(١) «القانون الدولي المعاصر»، ـ «مجموعة وثائق»، موسكو. ١٩٦٤، ص ١٧٠.

(٢) «الأمم المتحدة. تقرير لجنة القانون الدولي حول أعمال دورتها السابقة، ٢ مايو ـ ٨ يوليو ١٩٥٥»، نيويورك، ١٩٥٥، ص٧.

(٣) «القانون الدولي المعاصر»، ـ «مجموعة وثائق»، ص ١٧١.

(٤) المرجع السابق، ص ١٧١.

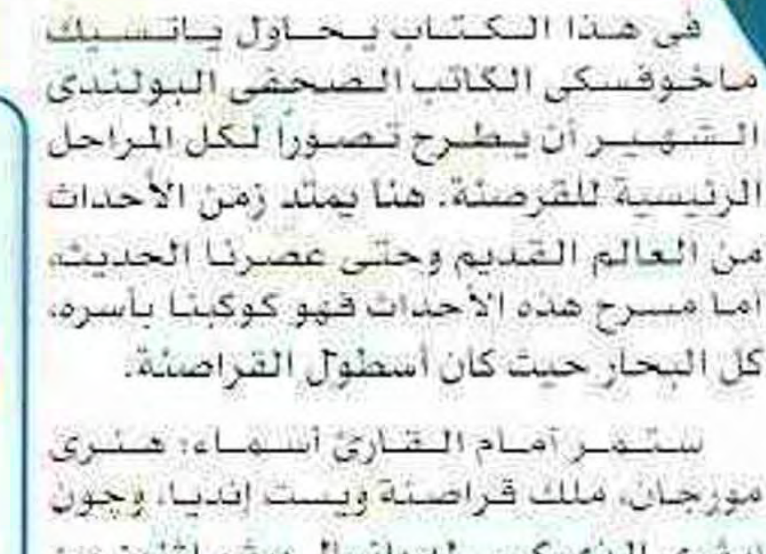
(٥) المرجع السابق ص ١٧١.

(٦) الأمم المتحدة. تقرير لجنة القانون الدولي حول أعمال دورتها السابعة، ٢ مايو ـ ٨ يوليو ١٩٥٥، نيويورك، ١٩٥٥، ص٧.

(٧) «القانون الدولي المعاصر»، ـ «مجموعة وثائق»، ص١٧١.

# المحتويات

**مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب**
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg



في هذا الكتاب يحاول ياتسيك ماخوفسكي الكاتب الصحفي البولندي الشهير أن يطرح تصورًا لكل المراحل الرئيسية للقرصنة. هنا يمتد زمن الأحداث من العالم القديم وحتى عصرنا الحديث، أما مسرح هذه الأحداث فهو كوكبنا بأسره، كل البحار حيث كان أسطول القراصنة.

ستمر أمام القارئ أسماء: هنري مورجان، ملك قراصنة ويست إنديا، وجون إيفري الذي كرس له دانيال ديفو اثنين من كتبه، إلى جانب الشخصيات الأخرى لعالم القرصنة، الذي جرى تأسيسه في جزيرة مدغشقر وعلى رأسه جيمس بلانتين، ملك رانتر-باي، وعروج وخير الدين اللذين اشتهرا باسم باربروسا الأول وباربروسا الثاني، حكام ما كان يسمى بدولة القراصنة البربر، التي قامت في الجزائر على مدى عدة قرون وحتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

لقد حوى عالم القرصنة أناسًا من شتى الأجناس: أوروبيين وعربًا وصينيين ومن الملايو وإندونيسيا. هؤلاء الناس، وتلك الأحداث التي سوف تتعرف عليها أيها القارئ بفضل كتاب ماخوفسكي، ستساعدك في رؤية جوانب مختلفة تمامًا للقرصنة، وكذلك في اكتشاف جذورها الاجتماعية والنفسية.




الهيئة المصرية العامة للكتاب